الشرق الأوسط الديمقراطي

فصلية فكرية تحليلية تعنى بشؤون الشرق الأوسط

العدد 47 كانون الأول / ديسمبر 2019م

محور العدد

العالم واليمين المتطرّف

- بذور الفاشية البدئية الإسلاموية نحو الراديكاليةُ الإسلاموية اليمينية الراهنة
- نشأة اليمين المتطرف في الشرق الأوسط وعلاقته بنشأة التيار الديني القومي
- اليمين المتطرّف أيديولوجيّة معاداة تعدّد الثقافات

العثمانية والعثمانية الجديدة ودورهما في الشرق الأوسط

- "العثمانية الجديدة" ... وَهْمٌ أم حقيقة
- الصراع العثمانيّ - الصفويّ وانعكاساته على حركات الإسلام السياسيّ
- أردوغان في استراتيجية مركز القرار العالمي

في العدد ايضا

- الوجود الكردي في الصراع الصفوي العثماني
- الإخوان المسلمين في السودان، وعلاقته بمصر
- حزب القبيلة أو قبيلة الحزب



مجلة فصلية فكرية تحليلية تعنى بشؤون الشرق الأوسط العدد ٤٧ كانون الأول ٢٠١٩م

إدارة المجلة

رئيس مجلس الإدارة
شاهو كوران

المشرف العام
زياد محمد

مدير التحرير
صلاح الدين مسلم

هيئة التحرير
سليمان محمود
جاسم الهويدي
حسن ظاظا
هجار شكر

الإخراج الفني
نجم محمد

الآراء المنشورة تعبر عن رأي أصحابها وليس بالضرورة أن تعبر عن رأي المجلة

وسائل التواصل

يمكنكم متابعتنا والإدلاء بآرائكم ومقترحاتكم وإرسال مساهماتكم عبر وسائل التواصل التالية:



http://www.alawset.net


serqalawset@gmail.com


@AlawsetMagazine


@KovaraAlewset


@/alawsetmagazine

رقم الاعتماد
لدى نقابة الصحفيين العراقيين
١٤٨
رقم الإيداع
دار الكتب والوثائق ببغداد
٨٦٨ لسنة ٢٠٠٥

لدى وزارة الثقافة المصرية
دار الكتب والوثائق في القاهرة
رقم ٢٤٢١٧

محتويات العدد

العدد :47 - كانون الاول - 2019

كلمة العدد		3
بذور الفاشية البدئية الإسلاموية نحو الراديكاليةُ الإسلامويةِ اليمينيةِ الراهنة	عبدالله أوج آلان	4 - 16
اليمين المتطرّف أيديولوجيّة معاداة تعدّد الثقافات	صلاح الدين مسلم	17 - 26
نشأة اليمين المتطرف في الشرق الأوسط عبر التشدد الديني	اسماعيل اسماعيل	27 - 34
اليمين المتطرف الإسلامي وعلاقته بالشعوب غير المسلمة	سردار هوشو	35 - 46
سياقات التطرّف في التراث الثقافي والإنساني	رستم عبدو	47 - 50
علماء على مذبح التطرف	ياسر شوحان	51 - 58
التحالف الخفي بين المتطرف في العالم (بوتين – ترامب – أردوغان) وتداعياته على الشرق الأوسط	سليمان محمود	59 - 69
نشأة العثمانية والتركياتية وتأثيراتهما على الشرق الأوسط	جاسم الهويدي	70 - 77
الصراع العثمانيّ – الصفويّ وانعكاساته على حركات الإسلام السياسيّ	جميل رشيد	78 - 97
الوجود الكردي في الصراع الصفوي العثماني وتأثير اتفاقية قصر شيرين على هذا الوجود	مازدك ميتاني	98 - 103
التأثير الألماني على جمعية الاتحاد والترقي وصولاً إلى التأثير الأمريكي والبريطاني	عبدالقادر رمو	104 - 113
العثمانية الجديدة ... وَهْمٌ أم حقيقة	د.محمد نور الدين	114 - 124
أهمية أردوغان في استراتيجية مركز القرار العالمي	حسين عمر	125 - 129
أبناء الحوريين والميتانيين لازالوا يُهجرون من «واشو كاني» ويتعرضون للمجازر	لزكين إبراهيم	130 - 140
البوتينيّة... ودولةُ الإيديوقراطيّة	رامان آزاد	141 - 159
حزب القبيلة أو قبيلة الحزب	بولات جان	160 - 168
(البارتي) الحزب الديمقراطي الكردستاني	تموز شمالي	169 - 176
الإخوان المسلمين في السودان، وعلاقته بمصر	د.شهاب الدين عباس	177- 180

كلمة العدد



مدير التحرير

العثمانية الجديدة واليمين المتطرف

لقد أضحى موضوع التطرّف الموضوع الشائك الشاغل للباحثين في شؤون الشرق الأوسط، وبات المسبّب الرئيس في هذه الأزمات التي يعانيها العالم بأسره والشرق الأوسط على وجه الخصوص، وأيضاً هناك مصطلح العثمانية الجديدة أي إعادة التاريخ القديم بطريقة علنيّة من قبل الحكّام الأتراك، فهناك تداخل ما بين العودة إلى السلف والماضي التليد بشكلانيته، وتطرّفه، والتطعيم بمصطلح اليمين المتطرّف الذي ظهر في بداية الألفية الثالثة.

نحاول في هذ العدد البحث في مفهوم اليمين المتطرّف، في محور، والعثمانيّة الجديدة في محور آخر، ومحور عن الأحزاب، لقد عالجنا التطرّف في أعداد سابقة، لكنّنا نحاول في هذا العدد قدر المستطاع التركيز على اليمين المتطرّف، فكيف نشأ هذا المصطلح؟ وأين نشأ؟ وما المختلف فيما بين اليمين التقليدي واليمين المتطرّف؟!

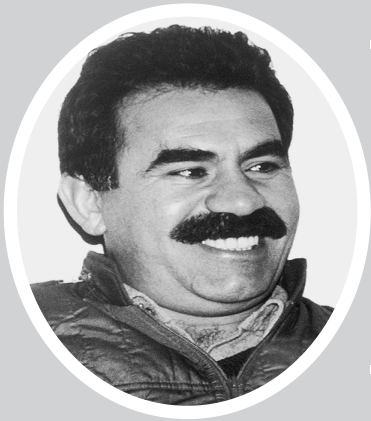
تحاول مراكز الدراسات العالمية قطع الصلة عن التاريخ القديم، وبتر اليوم عن جسد التاريخ، وحصر التاريخ في مئتي عام، وأنّ اليمين المتطرّف هو مصطلح جديد مبتور عمّا قبل الألفية الثالثة، ونرى ذلك في التعاريف التي تغزو شبكة الانترنت، التي تغذّيها منظومة الحداثة الرأسماليّة بالكمّ المعلوماتي، والمعرفة المبتورة.

بالمقابل أظهرنا من باب التقيّد بمحور ثانٍ له علاقة بمحور اليمين المتطرّف، ألا وهو العثمانيّة الجديدة، وعلاقته باليمين المتطرّف بما يحمله من نفي للثقافات الموجودة في الشرق الأوسط، وما هي العثمانية وما هو التطعيم الجديد لهذا المصطلح القديم المتجدّد، وما هي العثمانيّة الجديدة، فاليمين أصبح جديداً وبات متطرّفاً وكذلك الليبرالية أصبحت جديدة ومتطرّفة أيضاً، وكذلك الشرق الأوسط الذي أضحى الشرق الأوسط الجديد، حتّى الأمور السلبية صارت مطعّمة بالإيجابية، مثل مصطلح الفوضى الخلّاقة، وسواها... من خلال الموضوعات القيّمة التي تتناول بذور الفاشية البدئية الإسلاموية نحو الراديكاليةُ الإسلامويةِ اليمينيةِ الراهنة، ونشأة اليمين المتطرف في الشرق الأوسط عبر التشدد الديني، والعلماء على موقد التطرّف، وكيف أنّ هناك تحالف خفي بين المتطرفين في العالم، وأنّ اليمين المتطرّف أيديولوجيّة معاداة تعدّد الثقافات، واليمين المتطرّف الإسلامي وعلاقته بالشعوب غير المسلمة.

وبالنسبة لمحور العثمانيّة الجديدة، بات هناك تعريف للعثمانية الجديدة أهي وَهْمٌ أم حقيقة؟ وكيف نشأت العثمانية؟ وما دورها في الشرق الأوسط؟ وكيف حصل الصراع العثمانيّ – الصفويّ وما انعكاساته على حركات الإسلام السياسيّ؟ والوجود الكردي في هذا الصراع الصفوي العثماني، والتأثير الألماني على جمعية الاتحاد والترقي، وفي النهاية أهمية أردوغان في استراتيجية مركز القرار العالمي، وكيف أنّ أبناء الحوريين والميتانيين يدفعون ضريبة هذه الصراعات في الشرق الأوسط وأخيراً في سرى كانييه وتل أبيض.

بالإضافة إلى محور الأحزاب والمصطلحات حيث تفيد المحورين السابقَين، كالإخوان المسلمين في السودان، وعلاقتهم بمصر، وأوّل حزب كرديّ سوريا، وما هو حزب القبيلة أو قبيلة الحزب؟ والبوتينيّة... ودولةُ الإيديوقراطيّة.

بذور الفاشية البدئية الإسلاموية نحو الراديكاليةُ الإسلاموية اليمينيةِ الراهنة



عبد الله أوجلان

تمهيد :

المطلب الأول - أهمية البحث في الإسلام: ما هي الثقافة المعنوية والمادية لحفاظ الإسلام على أهميته المرحلية؟ وما هما ثنائيتا الله ومحمّد في الإسلام؟

المطلب الثاني - تأثير التجارة على حياة محمّد: النبيّ محمد والأديان الإبراهيمية ،استشراء النظام العبودي، وعبودية النساء، النزاعات الطبقية والاجتماعية، الحرب ما بين الأرستقراطية الفوقية الوثنية التقليدية المتصلّبة، وبين الطبقة التجارية الوسطى حديثة العهد، والصراع الأيديولوجيّ في مكّة.

المطلب الثالث - عهد المدينة المنورة: كيف أصبح عهد المدينة المنورة المرحلة التي شهدت ترتيب المعاهدة الاجتماعيّة والسياسيّة اللازمة، الاستيلاء الأرستقراطية القريشية على الدولة الجديدة باسم السلالة الأموية في فترة وجيزة جدّاً؟

المطلب الرابع - ما هو «الله» عند محمد؟

المطلب الخامس - الفارق ما بين آلهة المجمّع السومريّ والثقافة المعنوية والذهنية المجتمعية في عهد محمد: ما هي التركيبة الديمقراطية لمحمّد، وكيف تمّ تأميم الاحتكارات (الغنيمة) كخطوة نحو الديمقراطيّة، وكيف تمّ انفتاح الإسلام الوليد حديثاً على الديمقراطية والعدالة الاجتماعية؟ وما هو مشروع إقرار منهاج التحوّل المجتمعيّ؟

المطلب السادس - ما هو الترتيب الأصحّ للظواهر والفترات التاريخية الإسلامية المهمّة، وإضفاء المعنى عليها؟ ما هو الإسلام العربي والإسلام الثوري؟ ولماذا يعتبر الإسلام العربي إسلاماً مضاداً؟ وما هو الانقسام الراديكالي الذي حصل في المدينة الإسلاميّة؟ وكيف انجراف الإسلام في بوتقة السلطة؟ ما هو الإسلام السنّي؟ وما هي الراديكالية اليمينيّة الحاضرة؟

المبحث

أهمية البحث في الإسلام

يتميزُ البحثُ في الحقيقةِ المعروضةِ باسمِ الإسلامِ بأهميةٍ تُعادِلُ أهميةَ البحثِ في ما يُمارَسُ باسمِ الرأسماليةِ بأقلِّ تقدير. وهكذا نوعٌ من النشاطاتِ ضروريّ، ليس على صعيدِ تاريخ المدنيةِ الشرقِ أوسطيةِ فحسب، بل ولأجلِ قراءةٍ وتدوينٍ سليمَينِ للتاريخ الكونيِّ أيضاً. فكيفما أنه وبحُكمِ الدياليكتيكِ يستحيلُ تَكَوُّنُ عالَمِ الظواهرِ المُسَمّاةِ بالرأسماليةِ وحداثتِها من دونِ إسلامِ العصورِ الوسطى، فمن المستحيلِ أيضاً التأسيس لحياةٍ اجتماعيةٍ قيّمَةٍ قابلةٍ للاستمرار بها في حاضرِنا، ما لَم تُحَلَّلْ كِلتا الظاهرتَين والعصرَين بنحوٍ صحيح.

ينبعُ حِفاظُ الإسلامِ حتى الآن على أهميتِه المرحليةِ من جوهرِه الدياليكتيكيِّ ذاك. فالإسلامُ سلسلةٌ من الظواهرِ التي كثيراً ما يُلفَظُ اسمُها دونَ إدراكٍ فحواها. كما لَم يُعَرَّفْ حتى الآن قطعياً. وربما أنه مجموعةُ ظواهر معَقَّدةٍ وضبابيةٍ لدرجةِ استحالةِ تعريفه. بل ولا يَدُورُ الجَدَلُ بتاتاً حولَ ماهيةِ ومدى الواقعِ الذي يَعكسُه. حيث يَقُومُ الصيامُ إكراماً له، وتُعقَدُ الصلاة، وتُعطى الزكاة، ويُدارُ الذِّكْر، وتُخاضُ الحربُ في سبيلِه؛ ولكنّه بذاتِ نفسِه ملتَحِفٌ بالألغازِ بكلِّ معنى الكلمة. والسؤالُ الواجبُ طرحه هو: لماذا إذن يبقى حيث الساعةِ إلى هذه الدرجة؟ ما الذي حَلَّه الإسلامُ في الشرقِ الأوسط؟ أَهُوَ حَلاّلُ القضايا أم أنه نظامٌ تَصَوُّرِيٌّ مُوَلِّدٌ لها؟ ما الذي ينبغي إدراكه من أساسِه الماديّ؟ أَهو دولةٌ أم جماعة؟ ما هو المقابل والمرادف والمعنى الاقتصاديُّ والاجتماعيُّ والسياسيُّ له؟ ومصطلح "الفتوحات" الإسلاميُّ هو أداةُ ماذا؟ بالمستطاعِ بل ومن الضروريِّ جداً الإكثار من تساؤلاتٍ كهذه. ذلك أنَّ مجموعةَ الظواهرِ المسماةِ بالعالَمِ الإسلاميِّ الراهنِ تتخبطُ في العجزِ لدرجةٍ لا تَقدِرُ فيها على تعريفِ أو تحليلِ نفسِها، بل وتُعاني سَيرورتُه من التفسُّخ الاجتماعيِّ الذي يمضي (أو يعجزُ عن المُضِيِّ قُدُماً) بمظاهرِ الانتحارِ اليومية.

ومثلما هي حالُ الثقافةِ المعنويةِ لهذه الظاهرة، فإنّ ثقافتَها الماديةَ أيضاً تُذَكِّرُ بمجموعةِ الأدواتِ الأكثر تَقَلقُلاً وتَخَلخُلاً، والمتفسخةِ والمتناثرةِ والهُلاميةِ التي تفتقرُ إلى الحدودِ المرسومةِ والمضمون الواضح. والأصحُّ هو إما عدم استخدامِ هذا الاسم، وإذا كان هذا غير ممكن، فالانتقال به إلى نظامٍ بائنِ الأطرافِ والحدودِ وواضحِ السُّبُلِ في رسمِ القضايا وحَلِّها. فالمدنيةُ الغربيةُ لا تزالُ مواظِبةً على حملتِها الكونية، عالِمَةً علمَ اليقينِ بما تَفعلُه. ذلك أنه بحُكمِ بُنيةِ نظامِها، فهي تتحلى بالتعبئةِ الثقافيةِ الماديةِ والمعنويةِ التي تُخَوِّلُها لتَذليلِ القضايا التي تَعتَرِضُ دربَها، مهما عانت

الأزماتِ والمآزق. كما أنَّ معاناة الغرب للمشقّاتِ على يدِ مجموعةِ الظواهرِ الإسلاميةِ في الشرقِ الأوسطِ حقيقةٌ قائمة. لا أحْدثُ فقط عن المصاعبِ التي تُعانيها أمريكا في المنطقة. بل إنَّ المدنيةَ الأوروبيةَ تَلقى المصاعِبَ وتتأزّمُ في مسيرتِها عموماً وخلالَ القرنَين الأخيرَين خصوصاً تجاهَ الشرقِ الأوسطِ الإسلاميِّ الذي تُسَمّيه بـ"قضية الشرق". لكنَّ الضررَ والدمارَ والعُقمَ الأفدَحَ يَتَكَبَّدُه العالَمُ المسمى بالإسلاميّ. واستحالةُ استمرارِ الوضعِ أمرٌ بائنٌ للعيانِ بدرجةٍ تَفقَأُ عيونَ العالَمِ أجمع. أما الحل، فلا شكَّ أنه يَمُرُّ من التحليلِ الذهنيِّ للظاهرةِ التي تَقِفُ أمامَنا، بقدرِ ضرورةِ صياغةِ الأجوبةِ اللازمةِ بصددِ إعادةِ هيكلتها.

يَغدو اسما "محمد" و"الله" ثُنائياً فائقَ الأهميةِ ولا يتجزأ لدى الحديث عن الإسلام. وما مِن حزمةِ ثنائياتٍ اتَّسَمَت بهذا الكمِّ من التعبيرِ المصيريِّ بالنسبةِ لشعوبِ الشرقِ الأوسط. فقد تم خَوضُ الحروبِ المُهَوِّلةِ كَرمى لهذَين الاسمَين تُعادِلُ في حجمِها ما تَكَوَّنَ من كَمٍّ هائلٍ من الودِّ حولَهما. ومن العَصيبِ العثورُ على مجموعةِ مفرداتٍ ثنائيةٍ أخرى تَحمِلُ بين طَواياها هذا التنافُرَ والتضادّ. السؤالُ الأساسيُّ الواجبُ طرحه هو: لِمَ هما كذلك، وهل حقاً نَحيا هذه الثنائيةَ ونُحييها عن وعي؟ إني واثقٌ من سلبيةِ الجواب. وإلاّ، لَما كان التاريخُ والحاضرُ في الشرقِ الأوسطِ تَعَسُّفِياً إلى هذه الدرجة. ولَما تمَّ عيشُه بهذا المنوال، ولَما حِيكَ هذا الكَمُّ الهائلُ من العُقَدِ الكأداء. ما أرمي إليه هنا هو رسمُ خطٍّ بيانيٍّ للمعنى. وبإمكانِ المعنيين أن يستفيدوا منه.

تأثير التجارة على حياة محمّد

يُعدُّ محمد ظاهرةً مندرجةً ضمن إطارِ الأديانِ الإبراهيميةِ دون ريب. لكنّ حياتَه وأقوالَه ليست مُبهَمَةً أو ضبابيةً بقدرِ إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء. فالمعلوماتُ بحَقِّه أكثر عَينِيَّةً. أو على الأقل، بالمقدورِ متابعة

> **ومثلما هي حالُ الثقافة المعنوية لهذه الظاهرة، فإنّ ثقافتَها المادية أيضاً تُذَكِّرُ بمجموعة الأدوات الأكثر تَقَلقُلاً وتَخَلخُلاً، والمتفسخة والمتناثرة والهُلامية التي تفتقرُ إلى الحدود المرسومة والمضمون الواضح. والأصحُّ هو إما عدم استخدام هذا الاسم، وإذا كان هذا غير ممكن، فالانتقال به إلى نظام بائن الأطراف والحدود وواضح السُبُل في رسم القضايا وحَلّها. فالمدنيةُ الغربيةُ لا تزالُ مواظبةً على حملتها الكونية، عالمةً علمَ اليقين بما تَفعلُه.**

نسبةٍ مهمةٍ من ظواهريةِ حياتِه وأحداثِها بشكلٍ ملموس. لكن، علينا ألاّ نَخدَعَ أنفسَنا بالاعتقادِ بأنّ هذا الوضعَ سيُنيرُ موضوعَنا. بل وعلى النقيض، ربما يُفضي إلى مزيدٍ من التعقيد. فالعَينِيُّ ليس ملموساً دائماً قدرَ ما يُظَنّ. ومحمد عَينِيٌّ من النوعِ الذي ليس عَينِيّاً . أي أنه الملموسُ الذي ليس ملموساً. علينا بالانتباه الدائم في زاويةٍ من ذهنِنا إلى التناقُضِ الذي يُفيدُ به هذا المصطلح. فظاهرياً، أو عَينِيّاً، محمد هو ابنُ عبد الله وآمنة اللذَين هما من عائلةٍ فقيرةٍ من القبيلةِ الهاشميةِ التي هي من قبائلِ قُرَيش التي غالباً ما انشغلَت بالتجارةِ وتُعَدُّ من أشرافِ مكة اللامعين. يُقالُ أنه أظهَرَ بعضَ المعجزاتِ في صِغَرِه. وتمتدُّ هكذا سرودٌ في ثقافةِ الشرقِ الأوسطِ إلى عهدِ سارغون، وعادةً ما وُجِدَت لائقةً بكلِّ شخصيةٍ أُجْرِيَت انطلاقةً مهمة. ربما هو كذلك! إذ يَدخُلُ في خدمةِ خديجة، التاجرةِ القديرةِ في زمانِها،

ويَخرجُ مراتٍ عديدةً مع القوافلِ بين الشام ومكة. وذاتَ مرة، يتعَلَّمُ الكثيرَ من الراهبِ النسطوريِّ بَحيرى في مدينةِ بُصرى الرومانيةِ ذائعةِ الصيت التي تَقَعُ على دَربِهم. لقد شاهدتُ تلك المدينةِ بنفسي، وزرتُ أطلالَها مراتٍ عديدة. كما ذهبتُ إلى كنيسةِ الراهبِ بَحيرى هناك، حيث كانت ممتلئةً بالأوساخ. لقد كان الرهبانُ النسطوريون ذوي تأثيرٍ بارزٍ جداً في عهدِهم، وكانوا المجموعةَ الأهمَّ في سياقِ التطوراتِ الأيديولوجية.

لقد كانت الشام مدينةً تجاريةً وثقافيةً مهمةً في عهدِها آنذاك، ومليئةً بالعِبَر والدروس. كما تتميزُ بَوَّابَةُ خروجِها من الصحراءِ ببُنيةٍ طبيعيةٍ وبيولوجيةٍ رائعةٍ لدرجةٍ تَكُون فيها أقرب إلى عَتَبَةِ الجنة. ومكةُ أيضاً مدينةٌ تجاريةٌ مهمة. إنها مدينةٌ وَلَّدَتها التجارة. وهي بمثابةِ عاصمةِ خطِّ الشام– البحر الأحمر وما وراءَه. والتعددُ الدينيُّ والثقافةُ الوثنيةُ رائجتان في تلك المدينة. هذا لَم يَكُن المُرَوِّجُون للدينِ التوحيديِّ باسمِ الصابئةِ والحَنَفِيّين أيضاً بالقليلين. باختصار، فالمدينةُ تَطفَحُ بالأملاكِ والبضائعِ والثقافاتِ والأديانِ والآلهة. وفَقرُ محمد وتتويجُ علاقتِه مع خديجة بالزواجِ أمرٌ مهمٌّ هنا. فهذا الزواجُ هو نَقلةٌ طبقيّة. ومحمد بذلك يَحظى بامتيازاتِ البورجوازيةِ الوسطى. وسيَكُونُ لذلك نتائجُه لاحقاً. إذ يُولَدُ له أطفال، ويَحتَدُّ تناقُضُه مع الفروعِ الأخرى من قُرَيش تماشياً مع تعاظُمِه وتَطَوُّرِه. فالفروعُ الأخرى من قُرَيش تُمَثِّلُ الأرستقراطيةَ القَبَلِية. وهي لا تَسمَحُ بتَقَدُّمِ محمد أكثر، بل وتَزرَعُ القَلاقِلَ الجديدةَ على دربه يومياً. إنه صراعٌ طبقيٌّ جادٌّ يتنامى ضمن حَيِّزِ القبيلةِ نفسِها.

والحالُ هذه، فالأمرُ المهمُّ الذي يتوجبُ تشخيصه هو أنّ أُولى عملياتِ محمد كانت ذات طابعٍ طبقيٍّ إلى درجةِ أنها حَقَّقَت ضمن القبيلةِ ذاتِها. أي أنّ محمد مُقاتِلٌ طبقيّ. أيةُ طبقة؟ واضحٌ للغاية: إنها الطبقةُ التجاريةُ الوسطى التي تَموقعَ فيها بالذات لتَوّه. فقَرينةُ «خديجة– محمد» تُعوِّلُ بكلِّ تأكيدٍ على ريادةِ طبقةِ التجارِ التي تشهدُ مرحلةَ الولادة في مكة. ومَن هي القوةُ المُقابِلة لهم؟ إنها الأرستقراطيةُ القَبَلِيةُ التقليدية. فهم أيضاً يُؤَمِّنون السمسرةَ والربحَ من التجارة. لكنّ دورَهم الأساسيَّ مرتبطٌ بالسلطةِ السياسية. أما الكونفدراليةُ القَبَلِيةُ التي تُعَدُّ بمثابةِ جَنينِ الدولةِ التي هي على وشكِ الولادة، فيَغلبُ احتمالُ أنْ تَكُونَ شكلَ الحُكمِ في مكة. فاستشراءُ النظامِ العبوديّ، وعبوديةُ النساءِ الأكثر تَجَذُّراً، وانحطاطُ شأنِهنّ لدرجةِ وَأدِ البناتِ الصغيرات وهُنَّ على قيدِ الحياة؛ كلُّ ذلك يَعكِسُ الطابعَ العبوديَّ للحكمِ الأرستقراطيِّ بكلِّ وضوح. فضلاً عن أنَّ وجودَ الأوثانِ الثلاثةِ الكبرى (اللات والمناة والعزى) في مُجَمَّعِ آلهةِ مكة يَدُلُّ على تَكَوُّنِ فرعِ الثالوثِ الإلهيِّ لنظامِ المدنيةِ التقليديِّ في مكةَ أيضاً. وهذا ما يَعكِسُ الطابعَ التقليديَّ والهرميَّ والسومريَّ للحُكّام. أما اعتناقُ الأرستقراطيةِ للدينِ الوثنيِّ رسمياً، فيُوَضِّحُ إلى حدٍّ بعيدٍ بواعثَ كَونِ محمد مُناهِضاً للصَنَمِيّةِ بهذه الحِدّة.

عليَّ التشديدُ على أنه في كلِّ فترةٍ تاريخيةٍ تَنشبُ النزاعاتُ الطبقيةُ والاجتماعيةُ الأخرى

يُعدُ محمد ظاهرةً مندرجةً ضمن إطار الأديان الإبراهيمية دون ريب. لكنّ حياته وأقواله ليست مُبهَمَةً أو ضبابيةً بقدر إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء. فالمعلوماتُ بحَقِّه أكثر عَينيّةً. أو على الأقل، بالمقدور متابعة نسبة مهمة من ظواهرية حياته وأحداثها بشكل ملموس. لكن، علينا ألاّ نَخدَعَ أنفسَنا بالاعتقاد بأنّ هذا الوضعَ سيُنيرُ موضوعَنا. بل وعلى النقيض، ربما يُفضي إلى مزيدٍ من التعقيد.

في عالَمِ المصطلحاتِ أولاً، وتُخاضُ بالأخصّ بين الأيديولوجياتِ الرسميةِ وغيرِ الرسمية. الوقائعُ الاجتماعيةُ الماديةُ تُنَمّي ذاتَها بالتعبيرِ عن نفسِها عبر الثقافةِ المعنوية. كما استُخدِمَت الحروبُ الميثولوجيةُ والدينيةُ والصراعاتُ الفلسفيةُ منذ المدنيةِ السومريةِ إلى الإغريقية كأشكالٍ للتعبيرِ عن النزاعاتِ في الثقافةِ المادية. لقد كان استخدامُها ضرورةً حتمية، إذ لا يُمكِنُ الصراعُ بمِنوالٍ آخر. فالبُنيةُ الماديةُ لا تَتصادَمُ مع بنيةٍ ماديةٍ أخرى لأنها كومةٌ من الأدواتِ والموادِ الجامدةِ التي لا تعبيرَ لها. لذا، فالصراعُ عليها غيرُ ممكنٍ إلا من خلالِ البشرِ الأحياءِ بأقوالِهم وأعمالِهم. والمهمُّ في العلاقةِ التي بينها هو القدرةُ على التشخيصِ السديدِ لماهيةِ ظواهرِ الثقافةِ الماديةِ التي تَعكِسُها، بل وحتى تُكَوِّنُها الثقافةُ المعنويةُ وتَصَوُّراتُ المعنى، وبأيةِ آليةٍ (بناء) تَقُومُ بذلك.

إذن، لا بُدَّ من صياغةِ النزاعِ في مكة بهذا التعبيرِ العلميّ: يَنشُبُ اشتباكٌ ثم نزاعٌ أو حربٌ أيديولوجيةٌ تتحول تدريجياً إلى حربِ مَيدانيةٍ بين الأرستقراطيةِ الفوقيةِ الوثنيةِ التقليديةِ المُتَصَلِّبَة، وبين الطبقةِ التجاريةِ الوسطى حديثةِ العهد، بحيث تميزَت تلك الحربُ بالضراوةِ نفسِها. ترتيبُ جريانِ الأحداثِ ليس من مَهَمَّةِ هذه السطور. فالمهمُّ هنا هو صُلبُ الواقعِ المُستَتِرِ وراءَها. ولا يُساوِرُني الشكُّ في أنَّ هذا هو المضمونُ والجسمُ المكشوفُ للحقيقةِ الكامنةِ خلفَ ذاك النزاع. إذ يُخاضُ صراعٌ أيديولوجيٌّ في عهدِ مكة. وقد خاض إبراهيم نزاعاً مماثلاً عندما كان في أورفا، حيث انتهى به الأمر بالهجرة. فانطلاقتُه أيضاً كانت انطلاقةَ طبقةٍ تجارية. والصراعُ الذي خاضَه موسى أيضاً في مدينةِ فرعون كان في مَطلَعِه أيديولوجياً، أي مَعنياً بالمصطلحِ والمعنى. والنهايةُ كانت الخروجَ مرةً أخرى، خروجاً شاملاً بحَجمٍ أكبر للقبيلةِ التي انهَمَكَت قديماً بشؤونِ تربيةِ الدَّوابِّ والمواشي والمتاجرةِ بها. أما انطلاقةُ عيسى، فمختلفة، أو على الأقل، فالمقاوَماتُ والانطلاقاتُ الجاريةُ في القرونِ الثلاثةِ الأولى، تمثِّلُ صراعاً يهدفُ إلى التحولِ إلى مجموعةٍ اجتماعيةٍ جديدة من مجموعِ الشرائحِ الاجتماعيةِ الخارجةِ عن النظام، والتي تعاني فيه من الإقصاء. لقد كانت انطلاقةً كونيةً لأجلِ ذلك. بينما انطلاقةُ محمد هي انطلاقةٌ ملموسةٌ لتُجَّارِ الطبقةِ الوسطى.

عهد المدينة المنورة

يُعَبِّرُ عهدُ المدينةِ المنورةِ عن المرحلة التي شهدت ترتيب المعاهدةِ الاجتماعيّةِ والسياسيّةِ اللازمة لذلك. والمعاهدةُ الجديدةُ هي مَخطوطُ دولةٍ جديدة. فالعملياتُ السياسيةُ والعسكريةُ المستمرة مدى عشرِ سنين تقريباً، كانت كافيةً لولادةِ دولةٍ كبيرةٍ في مدينة صغيرة. وما تَبَقّى هو قضايا وحروبُ الانتشارِ الممتدة زماناً ومكاناً بسرعةٍ عُليا واتساعٍ كبير. النقطةُ المهمةُ التي ينبغي إدراكها هنا، هي القدرةُ على مقارنتِها مع شبيهاتِها في التاريخ. فقد أُسِّسَت العديدُ من الدولِ التي اتَّخَذَت التجارةَ أساساً لها في الشرقِ الأوسط، وعلى رأسِها الدولةُ الآشورية. علماً أنه للاحتكارِ التجاريّ مكانُه ويَدُه الطولى حتماً في تشييدِ صرحِ كلِّ دولة، وذلك كقُطبٍ قائمٍ بذاتِه. إذ لا تَتواجدُ الدولةُ من دونِ احتكارٍ تجاريّ. ينبغي ألا يَغيبَ عن بالِنا أبداً أنَّ الجانبَ الساحقَ للدولةِ يتشكلُ من الاحتكارِ التجاريّ.

الفارقُ الذي يُمَيِّزُ سيدنا محمد مثلما شوهد في معاهدةِ المدينةِ المنورة، هو نجاحُه في إشراكِ القبائلِ العربيةِ في هذه المعاهدةِ لأولِ مرة، حيث لَم تَطَلْها بَعدُ يَدُ المدنيةِ الوطيدةُ بشكلٍ كليّ، وكانت كالمرجَلِ الذي يَغلي فيه الماء. ما جَعَلَ محمداً مُنفَرِداً بذاتِه هو خَلقُه دولةً من قبيلته العربية. فالتحوُّلُ إلى دولةٍ يعني التحوُّلَ الاحتكاريَّ السريعَ في ميادين ثلاثة: الزراعة، الحِرفة والصناعة، والتجارة. والاعتمادُ على تلك الاحتكاراتِ الثلاثةِ في نَهبِ وسَلبِ

الفوائضِ الاجتماعية، التي يَعودُ أصلُها في مجتمعِ الشرقِ الأوسطِ إلى ما قبل ولادةِ مدينة إستنبول، ويُقاربُ عمرُها ثلاثةَ آلاف وخمسمئة عام؛ إنما يُعَدُّ وصولهم إلى مكتسبات مادية مذهلة. فهو يعني بلوغَ رأسِ مالٍ ضخمٍ في أسرعِ وقتٍ ممكن. فحتى مُجَرَّدُ شَمِّ رائحةِ الاحتكاراتِ الثلاثةِ كافٍ لأجلِ شنِّ «حربٍ شعواء جنونية» بالنسبةِ لتلك القبائلِ التي حيا منذ آلافِ السنين على تُخُومِ المجاعةِ في البلادِ العربيةِ المتزايدةِ تَصَحُّراً باطِّراد. وتَكمُنُ مهارةُ محمد في قدرته على رؤيةِ واستشفافِ وإدراكِ كيفيةِ قيامِ المدنياتِ العملاقةِ الثلاثِ المُحيطةِ بالقبائل، أي المدنياتِ الساسانيةِ والبيزنطيةِ والحبشية، بتَضييقِ الخناقِ على القبائلِ العربيةِ في بلادِ العربِ من الجهاتِ الأربعِ منذ آلافِ السنين. بل والجانبُ الأهمُّ من مهارتِه يتجسدُ في تحويلِ هذا الواقعِ الماديِّ من خلالِ أقوالٍ دينيةٍ باهرة إلى واقعٍ معنويّ، أي إلى الإسلام، وفي دفعِ المجموعاتِ القَبَلِيّةِ تحت هذا الاسمِ وبالبراعةِ عَينِها إلى الممارسة، أي في تحفيزِها على القتال. أي أنّ الحربَ الإسلاميةَ تعني الثمالةَ بالرائحة المعنوية للاحتكار المعروض عليهم، واستعراضَ طاقاتِ القبائلِ المتحَمِّسَةِ على مسرحِ التاريخ، ونقلَها إلى مناطقِ المدنيةِ المركزية؛ وذلك بالصُّراخِ الجَهور، بالسيف، بالدم، بالإيمانِ والغنيمة!

لا أَستَخدِمُ هذه المصطلحاتِ بغرضِ استصغارِ قِتاليةِ القبائلِ العربية. بل وأرى داعياً للقيامِ بتمييزٍ عاليِ الجديةِ هنا. فالفُقَراءُ من القبائل كانوا فعلاً يُؤمِنون أو حُفِّزوا على الإيمانِ بالأيديولوجيةِ المُعَدَّةِ باسمِ الإسلام. وكان إيمانُهم مُذهلاً بأنهم يَخوضون حرباً مقدسة، فلَم يُساوِرْهم الشكُّ ولو مثقال ذَرَّةٍ حول قتالِهم في سبيلِ الله. ولكن، لا يُمكنُ قول الشيءِ نفسِه بالنسبةِ لأرستقراطيةِ القبيلةِ وهيئتِها القياديةِ بأكملِها. إذ شَمّ القسمُ الأكبرُ من هؤلاء رائحةَ الاحتكارِ في الأمرِ مُذ كان محمد على قيدِ الحياة، وأَدرَكوا أنَّ الجزءَ المعنويَّ بـ»الله» مُجَرَّد صَخَبٍ كَلامِيٍّ أو تَرويجٍ دعائيّ. وبالأصل، فقد كان هؤلاء سيستَولون على الدولةِ الجديدةِ باسمِ السلالةِ الأمويةِ في غضونِ فترةٍ جدٍّ وجيزة (خلال حوالي عشرين عام إذا ما أَضَفنا عهدَ الخلفاءِ الأربعِ أيضاً).

ما هو «اللّه» عند محمد؟

يجب التوقف قليلاً هنا. ما هو «الله» عند محمد؟ أَهو مصطلحٌ أم حقيقة؟ لقد باتت المدنيةُ الأوروبيةُ القوة المهيمنة عالمياً بالتأسيسِ على إثارةِ النقاشِ حتى النهاية، للردِّ على هذا السؤالِ الأخيرِ على صعيدِ الدين المسيحيّ. بناءً عليه، يَكاد يَكُونُ لا مَنفَذَ آخر أمامَ المعنيين بالإسلام، سوى إبداء القدرةِ – ولو متأخراً جداً– على خوضِ المناقشاتِ حتى النهاية حولَ هذا السؤال، وصياغةِ أجوبةٍ له. ولو وُجِدَ مَنفَذٌ آخر، فهو سبيلُ رفضِ الإسلامِ كلياً. وبما أنّ احتمالَ ذلك ليس قائماً كثيراً، فلا مفرَّ إذن من صياغةِ الجواب.

ينحدر اسمُ الله من جذرِ «أل El»، الذي له ماضٍ سحيقٍ في أتيمولوجيا اللغاتِ الساميّة. ومثلما ذكرتُ سابقاً، فهو يتميزُ بمضمونٍ قرينٍ لمصطلحِ "السُّمُوّ"، ويعادِلُ الإلهَ العامَّ المُجَرَّد للقبائلِ الساميّة. ويُخَمَّنُ أنه أُخِذَ من المجموعاتِ الكنعانيةِ الساميّةِ بوساطةِ القبيلةِ العبرية. ويرتقي "أَلاه Elah» الذي في التوراةِ إلى «الرب Rab"، وفي المسيحيةِ إلى "الأب– الابن– الروح القدس"، ليصبح "اللّهَ Allah" مع ظهورِ محمد. أصلُ الكلمةِ واضحٌ اصطلاحاً. لن أدخُلَ في موضوعِ الإلهياتِ هنا، إذ كنتُ قد طرحتُ مَدخلاً موجَزاً مِن قبل. ولكن، بوسعي إضافةَ التالي: مصطلحا محمد والله انعكاسٌ للعناصرِ الماديةِ والمعنويةِ في الثقافةِ الاجتماعيةِ على شكلِ رمزِ هوية. وقد أشارَ إلى ماهيةِ معنى المجتمع. فلدى مناداةِ محمد بالمجتمعِ أجمع، إنما كان يَرمي بذلك إلى "مجتمعِ المدينةِ المنورة" أي "المجتمعِ الإسلاميِّ" المتَكَوِّنِ أو المُشادِ حديثاً. ولفظُ اللّه يُستَخدَمُ

بمعنى روحِ وطاقةِ جميعِ عناصرِ المجتمعِ الماديةِ والمعنوية. فالمجتمعُ المُشَيَّدُ هو مجتمعُ الله. وبالأصل، فهكذا تعابير تُستَخدَمُ برَواج. وما مِن ذَرَّةٍ واحدةٍ من هذا المجتمعِ إلا وأحاطَ بها الله. يَقومُ محمد بتوسيعِ المصطلحِ أكثر، بحيث يُصَيِّرُه مقتدراً على خلقِ كلِّ شيءٍ ماضٍ وحاضرٍ ومستقبَليّ. وهنا ثمة انفتاحٌ مماثلٌ تماماً لميتافيزيقيةِ هيغل. أما الإلهُ العبريّ، فكان محدوداً أكثر. و"الديميورغ" الذي لدى الإغريق كان يؤدي دوراً معمارياً فيما هو قائمٌ فقط. أي أنه لَم يَكُن مُبدِعاً. المُناقشَةُ حولَ الإبداعِ أيضاً تَدُورُ بمنوالٍ خاطئ. فالإبداعُ لدى محمد لا يعني الإبداعَ الفظ.

الفارق ما بين آلهة المجمّع السومريِّ والثقافة المعنوية والذهنية المجتمعية في عهد محمد

كانت آلهةُ المجُمَّعِ السومريِّ تُصَوِّرُ بوضوحٍ المسؤولين الرفيعين في الدولةِ الجديدة. كانَ الفرزُ بسيطاً ومؤثِّراً. فهكذا فرزٌ كان مُقنِعاً ومُؤَمِّناً للشرعيةِ بما يكفي لتَلبيةِ مستوى الثقافةِ المعنويةِ في ذاك العصر. لكنّ الفرزَ الفظَّ للآلهةِ لَم يَكُن له أنْ يَكفيَ لهكذا شرعياتٍ وللثقافةِ المعنويةِ والذهنيةِ المجتمعيةِ في عهدِ محمد. علماً أنه لَم يَقتَصِر على تحطيمِ أصنامِ الكعبةِ التي تُذَكِّرُ بذاك الفرزِ كما فَعَل إبراهيم، بل قام بتصفيتها كلياً، واعتَبَرَ عبادةَ الأصنام من أشنعِ الذنوب. إذ كان جزاءُ ذلك الموتَ في الدنيا وجهنمَ السعير في الآخِرة. كان الإلهُ الجديد، أي الله، قد أَجْزَ إحدى أعظمِ الثوراتِ المعنوية، بإلغائه وحَظرِه لمجُمَّعِ الآلهةِ المنحَدِر من أيامِ السومريين والمصريين. موضوعُ الحديثِ هنا هو «الثورةُ الإلهيةُ» أولاً. فما الذي اكتَسَبَه المجتمع بهذه «الثورة»؟ وماذا خَسِر؟ إنه سؤالٌ مختلف، ومناقشتُه مهمةٌ للغاية حسبَ اعتقادي. وقد يُفضي بدءُ النقاشِ تأسيساً على المقارنةِ بين علاقةِ تَعَدُّدِ الآلهةِ مع المجتمعِ التعدُّديِّ والديمقراطيةِ التعدُّدية،

> **يُعَبِّرُ عهدُ المدينةِ المنورةِ عن المرحلةِ التي شهدت ترتيب المعاهدةِ الاجتماعيّةِ والسياسيّةِ اللازمة لذلك. والمعاهدةُ الجديدةُ هي مَخطوطُ دولةٍ جديدة. فالعملياتُ السياسيةُ والعسكريةُ المستمرة مدى عشرِ سنين تقريباً، كانت كافيةً لولادةِ دولةٍ كبيرة في مدينةٍ صغيرة. وما تَبَقّى هو قضايا وحروبُ الانتشارِ الممتدة زماناً ومكاناً بسرعةٍ عُليا واتساعٍ كبير. النقطةُ المهمةُ التي ينبغي إدراكُها هنا، هي القدرةُ على مقارنتِها مع شبيهاتِها في التاريخ.**

وبين علاقةِ المجتمعِ التوحيديِّ مع الديكتاتوريةِ المونارشية إلى نتائجَ مهمة.

مع ذلك، يَلُوحُ لي أنه من الواقعية أكثر تَشبيهُ مصطلحِ «الله» لدى محمد بمصطلحِ «الأفكار أو المُثُل العُليا» عند أفلاطون و»الصورة» عند أرسطو. وإذا ما وُضِع المستوى الذي وصله التفكير العلميّ في راهننا بعينِ الحُسبان، فسيَكُونُ تَصَوُّر مصطلح «الله» أقرب إلى الحقيقة باعتباره يُعادِلُ «اللامادةَ» أو لِنَقُل يساوي مصطلحَ «الطاقة» المألوف أكثر في الكون. فهذا القِسمُ يَصِفُ اللهَ الذي يُقابِلُ الكونَ الخارجَ عن الإنسان. هذا التقابُلُ أو التناظُرُ لكلمةِ الله بوصفِها تعبيراً شاملاً عن الهويةِ المجتمعية، محسومٌ بالنسبةِ لمحمد أيضاً. ومن هنا أَصِلُ إلى التالي: العَمَلُ باسمِ الله ليس اصطلاحاً عبثاً أو دعايةً هباء. بل هي تعبيرٌ عن ممارسةٍ عمليةٍ ذاتِ معنى شاملٍ حقاً. والعَمَلُ باسمِ الله يعني «النضالَ الاجتماعيَّ» بالتأكيد. عندما تَكُونُ الطبيعةُ الاجتماعيةُ

موضوعَ الحديثِ على وجهِ الخصوص. ولا يُساوِرُني أيُّ شكٍّ من أنَّ محمداً استخدَمَ المصطلحَ بهذا المعنى. والأهمُّ من ذلك أني لا أَعتَقِدُ بأنَّ هدفَه الأساسيَّ هو غزوُ احتكاراتِ الربحِ في الشرقِ الأوسط (الزراعة، الصناعة، والتجارة). فنضالُه الاجتماعيُّ مثالٌ نموذجيٌّ من ميول الديمقراطيّةِ الاجتماعيّةِ للطبقةِ الوسطى، أو هو ما سَعَيتُ للتعبيرِ عنه بعبارةِ نضالِ «الجمهوريةِ الديمقراطيةِ» التي تَشمَلُ «المجتمعَ الديمقراطيَّ» أيضاً.

ما مِن أَمارةٍ تَدُلُّ على رغبةِ محمد في تأسيسِ مملكةٍ جديدة. كما لا تُوجَدُ أيةُ إشارةٍ إلى أنه رَغِبَ في تأسيسِ سلالة. وقد كانت قوتُه تَكفي لو أنه شاءَ ذلك. هذا وكان بإمكانِه أيضاً إعاقة تأسيس مؤسسةِ الخِلافةِ منذ البداية. لنُفَسِّرْ موقفه في أول جامعٍ في المدينةِ المنورة: إذ يَدُورُ النقاشُ هناك حول المشاكل الاجتماعية تماماً. إنه أمرٌ لا تَشوبُه شائبة. فكلُّ واحدٍ من الجماعةِ يَقِفُ أو حتى يبقى جالساً وهو يُبَيِّنُ رأيَه، ويُحاسِبُ ويُسائلُ في كافةِ الشؤونِ الاجتماعيةِ الأولية. إنّ تركيبةَ جُموعِ الاجتماعاتِ وآلياتِها ديمقراطيةٌ بلا جدل. إذ يَحقُّ للنساءِ والعبيدِ ولكلِّ قومٍ ومجموعةٍ أثنيةٍ المشاركة فيها والتعبير عن رأيه. فمثلاً، بلال الحبشيُّ عبدٌ أفريقيٌّ أَسوَد. وسَلمانُ الفارسيُّ صَحابِيٌّ فارسيٌّ المنشَأ. بل وحتى أنّ النساءَ يَعقِدن الصلاةَ مع الرجال. واضحٌ أنّ التمييزَ الجنسيَّ والشوفينيةَ القوميةَ لَم يتواجدا في البداية، أي في بدايةِ الظهور. كما لا وجودَ للتمييزِ الطبقيِّ والقَبَلِيّ. وعليه، فالمشارَكةُ الديمقراطيةُ في مستَهَلِّ ظهورِ الإسلامِ حقيقةٌ لا تقبلُ الجدل. علاوةً على أنّ الإداريين والقياديين المرشّحين كانوا يُعَيَّنون في اجتماعاتِ الجوامع الأولى. وتُتَّخَذُ الكثيرُ من القراراتِ في سبيلِ تَجَنُّبِ الجُورِ واللاعدالة.

بالمقدورِ تفسير موضوعِ الغنيمةِ كالتالي: يُمكِنُ القول بكلِّ سهولة: إنّ تأميمَ الاحتكاراتِ حملةٌ ديمقراطيةٌ عادلةٌ إذا لَم تُحَوَّلْ إلى نهبٍ واستغلال. ويمكنُ الإشارة إلى أنَّ هذَين الموضوعَين وحدهما كافيانِ للدلالةِ بوضوحٍ على انفتاحِ الإسلامِ الوليدِ حديثاً على الديمقراطيةِ والعدالةِ الاجتماعية. وبالأصل، فلولا هذه المشاركة الديمقراطية لَما كان الحِراكُ السريعُ صَوبَه بهذا الكَمِّ من القبائلِ والمقهورين ومن عناصرِ الطبقةِ الوسطى أمراً ممكناً. أي أنَّ تنظيمَ محمد لَم يتأسسْ على العنف، بل كان تنظيماً مُطَوَّراً باسم عشقِ اللّه. وكذا كانت حربُه مُطَوَّرةً باسمِ عشقِ اللّه. جليٌّ جلاء النهارِ أنّه أُنجِزَت ثورةٌ أيديولوجيةٌ واجتماعيةٌ واقتصاديةٌ وسياسيةٌ شاملة. هذا وأُكِنُّ تقديراً عظيماً لطرازِ محمد في إنجازِ هذه الثورة. إنه يَبسطُ معاييرَ الثوريةِ الحقة: توطيدُ نسيجِ الثورةِ الأيديولوجيِّ بمنوالٍ سليم، ونشرُه بالسلامةِ نفسِها في كافةِ مستوياتِ المجتمع. وتسييرُ ذلك بالإيمانِ والوعيِ الراسخَين لدرجةِ الهَيام. و"حقيقةُ محمد" التي أَفهَمُها أنا، هي كذلك من حيثُ زُبدةِ تعريفِها. وما تَبَقّى هو كلامٌ فارغٌ بالتعبيرِ العامّيّ. وإذا لَم تتحَلَّ أشكالُ العبادةِ والذِّكْرِ بهذا المضمون، فلن تَذهَب في معناها أبعدَ من لَغَطٍ جُزاف وثرثرةٍ وحركات لا جدوى منها.

ثمة بعضُ النقاطِ المفتوحةِ للنقد، والتي تَرَدَّدَ محمد أيضاً بشأنِها لدى قيامِه بها. أُولاها: أَمرُه بقَتلِ الذكورِ من أبناءِ قبيلةِ بَني قُرَيظة اليهوديةِ إبّانَ معركةِ الخندق، وذلك بسببِ تحالُفِهم مع أهلِ مكة. يَعتَبِرُ اليهودُ هذا الأمرَ أولَ تجربةٍ في "التطهير العرقيّ". موضوعُ الحديثِ هنا ليس اليهودَ أجمع، بل الذكورُ الراشِدون منهم. فالقبيلةُ المذكورةُ قد تحالَفَت مع الطرفِ المضادِّ في معمعةِ حربٍ مصيرية. وحسبَ قناعتي، فعمليةُ التقتيلِ هذه سافرة، وتُشَكِّلُ جانباً سلبياً سوف يُستَثمَرُ ضد الإسلامِ كثيراً فيما بعد. ثانياً: تَحويلُه الموقفَ المتردِّدَ بدايةً تجاه ألوهيةِ اللاتِ والمناةِ والعزى إلى حظرٍ وإنكارٍ راديكاليَّين بشكلٍ سافر

إزاءَها، مما أدى إلى تمهيدِ الطريقِ أمامَ نظامِ السلطنةِ لاحقاً، والذي سيَعوثُ فساداً في العالَمِ الإسلاميّ. حيث كان بإمكانِ مصطلحِ "الإله الأكثر مرونة" أنْ يساهمَ أكثرَ في النماءِ التعدديِّ للعالَمِ الإسلاميّ، ولو ليس بقدرِ المسيحية. هذا وبالإمكان الإكثار من الانتقاداتِ الشبيهة. لكنّ ما يهمُّ هنا هو الإدراكُ أنّ الإسلامَ هو أحدُ أعظمِ الحركاتِ الانتقادية، وكذلك الانتباهُ إلى القدرة على استخدامِ هذا السلاحِ فيما يَخصُّ القضايا الأوليةِ بأسرعِ ما يُمكن، ولو بعدَ فواتِ الأوانِ كثيراً.

لن أَصوغَ تفسيراً بشأنِ صفاتِ اللّهِ التسع وتسعين، نظراً لأنّ موضوعَنا لا يناسبُ ذلك كثيراً. لكن، عليَّ التبيان أولاً أنَّه حتى الصفات التسع والتسعين تلك هي أفضلُ "منهاجِ تَحَوُّلٍ مجتمعيّ". كما عليَّ الإشارة إلى أنه لا يَختَلِجني أدنى شكّ من أنه، وبقدرِ ما يُعَدُّ اللّهُ وصفاتُه التسعُ وتسعون برنامجاً سقفياً لأطولِ مدةٍ ممكنة بالتأكيد، فهما يحتويان أيضاً برنامجاً اجتماعيّاً قصيرَ المدى لتلبيةِ الاحتياجاتِ اليومية. هذا ولا يُساوِرُني الرَّيبُ إطلاقاً من أنَّ معناه لدى محمد أيضاً يَسيرُ في هذه الوِجهة بكلِّ تأكيد. الأمرُ المؤسِفُ والمُؤلِمُ للغاية هو أنَّه بعد ظهورِ شخصيةٍ تاريخيةٍ مثل محمد، تَمَكَّنَ المُنحَطّون والسُّفَهاء، بدءاً بأسفلِ الخَوَنَةِ إلى شتى المُنافِقين والمُرائين، من الاستمرارِ بزيفِهم الأكبر تحت اسمِ "الإسلام" حتى يومِنا الحاضرِ بمهارةٍ ودهاء. هذه هي "الحادثةُ" المأساويةُ التي ينبغي فَكّ طلاسمِها بكلِّ تأكيد.

ترتيبِ الظواهرِ والفتراتِ التاريخيةِ الإسلاميةِ المهمة، وإضفاءِ المعنى عليها

١- يَفرضُ عهدُ الخُلَفاءِ الراشدين حضورَه بوتيرةٍ عُليا مع إعدادِ القرآنِ وجمعِ الأحاديثِ النبويةِ والاستمرارِ بالفتوحات. لا يُوجَدُ تَصَدُّعٌ جديٌّ في الإسلامِ آنذاك. وأرستقراطيةُ مكةَ القديمة لا تمتَلِكُ القوةَ بعدُ لإنجازِ ثورتِها المضادة

> **يجب التوقف قليلاً هنا. ما هو «الله» عند محمد؟ أهو مصطلحٌ أم حقيقة؟ لقد باتت المدنيةُ الأوروبيةُ القوة المهيمنة عالمياً بالتأسيس على إثارةِ النقاشِ حتى النهاية، للردِّ على هذا السؤالِ الأخيرِ على صعيدِ الدين المسيحيّ. بناءً عليه، يَكادُ يَكُونُ لا مَنفَذَ آخر أمامَ المعنيين بالإسلام، سوى إبداء القدرةِ —ولو متأخراً جداً— على خوضِ المناقشاتِ حتى النهاية حولَ هذا السؤال، وصياغةِ أجوبةٍ له.**

أو تحقيق وحَملتِها. وعدمُ كَونِ عليّ الخليفةَ الأولَ هو مثارُ جَدَلٍ سيحتدمُ مع الزمن. ما مِن عَلامةٍ تَدُلُّ على السلطنةِ بَعد. بل يَسُودُ عهدٌ أدنى إلى الجمهوريةِ والديمقراطية. فحتى عام ٦٥٠م كان قد دُحِرَ البيزنطيون إلى ما وراء جبالِ طوروس، وانتهى عهدُ السلالةِ الساسانية، ودُكّت دعائمُ الإمبراطورية. وفي الفترةِ ما بين أعوام ٦٥٠– ٦٦٠م يَحتَدُّ التنافُسُ بين عليّ ومعاوية وعثمان . ويُقتَلُ عثمان وعليّ. لا تَكتَفي أرستقراطيةُ قُرَيش متمثلةً في شخصِ معاوية بالثأرِ من الإسلامِ الثوريّ، بل وتؤسس أيضاً نظامَ الخِلافةِ الجديدَ بأقصى سرعة، مُتَّخِذةً الشامَ مركزاً. وكأنّ الإمبراطوريةَ الساسانيةَ لا تزالُ مستمرةً سُلالةً وطليعةً مقتدرة، ولكن بشكلٍ مختلف. فالبيروقراطيةُ الجديدةُ مُعَدَّةٌ أصلاً من البيروقراطيةِ الإيرانيةِ القديمة. أي أنَّ الإسلامَ مُصانٌ ظاهرياً على صعيدِ الاسم، إلا أنّ خيانةً عظمى قد اعتَرَت جوهرَه. وفي عامِ ٦٨١م ستَكُونُ حركةُ الثأرِ المؤلِمةُ قد اكتَمَلَت

> **كانت آلهةُ المُجَمّع السومريّ تُصَوّرُ بوضوح المسؤولين الرفيعين في الدولة الجديدة. كان الفرزُ بسيطاً ومؤثّراً. فهكذا فرزٌ كان مُقنعاً ومُؤَمّناً للشرعية بما يكفي لتَلبية مستوى الثقافة المعنوية في ذاك العصر. لكنّ الفرزَ الفظّ للآلهة لَم يَكُن له أنْ يَكفيَ لهكذا شرعيات وللثقافة المعنوية والذهنية المجتمعية في عهد محمد. علماً أنه لَم يَقتَصر على تحطيم أصنام الكعبة التي تُذَكّرُ بذاك الفرز كما فَعَل إبراهيم، بل قام بتصفيتها كلياً، واعتَبَرَ عبادة الأصنام من أشنع الذنوب.**

في مجزرة كربلاء المأساويةِ بإبادةِ الأعضاءِ الباقين من أسرة محمد مُجَسَّدةً في شخصِ حسين، دون تفريقٍ بين امرأةٍ أو طفل. وما يتَبَقّى بعد ذلك حسب رأيي، ليس الإسلام، بل هو «الإسلامُ المضاد».

لن يتحلى شرحُ أيةِ حركةٍ اجتماعيةٍ مُنجَزَةٍ أو مُعاشَةٍ باسمِ الإسلامِ على مدارِ تاريخِه بالمعنى السليم، ما لَم يُفَسَّرْ موضوعُ الإسلامِ المضادِّ بشفافية. فقد استُحدِثَت العديدُ من التقاليدِ والطرائقِ باسمِ الإسلام. بل ونُظِّمَت "الطريقةُ العَلَوِيَّةُ" و"الطريقةُ الشيعيةُ" باسمِ أهلِ البيت. لكنّ جميعَها لن تستطيعَ زَعزَعةَ الإسلامِ المضادِّ المسيطِر. فالإسلامُ المضادُّ هو أساساً حركةُ الإرفاق بنظامِ المدنيةِ المركزيةِ التقليديّةِ في الشرقِ الأوسط. إنه يَعني إطراءَ التغييرِ على الإسلامِ الثوريِّ والديمقراطيِّ الذي لم يتحولْ تماماً إلى دولةٍ وظلَّ كنوعٍ من الجمهوريةِ المجتمعية؛ وتصييرَه فترةً تاريخيةً جديدةً وأحدَ ظواهرِ المدنيةِ التقليديةِ المُعَمِّرةِ ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة تأسيساً على خيانةِ قِيَمِه الأساسيةِ المذكورة. وسيلعب العباسيون دورَهم كإحدى المحطاتِ المهمةِ لهكذا نوعٍ من الإسلامِ المضاد. إذ سيتمكنون مِن تحويلِ الإسلامِ المضادِّ إلى أكبر قوةٍ مهيمنةٍ هي في الشرقِ الأوسط، حتى وإنْ ليس بقدرِ السلالةِ الأموية. فهذه السلالةُ القائمةُ في الفترةِ ما بين أعوام ٧٥٠– ١٢٥٠م تعني ضرباً من بابل جديدة. فبغدادُ سوف تُشادُ في عامِ ٧٦٠م كبابل جديدةٍ وكعاصمة. هذا وثمة حركةٌ فلسفيةٌ ولاهوتيةٌ إسلاميةٌ ازدَهَرَت في هذه المرحلةِ دُونَ بلوغِها النتيجةَ النهائية. فقد دارَ الجدلُ حول العقلِ الحر. وكلٌّ من الكندي، الفارابي، ابن الرازي، جابر بن حيان، ابن سينا، وابن رشد شخصياتٌ مهمةٌ فيها. فالجدالاتُ الدائرةُ حولَ الفلسفةِ في عهدِهم (ما بين أعوام ٨٠٠– ١٢٠٠م تقريباً) أرقى بكثيرٍ جداً مما كانت عليه في أوروبا. كما أنّ الشرقَ الأوسطَ كان مُتَقَدِّماً حينها من حيث المُنجَزاتِ العلميةِ أيضاً.

تُعَدُّ نهايةُ القرنِ الثاني عشر منعطفاً حَرِجاً، سواء في تاريخِ المدنيةِ المهيمنةِ في الشرقِ الأوسط، أو مِن حيث كَونِ الإسلامِ الاسمَ الأخيرَ لهذه الهيمنة. وقدَرُ الشرقِ الأوسطِ والإسلامِ متعلقٌ بنجاحِهما أو فشلِهما في تَجاوُزِ هذا المنعطف. بالمقدورِ تقييمِ الفترةِ الممتدةِ حتى هذا المنعطفِ من تاريخِ الإسلامِ بالإسلامِ العربيّ. والإسلامُ العربيُّ يُمَثِّلُ الإسلامَ المضادّ، لا الإسلامَ الثوريّ. حيث نَجَحَت الأرستقراطيةُ القَبَلِيَّةُ في تنظيمِ ذاتِها كقوةٍ مدنية، وفي إنشاءِ هيمنتِها الإقليمية. الاسمُ الآخَرُ لهذا الإسلامِ هو "الإسلامُ السُّنِّيّ". والمعنى الأتيمولوجيُّ للإسلامِ السُّنِّيِّ هو الإسلامُ التقليديُّ واليمينيُّ والأرستقراطيّ. وهو يُذَكِّرُ بمرحلةِ قبُولِ المسيحيةِ أيديولوجيةً رسميةً في روما الشرقية (بيزنطة) بعد مرورِ ثلاثةِ قرونٍ على ولادةِ المسيحية. الفارقُ الذي يُمَيِّزُ الإسلامَ هو تَحَقُّقُ هذه المرحلةِ بسرعة. حيث أنها فترةٌ

تُقارِبُ الثلاثين عام، لا ثلاثةَ قرون.

الالتحامُ مع المدنيةِ مستحيلٌ بطبيعةِ الحال، دون حصولِ انقسامٍ راديكاليّ. وقد شُوهِدَ هذا السياقُ في الإسلامِ بنحوٍ واسع، كما الحالُ في المسيحيةِ أيضاً. فالمقهورون من القبائلِ سيَرَون تدريجياً أنهم تَعَرَّضوا للخيانة، وسيَنعَكِفون بالتالي على حربٍ داخليةٍ جذريةٍ للغاية تجاه الأرستقراطيةِ القَبَلِيَّةِ التي تُشَكِّلُ قوةَ السلطة. ومثالُ ذلك الأولُ هو طائفةُ "الخوارج". إنها أولُ أكبرِ انقسامٍ وَجَزْءٌ دخَلَ حيزَ الممارسةِ كَرَدٍّ فِعلٍ على تناقُضِ معاوية–عليّ. وجميعُ أعضائِها من البدو الذين كانوا مُغتاظين أشدَّ اغتياظٍ من عجزِهم عن نيلِ نصيبِهم مما وُعِدوا به. فرغمَ أنهم مَن بدأَ بشنِّ الحرب، إلا أنّ الشريحةَ المُتساقةَ وراءَ السلالةِ الأرستقراطيةِ العُليا كانت قد سَلَبَتها نِعَمَها. فارتُكِبَت الممارساتُ الدمويةُ المروِّعة، وكان علي ضحيةَ هذه المرحلة. في الحقيقة، لقد خَطَّطَ الخوارجُ لاغتيالِ الأشخاصِ الثلاثةِ القائمين على حربِ السلطة (علي، معاوية، وعَمرُو بن العاص). لكنّ الأخيرَين نَفَذوا من ذلك بمحض صدفة. طائفةُ الخوارجِ مثيرةٌ جداً للأنظارِ بجانبِها المُناهِضِ للمدنية. ولكن، لَم يتمّ طرحُ شروحٍ موضوعيةٍ بصددِها بسببِ التشويه المُرَكَّزِ بحَقِّها. من الواضحِ أنّ الخوارجَ يُمَثِّلون الشريحةَ الكادحة الأكثر بؤساً ضمن القبائل. وبالمستطاعِ القول أنّهم خَطَّطوا ونَفَّذوا تلك العمليات، كَرَدٍّ فعلٍ على فقدانِ الديمقراطيةِ البدائيةِ والمشاركةِ اللتين كانتا قائمتَين في مَطلعِ الإسلام، وعلى سيادةِ تَطَوُّرٍ في منحى التحوُّلِ إلى سلطةٍ ودولة. لذا، فأهميتُها التاريخيةُ عظيمةٌ من حيثُ أنها مُؤَشِّرٌ بالغُ الأهميةِ على تناقُضِ الديمقراطيةِ والسلطةِ في بُنيةِ الإسلام.

وكما شُوهِدَت أمثلةُ ذلك بكثرةٍ في التاريخ، فالافتقارُ للقيادةِ الأيديولوجيةِ والتنظيميةِ قد جَلَبَ معه تَهَمُّشَهم وانصهارَهم في بوتقةِ مصالحِ قوى السلطة. فعائلةُ محمد المسماةُ بأهلِ البيتِ لَم تَستَطِع تقويمَ شوكتِها ثانيةً بَعدَ فاجعةِ الكربلاء. كما أنَّ طائفةَ الاثنَي عشرية والطائفتَين الإسماعيليةَ والفاطميةَ أيضاً قد عَجِزَت جميعُاً عن ثَني الإسلامِ السُّنِّيِّ عن أطماعِه في السلطةِ رغمَ شَقِّها طريقَها باسمِ "أهل البيت". وهذا التيارُ الذي سعى إلى تعزيزِ شأنِه في إيران والأناضولِ وأفريقيا الشماليةِ على الأكثر، كان بعيداً عن تمثيلِ الإسلامِ الثوريّ رغمَ تشييدِه صرحَ بضعةِ دولٍ قصيرةِ الأجَل. في حين أنّ فروعَه الإيرانيةَ نَجَحَت في مطلعِ القرنِ السادس عشر في التحوُّلِ إلى قوةِ المدنيةِ الرسميةِ تحت اسم "الشيعة". وإسلامُ هذه الدولةِ كان انحرافاً يمينياً ضمن أهلِ البيت، كما هي حالُ الدولةِ الفاطمية في أفريقيا الشمالية. أما العَلَوِيّون المقهورون وأمثالُهم من القرامطة والمرابطين والموالين لحَسَن الصَّبّاح ، فباتوا مُقاومين راديكاليين، وواظَبوا على التمردِ في وجهِ السلطات.

٢- كانت السلالاتُ الأمويةُ والعباسيةُ قد أدت دورَها التاريخيّ، وذلك بتحويلِ أرستقراطيةِ القبائلِ العربيةِ إلى سلطة، وتصييرِها أنواعاً شتى من الدول. وبهذه الطريقةِ كانت قد امتَصَّت الطاقةَ الداخليةَ للنظامِ القَبَلِيِّ ذي التقاليدِ المُعَمِّرةِ آلافَ السنين. والمُتَبَقّون من العربِ اكتَسَبوا معناهم مُجَدَّداً كصنفٍ تاريخيٍّ على شكلِ «العرب البدو». ويُمكِنُ تعريف هؤلاء على أنهم الشرائحُ الاجتماعيةُ المستقرةُ وشبهُ المستقرةِ من فقراءِ ومَقهوري القبائلِ المُؤَسلِمة، تماماً كما الانقسامُ الذي شَهِدَه تركمانُ الأتراكِ وكرمانجُ الكردِ بَعدَ اعتناقِهم الإسلام. ويُعدُّ هذا الانقسامُ تمايزاً وتَفَكُّكاً اجتماعيّاً عالي الأهميةِ وأهمَّ حِراكٍ طبقيٍّ في تاريخ الشرقِ الأوسط. إذ سيَبقَون عموماً معارِضين لأرستقراطيةِ القبيلةِ المتحولةِ إلى سلطة، وسيَجهَدون لعيشِ الإسلامِ الثوريّ كغطاءٍ أيديولوجيٍّ على شكلِ طرائقَ ومذاهبَ مختلفة، وعلى رأسِها العَلَوِيّة.

> **ثمة بعضُ النقاط المفتوحة للنقد، والتي تَرَدّدَ محمد أيضاً بشأنِها لدى قيامه بها. أُولاها؛ أمرُه بقَتلِ الذكورِ من أبناءِ قبيلةِ بَني قُرَيظة اليهوديةِ إبّانَ معركةِ الخندق، وذلك بسببِ تحالُفِهم مع أهلِ مكة. يَعتَبِرُ اليهودُ هذا الأمرَ أولَ تجربةٍ في «التطهير العرقيّ». موضوعُ الحديثِ هنا ليس اليهودَ أجمع، بل الذكورُ الراشدون منهم. فالقبيلةُ المذكورةُ قد تحالَفَت مع الطرفِ المضادّ في معمعةِ حربٍ مصيرية.**

نَجَحَ التيارُ السُّنّيُّ العربيُّ كإسلامٍ مضادٍّ في إخراجِ العربِ من حالةِ مجموعاتٍ قَبَلِيَّةٍ متناثرة، والانتقالِ بهم إلى حالةِ القوم (القوم النجيب). كما حَمَلَ معه دوماً نزعةً قَبَلِيَّةً شوفينيةً ومهيمنة. أي أنه كان ضرباً من شكلِ الفاشيةِ البدئيةِ للإسلاموية. والقوى الراديكاليةُ للإسلاموية اليمينيةِ الراهنة (الإسلامُ السَّلَفِيُّ المعاصر) تؤيّدُ هذه الحقيقة. هذا وطالَما شوهِدت حوداث مماثلةٌ في المسيحيةِ والموسويةِ أيضاً. لقد كان الإسلامُ العربيُّ أمام خياراتٍ تاريخيةٍ لدى استيلائه على احتكاراتِ السلطةِ السياسيةِ للمدنية. فكانت الفتوحاتُ العسكريةُ الخَيارَ الأول. وهي تَرتكزُ إلى إحكامِ القبضةِ على التراكماتِ الاجتماعيةِ لرُؤيَتِها إياها غنيمة. وقد كان موضوعُ الغنيمةِ رائجاً بما فيه الكفاية في تلك الفترةِ ضمن مجتمعِ الشرقِ الأوسط. إذ كانت تُجبى الضرائبُ وتُؤخَذُ الجِزياتُ المتثاقلةُ على التوالي من المسيحيين والموسويين والشرائحِ الأخرى المسماةِ بالكُفّار، وكان يُلجَأ إلى "الغنائم" بالسَّطوِ على التراكماتِ الاجتماعية أثناءَ الحرب. أما الضرائبُ المأخوذةُ من الشعبِ المسلم، فكانت مرتبطةً بالنظامِ العُشرِيّ مما يُؤخَذُ من فائضِ الإنتاجِ أو ما شابهه من الموارد السنوية. إنه ليس خَياراً قيّماً كثيراً، بالرغمِ من محاولةِ سمير أمين في عرضِه كتصنيفٍ منهجٍ على شكلِ "المغتصِب المتطفِّل". بل هو تطبيقٌ عامٌّ للمدنية.

الخَيارُ الثاني كان الاحتكاريةَ التجارية. بالإمكانِ القول: إنه تمّ عيشُ مرحلةٍ جديدةٍ في هذا المضمار. ذلك أنَّ قِسماً مهماً من الأشرافِ التقليديين كانوا تَعَرَّفوا أصلاً على التجارةِ مِن قبل (كانت الأرستقراطيةُ حتى في مكة قائمةً على أساسٍ تجاريّ). لَم تَكُن الأجواءُ الجيوبيولوجيةُ في بلادِ العربِ صالحةً كثيراً للاحتكاريةِ الزراعيّة. وتربيةُ الحيوانِ أيضاً كانت محدودة، نظراً لطابعِها الصحراويّ. كما كانت إمكانياتُ الربحِ قد جَعَلَت التجارةَ احتكاراً ربحياً مهماً بسببِ التجارةِ لمسافاتٍ طويلة. فالشام، حلب، البَصرة ، القاهرة، الطائف ، مكة، القَيروَان ، سَمَرقند ، بُخارى ، غزنة ، هرات ، والعاصمة بغداد أيضاً بشكلٍ خاص؛ جميعُها كانت قد وَلَجَت سياقَ النماءِ كمراكزَ تجاريةٍ جديدةٍ ومهمة. كانت تتحقق ثورةٌ من "المدائنيةِ والتجارة" أرقى وأسبَقُ بكثير مما في أوروبا.

الفترةُ فيما بين القرن الثامن والقرن الثاني عشر للميلاد هي في الوقتِ عينِه مرحلةُ "ثورةِ الإسلامِ في المدينةِ والتجارة". في حينِ أنَّه لَم يَكُ قد أُعيدَ تنظيمُ الربحِ مُجَدَّداً في الاحتكارَين الزراعيِّ والصناعيّ، فبَقِيا محدودَين. أي أنَّ الحملةَ الثوريةَ نفسَها لَم تَكُن متَحَقِّقةً في الزراعةِ والصناعة. والنقطةُ الأكثر حَرجاً بالنسبةِ للإسلامِ قد تَعَقَّدت حول هذا الشأن. لِمَ لَمْ يُشرَعْ بحملةٍ مُثمِرةٍ في الزراعةِ والصناعة؟ في حقيقةِ الأمر، كان ثمة تراكمٌ في كِلا الميدانَين في الشرقِ الأوسط.

فأنهُرُ النيل ودجلة والفرات والبينجاب لوحدِها كانت تَمنحُ المياهَ والأراضي الخصيبَةَ اللازمةَ للثورةِ الزراعية. كما وكانت الثوراتُ الزراعيةُ الأولى موجودةً في أساسِ المدنيتَين السومريةِ والمصرية. فضلاً عن أنّ الثورةَ الزراعيةَ النيوليتيةَ المُعَمِّرةَ لآلافِ السنين كانت لا تزالُ قائمة. أي، كان ثمة مجتمعٌ قرويٌّ– زراعيٌّ وطيدٌ للغاية. كما كانت الحِرفةُ والصناعةُ تتميزان بتراكُماتِ التاريخ الأطولِ أَمَداً (أربعة آلاف وخمسمئة عام على وجهِ التقريب) ارتباطاً بتاريخ المدينة. كما أنَّ الأرضيةَ الفلسفيةَ والعلميةَ اللازمةَ كانت قد تحَقَّقَت عن طريق الثورة نصف النهضوية، وخاصةً في عهدِ العباسيين. أي، كان بالمقدورِ وبكلِّ يُسرٍ إنجازُ ثورةٍ زراعيةٍ وصناعيةٍ أرقى بكثير مما في أوروبا، لو كان أُريدَ ذلك.

التفسيرُ الأصحُّ حسبَ قناعتي هو البحث في نمطِ تراكُمِ الربحِ عن الدافعِ الأساسيِّ وراءِ عدمِ تحقيقِ هذه الثورة. فالنظامُ كان قادراً على مُراكمةِ الربحِ الأعظميِّ بأسلوبِ التجارةِ والغنيمة، حتى دونَ إنجازِ الثورةِ في مجالَي الزراعةِ والصناعة. إذ كانت غنائمُ السلطةِ والحروب (بالاعتداءِ والتَطَفُّل) تتبدى بنحوٍ أكثرَ جاذبيةً وعطاء، بحيث تَكادُ جميعُ أصقاعِ العالَمِ المستقرة، فيما خَلا الصين، تُصَيِّرُ موضوعَ غنيمةٍ وتجارة. و"فَتحُ العالَمِ" كان يَمنحُ الفُرصةَ لذلك. هكذا كانت الجيوشُ والحروبُ تتحولُ إلى تنظيماتٍ وممارساتِ الاحتكاراتِ الربحيةِ الأكثر عطاء. بَيْدَ أنَّ احتكاراتِ إنكلترا وهولندا، والتي تُعَدُّ القوةَ الريادية للثورةِ الزراعيةِ والصناعيةِ في أوروبا، كانت قد وَجَدَت الحلَّ في إنجازِ حملاتِها الزراعيةِ والصناعيةِ على التوالي، بُغيةَ النفاذِ من ضائقاتِها الخانقةِ جداً حصيلةَ التطويقِ المُطَبَّقِ عليها من قِبَلِ إسبانيا وفرنسا والبابوية. وإلاّ، فما كان مِن بُدٍّ لانحلالِها واستعمارِها من قِبَلِ القوى المُحاصِرةِ لها. أما احتكارُ السلطةِ الشرقِ أوسطية، فما كان يُعاني من هكذا إشكال. إذ كان للهيمنةِ وزنُها المتكافئُ في كلِّ الأطراف. كما لَم تَكن

> **"ما من أمارةٍ تَدُلُّ على رغبةِ محمد في تأسيسِ مملكةٍ جديدة. كما لا تُوجَدُ أيةُ إشارةٍ إلى أنه رَغِبَ في تأسيسِ سلالة. وقد كانت قوتُه تَكفي لو أنه شاءَ ذلك. هذا وكان بإمكانه أيضاً إعاقة تأسيس مؤسسةِ الخلافةِ منذ البداية. لنُفَسِّرْ موقفه في أول جامعٍ في المدينةِ المنورة: إذ يَدُورُ النقاشُ هناك حول المشاكل الاجتماعية تماماً."**

تتواجدُ الكثيرُ من القوى المُتساقةِ وراءَ احتكارٍ ربحيٍّ تجاه هذه الهيمنةِ خصيصاً. أما الأقوامُ المسيحية، فرغم نِيَّتِها في إنجازِ هكذا ثورة (الأرمن والآشوريون والإغريقُ كانوا مُرَشَّحين لذلك)، إلا أنَّ فُرصتَها في ذلك كانت معدومةً بسببِ بيزنطة التي كانت قوةً سائدةً ونافذةً آنذاك. كما كان الإسلامُ قد قَطَعَ الطريقَ عليها أصلاً. بالتالي، كان الجيشُ بفنِّه القتاليِّ لا يزال في وضعٍ يُخَوِّلُه للاستمرارِ بدوره كأداةِ ربحٍ هي الأكفأ والأهمّ باعتباره احتكارَ السلطة. فنصرٌ واحدٌ كان يَكفي لتَحويلِ بلدٍ أو مجتمعٍ ما إلى ميدانِ غنائم. والمواردُ التي يُحارَبُ لأجلِها كانت لا تتوانى عن التعاظُمِ كالتيهور.

اليمين المتطرّف أيديولوجيّة معاداة تعدّد الثقافات



صلاح الدين مسلم

التمهيد

المطلب الأوّل - نشأة اليمين واليسار

كيف نشأ هذا المصطلح؟ وأين نشأ؟ ما المختلف فيما بينهما (سياسيّاً اجتماعياً اقتصاديّاً فكريّاً)؟

المطلب الثاني - اليمين واليسار في الشرق الأوسط

الفرق بين هذين المصطلحين في الشرق عامّة بعد تمّ استيراد هذين المصطلحين من أوربا. كيف تغلغلت الرسماليّة في اليمين واليسار؟ سيطرة القومية على التيارَين اليساري واليميني. التضارب بين اليمين واليسار. والتضارب في اليمين نفسه واليسار نفسه. فمن هو الأحقّ بتسلّم زمام اليمين المتطرّف في الشرق الأوسط؟

المطلب الثالث - نشأة اليمين المتطرّف

الفرق بين اليمين المتطرّف واليمين الكلاسيكيّ في العالم، ظهور تصنيفات فرعية لليمين، أين ظهر مصطلح اليمين المتطرّف وتعريفاته؟ ومن هم رواده الأوائل؟ ظهور هوية الجنس الأبيض وتفوقه؟

المطلب الرابع - عوامل انتشار اليمين المتطرف

ما هي تلك العوامل؟ التناقض الغربيّ وتأثيره على الشرق، اليمين المتطرّف في إسرائيل، تقاطع مصالح اليمين المتطرّف مع التيارات الأحاديّة الإقصائيّة.

المطلب الخامس - الفوضى الخلاقة (مرتع اليمين المتطرّف) ودعائمها

ما يميّز أعضاء اليمين المتطرّف في العالم، كيف استطاع اليمين المتطرّف العالميّ أن يحوّل ثورات الربيع العربيّ إلى فوضى خلّاقة؟ ما هي دعائم نظرية الفوضى الخلّاقة؟ علاقة الفوضى الخلاقة باليمين المتطرّف، علاقة فوكوياما وهانتغتون بتأجيج نيران اليمين المتطرّف في العالم من خلال نظريتي نهاية العالم وصدام الحضارات، تهاوي القيم الأميركية بعد فضيحة الشمال السوريّ من خلال الغزو التركي على مَن دافع عن العالم ضدّ الإرهاب، التأثير المباشر لدراسات المنظرين الأميركيين على صنّاع القرار في أميركا.

المطلب السادس - اليمين المتطرّف الدينيّ في العالم

تحوّل الدين المجتمعيّ إلى دين السلطة، نشأة التطرّف لدينيّ وصولاً إلى اليمين المتطرّف الدينيّ، كيف أنّ الإسلام السياسي يمينٌ متطرّفٌ بحدّ ذاته؟ المبادئ التي تقوم عليها الدولة الدينيّة حسب عادل ضاهر.

المطلب السابع: اليمين المتطرّف والرأسماليّة

علاقة اليمين المتطرّف باليهوديّة، اليمين المتطرف تيّار يسانده اليهود اليمينيّون المتطرّفون وتسانده الرأسماليّة الماليّة، اليمين المتطرف والحرب وكيف أنّه ضدّ السلام؟ وعلاقة فكرة (مع الحرب) بالحداثة الرأسماليّة.

المطلب الثامن - ضريبة الشمال السوري لفكر اليمين المتطرّف

الشرق الأوسط مهد الأثنيات والأعراق والقوميّات وهو المتضرّر الأكثر لانتشار فكر اليمين المتطرف في العالم، معاداة اليمين المتطرّف لفكرة تعدّد الثقافات، كيف يقود اللوبي اليهودي واللوبي اليوناني والأرمنيّ مسيرة تدمير الشرق الأوسط، ترويض هذا الوحش الذي فلتَ من عقاله وهو الحلّ الحالي.

نشأة اليمين واليسار

إن كان اليسار يمثّل الأيديولوجيا الاشتراكيّة الماركسيّة والتي ترى أنّها تستطيع إعطاء الجواب لكلّ جانب من جوانب الحياة، ولا ترى نفسها جامدة، بل متغيّرة، فاليمين يمثّل الآن الليبرالية التي ترى أنّها ديناميكية متطوّرة حسب معطيات المجتمع، وترفض الأيديولوجيات برمّتها، مع أنّ الأيديولوجيا حسب اليساريين تقدّمُ توصيفاً للنظام القائم، عادة ما يكون في شكل رؤية كونية، وتقدّم أنموذجاً للمستقبل المرجوّ، أي رؤية المجتمع الصالح، وتفسّر كيف يجب ويمكن إحداث التغيير السياسي[1]؟

إنّ مصطلحَي اليمين واليسار مصطلحان فكريّان سياسيان، وكانت نشأتهما نشأة اعتباطيّة، نشأ هذان المصطلحان ما بعد الثورة الفرنسية في مجلس الطبقات، حيث جلس على اليمين مؤيّدو الملكية والأرستقراطيّة، وكان المنادون بإسقاط الملكية على اليسار، وكذلك جلس أصحاب الاتجاه الرأسمالي المحافظ

١ أطروحات فوكوياما وهانتغتون والنظام العالمي (دراسة مقارنة) – تأليف: يحيى سعيد قاعود - مركز البيان للبحوث والدراسات – الرياض – الطبعة الأولى ١٤٣٦ – ص٣٤

> **"لقد زاد انكشاف الستار عن الماهية الحقيقية لِلّيبرالية بشقّيها اليمينيّ واليساريّ مع انهيارِ الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي، وعندما أعلن النظام الرأسمالي انتصاره على المعسكر اليساريّ التقليدي، أخذت الأحزاب اليساريّة في أوربا تنحو يوماً بعد يوم نحو الليبراليّة، وصارت جزءاً مشيّداً للنظام الليبراليّ العالميّ، وهكذا صار مصطلحا اليمين واليسار ألعوبة سياسيّة للوصول إلى الحكم، وانتصرت الليبراليّة في فرض نفسها على النظام العالميّ الجديد."**

يميناً وأصحاب الاتجاه الاشتراكي العمالي يساراً في المجالس النيابية البريطانية، وبات هذا الأمر تقليداً متّبعاً، في المصطلحات السياسية.

إنّ كلا المصطلحَين يعبّران عن المواقف الفكرية والسياسيّة، فمناصرو الفكر اليميني يدعون إلى التدخّل في حياة المجتمع، للحفاظ على تقاليد المجتمع وثقافاته وعاداته، على النقيض من التيار اليساري الذي يدعو إلى المساواة بين أفراد المجتمع الواحد، فالأحزاب اليمينية تنادي بتعزيز وتمتين هيكل النظام الراهن، وأغلبهم موالون للحكم الحالي، فالتيار اليساري يدعو إلى تغيير جذري للأنظمة، والقوانين الحالية.

ظهرت المصطلحات السياسية المتفرعة من اليسار واليمين (اليسار الوسط - اليمين المعتدل - اليمين الديمقراطي - اليسار الاشتراكي....) وصولاً إلى مصطلح اليمين المتشدد أو المتطرف.

وإن كان اقتصادياً ما يميّز بين اليمين واليسار هو الموارد والاقتصاد، فاليسار يرى أنّ الدولة يجب أن تحتكر فائض الإنتاج، بينما يرى اليمين أنّ فائض الإنتاج يجب أن تحتكره السوق والفردية الليبرالية.

يرفع اليمين الشعارات المحافظة المتبنيّة للإصلاح التدريجي والحفاظ على الموروثات بأنواعها، كما يتبنّى عادة ما يُعرف باسم (القانون الطبيعي) والذي يعترف بوجود فروقات شخصية واجتماعية ويجد ذلك حتميًا، إلى جانب اعتناقه الراسخ لأفكار حرية السوق والملكية الفردية وحرية التجارة. على الجانب الآخر يتبنى اليسار مفهومي (العدالة الاجتماعية) و(المساواة) ويعترف عادة بالتقسيم الطبقي، إلّا أنّه يضع الآليات المختلفة لإلغائه أو تحجيمه، كما يعتبر التغيير الجذري والسريع أحد أهم آليات اليسار[1].

لقد زاد انكشاف الستار عن الماهية الحقيقية لِلّيبرالية بشقّيها اليمينيّ واليساريّ مع انهيارِ الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي، وعندما أعلن النظام الرأسمالي انتصاره على المعسكر اليساريّ التقليدي، أخذت الأحزاب اليساريّة في أوربا تنحو يوماً بعد يوم نحو الليبراليّة، وصارت جزءاً مشيّداً للنظام الليبراليّ العالميّ، وهكذا صار مصطلحا اليمين واليسار ألعوبة سياسيّة للوصول إلى الحكم، وانتصرت الليبراليّة في فرض نفسها على النظام العالميّ الجديد. وهيمنت الليبرالية اليمينية واليسارية على العالم الذهني من خلال التحريفات اليمينية واليسارية للديمقراطية الليبرالية.

اليمين واليسار في الشرق الأوسط

أمّا في الشرق الأوسط بات يُقصد باليسار: العلمانية والمعارضة، في حين كانت بعض

---

٢ https://www.ida٢at.com/your-guide-to-h identify-the-most-prominent-yemeni-parties-and-left-/wing

التيارات اليسارية تاريخيًّا تتبنّى معتقدات دينية مثل مارتن لوثر كينغ، الذي قام بثورة في أميركا، حيث اعتبر أنّ الدين ليس له دخل في تصنيف الناس إلى يساريّ أو يمينيّ.

إنّ النظام العالميّ (الحداثة الرأسماليّة) يتغذّى ويقتات بل يصمد بفضل التناقضات بين التيارات الفكريّة المتصارعة في العالم، وفي الشرق الأوسط على وجه الخصوص؛ (اليمين واليسار) (الشيعة والسنّة) (التديّن والعلمانيّة) (الديمقراطيّة والديكتاتوريّة).... فمعظم من يغرّد في سرب اليمين يمجّد التعصّب القوميّ، وكذلك الذين يحلّقون في سماء اليسار يهلّلون للتعصّب القوميّ، ولا يمكن تحليل الشرق الأوسط من خلال الشروحات اليمينيّة أو اليساريّة أو المذهبيّة أو الدينيّة للنخبويين العرب الذين يهلّلون للتطبيع العربيّ لتاريخ الشرق الأوسط الموزايكيّ، وهو لا يختلف عن نظرة القوميين الأتراك للأناضول التي تعتبر تاريخاً موزايكيّاً أيضاً، فالتاريخ محصورٌ في الدولة القوميّة وليدة النشأة، منقطعة الصلة عن التاريخ، وكأنّها نهاية التاريخ بجرعة فوكوياما المدمّرة للتاريخ والثقافة والفكر، فالقضية العربيّة أصبحت تابعاً للحداثة الرأسماليّة بعد تقسيمها إلى ثلاثٍ وعشرين دولة، حيث قطعت الصلة بالتاريخ الحضاريّ والثقافيّ للمنطقة وبالتالي صارت تابعاً للفكر الفوكوياميّ الذي يرى أن الدولة العربيّة الناشئة هي نهاية التاريخ.

بالعودة إلى موضوع اليمين واليسار، فقد اندلعت الاشتباكات بين المجموعات اليمينيّة واليساريّة، فاليمين الليبرالي بات عاجزاً عن إنقاذ نفسه من الدوغمائيّة، وبات التطرّف يجتاح اليسار التقليديّ، فثنائيتا اليمين واليسار لا تعبّر بالصورة المثلى عن الحقيقة، فكان بالأحرى أن تختزل الصورة بالحداثة والتقاليد، أو الواقع الاجتماعيّ والحداثة، أو النظرة إلى التراث، فاليسار القوميّ الضيّق واليمين القوميّ الضيّق هما معضلة الوصول إلى الحقيقة.

إنّ الانحراف اليمينيّ عند اليساريّين، والانحراف اليساري عند اليمينيين، قد خلقا نوعاً جديداً من الصراع للوصول إلى الحقيقة، فمن هو الأحقّ بتسلّم زمام اليمين المتطرّف في الشرق الأوسط؟ (القاعدة – داعش – الأخوان المسلمين – الوهابيّة...) أو من هو الإسلاميّ التركيّ الأصيل (فتح الله غولان وتنظيمه – نجم الدين أربكان وحزبه – رجب طيّب أردوغان وحزبه – داوود أوغلو وحزبه الجديد....) فالتركياتيّة العصريّة هي محور الوعي المشترك لدى كلّ هذه التيارات المتصارعة، سواء في اليمين وفروعه، أو اليسار وفروعه، ولا يمكن أن نختار الأصل من الجذر.

نشأة اليمين المتطرّف

لقد كان اليمين السياسيّ التقليديّ يدعو إلى حماية التقاليد والأعراف داخل المجتمع، ويمكن أن نطلق عليه الجماعات المحافظة على التقاليد، إلى أن نشأ اليمين المتشدّد أو المتطرّف الذي لا يختلف عن اليمين إلّا في طريقة وأسلوب فرض الفكر، فاليمين المتطرّف يدعو إلى التدخل القسري واستخدام العنف واستعمال السلاح لفرض التقاليد والقيم، أمّا اليمين التقليدي فهو لا يمتلك أدوات العنف، ويرى في اللاعنف طريقاً للوصول إلى وسائله، فبالتالي، لا فرق بين الغاية المنشودة إلّا في الوسيلة.

وفي أوروبا هناك عدّة أحزاب (شيوعية، اشتراكية، خضراء، ليبرالية، ديمقراطية مسيحية، محافظة، يمين متطرف).

وهناك تصنيفات أخرى مثل «الليبرالية، الفوضوية» «الشيوعية، الاشتراكية» «المحافظين، الديمقراطية المسيحية». إلا أنّه ما زال تقسيم اليمين واليسار والوسط هو الأكثر شيوعًا مع إدخال تقسيمات فرعيّة في داخل

اليمين واليسار «يمين وسط، يمين متطرف، يسار وسط، يسار متطرف» ولا يعدّ اليمين الوسط محافظًا كاملًا بل يتبنى بعض السياسات الاجتماعية ويتمتع بانفتاح محدود وتقبّل في حدود معينة للتغيير.

إنّ اليسار الراديكالي ثوري ما زال يؤمن بصراع الطبقات والتغيير الجذري ويسار وسط يتقبل بعض السياسات الليبرالية على رأسها حرية السوق مع دور فعّال للدولة في مجال الحماية الاجتماعية. أمّا اليمين المتطرف فيتمسّك بأفكار ومبادئ اليمين المحافظة دون تغيير، وإنّ مصطلح «الطريق الثالث»، هو فكر أيديولوجيّ وسطيّ يعمل على الجمع بين سمات من اليمين واليسار والدمج بينهما.

وقد ظهر مصطلح اليمين المتطرّف حديثاً وكان أول مَن صاغه واستخدمه هو الأمريكي ريتشارد سبنسر[٣] المولود عام ١٩٧٨ والذي يعدّ من أبرز رموز هذا الفكر المتطرف والمتعصب لتفوّق الجنس الأبيض الذي ينتمي إليه، ويستخدم سبنسر مصطلح اليمين المتطرف للإشارة إلى «هوية الجنس الأبيض وتفوقه[٤]».

وقد كان من مؤيديه أيضاً أندرو أنجلين[٥] ومايلو يانوبولوس[٦]

عوامل انتشار اليمين المتطرف

الالتفات إلى الأصول العرقية خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

-1 اندماج الدول الأوروبية في الاتحاد الأوروبي، وهذا ما جعل كلّ دولة أوربية تلتفت إلى أصولها القومية.

-2 أدّى انتشار البطالة في أوروبا والركود الاقتصادي كلّ فترة إلى النظر إلى الأجانب نظرة ازدراء حيث يرونهم مزاحمين على الوظائف وخاصة المسلمين منهم.

فمن ناحية يعتدي الغرب على الشرق ويتدخّل في شؤونه، ثمّ يفتح أبواب الهجرة، وبعدها يستاء السكان الأصليون، ثمّ يظهر المرشّحون الذين يعِدون ناخبيهم بأنّهم سوف يرحّلون المهاجرين أو سيغلقون المساجد، والمظاهر الإسلاميّة، وهناك مرشّحون بالمقابل يقولون: إنّهم سوف يدعمون المهاجرين ليكسبوا أصوات المهاجرين، ثمّ يبدأ التطرّف ويزداد، ويستقبل الشرق أولئك المتطرّفين من جديد، على صورة القاعدة أو النصرة أو داعش أو سواها في المستقبل.

وفي إسرائيل نرى أنّ اليمين المتطرف قوي الشعبية ويدعو صراحة إلى عدم التسامح مع العرب والمسلمين وقتلهم، كما يدعو إلى قتل الأطفال وتشبيه المسلمين بالأفاعي، ومن أبرز المتنفذين في اليمين المتطرف الإسرائيلي الحاخام يعقوب يوسف[٧].

غالباً ما يتم وصف اليمين المتطرف على أنه حركة أو أيديولوجية، لكن التفسير الأقرب هو «كتلة سياسية» تسعى لتوحيد أنشطة حركات أو أيديولوجيات متطرّفة ومختلفة، ومصطلح اليمين المتطرف يشير في غالبيته العظمى إلى القوميين من الجنس الأبيض الذين

---

٣ ريتشارد سبنسر: أمريكي الجنسية هو أول مَن استخدم مصطلح اليمين المتطرف ليعبر عن تفوق الجنس الأبيض وهو رئيس معهد السياسة القومية، ويدعو إلى «التخلص السلمي» من كل الأعراق غير البيضاء في أمريكا، وإلى توحيد أوروبا كوطن للبيض فقط، يشبه نفسه بأدولف هتلر وتم تصويره أكثر من مرة وهو يستخدم التحية النازية ويلقي عبارات استعملها الزعيم النازي.

٤ https://www.ida٢at.com/your-guide-to-identify-the-h /most-prominent-yemeni-parties-and-left-wing

٥ أميركي من مواليد ١٩٨٤ مؤسس موقع ذا ديلي ستورمر اليميني المتطرف، يؤمن بتفوق الجنس الأبيض ويعتبر هتلر مثلا أعلى.

٦ بريطاني الجنسية من مواليد ١٩٨٤ يعمل كاتباً ومحللاً سياسياً، وكان رئيساً لتحرير موقع برايبارت نيوز الأمريكي وهو موقع يميني تأسس عام ٢٠٠٧، وكان هذا الموقع سبب شهرته على نطاق واسع ليصبح من أبرز المؤثرين في الفكر اليميني المتطرف، معروف بآرائه المعادية للإسلام وللمرأة وللعدالة الاجتماعية. هو أيضاً ينادي بسيطرة الجنس الأبيض وتفوقه.

٧ https://ar.m.wikipedia.org/wiki/%D٩ D٩%٨٥%AA%D٩%٦ ٨١%D٩%B١%DA%BV%AA%DA%DA%٨٥%D٩%_٨٦%AA%D٩%

> **إنّ اليسار الراديكالي ثوري ما زال يؤمن بصراع الطبقات والتغيير الجذري ويسار وسط يتقبل بعض السياسات الليبرالية على رأسها حرية السوق مع دور فعّال للدولة في مجال الحماية الاجتماعية. أمّا اليمين المتطرف فيتمسّك بأفكار ومبادئ اليمين المحافظة دون تغيير، وإنّ مصطلح «الطريق الثالث»، هو فكر أيديولوجيّ وسطيّ يعمل على الجمع بين سمات من اليمين واليسار والدمج بينهما.**

يؤمنون بتفوقه على غيره من الأجناس[٨].

إنّ أهمّ ما يدعو إليه اليمين المتطرّف هو معاداة تعدّد الثقافات، والحضّ على الكراهيّة، ومعاداة المرأة، والعودة إلى الوراء، حيث ثقافة الرجل الأبيض القويّ المسيطر على الواقع، مع العلم أنّ هذا الرجل الأميركيّ الأبيض هو دخيل على ثقافة أميركا، فكما قضى على ثقافة الهنود الحمر في أميركا، فإنّه يريد أن يقضي على كلّ الثقافات في العالم، وبالتالي تتقاطع مصالح اليمين المتطرّف مع كلّ الحركات الإرهابيّة في الشرق ذات اللون الواحد، والفكر الواحد وتدمير الثقافات، والآثار، كتنظيم داعش الإرهابيّ ومثيلاتها في الجيش الوطنيّ؛ مرتزقة أردوغان، وكذلك تتقاطع مصالح اليمين المتطرّف مع التيارات الأحاديّة الإقصائيّة، كحزب العدالة والتنميّة بقيادة أردوغان، فعلى الرغم من انتشار اليمين المتطرف حول العالم، فإن مركز الثقل الخاص به هو الولايات المتحدة الأمريكية، وبحسب موقع ذي أتلانتيك، فإنّ الولايات المتحدة غارقة في موجة من التطرف آتيةً من قمة الهرم من خلال السموم اللفظية التي يلقي بها الرئيس الأمريكي دونالد ترامب يومياً من فوق أكبر منصة إعلامية في العالم وهي الرئاسة الأمريكية، وقد فتح استدعاء ترامب المستمر للعنف وشيطنته لمعارضيه السياسيين بوابات اندفع منها طوفان الكراهية بين مجتمعات يستعر فيها الغضب منذ فترات طويلة.

الفوضى الخلاقة (مرتع اليمين المتطرّف) ودعائمها

إنّ ما يميّز أعضاء اليمين المتطرّف في العالم أنّهم لا يصنّفون كإرهابيين، مع أنّهم داعمو الإرهاب، فالأقطاب العالميّة التي دمّرت سوريا والعراق، ومازالت تدمّرُها، إنّهم أنيقون يأتون إلى المحافل في أزياء رسميّة جميلة، لا يميّزون أنفسهم مقارنة بالنازيين الفاشيين، فلا شكّ أن العالم قد تدمّر من خلال هذه النازيّة، فاليمين المتطرّف يقود العالم مرّة أخرى إلى الهاوية، فلن يكتفوا بملايين الناس التي شرّدت في سوريا والعراق واليمن، فمازالوا يشعلون الشارع في لبنان والعراق، ويزيدون في تأجيج الوضع، وكلّ هذا يصبّ في مصلحة هذه الفكرة المدمّرة للكون (الفوضى الخلّاقة).

فالسؤال الذي عاد إلى الواجهة بعد ثورات الربيع العربي، أهذه هي الثورات الخلّاقة أم هي الفوضى الخلاقة؟ أم هي ثورة الشعوب واستطاع اليمين المتطرّف العالميّ أن يحوّلها إلى فوضى خلّاقة؟ وهو مصطلح كونداليزا رايس وزيرة خارجية أميركا حينها، عندما ذكرت هذا المصطلح حيث ترى أنّ الطريقة المثلى لتغيير الشرق الأوسط نحو الأفضل.

تقوم نظرية الفوضى الخلاقة على عدّة دعائم، هي:

٨ https://www.ida٢at.com/your-guide-to-identify-h /the-most-prominent-yemeni-parties-and-left-wing

1- إطلاق الصراع الطائفي
2- إطلاق صراع العصبيات
3- ضرب الاستقرار الأمني
4- خلخلة الوضع الاقتصادي
5- التعبئة الإعلامية [٩]

لا يمكن أن نعتبر الفوضى الخلاقة إلّا يميناً متطرّفاً مقنّعاً، أو هي المرتع الخصب لنموّ اليمين المتطرف، ومسرح عمليّاته في ظلّ تخلخل النظام الدولتيّ والمجتمعيّ، أو اللاحلّ واللاجدوى. فالسياسة الأميركية تنتهج من نهج فوكوياما وهانتغتون أيديولوجيّتها في تفسير العالم وتفسير الشرق الأوسط. فالاستراتيجيّة الأمريكيّة ترتكز على أيديولوجيا أميركية نابعة من مدرستين: الأولى صاغها فرانسيس فوكوياما تحت عنوان (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) ويقسم فيها العالم ما بين عالم تاريخي غارق في الاضطرابات والحروب، وهو العالم الذي لم يلتحق بالنموذج الديمقراطي الأمريكي. وعالم آخر ما بعد التاريخي الديمقراطي الليبرالي الآمن على الطريقة الأمريكية.

ومن العوائق التي تحول دون تطبيق الديمقراطيّة حسب نظرية فوكوياما، عوامل الدين والبنية الاجتماعيّة. والثانية صاغها صموئيل هنتجتون تحت عنوان صراع الحضارات، معتبراً أنّ النزاعات والانقسامات في العالم سيكون مصدرها حضاريّاً وثقافيّاً. ويقسم الحضارة العالمية المتبقيّة إلى ثمانية وهي: الغربية والإسلاميّة والكونفوشيوسية واليابانية والهندوسيّة والسلافيّة واللاتينية والأفريقية. واعتبر أنّ النزاعات الدولية سوف تحدث بين أمم ومجموعات لها حضارات مختلفة. ذلك أنّ الخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون هي خطوط المعارك في المستقبل[١٠].

إنّ فوكوياما يفترض تلاقي المنظومات العالميّة السياسيّة والاقتصاديّة، ثمّ منظومات القيم وأنّ الديمقراطية والرأسمالية قد فازت ولا يوجد في الأفق قوى قد تنتج عنها أحداث مهمّة. أما هانتغتون فإنّه يتنبّأ باستمرار اختلاف المنظومات العالميّة السياسيّة والاقتصاديّة، وأنّ العالم على حافة صدام الحضارات[١١].

إنّ اليمين المتطرّف الذي يسيطر عمليّاً على القرار الأميركيّ هو الذي أفتى بضرورة ضرب الأوراق في الشمال السوريّ. فالشمال السوريّ يعيد إحياء الثقافات، وفيه التعايش المشترك، واللانزاعات، واللاأثنيات المتحاربة، وهذا لا يرضي اليمين المتطرّف في أميركا وبريطانيا وإسرائيل وتركيا... على أقل تقدير. فالمستشارون اليهود الأحد عشر لترامب يصارعون القيم الأميركية التي باتت تتهاوى يوماً بعد يوم في فضيحة الشمال السوريّ: بعد الغزو التركي للشمال السوريّ الذي دافع عن العالم ضدّ الإرهاب، فهذا الائتمان الأميركي على الحضارة الغربيّة وعلى مبادئ الديمقراطيّة الليبرالية جعلها تحمل هذا الشعار للتدخّل في الشرق الأوسط. فالتنظير الأيديولوجيّ لفوكوياما وهانتغتون في ظلّ النظام العالمي الجديد، هو تنظير لأيديولوجيا المصلحة والاقتصاد بالدرجة الأولى، وليس أيديولوجيا فكرية سياسيّة، وما إنتاج ترامب إلّا نتاجاً لهذه الأيديولوجيّة. فلو رشح شخص مثل ترامب قبل عشرين عاماً في أميركا لما حصل على أكثر من ألف صوت وهي أصوات عمال شركاته فقط.

لا شكّ أنّ دراسات المنظّرين الأميركيين لها تأثير مباشر على صنّاع القرار في أميركا، وبالتالي ندفع ضريبة فوكوياما وهانتغتون. فأين هذا التاريخ الذي انتهى بنظر فوكوياما؟ فبدلاً أن ينعم العالم بالسعادة الإنسانيّة التي بشّر بها، فها هو العالم يئنّ تحت ضراوة الحروب، وحتّى أنّ الغرب لم يهنأ ، فالأزمة العالمية عام ٢٠٠٨ كانت نتاج هذا التهوّر.

٩ الفوضى الخلّاقة – رمزي المنياوي - دار الكتاب العربي – الطبعة الأولى - القاهرة ٢٠١٢ – ص٢٧
١٠ المصدر السابق – ص٢٩
١١ أطروحات فوكوياما وهانتغتون والنظام العالمي (دراسة مقارنة) – تأليف: يحيى سعيد قاعود - مركز البيان للبحوث والدراسات – الرياض – الطبعة الأولى ١٤٣٦ – ص١٤

لقد راقت أفكار هنتغتون وفوكوياما للمحافظين الجدد ولليمين المتطرّف، وصارا يحرّكان العالم وفق هذه النظرية، وصار هناك اتّفاق ما بين اليمين المتطرّف والمحافظين الجدد، وبات المحافظون الجدد في كلّ العالم يتحالفون مع اليمين المتطرّف الذي يسيطر على اقتصاديات العالم، ويسيطر على الرأسمال المالي.

"إنّ أطروحات فوكوياما وهانتغتون وفق نظرتهم لدول العالم، أدّت إلى زيادة الاستعمار في الشرق الأوسط، وهو استعمار يحمل فكراً جديداً وكان نموذج هذا الاستعمار كما دعا له فوكوياما وهانتغتون في العراق وأفغانستان، واستمراراً لاحتلال فلسطين[١٢]."»

اليمين المتطرّف الدينيّ في العالم

صحيح كانت الثورات الدينيّة إنقاذاً للبشريّة، لكن بعد أن سيطرت الدولة على الدين منذ اعتناق قسطنطين الدين المسيحيّ والبشرية تدفع ثمناً باهظاً لهذا التطرّف الدينيّ، سواءً من قبل الدولة الحاكمة باسم الدين، أو الجماعات المناهضة المتطرّفة التي ترفض كلّ شيء بعيدٍ عن معتقداتها المقدّسة.

يعتبر الإسلام السياسيّ يميناً متطرّفاً عند العرب والمسلمين على حدّ سواء، وذلك من خلال ربطها الدين بالسياسة، ولا يجب تفسير أيّ شيء من خلال النصوص الدينيّة المقدّسة التي تعدّ مرجعها السماء والعناية الإلهيّة، ورفض أيّة فكرة خارج إطار الدين، فإنّ إقامة السياسة على منظور الدين من وجهة نظر معتنقي فكرة الإسلام السياسيّ يضعهم على مستوى أخلاقيّ وروحي فوق مستوى البشر الذين يؤسّسون السياسة على أسس علمانيّة، وهذا واضح في فكر منظّري الحركات الإسلاميّة، «فسيّد قطب الذي يعتبر من أبرز هؤلاء المنظّرين، يعتبر كلّ حالة لإقامة السياسة على أسس علمانيّة ضرباً من الجاهليّة، ولذلك فهو لا يتورّع، مثلاً، عن اعتبار مواقف لا سند لها في القرآن أو السنّة، كالاشتراكيّة، والرأسماليّة، والديمقراطيّة، تعبيراً عن جاهليّة عمياء[١٣]."»

من هنا جاء التطرّف اليمينيّ الإسلامي، وصار كلّ من يتبنّى أيّ موقف فكريّ سياسيّ خارج هذا الإطار كفراً وإلحاداً وشركاً بالله، وخروجاً عن الإسلام، فالجاهلية تعني الفسق والفجور والإلحاد حيث الفساد الأخلاقيّ والروحيّ، وهي التهمة الجاهزة لكلّ من يخالف النصّ المقدّس، فهو النصّ الذي لا يقبل المساس.

مثلما يعتبر إقامة دولة إسلاميّة على أساس قواعد مستخرجة من قراءته السياسيّة للنصوص المقدّسة (القرآن والسنّة) واجباً دينيّاً، كذلك هو الحال بالنسبة للأحزاب اليهوديّة في إسرائيل. نذكر هنا على سبيل المثال، أحزاباً مثل حريديم وغوش إيمونيم اللذين لا يقفان عند حدّ تزويد وجود إسرائيل بأساس دينيّ مزعوم، بل يذهبان إلى حدّ المطالبة بجعل النصوص الشرعيّة لدينهم (هالاخا) مثلاً أساس الدولة العبرية[١٤].

أمّا التيارات الأصوليّة المسيحيّة الممثلة بصورة خاصّة باليمين في الولايات المتّحدة، فإنّها وإن لم تذهب إلى حدّ المناداة بإقامة دولة مسيحيّة، فهي، مع ذلك، لا تتورّع عن اعتبار الواجبات الدينيّة غير مقصورة على الشعائر والعبادات. وقد ذهب قادة هذه الحركات، مثلاً، إلى اعتبار العمل على إلغاء العجز في الميزانيّة الفيدراليّة للولايات المتّحدة واجباً دينيّاً على أساس قراءته وفهمه لبعض نصوص العهد الجديد.

إنّ الأصوليّة الدينيّة تعود إلى النص المقدّس وتقرأه حرفيّاً، دون أيّ تغيير أو تطوير، وهنا إصرار على تسييس كلّ شيء في النصّ المنزّل المقدّس، ومن هنا ينشأ اليمين المتطرّف الدينيّ.

١٢ المصدر السابق – ص ٣٢٩

١٣ أولية العقل – نقد أطروحات الإسلام السياسّي – عادل ضاهر – دار أمواج – الطبعة الأولى – بيروت ٢٠٠١ – ص ٨

١٤ المصدر السابق – ص ٩

فلا اجتهاد في موضع النص، والعقل قبل النقل.

يحدّد الكاتب عادل ضاهر ثلاثة مبادئ تقوم عليها الدولة الدينيّة، وهي:

المبدأ الأوّل: عقيدة الدين التي تعتمد على أيديولوجية الحكم على مصادر التشريع.

المبدأ الثاني: هو الحكم باسم الله أو نيابة عن الله، وتفسير النص المقدّس من الرجال فقط، ومن فئة من الرجال فحسب، وهذه الفئة هي الوحيدة التي تعرف ما يريده الله، والوحيدون القادرون على تنفيذ ما يريده الله.

المبدأ الثالث والأخير: هو مبدأ مركزانية سلطة النخبة15.

إنّ نجاح أيّة جماعة من الجماعات المتمثّلة للإسلام السياسيّ في إحكام قبضتها على السلطة السياسيّة إحكاماً تامّاً، فمن منظورها الإيديولوجيّ لا جماعة سواها تمثّل إرادة الله. ولن يكون هذا الاحتكار للسلطة، من وجهة نظرها ترتيباً مؤقّتاً، بل ترتيباً دائماً تفرضه طبيعة البشر من حيث هم، بحسب وصف الخميني، حيوانات بحاجة إلى ترويض بواسطة التعاليم الدينيّة.

اليمين المتطرّف والرأسماليّة

كتب في مقال في موقع الجزيرة عن اليمين المتطرف: «ويتميز اليمين المتطرف في أوروبا بمعاداة شديدة لليهود، لاسيما في ضوء تمكن اللوبيّات اليهودية والصهيونية من مفاصل الاقتصاد والإعلام في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، كما اشتدت تلك النزعة مع استغلال تلك اللوبيّات "المحرقة النازية ضد اليهود" لممارسة نوع من الإرهاب الفكري والأخلاقي للأوروبيين خاصة بعد قيام إسرائيل في عام ١٩٤٨ كما أنّ لليمين المتطرف نزعة متأصلة نحو رفض الرأسمالية والليبرالية ليس

١٥ المصدر السابق – ص ٣٦٨

يعتبر الإسلام السياسيّ يميناً متطرّفاً عند العرب والمسلمين على حدّ سواء، وذلك من خلال ربطها الدين بالسياسة، ولا يجب تفسير أيّ شيء من خلال النصوص الدينيّة المقدّسة التي تعدّ مرجعها السماء والعناية الإلهيّة، ورفض أيّة فكرة خارج إطار الدين، فإنّ إقامة السياسة على منظور الدين من وجهة نظر معتنقي فكرة الإسلام السياسيّ يضعهم على مستوى أخلاقيّ وروحي فوق مستوى البشر الذين يؤسّسون السياسة على أسس علمانيّة.

لذاتهما، وإنما خوفاً من التحوّلات العميقة التي عادة ما تصاحبهما، خاصةً على مستوى القيم والأخلاق، بل إنّ اليمين المتطرف معروفٌ بتحفّظه على بعض مقتضيات مواثيق حقوق الإنسان في الغرب، ودافعه إلى ذلك دينيّ نابع في أساسه من التقاليد المسيحية[١٦].»

بالطبع ما أشير إليه في مقالي هذا هو (اليمين المتطرّف أيديولوجيّة معاداة تعدّد الثقافات) وليس كتيار سياسي يتركّز أساساً بأوروبا ويتبنّى نزعة متطرفة معادية للمسلمين واليهود والأجانب، ولديه تمسّك متطرّف بالقيم الوطنية وبالهوية السياسية والثقافية واللغوية، ويتّسم بميل شديد للمحافظة الدينية المسيحية، وإنّما أتحدّث عن مؤيّدي هذا التيار باطنيّاً، وأختلف مع هذا المقال في الجزيرة حول أنّ اليمين المتطرف يعادي اليهود، بل هو

١٦ https://www.aljazeera.net/encyclopedia/conceptsand terminology/٢٠١٥/١١/٣٠/%D٨٧%D٨٤%D٩%٨٨%D٨%٨٧%D٨%٨٨%D٨%٨٨%D٨%٨٨

تيّار يسانده اليهود اليمينيّون المتطرّفون، وهو تيار تسانده الرأسماليّة الماليّة، فهو التيار الوحيد في العالم القادر على خلق الحروب والفوضى والنزاعات، وعلى التدمير ونسف الثقافات والهويّات التي ترفضها ذهنيّة فوكوياما وهانتغتون؛ منظّري الرأسمالية العالميّة، حيث تبنّت الرأسماليّة الماليّة هاتين النظريتين، وجعلتهما أيديولوجيّة القرن الواحد والعشرين.

إنّ الرأسماليّة المالية واليمين اليهوديّ المتطرّف مع فكرة الحرب، وكلّ هذه الحرب الدائرة في الشرق الأوسط هي بدعم من هذا التيار، وعرقلة الحلول هي من صنع هذا التيار، فسواء الماسونيّة أو اليمين المتطرّف أو المافيات أو الدول العميقة... وغيرها من المؤسسات التي تروّج للحرب هي التي لا تريد أن يكون هناك نظام السلام والاستقرار، بل على العكس، فهناك ترويج للصفقات عبر هذه الحرب، وهناك شعوب تئنّ، وترزح تحت سقف الحرب والدمار والتشتّت، ولا يوجد حلٌّ في الأفق، ومصطلحات هنا وهناك حول تبسيط الأمور وجعلها ساذجة، إنّ اليمين المتطرّف هو الغول الذي سيفترس كل القوميّات، والمبادئ والأخلاق، ليظهر شعب روبوتيّ استهلاكيّ لا هوية له، وكلّ هذه الترسانة الإعلاميّة تروّج لهذا النفاق العالمي الذي فقد شرعيته الأخلاقيّة على الأقل في السنوات العشر الماضيّة.

ضريبة الشمال السوري لفكر اليمين المتطرّف

لا شكّ أنّ كلّ الأقليّات والأثنيّات وأصحاب البشرة السوداء والصفراء... يدفعون الثمن غالياً نتيجة انتشاء اليمين المتطرّف في العالم، وتبنّي الرأسماليّة الماليّة هذا الفكر غير الإنسانيّ، وكذلك الشرق الأوسط يدفع الثمن غاليًا، كون الشرق الأوسط مهد الأثنيات والأعراق والقوميّات، ومن أكثر المتضرّرين هم شعوب الشمال السوريّ، فهذه التجربة التي تصبّ في مصلحة العيش المشترك بين المكوّنات لا تخدم اليمين المتطرّف، فلذلك قرّر داعش مهاجمة الشمال السوري عوضاً عن التوجّه جنوباً نحو العاصمة دمشق، فهذا الفكر المتطرّف لا يستطيع أن ينتشي في ظلّ وجود مشروع يؤكّد على المساواة والتعدّدية واللامركزيّة، والديمقراطيّة والحرّيّة، والتركيز على إحياء الثقافات المندثرة.

هناك تحالفٌ خفيٌّ بين اليمين المتطرف في أنحاء العالم، ورضىً من اليمين المتطرف في كلّ أنحاء العالم، فترى تحالفاً بين الرئيس ترامب والرئيس أردوغان لوأد هذه التجربة الديمقراطية في الشمال السوريّ، فلولا ترسّخ الديمقراطية وعراقتها في الولايات المتحدة لباع الرئيس ترامب كلّ الشمال السوريّ للرئيس أردوغان، لتتعقّد المسائل أكثر فأكثر.

إنّ اللوبي اليهودي واللوبي اليوناني والأرمنيّ يقودان مسيرة تدمير الشرق الأوسط، وتدمير ثقافته وهويته، وطابعه، وخلق شرق أوسط جديد قائم على الروبوتيّة ونسيان الماضي، والعيش في الجهالة والانحطاط الأخلاقيّ، وما تشجيع الأخوان المسلمين في العالم، وتسهيل كل خطواتهم إلّا دليلاً على هذه العقليّة، ولن نبالغ إن قلنا: إنّ مشروعَي روجآفا والشمال السوري هو العائق، والحدث غير المحسوب له من قبل قوى الرأسمال العالميّ، ويتمّ التعامل مع هذا الملفّ بطريقة لا أخلاقيّة البتّة، وما السماح لتركيا بغزو جرابلس حتّى أعزاز وعفرين، وآخرها غزوة كرى سبي - تل ابيض حتى سرى كانيه (رأس العين) إلّا من نتاج هذا الفكر.

فلابدّ من أن يروّض هذا الغول أو هذا الوحش الذي فلت من عقاله، وما الحلّ إلّا بالوعي وإدراك الخطر، والتعامل بدبلوماسيّة وتعريف جديد للدفاع المشروع لدى الشعوب المنتكسة والتي تدفع ضريبة هذا التهوّر.

نشأة اليمين المتطرف في الشرق الأوسط عبر التشدد الديني، سواء السني أو الشيعي أو المسيحي، وعلاقته بنشأة التيار الديني القومي



اسماعيل خالد اسماعيل

المقدمة

لعلّ أشد أنواع المعاناة التي تتعرض لها الشعوب في الفترات العصيبة من حياتها هو ذلك التنافر الشديد في الرؤى الفكرية التي تحاول رسم مسار حياة الأمة نحو الأفضل، تنافر قد يبلغ حداً يُعطل فيه توازن المجتمع، وتشّل حركته، لما يسيطر فيه من حدّة وتعصّب يصلان في أحيان إلى حد التكفير والتجريم الّذي يمارسه كل طرف على غيره، وإلى حدّ يُخرج وسيلة العنف من مخبئها لتكون أداة الإقناع الوحيدة وشطب الآخرين .

يمكن القول ومن خلال الدراسات المتنوعة إنّ التعصب الديني هو أساس التطرّف، ويعزوها البعض إلى التخلف المستشري في المجتمعات العربية خاصة، والمسلمة منها عامّة.

ما دامت مجتمعاتنا تسمح لفقيه أمّي أن يحشر نفسه بين

العلماء، ويقول: ما يشاء باسم الله شخصياً. فلا مفرّ من وقوع الكارثة، ولا مفرّ من أن يغرق مجتمعنا في موجة بعد موجة من خريجي هذه المدارس الذين تم تنويمهم من قبل أن يستيقظ، وعهد إليهم مجمل مسؤولية الهدم والبناء، وهم عزل من كلّ سلاح سوى سيف التعصب الأعمى في أيدي ملايين العميان

عندما يولد الإنسان، ولا خيار له في أمرين، اسمه ودينه، فالغالبية العظمى بل المطلقة من البشر، لم يختاروا دينهم، فمنذ أن يتعلم الإنسان الكلام، تفرض عليه ثقافة تراثية، هي دين الأهل، وتظل تلازمه، هذا إضافة إلى المنابر بأنواعها؛ منابر بيوت الدين، إضافة إلى وسائل الإعلام التي تسير باتجاه واحد.

نشأة اليمين المتطرف في الشرق الأوسط عبر التشدّد الديني

الدين ينتقل بالوراثة، والمشكلة التي لا يستثنى فيها أحد أن كلّ إنسان يعتقد أن دينه هو الأفضل، مهما بدا هذا الدين ناقصاً بالنسبة لمعتنقي الدين الآخر، وإلا كان هجره إلى الآخر.

إني أؤمن إيماناً عميقاً بأنّ الدين علاقة خاصة، بل شخصية بين المخلوق وخالقه، وإنّ ميدانه الأصيل هو: الكنائس والمساجد والجوامع والزوايا والتكايا والخانقاهات والربط وحلقات الذكر وحضرات الصوفية ومجالس دلائل الخيرات والخلاوى والحسينيات والمزارات الشريفة والعتبات المقدسة. وإنّه إذا عاد أحدهم هذه الأماكن تغيرت كينونته، مثل السمكة إذا خرجت من الماء.

هنا تبرز كيفية علاقة الإنسان بالدين فقط، من خلال ما ذكره ولا يربطه إطلاقاً بالسياسة

وإنّ كمال وتفرد الدين يتضمّنان أنها من وجهة نظر أتباعها بمثابة الديانة الأفضل، لكنّها في الواقع هي هكذا بالنسبة لهم، ولكنها ليست بالضرورة كذلك بالنسبة للأناس الآخرين.

إنّ هذا يجعل الذين يتبعون ديانة محدّدة يتمسّكون بتعاليمها على اعتبار أنّها هي التعاليم الوحيدة الصحيحة، وإنّ الديانات السابقة، أو اللاحقة، بمثابة خروج على الدين الصحيح – في رأيهم – أو هرطقة. وهذا ينفى روح التسامح عن الدين، ذلك أنّه لا يسمح بالتعدّدية – تلك التي ظهرت فقط في العصر الحديث بعد القول بالمساواة بين البشر بغض النظر عن اللون أو الجنس أو الدين

عندما يختلف المسلمون، فلا بد أن يكون هناك طرف مخطئ وآخر مصيب، حسب رأيهم، وعندما تضيق الصدور وتتقطع سبل الحوار ويغيب عن الناس فإن الاحتماء بالنصوص الشرعية في تجريح اعتقاد الآخرين وارد وراجح، وهنا يمكن التمييز بين دوائر ثلاث للخلاف بين المسلمين: فهناك خلاف بين الفرق الإسلامية المختلفة (شيعة – سنة – زيدية – إباضية) وهناك خلاف بين مذاهب السنة، حيث القطاع الأكبر من المسلمين.

وهناك خلاف ثالث يتجاوز الأمور الدينية ليثور حول المسائل الدنيوية، مما يفتح الباب للحديث عن أمور هي محل جدل، مثل تعدد الأحزاب السياسية والمعارضة في المجتمعات الاسلامية

اليمين المتطرف وعلاقته بنشأة التيار الديني القومي

شهد القرنان التاسع عشر والعشرون في منطقة الشرق الأوسط تنامي هيمنة إنكلترا وأمريكا والاتحاد السوفياتي وفرنسا. وأصبحت أنظمة السلطات المهيمنة تدار من قبل الدول القومية المشادة خلال القرون الأربع الأخيرة، وتعابير الدول المستقلة شبه المستقلة والتي أسقطتها أيديولوجية البرجوازيات على السلطة.

حيث كانت أهداف الهيمنة الرأسمالية هي

احتكار الدولة القومية التي هي وسيلة لتجدّر الأزمات وتعزيزها، وذلك من خلال التطرف الديني ودعم الحركات اليمينية، حيث تمّ استخدام رجال الدين المسيحي في الإمبراطورية العثمانية، ورجال الدين الإسلامي (السني – الشيعي) في الدول العربية ودول غرب آسيا.

لقد عاش التيار السني من الإسلام حالة سكونية معرفية متحجرة، اعتمدت على تناغم مدروس بين المشايخ والحكام: تناغم يضمن فيه المشايخ للحكام أعلى حالات السكونية الاجتماعية - العقلية- المعرفية، وبالتالي - الاستقرار السياسي. مع ذلك، فهذا التناغم عرف في العصر الحديث - وهو ما يهمنا هنا - هزّتان عنيفتان: الأولى في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مع ظهور المفكّرين المتأثرين بالغرب، والذين نادوا بنوع من التحديث في الإسلام: لكن هذه الهزة انتهت (أو أُنهيت) مع زوال الحقبة الليبرالية القصيرة، وبداية ما سمي بالاشتراكية القومية (وهي طبعاً ليست اشتراكية ولا قومية، بل أصولية إسلامية محدثة)؛ والثانية بدأت في نهاية السبعينات من هذا القرن (العشرين) مع انحسار المدّ القومي الاشتراكي (انحسار طبيعي؛ لأنه كان مدّاً شاعرياً، وليس عقائدياً فكرياً) وظهور بعض المفكرين النقديين، خاصة في مصر، وإلى حدّ ما في لبنان وسوريا. وما ردّات الفعل المريعة التي تواجه بها الهزة الأخيرة من المدافعين عن متحف السكونية المعرفية (أو أصحابه) إلّا الدليل الدامغ على عمق تأثير الهزّة واتساع نطاقها .

لا تزال ثقافة الشرق الأوسط بعيدة عن استيعاب وفهم كيفية غزوها خلال القرنين الأخيرين، وبوسعنا استخلاص ذلك بأكثر حالاته شفافية، فما يزعم أنّها حروب الاستقلال والتي دارت رحاها في القرنين الماضيين سواء

> **”إني أؤمن إيماناً عميقاً بأنّ الدين علاقة خاصة، بل شخصية بين المخلوق وخالقه، وإنّ ميدانه الأصيل هو: الكنائس والمساجد والجوامع والزوايا والتكايا والخانقاهات والربط وحلقات الذكر وحضرات الصوفية ومجالس دلائل الخيرات والخلاوى والحسينيات والمزارات الشريفة والعتبات المقدسة. وإنّه إذا عاد أحدهم هذه الأماكن تغيرت كينونته، مثل السمكة إذا خرجت من الماء.“**

باسم الإسلاموية السلفية، أم باسم القومية العلمانية هي في حقيقتها حروب ترمي إلى تصعيد الهيمنة الرأسمالية لا غير، حيث طوّر هذان الأسلوبان الإسلاموية والقومية كنسختين مشتقتين من الإيديولوجيا الاستشرافية، واستخدما تأسيساً على احتلال الذات بالذات، تحت اسم الرأسمالية أي أنه وفيما خلا بضعة من الحروب الريادية، فقد حقّق النظام المهيمن توسّعه ونموّه في واقع الأمر بيد الشرائح النخبوية في ثقافة الشرق الأوسط، عن طريق تلك الأجهزة الأيديولوجية والسياسة (السلطة) وهذه النقطة بالغة الأهمية، ومن دون فهمها لن يكون بمقدور تحليل أو حل الوضع الراهن للشرق الأوسط، وستبقى المنطقة تتخبّط في معمعان الفوضى عبر مشاريع النظام المهيمن (الشرق الأوسط الكبير) سعياً إلى تفكيكها وإعادة بنائها على خلفية المصالح الجوهرية للأنظمة القائمة .

مما لا شك فيه أن نشأة التطرف الدينيّ

مرتبط بدرجة كبيرة بظهور الحركات الدينية التي رهنت وجدوها واستمرارها بأجندات مخابراتية دولية عبر تنفيذ تلك الأجندات العابرة للحدود في دول بدأت فيها الإضرابات تتصاعد نتيجة ممارسات وضغوط تلك الجهات الدولية.

وتقاطع المصالح المشتركة للتيارات الدينية في الشرق الأوسط والأحزاب اليمينية (القومية) في الدول الكبرى والتي يمكن رؤية ذلك جلياً في القرن العشرين التي تحولت إلى بؤرة تجمع فيها تلك التنظيمات المتطرفة والتي بدأت في مصر بظهور تنظيم (الإخوان المسلمين السنية) بدايات عام ١٩٢٩ والتي كانت بدعم مباشر من المخابرات البريطانية.

حيث تعتبر أوائل الجماعات الإسلامية في القرن العشرين، وتعتبر مصدر تطرف أغلب الجماعات الإسلامية من بعد، وخرج من تحت عباءتها العديد من المتطرفين، تأسست على يد حسن البنا بالإسماعيلية في مصر عام ١٩٢٨. وهو أمر لم يتيسر لأيّة جماعة دينية فى المنطقة من قبل، واستطاعت أن تمثل في الانقلابات الدستورية، وفشل المفاوضات مع الإنكليز.

اتّخذت الجماعة منذ تأسيسها العنف وسيلة، وقامت باغتيال عدد من الشخصيات، وتكوين جناح عسكريّ، مهمّته الاغتيالات والقيام بالعمليات الإرهابية، ويتمّ تصنيفها كجماعة إرهابية في عدد من دول العالم مثل: روسيا وكازاخستان، السعودية مصر الإمارات.

وهذه الجماعة أسست فيما بعد تنظيمات انتقلت إلى الأردن والعراق، ومنها إلى سوريا منذ ١٩٤٨ وتحوّلت فيما بعد في بداية الستينيات (١٩٦٤) القرن المنصرم إلى ميليشيات دمويّة تنتهج الإرهاب سياسة له، عبر تنفيذ عمليات اغتيال وقتل وتفجير وتخريب وغيرها.

الجماعة الإسلامية: جماعة إسلامية دعوية نشأت في الجامعات المصرية في أوائل السبعينيات من القرن العشرين بحجة "الجهاد" لإقامة "الدولة الإسلامية" وإعادة "المسلمين إلى التمسّك بدينهم وتحكيم شرع الله. عرفت الجماعة بفكرها المتشدد الإسلامي والوهابي، وارتبطت بأشكال العنف في مصر، خاصة ضد قوات الأمن المصري طوال فترة الثمانينيات، وتورّطت في العديد من العمليات الإرهابية.

شهد القرنان التاسع عشر والعشرون في منطقة الشرق الأوسط تنامي هيمنة إنكلترا وأمريكا والاتحاد السوفياتي وفرنسا. وأصبحت أنظمة السلطات المهيمنة تدار من قبل الدول القومية المشادة خلال القرون الأربع الأخيرة، وتعابير الدول المستقلة شبه المستقلة والتي أسقطتها أيديولوجية البرجوازيات على السلطة.حيث كانت أهداف الهيمنة الرأسمالية هي احتكار الدولة القومية التي هي وسيلة لتجذّر الأزمات وتعزيزها

كان للتدخل السوفياتي في أفغانستان هي دعم الحكومة الأفغانية الصديقة للاتحاد السوفيتي، والتي كانت تعاني من هجمات المعارضين للسوفييت، والذين حصلوا على دعم من مجموعة من الدول المناوئة للاتحاد السوفييتي من ضمنها الولايات المتحدة الأمريكية، السعودية، باكستان والصين. أدخل السوفييت الجيش الأربعين في ٢٥ ديسمبر ١٩٧٩. وانسحبت القوات السوفييتية من البلاد بين ١٥ مايو ١٩٨٨ و٢ فبراير ١٩٨٩ وأعلن الاتحاد السوفيتي انسحاب كافّة قواته بشكل رسمي من أفغانستان في ١٥ فبراير ١٩٨٩.

وقد شارك التدخل السوفييتي بالإضافة إلى أحداث أخرى كالثورة الإسلامية في

إيران، والحرب الإيرانية العراقية، الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ التوتر المتصاعد بين الهند وباكستان، وتصاعد الحركات الأصولية المعارضة للغرب والمستخدمة للإرهاب، شارك في جعل الشرق الأوسط منطقة توتر وعنف وتقلب أثناء العقد الثامن من القرن الماضي.

وتأسّس فيما بعد حركة طالبان، والتي تعتبر حركة دينية إسلامية سنية أفغانية، سياسية مسلحة متطرفة، يعتقد قياداتها أنهم يطبقون الشريعة الاسلامية. وقد نشأت عام ١٩٩٤م وحكمت أجزاء كبيرة من أفغانستان، وسيطرت على العاصمة الأفغانية كابل في ٢٧ سبتمبر ١٩٩٦م. وقد أعلنت قيام الإمارة الإسلامية في أفغانستان، وهذه حركة إسلامية تأسست بولاية قندهار غرب أفغانستان، على يد ملا محمد عمر مجاهد، حيث رغب في القضاء على مظاهر الفساد الأخلاقي وإعادة أجواء الحكم الإسلامي من وجهة نظره، وهي تنظيم متعدّد الجنسيات، ينتمي إلى السنية الأصولية.

ولعلّ التنظيم من أشهر التنظيمات الإرهابية في العقود الأخيرة، وصاحب العديد من العمليات الإرهابية الكبرى، أبرزها تفجير برج التجارة العالمي، فيما عرف بأحداث ١١ سبتمبر في الولايات المتحدة الأمريكية.

وكذلك تنظيم القاعدة، وهو تنظيم سلفي إسلامي سنّي جهادي مسلح، أُنشئ في أفغانستان سنة ١٩٨٨. قامت القاعدة في إطار حربها على من يصفهم باليهود والصليبين بالهجوم على أهداف مدنية وعسكرية في العديد من البلدان.

التنظيمات اليمينية الشيعية المتطرفة

يمكن وصف الحالة المسلحة للحركات الشيعية كذلك بأنها «جماعات دولة» لكنها موالية

لا تزال ثقافة الشرق الأوسط بعيدة عن استيعاب وفهم كيفية غزوها خلال القرنين الأخيرين، وبوسعنا استخلاص ذلك بأكثر حالاته شفافية، فما يزعم أنّها حروب الاستقلال والتي دارت رحاها في القرنين الماضيين سواء باسم الإسلاموية السلفية، أم باسم القومية العلمانية هي في حقيقتها حروب ترمي إلى تصعيد الهيمنة الرأسمالية لا غير، حيث طوّر هذان الأسلوبان الإسلاموية والقومية كنسختين مشتقتين من الإيديولوجيا الاستشرافية

إيرانيًا، فهي تدافع من ناحية عن نظام الثورة الإسلامية و«ولاية الفقيه» ومصالحه وولاءاته - ومن ناحية أخرى تجابه وتستنزف الدول المعادية والمعتدلة، وتريد «الانقلاب» عليها وتراها جميعاً نتاجاً لما بعد سايكس بيكو في العالم العربي والإسلامي، وطاغوتًا يحكم بغير ما أنزل الله ويوالي أعداءه!

وفي فكرة الانقلاب تتقارب كل الجماعات، سنية وشيعية. وليس ما فعلته جماعة الحوثي (أنصار الله) في اليمن وحزب الله الشيعي في لبنان والميليشيات الشيعية المسلحة في العراق التي تنتهج النهج نفسه .

بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩، وتطبيقاً لمبدأ تصدير الثورة، راحت طهران تركّز على الجماعات التي تجمعها بها وحدة الارتباط المذهبي. فالقيادة الإيرانية الجديدة دعت إلى دعم أو قيام ثورات مشابهة للثورة الإيرانية في المجتمعات الإسلامية

”الجماعة الإسلامية: جماعة إسلامية دعوية نشأت في الجامعات المصرية في أوائل السبعينيات من القرن العشرين بحجة «الجهاد» لإقامة «الدولة الإسلامية» وإعادة «المسلمين إلى التمسّك بدينهم وتحكيم شرع الله. عرفت الجماعة بفكرها المتشدد الإسلامي والوهابي، وارتبطت بأشكال العنف في مصر، خاصة ضد قوات الأمن المصري طوال فترة الثمانينيات، وتورّطت في العديد من العمليات الإرهابية.“

في الخارج. فقد صار من السهل تمييز أي ”نشاط إسلامي“ مدعوم من إيران في دول الشرق الأوسط. فشعار حزب الله المستمد من صيحة الاحتشاد ”حزب واحد/ حزب الله/ قائد واحد/ روح الله“ سيمتد ليشمل أماكن كثيرة لا سيما مناطق النزاعات مثل أفغانستان والعراق ولبنان. علماً أن شعار الذراع القابضة على البندقية بات علامة مسجلة إيرانية تضفي الصبغة الثورية على أبرز الجماعات الشيعية الراديكالية خارج إيران.

ومنها تنظيم ”جيش محمد“ في باكستان، والذي يدافع عن حقوق الشيعة في باكستان للفئات الطلابية التابعة للحزب، بالتصادم مع الحركات الجهادية مثل عسكر جهنكوي وجيش الصحابة. استخدم التنظيم العنف والاغتيال السياسي، وتعد منطقة ثوكار نياز بيك في ضواحي لاهور في البنجاب معقل التنظيم.

وكذلك تنظيم أفغانستان: طهران التي اعتبر تحالفاً سياسياً بينياً متطرفاً جمع أكبر ثمانية أحزاب شيعية قاتلت ضد حكومة كابول الشيوعية والجيش السوفياتي خلال الاجتياح السوفياتي لأفغانستان، ومن أهم مكوّناته حزب الله الأفغاني، وحزب النصر، واتحاد المجاهدين الإسلاميين. تلقى التحالف الدعم من حكومة الخميني منذ عام ١٩٧٩ بهدف توحيد الفصائل الجهادية الشيعية ومنع التنظيمات السنّية المؤتلفة تحت مسمّى ”بيشاور ٧“ من احتكار العمل الجهادي في أفغانستان، وأيضاً لواء ”فاطميون“ الأفغاني تأسس هذا اللواء عام ٢٠١٤ من أبناء أقلية الهزارة الأفغانية الشيعية وبعضهم لاجئ في إيران، وذلك في ظل الحرب السورية وبهدف حماية المزارات الشيعة المقدسة في سوريا.

فيلق بدر العراقي الذي تأسس عام ١٩٨٢ كذراع عسكري للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق الذي أسسه السيد محمد باقر الحكيم بمعاونة مخابراتية إيرانية قضت بتجنيد العراقيين المنفيين في إيران، وأسرى الجيش العراقي خلال الحرب العراقية الإيرانية لمصلحته. ويمتدّ نفوذ المنظمة إلى داخل أجهزة الأمن الداخلي العراقية، وترتبط بشكل وثيق بالقيادة الإيرانية، لا سيما بقائد فيلق القدس في الحرس الثوري، وكتائب حزب الله العراقية التي تشكلت عدة فصائل شيعية مسلحة هدفها مواجهة الاحتلال الأميركي وإقامة دولة إسلامية في العراق. وتوحدت تلك الفصائل عام ٢٠٠٦ لتشكّل حزب الله-العراق الذي صنّفته أميركا عام ٢٠٠٩ منظمة إرهابية.

وكذلك عصائب أهل الحق العراقية التي تعتبر حركة مسلحة قاومت الاحتلال الأميركي منذ عام ٢٠٠٤. تلقت العصائب الدعم والتدريب والمال والسلاح من إيران، وانضمّت إلى تشكيلات ”الحشد الشعبي“. وميليشيا ”حركة حزب الله النجباء“، التي تأسست عام ٢٠١٣. وفي

الحرب السورية قاتلت الحركة إلى جانب النظام السوريّ.

وأيضاً حزب الله في الحجاز اعتبر الجناح العسكري لمنظمة "الثورة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية" التي تأسست في بداية الثمانينيات من القرن الماضي، وهي منظمة شيعية سياسية شاركت في اضطرابات القطيف ثم تخلت عن النهج الثوري عقب اتفاق مع الحكومة السعودية في أيلول ١٩٩٣. صنّفته الحكومة السعودية منظمة إرهابية في آذار ٢٠١٤.

حركة الجهاد الإسلامي هي حركة شيعية مسلحة استخدمت العنف الثوري بين عامي ١٩٨٣ و١٩٩٢ وأبرز أعضائها عماد مغنية، القيادي في حزب الله اللبناني، والذي اغتيل في شباط ٢٠٠٨. درّب عناصر الحرس الثوري الذين أُرسلوا إلى لبنان لقتال الإسرائيليين بعد اجتياح لبنان، عام ١٩٨٢.

عناصر الحركة وموالوهم

حركة أمل الإسلامية اللبنانية أنشئت الحركة عام ١٩٨٢ على يد حسين الموسوي بعد انشقاقه عن حركة أمل.

حزب الله اللبناني تأسس عام ١٩٨٥ ويُعدّ من أكثر التنظيمات العسكرية انضباطاً ونجاحاً. فالحزب الذي بدأ كرَدّ فعل على الوجود الإسرائيلي في جنوب لبنان، أضحى يمثل أقوى الحركات العسكرية في لبنان وسوريا. انتهج الحزب العمل العسكري ضد إسرائيل في جنوب لبنان، وارتفعت شعبيته في العالم العربي بعد تحرير الجنوب اللبناني في أيار ٢٠٠٠. لكنّه تضرّر شعبياً بشكل لا يُعوّض بعد انخراطه في الحرب السورية.

حركة أنصار الله (الحوثيون) في اليمن هي حركة سياسية مذهبية يمنية أنشئت على يد حسن بدر الدين الحوثي عام ١٩٩٢ وغيرها من

"وتأسّس فيما بعد حركة طالبان، والتي تعتبر حركة دينية إسلامية سنية أفغانية، سياسية مسلحة متطرفة، يعتقد قياداتها أنهم يطبقون الشريعة الاسلامية. وقد نشأت عام ١٩٩٤م وحكمت أجزاء كبيرة من أفغانستان، وسيطرت على العاصمة الأفغانية كابل في ٢٧ سبتمبر ١٩٩٦م. وقد أعلنت قيام الإمارة الإسلامية في أفغانستان، وهذه حركة إسلامية تأسست بولاية قندهار غرب أفغانستان"

الميليشيات الشيعية اليمنية المتطرفة.

التطرف الديني المسيحي: أدت الظروف الإقليمية إثر هزيمة العرب أمام إسرائيل عام ١٩٦٧ وطرد جبهة تحرير الفلسطينية من الأردن عام ١٩٧٠ فيما عرف بأيلول الأسود ونزوحهم نحو لبنان، وتصاعد المعارضة الشعبية لسياسة الحكومة اللبنانية، كانت عوامل أدت إلى اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٧٥ والتي سرعان ما أخذت بعدًا طائفيًا بين المسلمين والمسيحيين. حين قامت الميليشيات المسيحية (حزب الكتائب) الماروني المسيحي المتطرف باقتحام منطقة الكرنتينا ذات الأغلبية المسلمة والواقعة تحت سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية.

قتلت الميليشيات المسيحية العديد من سكان المنطقة. وردّت الميليشيات الفلسطينية بعدها بيومين باقتحام بلدة الدامور المسيحية وقتل المئات من السكان المسيحين.

صار من السهل تمييز أي «نشاط إسلامي» مدعوم من إيران في دول الشرق الأوسط. فشعار حزب الله المستمد من صيحة الاحتشاد «حزب واحد/ حزب الله/ قائد واحد/ روح الله» سيمتد ليشمل أماكن كثيرة لا سيما مناطق النزاعات مثل أفغانستان والعراق ولبنان. علماً أن شعار الذراع القابضة على البندقية بات علامة مسجلة إيرانية تضفي الصبغة الثورية على أبرز الجماعات الشيعية الراديكالية خارج إيران.

هرب الآلاف من السكان بحراً حيث كانت الطرق مقطوعة. حيث أدّت هاتين الحادثيتين إلى هجرة جماعية للمسلمين والمسيحين حيث لجأ كلّ منهم إلى المنطقة الواقعة تحت نفوذ طائفته

الختام

بينما يبدو التنظيم السنّي المتشدّد نظامًا للسمع والطاعة خارج الأطر الرسمية وضد توجّهات الدول في العالم العربي والإسلامي، واستنزافًا وإنهاكًا مستمرا لها، تبدو التنظيمات الشيعية المتشددة في حضن الدولة والنظام الإيراني، وجزءًا فاعلاً وجوهرياً من أولوياته، وتدين لـ«أميره» الذي هو «الولي الفقيه» بالسمع والطاعة كذلك. وبينما تكون مرجعية «الولي الفقيه» رسمية وأساسية وشعبية في شكل تنظيم يشبه الدولة، تمثل سلطة «الأمير» المرجعية الوحيدة لدى التنظيمات السنّية المتشددة.

والجهتان قادرتان على طرد وإقصاء مخالفيها وتحقيق ما تريدانه من عناصرهما وأتباعهما. لكن بينما التنظيمات السنّية ترفض السياسة وتكفر بها وبمفرداتها، وتبدو محشورة ومحصورة في أهداف التنظيم الضيقة، فتضرب خبط عشواء حيثما استطاعت وفي كل مكان، نرى التنظيمات الشيعية جزءًا من استراتيجية دولة وثورة إسلامية عالمية هي الثورة الإيرانية، ومن نزوع سياسي وتوسّعي وتدخلي لا يرفض السياسة بل يوظفها، وبالتالي فهي لا تمتلك أهدافًا خاصة، ولا تستنزف جهودها وأعداءها إلا فيما يخدم مصالح إيران وحلفائه وتوجهاتهم، كما هو ماثل اليوم في سوريا واليمن والعراق ولبنان وغيرها.

المراجع

- فاطمة المرنيسي ، السلطانات المنسيات ، دار الحصاد للنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٩٩٤ ، ص ٥

٢- الصادق النيهوم ، إسلام ضد الإسلام ، رياض الريس للنشر ، المكتبة البريطانية ، بيروت ، ١٩٩٤ م ، ص ٢٥٦

٣ - مهدي حسن صادق ، الاختراق ، دار الطليعة ، بيروت ، ص ١٥

٤- خليل عبد الكريم ، الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية ، سينا للنشر ، القاهرة ، ص ١٠٦

٥- الإسلام والديمقراطية ، فهمي هويدي ، مركز الأهرام للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٣ م ، ص٤٣

٦- صالح الورداني في مجلة روز اليوسف، ع ٣٦٠٢، ١٩٩٧/٦/٢٣، ص ٦٢ - ٦٣.

٧ - مانفيستو الحضارة الإنسانية ، عبد الله اوجلان ، المجلد الخامس ٢٠١٤ م ، ص ١٢٢

٨- أمين نصر ، الميليشيات المدعومة من إيران ، موقع "ناو ليبانون"، بيروت ٢٠١٦ م ، مقال

٩- Northbourne, Lord: Religopn in The Modern world, 1st pulished, London ,J.M. Dent & Sons LTD, ١٩٦٣, p. نورثبورن ، اللورد: الدين في العالم الحديث ، لندن ، ١٩٦٣ ، صفحة ٥

اليمين المتطرف الإسلامي وعلاقته بالشعوب غير المسلمة



سردار هوشو

المقدمة

بداية علينا أن نبين أنّ التطرف ليس حالة تختص بها ديانة أو طائفة أو قومية ما بحدّ ذاتها، إنّما هو حالة إنكار ورفض للآخر المختلف عنه فكريّاً أو دينيّاً أو قوميّاً لدى أتباع أيديولوجية ما، ليس له طابع ديني بحت، فهو يمكن أن يضرب أي فكر بشري؛ علمانيّاً كان أو دينيّاً، فهو ظاهرة مركّبة ذات أبعاد متعدّدة، يمكن القول: إنّ التطرّف هو نوع من المغالاة (السياسية أو الاقتصادية أو الدينية أو القومية أو الاجتماعية) لمجموعة قيم وأفكار تؤمن بها فئة ما من مجتمع ما، ويعتبرها مطلقة الحقيقة، بل وتتعدى ذلك إلى فرضها على الآخر المختلف قسراً وبالقوّة.

التطرف: هو تلك الثقافة المنغلقة تجاه الآخر فرداً كان أو جماعة، هو حالة خطاب فكري ينتمي إلى نشأة الأيديولوجيات المغلقة، فعمل التنظيمات المتطرّفة ليس سلوكاً عشوائيّاً تقوم به مجموعة من المتطرفين المعادين للحداثة، وأساليب الحياة المعاصرة، إنّما هو تجسيد لمنظومة أفكار لها عمقها النظري والتاريخي، التطرّف هو فعل وجودي مؤسّس على العلو والاعتداد بالذات وادّعاء امتلاك الحقيقة المطلقة الدينية أو غير الدينية، وكما نوّهنا آنفا أنّ التطرف ليس حالة خاصة بدين أو طائفة أو قومية ما، لكن يبقى التطرّف الدينيّ أبشع أشكال التطرف البشري، لأنّه يرتبط بالمقدس الذي يتمّ تفسيره وتأويله من قبل رجال الدين، وهو الذي سوف نحاول أن نتوسع في تحليله واستكشاف جذوره التاريخية، والعوامل التي تلعب دورها في نشر هذا الفكر في مجتمعاتنا الشرق أوسطية (الإسلامية).

ورد في لسان العرب: طرف كل شيء منتهاه، ومعناه الوقوف في الطرف، وهو يقابل التوسط والاعتدال، التطرف حديث الساعة، حيث تعدّ مشكلة التطرف من القضايا الرئيسية في مجتمعاتنا الشرق أوسطية، والكل يقاربه من زاوية، ويحلل من زاوية، ويستخلص إلى تعريف وفهم هذه الحالة واستنتاجات حوله، التطرف الديني: يمثل حالة من الجمود العقلي، وتعطيل المقدرات الإبداعية، وعدم القدرة على إيجاد حلول جديدة في عالم سريع التغيير، مما يشكّل انتشاره في أيّ مجتمع عائقاً كبيراً على تطور المجتمع، ومواكبته العصر، وتهديداً خطيراً جدّيّاً على وجوده، واستمراره، فهو ذا منحى رجعي ثقافي وفكري وفني، إنّه قتل للإنسان باعتباره كائناً مبدعاً، وتعطيل للطاقات الإنسانية واستنفاذها في الصراعات والعداوات المصطنعة من قبل أصحاب الفكر المتطرف، تلعب الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية وانتشار الأمية والتخلف العلمي وقضايا الفقر وفشل خطط التنمية البشرية والفشل السياسي والتسلط الحكومي وإلغاء دور العقل في البناء والتطوير والحداثة وأسباب خارجية (حالة الاستغلال الذي تمارسه الحكومات الغربية على خيرات وثروات مجتمعاتنا الشرق أوسطية) كل هذه الأسباب تلعب دورا كبيرا في ظهور حالات تطرف ديني أو قومي أو قومي بغطاء ديني.

الإسلام السياسي

ظهر مصطلح الإسلام السياسي لتوصيف جماعات وأحزاب حاولت استخدام الدين للوصول إلى السلطة، جماعات تؤمن بأنّ الإسلام ليس عبارة عن ديانة، إنما هو نظام سياسي واجتماعي وقانوني واقتصادي يصلح لبناء مؤسسات دولة وسلطة (الإسلام دين و دولة) وهذه الجماعات والحركات والأحزاب بدأت بالظهور بشكل قويّ وفعّال على الساحة الإسلامية بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية وزوال الخلافة الإسلامية سنة /١٩٢٤/ على يد التوجّه العلماني المدعوم من الغرب المسيحي، وما ضاع معها من قوة ومجد الإسلام، وما هذه الحالة المعيشة من تخلف واحتلال معظم البلدان الإسلامية والتراجع العلمي والفساد الأخلاقي إنما هو ردة فعل ونتيجة لزوال الخلافة الإسلاميّة، فسعى قسم منهم للمطالبة بعودة الخلافة بغية إرجاع الحضارة الإسلامية إلى أمجادها الأولى حين كانت تقود وتهيمن على العالم وهذا هو الهدف الظاهر، أمّا الهدف الحقيقي في فكر ووجدان هذه الجماعات والحركات هو السلطة وليس شيئاً آخر، ومن أهم هذه الحركات أو الأحزاب (السلفية، الأخوان المسلمين، القاعدة، تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام، وجبهة النصرة، وحزب الله والثورة الإسلامية في إيران وحركة طالبان وحزب العدالة والتنمية التركي وكثير من الفرق الدينية المسلحة التي تتماشى فكريّاً أو عمليّاً مع هذه الحركات والأحزاب التي تعبر الحدود القطرية السياسية للدول والجمهوريات.

وهي الحركات اليمينيّة المتعصّبة الإسلامية، وهنا لابدّ أن نميّز بين نوعين من اليمين؛ وهذا التمييز قائم على طبيعة الوسائل التي يسعون إلى تطبيقها في الوصول إلى هدفهم الأساسي؛ وهو قيام «الخلافة الإسلامية» أو الدولة الإسلامية، فمنهم من يلجأ إلى استخدام العنف والإرهاب (وهم الّذين يسمّون بالجهاديين) أو اليمين المتطرف الإسلامي، ومنهم من يلجأ إلى استخدام الوسائل السلمية بما فيها العمليات الديموقراطية، والانتخابات، ويرفض العنف كنهج لتحقيق ذات غاية، وهؤلاء يسمون باليمين التقليدي (الغاية ذاتها مع اختلاف الوسيلة).

اليمين الإسلامي المتطرف

السلفية: المطّلع على أدبيات وأيديولوجية الجماعات السلفية يعلم بأنّ هذه الجماعات تستقي فكرها عموما من أئمة ثلاثة هم رموز الفكر السلفي وكتبهم هي الأكثر قدسية لدى تلك الحركات وهم : (ابن قيّم الجوزية، تقي الدين أحمد ابن تيمية، والإمام محمد بن عبد الوهاب مؤسس الحركة الوهابية) ، كما يُعتبر أبو الأعلى المودودي هنديّ الأصل ومن بعده (سيد قطب) هما الأصل في منشأ فكر السلفية الجهادية التكفيرية في القرن العشرين ولغاية الآن حيث قاما بإنشاء ما يسمى بفكر(الجاهلية المجتمعية)، والتي تتلخص بتكفير المجتمعات بما فيها الإسلامية الحالية، كونها لا تطبق حكم الله وربوبيته وفق رؤاهم ونهجهم، معتبرين أنفسهم وفكرهم أنهم الإسلام الحقّ، وما غير ذلك فهو كافر حتى من المسلمين، ويجب عليهم تقويم الجميع، وإخضاعهم بالقوة والعنف لحكم الله، والصحيح والذي هم أهله لا سواهم من العالمين.

يعتمد المنهج السلفي على فكرة نبذ البدع (لأنّ كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار) وفكرة الفرقة الناجية التي استقواها من الحديث النبوي الشريف: تنحسر اليهود عن إحدى وسبعين شعبة والنصارى على اثنتين وسبعين شعبة و أمتي (الإسلام) على ثلاث وسبعين شعبة كلهم في النار إلا واحدة وهي من كان على ما أنا عليه أنا وأصحابي) وهذه الفكرة جعلت المنهج السلفي أصل كل المناهج التكفيرية الجهادية المتطرّفة، لأنّها تقوم على أنها هي وحدها الفرقة التي على الصواب، وعلى نهج السلف الصالح، وهي الوحيدة التي على حق، وكلّ الجماعات الأخرى على باطل، وهي كافرة؛ لذلك يمكن القول: إنّ كل الجماعات الجهادية المتطرفة خرجت من عباءة السلفية، وبالتالي فكلّ الجماعات الجهادية المتطرفة، هي جماعات سلفية كتنظيم الجهاد المصري وتنظيم القاعدة، وتنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام.

يعتمد المنهج السلفي على فكرة نبذ البدع (لأنّ كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار) وفكرة الفرقة الناجية التي استقواها من الحديث النبوي الشريف: تنحسر اليهود عن إحدى وسبعين شعبة والنصارى على اثنتين وسبعين شعبة و أمتي (الإسلام) على ثلاث وسبعين شعبة كلهم في النار إلا واحدة وهي من كان على ما أنا عليه أنا وأصحابي) وهذه الفكرة جعلت المنهج السلفي أصل كل المناهج التكفيرية الجهادية المتطرّفة

جماعة الأخوان المسلمين والقاعدة

كان العديد من المفكرين والعلماء المسلمين في حالة الرثاء والندب بعد زوال الخلافة

الإسلامية المتمثلة بالإمبراطورية العثمانية وضياع هيبة وقوة ومجد المسلمين بانهيار هذه الإمبراطورية، وازداد هذا الشعور في نفوس المسلمين بإلغاء الخلافة الإسلامية من قبل مصطفى كمال أتاتورك سنة ١٩٢٤م، ما دفع بعض الجماعات والحركات إلى المناداة بإعادة الخلافة الإسلامية والإمبراطورية، ومنها كانت جماعة الأخوان المسلمين التي تأسست في مصر على يد الشيخ (حسن البنا) سنة ١٩٢٨م وحلّ بعده (سيّد قطب) وكان هدفه إقامة الخلافة الإسلاميّة، وتطبيق شريعتها في المجتمع، وكانت هذه الحركة سبباً في انتشار وظهور الكثير من الحركات المتطرفة في العالم العربي والإسلاميّ، حيث كانت لأدبيات الأخوان المسلمين تأثيرٌ كبير في نشر التطرّف واللجوء إلى العنف والإرهاب، بغية الوصول إلى السلطة والحكم وتصفية الخصوم، فالإسلام السياسي الذي تروّج له جماعة الأخوان المسلمين يتفق في مضمونه مع الفكر الجهادي السلفي أكثر من كونه متّفقاً مع الدين الإسلامي عامة، وكان العباءة التي خرجت منها القاعدة وحركة حماس وتنظيم الدولة الإسلامية، وجبهة النصرة وغيرهنّ من تنظيمات جهادية عنفيّة، و من أهم منظريها: (سيد قطب، عبدالقادر عودة، ومن المعاصرين الشيخ يوسف القرضاوي ومحمد أحمد الراشد وفيصل مولوي) حيث قاموا بتشكيل جهاز عسكريّ يقوم بعمليات اغتيال وقتل وتصفية للخصوم، وممّا قاموا به في هذا الإطار اغتيال الرئيس المصري (أنور السادات) سنة ١٩٨١م، وعندها تمّت ملاحقتهم، ممّا اضطر الكثير من قياداتهم إلى الهرب إلى الخارج وخاصة أفغانستان، حيث هناك الأرضية الأكثر خصوبة لفكرهم وتوجههم، وبالفعل تحوّلت أفغانستان إلى ساحة جهادية، لا سيما أنّ الولايات المتحدة الأمريكيّة، والمعسكر الغربي أو الرأسمالي وحلفاءهم في المنطقة مثل السعودية سهّلوا وشجّعوا عبورهم إلى أفغانستان لمقاتلة الجيش الأحمر السوفيتي هناك وهو الخصم القوي للغرب وقتذاك فقاموا باستغلال هؤلاء المتشددين للدفاع عن مشروعهم في الشرق الأوسط والعالم عامة وقد نجحوا في ذلك، فضلاً عن فتاوى الشيخ الفلسطيني (عبد الله عزام) التي دفعت بالشباب المتحمّس إلى الانضمام إلى صفوف المقاتلين (المجاهدين) ضد الكفار الشيوعيين السوفييت في أفغانستان، وبالطبع خدمة للكفار الغربيين الصليبيين، وقد تعاملت معظم دول العالم الليبرالي تاريخيّاً مع جماعة الأخوان المسلمين كجدار حماية للأنظمة ضد التحدّيات والمخاطر التي شكّلتها الحركات والتنظيمات والنزعات الأيديولوجية الراديكالية اليسارية والقومية، وكجدار واق من خطر الحركات والجماعات الإسلامية السياسية الراديكالية والجهادية، ومع دخول عصر العولمة باتت الجماعة نفسها تشكّل تهديداً للأنظمة، وعقب الحركات الاحتجاجية تبدّل تعريف الجماعة من جدار حماية إلى الحزام الناقل للتطرف والعنف، ويذكر الصحفي الأمريكي (مارك كورتيس) في كتابه (التاريخ السرّي لتآمر بريطانيا مع الأصوليين): تم دعم هؤلاء المجاهدين وجماعات المقاومة من أهالي أفغانستان الّذين ارتبطوا بهم بمليارات الدولارات كمعونة وتدريب عسكريّ قدّمته أساساً السعوديّة، والولايات المتحدة، والباكستان، وبريطانيا أيضاً، وكان لبريطانيا بالفعل تاريخ طويل في دعم القوى المتأسلمة، والعمل إلى جانبها في الوقت الذي عبر فيه السوفييت الحدود الأفغانية، لكنّ التآمر مع المجاهدين في أفغانستان كان شيئاً مختلفاً عن هذه الوقائع السابقة، كان جزءاً من العملية السرّيّة الأشدّ اتّساعا له، وليتحوّل منذ الحرب العالمية الثانية، وهذا ما يؤكد من خلال تحالفاتهم، وتوجهاتهم، أنّهم حركات طموحها الأهمّ والأسمى هو الحصول على السلطة، واعتلاء صهوة الحكم في أيّ مكان متاح في العالم، وهذا مهّد بشكل كبير إلى تشكيل حركة يمينية متطرفة عرفت باسم: (الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين) وما يعرف بتنظيم (القاعدة)

حيث بدأت فكرة الجهاد العالمي عنواناً رئيسيا لنشاط القاعدة، وهذه الحركة جاءت نتيجة تزاوج الأيديولوجية الجهادية القادمة من مصر، والسلفية الوهابية القادمة من السعودية، وكان المنتج عن هذا التزاوج السلفي الجهادي الأخواني (تنظيم القاعدة) وترجم هذا التزاوج بتحالف بين (أيمن الظواهري المصري، وأسامة بن لادن السعودي) وتشترك القاعدة مع السلفية في مرجعيّتها حيث يعتبر تراث وأدبيات ابن تيمية، إضافة إلى أفكار سيد قطب هما المنهل لهما وأهم كتبهم المقدسة.

وبعد التحولات والتغيرات التي طرأت على الساحة العالمية عامة والإسلامية بصورة خاصة وبداية ما يسمى بظهور الربيع العربي وكذلك مقتل زعيم تنظيم القاعدة (أسامة بن لادن) سنة ٢٠١١م، والذي يُعدّ الزعيم الروحي لكل الحركات الجهادية والمتطرفة الإسلاميّة باختلاف مسمياتها في القرن الحادي والعشرين، صارت هذه الجماعات تسعى إلى تحقيق أهداف استراتيجية محدّدة تركز على الأهداف المحلية للبلدان الإسلامية، وظهرت هذه الاستراتيجية بوضوح في كيفية عمل جبهة النصرة في سوريا التي تشكلت في سنة ٢٠١١م خلال الأزمة السوريّة حيث أنها دعت وشجعت على حمل السلاح في وجه الحكومة، ثمّ في وجه كلّ من لا يتماشى مع رؤاهم وفكرهم، ويُعدّ (أبو محمد الجولاني) أميراً لها، وهي تنتمي إلى تيار السلفيّة الجهاديّة (تنظيم القاعدة)، كما أنّها تتلقّى الدعم والمساعدات والكوادر البشرية من السلطة التركية، ومن ورائها داعمون آخرون كدولة قطر وجمعيات وأفراد على مستوى العالم، حيث شهد الشمال السوري عدة عمليات عسكرية بمشاركة الاستخبارات التركية مع عناصر جبهة النصرة التي صنفت كمنظمة إرهابية في العديد من بلدان العالم ، مثلا مشاركتها في الحرب على الأكراد في عفرين وشمالي حلب وقبلها في رأس العين وتل أبيض وكوباني وممارسة التطهير العرقي

"لأدبيات الإخوان المسلمين تأثيرٌ كبير في نشر التطرّف واللجوء إلى العنف والإرهاب، بغية الوصول إلى السلطة والحكم وتصفية الخصوم، فالإسلام السياسي الذي تروّج له جماعة الإخوان المسلمين يتفق في مضمونه مع الفكر الجهادي السلفي أكثر من كونه متّفقاً مع الدين الإسلامي عامة، وكان العباءة التي خرجت منها القاعدة وحركة حماس وتنظيم الدولة الإسلامية، وجبهة النصرة وغيرهنّ من تنظيمات جهادية عنفيّة"

والتهجير القسري والتغيير الديموغرافي في تلك المناطق، ولا يقتصر الدعم التركي على الدعم العسكري واللوجستي بل تعداه إلى إقامة معسكرات تجميع وتدريب للمتطرفين القادمين من مختلف أنحاء العالم، ثم تسهيل عبورهم إلى سوريا للقيام بالعمليات العسكرية وممارسة العنف والإرهاب بحق أهل وسكان البلاد، وقد استغلوهم في محاربة مخاوفهم من قيام كيان كردي في شمالي سوريا وحتى مخاوفهم من التوصل لحل سوري واستقرار للسوريين قد يثمر على ديموقراطية على حدودهم .

الدولة الإسلامية في العراق والشام:

الباحث في نشأة هذا التنظيم المتطرف الإرهابي فكريا وعقائديا سيجد أنه خرج وترعرع في كنف تنظيم القاعدة الإرهابي الذي كان صناعة أمريكية غربية سعودية أخوانية بامتياز، الزعيم الروحي لهذا التنظيم هو

كان لبريطانيا تاريخ طويل في دعم القوى المتأسلمة، والعمل إلى جانبها في الوقت الذي عبر فيه السوفييت الحدود الأفغانية، لكنّ التآمر مع المجاهدين في أفغانستان كان شيئاً مختلفاً عن هذه الوقائع السابقة، كان جزءاً من العملية السرّيّة الأشدّ اتّساعا له، وليتحوّل منذ الحرب العالمية الثانية، وهذا ما يؤكد من خلال تحالفاتهم، وتوجهاتهم، أنّهم حركات طموحها الأهمّ والأسمى هو الحصول على السلطة، واعتلاء صهوة الحكم في أيّ مكان متاح في العالم

الأردني (أبو مصعب الزرقاوي) والذي التقى بابن لادن ونائبه الظواهري سنة ١٩٩٩م و أوكل إليه مسؤولية معسكر تدريب الإرهابيين غربي أفغانستان، وهناك التقى وعمل مع (عبد الله المهاجر) الذي كانت لكتاباته المتشددة الأثر الكبير في تكوين شخصية أبي مصعب الزرقاوي وتعطّشه لإراقة الدماء فقد ورد في كتابه: (مسائل في فقه الجهاد): إنّ قطع الرؤوس بوحشية أمر مقصودٌ، بل محبب إلى الله ورسوله، وسببا في التقرّب إلى الله.

وفي أعقاب هجمات الحادي عشر من أيلول التي قام بها وتبنّاها تنظيم القاعدة، تغيّرت أوضاع الجهاديين جذريّاً، حيث قامت الولايات المتحدة الأمريكية بتشكيل تحالف دولي، وغزت أفغانستان واجتاحت أراضيها بحجة محاربة الإرهاب، ثم غزت العراق مما اضطر أسامة بن لادن إلى الاختباء، و قام الزرقاوي بالفرار إلى العراق، وأثناء قيام التحالف بقيادة أمريكا غزو العراق وإسقاط نظام (صدام حسين) البعثيّ،

وما نتج عن ذلك من انهيار للدولة العراقية ومؤسساتها، ففتح المجال أمام الجماعات الجهادية المتطرّفة إلى الظهور، وحينها أنشأ الزرقاوي تنظيم التوحيد والجهاد، وتحالف مع بقايا نظام صدام حسين ليجتمع بذلك الجهاديّون المسلمون مع القوميين العراقيين السنة الناقمين على انهيار دولتهم في سنة ٢٠٠٦م، قتل الزرقاوي بغارة أمريكية وبعدها بشهور قليلة ظهر تنظيم جديد عرف باسم (تنظيم الدولة الإسلامية في العراق) وينضوي تحت لوائه فرع تنظيم القاعدة في العراق، وقتل زعيما التنظيمين كذلك بغارة أمريكية، فظهرت شخصية جديدة على الساحة (إبراهيم عواد البدري) الملقب بأبي بكر البغدادي الذي أعلن تنظيماً جديداً أسماه: (تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام)، وأعلن نفسه خليفة على المسلمين، وأميراً للمؤمنين، وقائداً للدولة الإسلامية التي عمدت إلى انتشار القتل والتكفير والذبح والقيام بأفظع الجرائم، وارتكاب أبشع المجازر بحق المدنيين العزّل من كل الطوائف والأثنيات والأعراق، والتي ترجع بمنبعها ومبادئها إلى جماعة الأخوان المسلمين، حيث يقول الدكتور(إبراهيم عبد) الأستاذ في جامعة عين شمس وخبير الحركات الإسلامية: إنّ الدولة الإسلامية في العراق والشام والجيش الحر وجبهة النصرة تكوّنت نتيجة دعوة القرضاوي؛ رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين للجهاد في سوريا، هي جزء من التنظيم الإرهابي العالمي الذي يسمّى بالتنظيم الدولي للأخوان الذي أنشئ في أواخر الأربعينيّات بقيادة سعيد رمضان؛ صهر حسن البنا؛ مؤسس حركة الأخوان المسلمين، وكان مقره الرئيسي في سويسرا، والغرض من هذا التنظيم هو إرضاء القوى الاستعمارية المتمثلة في الولايات المتحدة الامريكية وإسرائيل وحلفائهما لكي يبقوا في الحكم الى أبد الآبدين.

وهنا يظهر لنا جانب آخر من جوانب هذه

الحركات اليمينية الإسلامية المتطرفة غير أنها جماعات تعم في الأرض فساداً وقتلاً وتدميراً للبشر والحجر باسم الدين، هو ارتباطهم المباشر وتلقّيهم الدعم المادّي واللوجستي من قوى اليمين المتطرف الغربي المتمثلة بالولايات المتحدة الامريكية وحلفائها، والبراغماتية التي تربط طرفي اليمين الغربي والإسلاميّ، ويكشف عن مدى تبعيّة، وتسخير هذه الجماعات وخدمتها الدول الرأسمالية والاستعمارية، بغية الحفاظ على مصالحهم، وإنّ كلّاً منهما يخدم الآخر، فما نجده اليوم من خطابات الكراهية والسلوك العدواني تجاه الجالية المسلمة في أوروبا يتّخذه اليمين المتطرف الإسلامي كشماعة تدعم به موقفه وصحة آرائه حول الآخر المختلف، بأنّه عدوّ يريد قتلنا، وإلغاء ديننا، مستغلّاً بذلك زيادة عدد مجنّديه من الشباب المسلم، وزجّهم في صفوف الحركات المتطرفة الإسلامية، وفي مقابل ذلك تقوم هذه الجماعات التكفيرية بأعمال إرهابية تستهدف الغرب كأحداث ١١ من أيلول، وتفجير السفارات الأوروبيّة، وذبح الصحفيين الأجانب، وتفجير القطارات، معطياً بذلك الشرعية لليمن المتطرف في الغرب، وقوى الرأسمالية العالمية بغزو البلدان الإسلاميّة، وإنشاء قواعد عسكرية لها وتوسيع نفوذها، متذرّعة بحجة مكافحة هذه الجماعات الإرهابية كما حدث في أفغانستان وسوريا والعراق وليبيا، والسيطرة على ثروات هذه البلدان، كما يمكن ملاحظة جانب آخر سوداوي يظهر في نشاط هذه الجماعات اليمينية الإسلامية المتطرّفة في فترات الاستبداد تكون هذه الحركات في حالة سكون، ولا تظهر على المشهد السياسي والاجتماعي، ولكنها تنشط مع نشاط حركات الوعي التحرّريّ، وتخمد بخموده، وهذا ما حدث في مصر وسوريا والعراق وليبيا واليمن، فما أن ظهرت حركات تحرّرية مطالبة بتغيير الوضع القائم نحو المزيد من الحرّيّات، والمزيد من الانفتاح، وتحقيق العدالة الاجتماعية، ومواكبة الحداثة والمعاصرة، نجد أنّ الحركات المتطرّفة تظهر على الساحة، فتستلم زمام الأمور، وتضفي عليها طابعها الإسلامي المتطرف، ما يعطي الذريعة والحجة للقضاء عليها وإخمادها.

كما يمكن إضافة عناصر جديدة تثبت العلاقة الوطيدة بين معظم الحركات الأصولية والأخوان المسلمين، إنّ معظم جماعات اليمين المتطرف تحمل وتتبنى أفكار (حسن البنا)؛ مؤسس جماعة الأخوان المسلمين، وكذلك منهج العنف الناتج عن منهج ورؤى سيد قطب خليفة (حسن البنا) في قيادة هذه الجماعة، والمنطق الرئيسي لجميع الحركات الإسلامية المتطرفة والأخوان المسلمين واحد؛ وهو التستر بعباءة الدين الإسلامي بدعوى إقامة الدولة الإسلامية أو الخلافة الإسلامية بغية الوصول إلى السلطة، ويذكر الدكتور (جمال سند السويدي) في كتابه (السراب): وبتسليط الضوء على فراغ، ولاواقعية شعاراتها المركزية (الإسلام دين ودولة، الإسلام هو الحل، دولة الخلافة، الحاكمية)، وهذا ما يتأكد اليوم بالملموس مع تنظيم داعش البربريّ، والذي يشكل بامتياز دولة السراب والأوهام.

الجماعات الشيعية المتطرفة وجه آخر لليمين المتطرف الإسلامي

كما أنّه هناك تيار يمينيّ متطرّف آخر، مخالف من حيث الشعارات والطريقة والنهج لجماعات التطرّف اليميني السنّي؛ المتمثلة بجماعة الأخوان المسلمين، وما تمخض عنها من تنظيمات وحركات إرهابية ومتفقة معها من حيث المضمون والنظر إلى الآخر وتكفيره وهي: جماعات اليمين الإسلامي المتطرف الشيعية؛ وعلى رأسها الحركة الانقلابية التي وصلت إلى السلطة في إيران وبطابع إسلامي (الثورة الإسلامية) والتي قادها آية الله الخميني، ومنها حزب الله اللبناني، وهو فرع للثورة الإسلامية في إيران، والمرتبط بالولي الفقيه في إيران، والذي يستمدّ شرعيته ووجوده ومبررات ممارساته من الولي الفقيه، تأسّس حزب الله في ١٩٨٥م

وخير دليل على تبعيته لشيعة إيران المتطرفين؛ تدخُّله في الأزمة السورية جنباً إلى جنب مع الألوية العسكرية الشيعية المرتبطة مع قيادة الحرس الثوري الإيراني (قاسم سليماني)، والحشد الشعبي في العراق الذي تأسس عام ٢٠١٤م، وكتائب نجباء وفاطميون وعصائب أهل الحق وقوات الشهيد الصدر وكتائب سيد الشهداء و كتائب الإمام علي ... وكل هذه الجماعات العسكرية الجهادية العاملة في سوريا والعراق ولبنان بالإضافة إلى الحوثيين وكتائب مماثلة في اليمن والبحرين تتلقى أوامرها وحركتها ودعمها من إيران وقيادة الثورة الإسلامية هناك. كما أنّ المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق الذي تأسّس سنة ١٩٨٢م من قبل عدد من النشطاء الشيعة ليكون مظلّةً للقوى الشيعية المعارضة ويتزعمه (محمد باقر الحكيم) وهو أيضاً يتلقّى الدعم المادّي واللوجستي والطاقات البشرية من إيران، وقيادة الثورة الإسلامية فيها، وينسب إلى هذه التنظيمات أو الجماعات المتطرّفة الشيعية العديد من الأعمال الإرهابية والعنصرية لصالح مذهبهم مثل: التخطيط لتفجيرات في الغرب، قتل المتظاهرين السلميين في كل من سوريا ثم العراق وقمع المظاهرات السلمية في لبنان في الوقت الراهن، واغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري، والكثير من الممارسات بحق المسلمين السنّة في العراق، فلا زال عشرات الآلاف من سنة العراق في بلدان المهجر، وكما قاموا باحتلال العديد من المدن والبلدات والقرى الكردية في إقليم كردستان شمالي العراق، وتهجير المدنيين الأكراد، والمسيحيين، والسطو على آبار النفط وخيرات البلاد.

حزب العدالة والتنمية وعلاقته باليمين المتطرف الإسلامي

تأسس حزب العدالة والتنمية التركي ذو الطابع الإسلامي في ١٤/آب/ ٢٠٠١م، وكان رجب طيب أردوغان أوّل رئيس للحزب، وقد تمكن من الوصول إلى السلطة في العام ٢٠٠٢ م، ويُعدّ هذا الحزب امتداداً فكريّاً لجماعة الأخوان المسلمين على الرغم من نفي أعضائه أن يكون حزباً إسلاميّاً، حيث امتنع عن رفع الشعارات الدينية في خطاباته، وتبنّى رأسمالية السوق، حيث بنى الحزب مبادئه على أسس الديمقراطية العلمانية، وحقوق المواطنة، والعدالة الاجتماعية في توزيع الثروات، ومبدأ تحقيق الفرص المتكافئة للجميع، وإقامة علاقات حسنة مع دول الجوار والعالم، ورفع أحد رموزه أحمد داوود أوغلو شعار صفر مشاكل، ورأى مؤيّدو الحزب بأنّ الحزب بهذه السياسة التي يتّبعها والشعارات التي نادى بها قادرٌ على حلّ المسألة الأهم والأصعب في تاريخ الجمهورية التركية؛ ألا وهي حل القضية الكردية في تركيا، لكنّ سياسات الحزب بدأت بالتراجع مع اتضاح السياسات الخارجية المرتبطة بأردوغان وطموحاته الشخصية والقومية (الجامعة الطورانية، استعادة أمجاد الإمبراطورية العثمانية والخلافة الإسلامية) فبعد قيام ثورات الربيع العربي وظهور الجماعات الإسلامية على المشهد السياسيّ، ووصولها إلى سدّة الحكم في بعض البلدان العربية، مثل حزب النهضة في تونس، وحزب الأخوان المسلمين في مصر، وحزب التحالف القومي الوطني في ليبيا، والأزمة السورية، ليكشف عن وجهه الحقيقي، ويقدّم نفسه كنموذج للإسلام السياسي المعتدل، وأنّه يمثل الإسلام حول العالم، من حيث أنّه الوارث للخلافة الإسلامية، والإمبراطورية العثمانيّة، لكن استضافة تركيا مؤتمرات الأخوان المسلمين المصنّف لدى الكثير من الدول العربية كمنظمة إرهابية على أراضيها، وبإشراف منها على تورّط حزب العدالة والتنمية في دعمه ومساندته لحركات وجماعات اليمين المتطرف الإسلامي، فضلاً عن مقتل أبي بكر البغدادي؛ زعيم التنظيم الإرهابي الأكثر وحشية وتطرّفاً في المناطق التي تقع ضمن السيطرة التركية، وظهور

العديد من عناصر تنظيم الدولة الإسلامية الفارّين في تلك المناطق، وانخراطه في حروب إقليميّة، وعقد التحالفات مع الجماعات المتطرفة الإرهابية ودعمها في كلّ أعمالها الإرهابية مثل (جبهة النصرة وتنظيم الدولة الإسلامية المرتبطين بتنظيم القاعدة، وما لفّ لفيفهم من جماعات ما تسمّى بالجيش السوري الحر، ولاحقاً الجيش الوطني) حيث جعل من تركيا محطّة استقبال وتمويل وتدريب المتطرّفين الإسلاميين من حول العالم، وتسهيل دخولهم إلى سوريا والعراق، وفتح مكاتب للجماعات المتطرفة في كثير من المحافظات التركية، وتمادى في دعمهم حتى أنّه أدخل الجيش التركي في عمليات عسكرية مشتركة مع هذه التنظيمات المصنفة إرهابية على لوائح الإرهاب العالميّ، مثل الدخول إلى شمال سوريا، واحتلال إدلب وعفرين وجرابلس، وأعزاز والباب، ومؤخّراً تل أبيض، ورأس العين، ومحاربة قوّات سوريا الديمقراطية جنباً إلى جنب مع ما تبقّى من تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام، بعد إجهاز قوات سوريا الديمقراطية والتحالف الدولي لمحاربة الإرهاب عليها في آخر معاقلها بالباغوز السورية، وفرار عناصرها إلى الحضن التركي (الأم الحنون) بالنسبة لهم.

اليمين المتطرف الإسلامي وتعامله مع شعوب المنطقة

عندما نتحدث عن اليمين المتطرف نحن نقصد الجماعات والأحزاب التي استخدمت الدين بغية الوصول إلى السلطة، وذلك بوسائل القوة والعنف والإرهاب وزجّ الدين بلا هوادة في الصراعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية واستخدام مفاهيم كالحاكمية والخلافة والكفر والجهاد ووضعها في خدمة المشاريع أو الطموحات السياسية لهذه الجماعة أو الحزب أو الشخص. وهذا لمصطلح جديد على الساحة الإسلامية والعربية يمكن أن نرجع بداياته إلى حقبة السلطان العثماني

”ما نجده اليوم من خطابات الكراهية والسلوك العدواني تجاه الجالية المسلمة في أوروبا يتّخذه اليمين المتطرف الإسلامي كشماعة تدعم به موقفه وصحة آرائه حول الآخر المختلف، بأنّه عدوّ يريد قتلنا، وإلغاء ديننا، مستغلّاً بذلك زيادة عدد مجنّديه من الشباب المسلم، وزجّهم في صفوف الحركات المتطرفة الإسلامية، وفي مقابل ذلك تقوم هذه الجماعات التكفيرية بأعمال إرهابية تستهدف الغرب كأحداث ١١ من أيلول“

(عبد الحميد الثاني) الذي استخدم دور ومكانة الخليفة روحيّاً وتاريخيّاً بهدف ضرب خصومه في الداخل والخارج، وهذا يظهر في أبشع صوره في المجازر التي ارتكبت بحق الأرمن والآشوريين في أكثر من مرحلة. حيث طرح فكرة إقامة الجامعة الإسلامية بغية لملمة شمل البلدان الإسلامية وربطها بالسياسة العثمانية، من خلال تبعيتها لخليفة المسلمين؛ وهو السلطان العثماني، وفي ظل هذه الفكرة أصبح مسيحيو الدولة العثمانية (من أرمن وآشور) عنصراً غريباً ومخالفاً، وطالبوا بإحداث إصلاحات في مناطقهم، وبدعم روسي بغية الوصول إلى المياه الدافئة، فقام السلطان عبدالحميد الثاني بإنشاء الفرق الحميديّة، وهي فرق مسلّحة قِوامها مقاتلون من العشائر الموالية للسلطان، ومن بينهم عرب و أكراد وتركمان، والمعروف عنهم تعصّبهم الديني، وقام السلطان بتغذية أفكارهم بأنّ الأرمن كفّاراً، ويشكّلون خطراً على الدولة

”إنّ معظم جماعات اليمين المتطرف تحمل وتتبنى أفكار (حسن البنا)؛ مؤسس جماعة الأخوان المسلمين، وكذلك منهج العنف الناتج عن منهج ورؤى سيد قطب خليفة (حسن البنا) في قيادة هذه الجماعة، والمنطق الرئيسي لجميع الحركات الإسلامية المتطرفة والإخوان المسلمين واحد؛ وهو التستر بعباءة الدين الإسلامي بدعوى إقامة الدولة الإسلامية أو الخلافة الإسلامية بغية الوصول إلى السلطة.“

الإسلامية، والجامعة الإسلاميّة، وبدأت أعمال الإبادة بحقّهم سنة ١٨٩٤ حتى ١٨٩٦م، وكانت ضحية هذه المذابح ما يتجاوز مئة ألف قتيل، وتهجير الآلاف من قراهم، وبلداتهم، وتكرّرت الحادثة في سنة ١٩١٤م، مستغلّة نشوب الحرب العالمية الأولى لفرض سياساتها الشوفينية، والمغطاة بالطابع الديني في إبادة الشعوب غير التركية، حيث كانت سياستهم قائمة على التطهير العرقي الكامل (اقتل، احرق، دمّر) كانت رسالة طلعت باشا وزير الداخلية لجنوده لإبادة الشعوب المسيحية في المنطقة، وعلى نفس الوتيرة لعبت جمعية الاتحاد والترقي بمشاعر المسلمين، حيث صبغت مشاركتها في الحرب العالمية الأولى بالطابع الديني، فقام السلطان العثمانيّ؛ محمد رشاد عن إعلان الجهاد المقدس، ونشر كتيباً باللغة العربية (على كل مسلم أينما وجد وفي أيّة زاوية كان في العالم أن يقسم قسماً رسميّاً بأنه سيقتل ثلاثة أو أربعة مسيحيين على الأقل، وإن كل من يطيعون هذه الأوامر يتخلّصون من هول الدينونية في اليوم الآخر) وبفتوى من شيخ الإسلام محمد خيري أفندي قال فيها: (جماعة الأرمن كفرة وخونة وقتلهم جهاد وفرض على كل مسلم)، وتشكّلت مليشيات عسكريّة أطلقوا عليها الجيش الخمسيني بإشراف طلعت باشا، وبأمر مباشر من حكومة الاتحاد والترقّي، وكنتيجة لهذه الممارسات الوحشية للأتراك بحقّ الأرمن على وجه الخصوص راح ضحيّتها أكثر من مليون ونصف المليون أرمني، وأريد لمثل هذه الأعمال أن تمارس في الشام والعراق، ولكنها لم تحدث بذلك الحجم الذي حدث مع الأرمن لأسباب ضعف نفوذ العثمانيين هناك، وهذه الأعمال الوحشية للأتراك لم تتوقف على المسيحيين الأرمن والآشوريين، بل تعدّتها إلى الأقوام المسلمة؛ كالأكراد والعرب والتركمان، وهذا إن دل على شيء إنّما يدلّ على وحشيتهم، واستغلالهم الدين الإسلامي؛ بهدف اختراق العالم الإسلامي ونهب خيراته واستعباد سكانه، وبغطاء ديني (تزاوج الأيديولوجية الدينية المتطرفة مع الأيدولوجية الشوفينية).

الأقباط في مصر

يمثّل الأقباط المصريون أكبر تجمّع للمسيحين في الشرق الأوسط، حيث تشير التقديرات إلى أنّ أعدادهم تصل إلى نسبة عشرة بالمئة من إجمالي عدد سكان مصر، ولم يرَ المسيحيون السلام في أرضهم ووطنهم منذ ظهور الحركات اليمينية المتطرّفة الإسلامية في مصر، فكانوا ولا يزالون يتعرّضون للقتل والضرب وسلب الممتلكات وإحراق كنائسهم وتصفية شخصياتهم الوطنية والدينية، ونذكر منها: استعمال النار في جمعية الكتاب المقدسة للخانكية ١٩٧٢م واعتداءات الجماعات الإسلامية المتطرفة على طلبة مسيحيين في أسيوط بالسيوف والخناجر، والاعتداءات الدموية على المسيحيين في الزاوية الحمراء، والتي راح ضحيتها عشرات القتلى منهم، والاعتداء على

مئات المنازل والمحال التجارية وسلبها ١٩٧٥م ومذبحة أسيوط؛ التي راح ضحيتها مئات من القتلى وذبح فيها ضباط شرطة أقباط ١٩٩٠م، والهجوم الإرهابي المسلّح على دير العذراء؛ مريم بالمحرق ١٩٩٤م، وقتل فيها خمسة رهبان، وازدادت حدّة هذه الأحداث والأعمال الإرهابية لجماعة اليمين المتطرف الإسلامي بعد استلام الأخوان المسلمين للسلطة في مصر سنة ٢٠١٢م وقيام ما يعرف بالثورة المضادة لحكمهم، واستيلاء السيسي على الحكم سنة ٢٠١٣م، وقعت العشرات من الهجمات الإرهابية التي تقودها جماعات متطرفة مرتبطة بالأخوان التي طالما ادّعى ممثّلو الأخوان بأنّ الأقباط هم ضدّ الشريعة والإسلام في مصر، حتى إن كان الأخوان يؤكدون علناً بأنهم ليسوا ضد المسيحيين، لكنّ الواقع أثبت غير ذلك من خلال ما قام به الأخوان، والتنظيمات الإرهابية المتطرفة المرتبطة بهم، والمنبثقة عنهم؛ كالدولة الإسلامية وجبهة النصرة، ومن لف لفيفهم من الكتائب المسلحة باسم المعارضة السورية المهيمنة عليها، من قبل الأخوان المسلمين، والمدارين حسب إرادة أردوغان الأخواني، وممّا قاموا به في سورية من أعمال إرهابية ضد المسيحيين: **تخريب دير سمعان العامودي، في شمال حلب، ونهب محتوياته، وحرق كنيسة الاستقلال في تل أبيض، والكثير من المضايقات، والتهجير للمسيحيين في الرقة ودير الزور وغيرها**، من المناطق وأعمال مماثلة في المناطق التي سيطروا عليها في العراق، **ويذكر السيناتور الأمريكي (ريتشارد بلاك) في رسالته إلى بشار الأسد رئيس النظام السوري: «عزيزي السيد الرئيس سررت بالتدخل الروسي ضد الجيوش التي تغزو سوريا، وبدعمهم حقق الجيش السوري خطوات دراماتيكية ضد الإرهابيين، إنه من الواضح أنّ هدف الدولة التركية والسعودية هو فرض ديكتاتورية دينية على الشعب السوري، وإذا تمكّنت من النجاح في هذا الأمر فإنّ المسيحيين والأقليات الأخرى سوف تذبح أو تباع في سوق النخاسة، وسوف يحرق ويغرق ويصلب وتقطع رؤوس كثيرين من السنة والشيعة المسلمين الجيدين شكرا لحماية حياة المسيحيين وكافة الناس الطيبين السوريين .**

> **رأى مؤيّدو حزب العدالة والتنمية أنّ الحزب قادرٌ على حلّ المسألة الأهم والأصعب في تاريخ الجمهورية التركية؛ ألا وهي حل القضية الكردية في تركيا، لكنّ سياسات الحزب بدأت بالتراجع مع اتضاح السياسات الخارجية المرتبطة بأردوغان وطموحاته الشخصية والقومية (الجامعة الطورانية، استعادة أمجاد الإمبراطورية العثمانية والخلافة الإسلامية)**

الطائفة الإيزيدية

وآخر تجليات اليمين المتطرف الإسلامي الأخواني تمثل بالنسخة الداعشية التي تمثل قمة الانحطاط والانحدار نحو الهمجية وانعدام الإنسانية في تعاملها مع الأقلّيات غير المسلمة، وما قام به تنظيم الدولة الإسلامية بحقّ الإيزيديين في جبل سنجار الذي يقع بين مدينة الموصل العراقية والحدود السورية، الذي كان يقطنه أكثر من نصف مليون نسمة من الإيزيديين الأكراد، حيث قام التنظيم الإرهابي بشنّ هجوم وحشيّ على السكّان العزّل، باعتبارهم كفرة أو ملاحدة أو عبدة الشيطان قتلوا فيه ما يقارب عشرة آلاف

> **يقصد باليمين المتطرف الجماعات والأحزاب التي استخدمت الدين بغية الوصول إلى السلطة بوسائل القوة والعنف والإرهاب وزجّ الدين بلا هوادة في الصراعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية واستخدام مفاهيم كالحاكمية والخلافة والكفر والجهاد ووضعها في خدمة المشاريع والطموحات السياسية لهذه الجماعة أو الحزب أو الشخص. وهذا لمصطلح جديد على الساحة الإسلامية والعربية يمكن أن نرجع بداياته إلى حقبة السلطان العثماني عبد الحميد الثاني**

معظمهم من الرجال والأطفال الذكور إلى ما دون ١٢ سنة، وسبي أكثر من سبعة آلاف من النساء والأطفال، وما رافق هذه الأعمال من نهب وحرق وتخريب للمنازل ودور العبادة، ثم معاملة النساء الإيزيديات كجَوارٍ وسبايا، فقاموا باغتصابهنّ، وممارسة الجنس الفرديّ، والجماعيّ في حالات متعددة، ووضعهنّ في سوق للنخاسة، وبيع البشر، وكانوا يبيعوهنّ لبعضهم في الأسواق العلنيّة كأسواق بيع الحيوانات، ومن يشترونهنّ كانوا يقومون بذلك لتلبية شهواتهم الجنسية والسلطوية الذكورية، أمّا الإيزيديون والمسيحيون في سوريا، فقد هجروا بيوتهم، وممتلكاتهم في رأس العين وعفرين وإدلب، والمناطق التي على خط تماس هذه المجموعات، قبل أن يقعوا صيداً بين مخالب هؤلاء الوحوش البشرية، وستبقى هذه الجرائم والممارسات اللاإنسانية تجاه الإيزيديين وغير المسلمين شاهداً على وحشية وهمجية الجماعات المتطرفة الإسلامية ووصمة عار على جبين التطرف الإسلامي وداعميه من حكومات ودول وجماعات فكرية مثل (تركيا، قطر، وحركة الأخوان المسلمين، حزب العدالة والتنمية، والتشكيلات الأخرى التي تماشيهم فكريا وعقائديا، ومنها فصائل عسكرية في الجيش السوريّ الحرّ) ووصمة عارٍ أيضاً على جبين الإنسانية ومنظمة الأمم المتحدة وما يندرج فيها من دول ومنظمات إنسانية لحماية الأقليات والمرأة والطفل والآثار.

هذه هي مفرزات النظام العالمي المتمثلة بالرأسمالية العالمية ووسائله المتبعة في فرض هيمنته وسيطرته على بلدان العالم الثالث وتعامله مع الدول على أساس المصالح دون منح أي اعتبار للشعوب في تقرير مصيرها، ليكشف لنا عن وجهه الحقيقي وزيف شعاراته في الديمقراطية والعولمة والحداثة، وحقوق الانسان، وحقّ تقرير المصير للشعوب، ليطرح عن أزمات كبرى (أزمة فكر وأخلاق وسياسة).

المراجع

- موسوعة الفرق والجماعات، عبد المنعم الحفني
- الدكتور جمال سند السويدي، من كتابه السراب
- مارك كورتيس، كتابه التاريخ السري لتآمر بريطانيا مع الأصوليين.
- https.//www.aljazeera.net
- https.//www.aljumhuriya.net/ar/com

سياقات التطرّف في التراث الثقافي والإنساني



رستم عبدو

لاشك أن التراث الثقافي اينما كان تمثل جزء من التراث الثقافي العالمي وحمايته واجب اخلاقي وانساني على الجميع وهي مسؤولية الجميع دون استثناء وذلك في وجه كل اشكال التشويه والتخريب والنهب والتدمير التي قد تطاله من قبل المسيئين والمستفيدين ، باعتبار أن أي تعد على التراث هو بمثابة التعدي على الذاكرة الجمعية للإنسانية وبالتالي هذه التعدي من شأنه ان يقلص من فرص تحقيق المصالحة بين الثقافات المختلفة ويضعف من امكانية تعزيز الشعور بالهوية

تمهيد

التراث الثقافي في أيّ مجتمع كان ومتى ما كان هو شاهد حيّ على الدور الحضاريّ والثقافي لجميع شعوب العالم ودولها، كما أنه يُجسد الهوية التاريخية للشعوب والمجتمعات.

وكانت الشعوب على مرّ التاريخ تسعى دوماً لحفاظ على تراثها الثقافي إلّا أنّ بعض الثقافات كانت ضحية أفكارٍ دينية أو فكرية متطرفة، وكانت تلك الأفكار وماتزال تسعى إلى انصهار وإبادة ثقافات أخرى لإحياء ما تسعى إليه من أفكار متطرفة، والتراث الثقافي كان عرضة دائما لمخاطر الزوال، لذا كانت الشعوب وما تزال تناضل في سبيل الحفاظ على إرثها الثقافي.

إلا إن هنالك أسباب عديدة للانصهار الثقافي منها تعود على الشعوب نفسها من التخلف الاقتصادي والفكري ومنها تعود إلى سياسيات الدول القومية العنصرية (كتركيا وإسرائيل على سبيل المثال) ومنها تعود إلى الأفكار الجهادية (كداعش والنصرة) والدينية المتطرفة.

ورغم أهمية التراث الثقافي وما يعنيه في حياة المجتمعات إلا أنّه ليست هنالك ضوابط وقوانين دولية جادة للحفاظ على التراث الثقافي للشعوب، كون هذا التراث يمثّل جزءاً حقيقياً من التراث الثقافي العالمي.

مادّة الكاتب

إنّ التراث الثقافي بشقّيه المادّي واللّامادي، أينما كان يشكّل شاهداً حيّاً على الدور الحضاري والثقافي لشعوبٍ ودول، غالباً ما كانوا امتداداً لأجيال سابقة ومراحل متعاقبة، بالإضافة إلى الرباط الوثيق ما بين التراث والهوية الثقافية أو الذاكرة الجمعية لتلك الشعوب والمجتمعات والدول، ومن هنا نجد أن التراث الثقافي يجسّد بصدق الهوية التاريخية لأيّة أمّة أو شعب، وهو الشاهد الحيّ على عمق وقدم حضارات تلك الشعوب ورمزاً لتواصلهم التاريخي.

وخلال مراحل التاريخ، سعت معظم هذه المجتمعات، لاسيما المتقدمة منها، إلى الحفاظ على إرثها الثقافي، على الرغم من تعرّضها لأخطار وتحديات مختلفة وصلت أحياناً بحق بعضها إلى مرحلة التطهير الثقافي أو الإبادة الثقافية، كما حصل للهنود الحمر على يد الأوربيين الذين استوطنوا في أمريكا، إذ أجبروهم وهم السكان الأصليين على التخلي عن عاداتهم وثقافتهم ودياناتهم، ليتحوّلوا إلى مسيحيين ومزارعين أشبه بالبيض، أو كما فعل القياصرة الروس بحق اليهود في روسيا من خلال إكراههم على ترك دينهم ولغتهم وعاداتهم.

هذه المجتمعات وغيرها الكثير التي تمتد بتاريخها إلى آلاف السنين، واجهت جملة من المخاطر التي هددت بقاءها واستمرارها كشاهد على حضاراتها الإنسانية وذلك بمراحلها المختلفة، وغالبا ما كانت الحروب الأهلية والنزاعات المسلحة تأتي في مقدمة هذه المخاطر التي

> **”أن التراث الثقافي يجسد بصدق الهوية التاريخية لأية أمة أو شعب وهو الشاهد الحي على عمق وقدم حضارات تلك الشعوب ورمزا لتواصلهم التاريخي. وخلال مراحل التاريخ ، سعت معظم هذه المجتمعات، لاسيما المتقدمة منها، للحفاظ على إرثها الثقافي ، بالرغم من تعرّضها لأخطار وتحديات مختلفة وصلت أحياناً بحق بعضها لمرحلة التطهير الثقافي أو الإبادة الثقافية.“**

تهدّد بنسف التراث.

لم يعد خافياً على أحد - ونحن نعيش في القرن الواحد والعشرين - ما يتعرض له التراث الإنساني في بلدان العالم الثالث - لاسيما البلدان الإسلامية - من طمس وتشويه وتحريف وتخريب وتدمير.

وتتعدّد الأسباب فمنها الجهل والفقر المنتشر في هذه المناطق، ومنها تنامي المدّ الجهادي وظهور الجماعات المتشددة (كالقاعدة وتنظيم الدولة الإسلامية داعش وغيرها) بالإضافة إلى أسباب أخرى متعلّقة بالحسابات السياسية لبعض الدول كإسرائيل أو تركيا التي تتحسسّ من الأقليات التي تعيش معها.

فأما الحركات الجهادية التي تتبنّى أفكاراً دينية متطرّفة، فقد سعت جاهدة ضمن مناطق تواجدها وسيطرتها، للنَيل من التراث الإنساني - لاسيما اللامادّي منه -وفرض إيديولوجية خاصة بها تتماشى مع أهدافها وأفكارها الراديكالية, بالإضافة إلى محاولاتها المجدية في طمس التاريخ والثروات الأثرية، وكلّ مقومات الهوية الحضارية التي اكتسبتها الشعوب الأصيلة لتلك المناطق على مر السنين.

لم تألِ هذه الجماعات جهداً في تدمير التراث المادي أيضاً (كالمعابد والكنائس وبعض المساجد والأضرحة والمقامات العائدة لطوائف معينة) بحجّة أنّ تلك المعالم مخالفة للشريعة الإسلامية وأنّها تدعو إلى الشرك وأنها تشكل أوثاناً.

حيث قامت القاعدة وحركة طالبان بتحطيم التماثيل البوذية الضخمة في باميان في أفغانستان، وكذلك فعل تنظيم الدولة الإسلامية، وجبهة النصرة في كلّ من سوريا والعراق، حينما قامت بتدمير وتخريب الكثير من المواقع والمعالم والمدن التاريخية و الأثرية والمتاحف كمدينة تدمر التي تعتبر بمثابة متحف مفتوح، وكذلك مدينة موصل القديمة،

> **"تتعدّد أسباب الانصهار الثقافي أو النسف الثقافي، فمنها الجهل والفقر المنتشر في هذه المناطق ، ومنها تنامي المدّ الجهادي وظهور الجماعات المتشددة (كالقاعدة وتنظيم الدولة الإسلامية داعش وغيرها) بالإضافة إلى أسباب أخرى متعلقة بالحسابات السياسية لبعض الدول كإسرائيل أو تركيا التي تتحسسّ من الأقليات التي تعيش معها.**

التي تضمّ بين ثناياها عواصم آشورية قديمة كنينوى ونمرود وآشور وخورس آباد وغيرها من معالم الموصل القديمة؛ كالجامع النوري ومنارته الحدباء.

علماً أنّ هذه الجماعات نفسها كانت تسعى قدر المستطاع من الاستفادة من المردود المادي الضخم الذي كانت تجنيه من تعاملها مع الآثار، وكانت تسخّر الأموال الناجمة عنها في تمويل أنشطتها العسكرية كشراء الأسلحة والمعدات، وكذلك شراء الآليات، بالإضافة إلى تجنيد المقاتلين والجهاديين هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت هذه الجماعات تسعى بنفس الوقت إلى إضعاف السلطة في الدول التي كان تنتشر فيها من خلال ضرب الاقتصاد السياحي الأثري فيها, حيث أنّ هنالك الكثير من الدول التي تعمل على الترويج لتراثها الثقافي لِما لها من دور فعّال في تحسين الاقتصاد الوطني، حيث تساهم عائداتها في عملية التنمية الاجتماعية والاقتصادية.

أما بالنسبة لبعض الدول كإسرائيل وتركيا فلم تختلف التجاوزات والانتهاكات التي ترتكبها عن تلك التي قامت بها تلك التنظيمات المتشدّدة بحق التراث الثقافي والإنساني للشعوب الأصيلة التي فرضت الظروف عليها بأن تحكم من قبل هذه الدول في إحدى الأيام.

فإسرائيل منذ نشأتها في العام 8491 عملت من أجل إنقاذ نفسها أو اثبات أحقيتها في الأرض التي أعلنت كيانها عليها - على ممارسة سياسات التشويه والتحريف بحقّ التاريخ و التراث الإنساني في فلسطين، وحتى هذه اللحظة تعمل على صهر ومحو الهوية الثقافية الفلسطينية وفرض هويتها الخاصة من خلال تهويد المناطق والقرى والمدن وحتى الشوارع ونهب وتدمير المواقع الإسلامية والمسيحية المقدسة وفرض اللغة والثقافة العبرية، مع العلم أن إسرائيل والفلسطينيين تربطهما علاقة عرقية وتاريخية قديمة.

تركيا بدورها والتي تتغنّى بالأمجاد العثمانية دوماً رغم تاريخها الحديث، وعلى الرغم من أنّها الدولة المغتصبة لأراض وثقافات غنية متجذرة في المنطقة سبقت قدومها بآلاف السنين، لم توفِّر لحظة واحدة في هدم تلك الحضارات والثقافات لاسيما في العقود الثلاثة الأخيرة، حيث عملت من ناحية على نسب الكثير من تلك الثقافات القديمة إلى أجدادها الطورانيين، ناهيك عن تشويهها الحقائق التاريخية لاسيما تلك التي لا تتوافق مع مصالحها السياسية، إلى جانب تدمير عشرات المدن والمواقع التاريخية والأثرية وتهجير السكان الأصليين من مدنهم وقراهم في محاولة لصهرهم ثقافياً كما حصل للأرمن وللكُرد في تركيا.

على الرغم من السعي المنهج لبعض الجماعات أو الدول في تشويه وإضعاف وتدمير القيم والممارسات العائدة لأقليات أو مجموعات معينة لا تنتمي إليها، والتي قد تصل في بعض الأحيان إلى حد جرائم الإبادة

"تركيا بدورها والتي تتغنى بالأمجاد العثمانية دوماً رغم تاريخها الحديث ، ورغم أنها الدولة المغتصبة لأراض وثقافات غنية متجذرة في المنطقة سبقت قدومها بآلاف السنين ، لم توفِّر لحظة واحدة في هدم تلك الحضارات و الثقافات لاسيما في العقود الثلاثة الأخيرة، حيث عملت من ناحية على نسب الكثير من تلك الثقافات القديمة إلى أجدادها الطورانيين ، ناهيك عن تشويهها للحقائق التاريخية. "

الثقافية، إلّا أنّه لا يوجد في القانون الدولي أي نص صريح يجرِّم هذه الأعمال أو يضع حدّاً لها ،رغم إعلان اليونيسكو بشأن التنوع الثقافي واعتباره تراثاً مشتركاً وسعيها الدائم من أجل حماية هذا التنوع وصونه.

لاشك أنّ التراث الثقافي أينما كان يمثّل جزءاً من التراث الثقافي العالمي، وحمايته واجب أخلاقي وإنساني على الجميع، وهي مسؤولية الجميع دون استثناء، وذلك في وجه كلّ أشكال التشويه والتخريب والنهب والتدمير التي قد تطاله من قبل المسيئين والمستفيدين, باعتبار أنّ أيّ تعدٍّ على التراث هو بمثابة التعدّي على الذاكرة الجمعيّة للإنسانيّة، وبالتالي هذه التعدي من شأنه أن يقلّص من فرص تحقيق المصالحة بين الثقافات المختلفة ويضعف من إمكانية تعزيز الشعور بالهوية.

علماء على مذبح التطرف



ياسر أحمد شوحان

تمهيد

يُعرّف الأستاذ صباح شاكر العكام التطرف بأنه تجاوز الحد المعقول في مسألة من المسائل الفكرية سواء كانت دينية أو سياسية، وهو مرادف لمعنى التعصب أو التشدد، وهو أمر مذموم في العقل والشرع.

وبما أن التطرف يأخذ صاحبه إلى الانغلاق والتشدد، فهو أمر يجعل منه مؤمناً بذاته وكأنه الوحيد الذي يمتلك الحقيقة، ويبدأ بتسويق أفكاره على أن رؤاه ومعتقداته هي الصائبة والصالحة لكل زمان ومكان، واعتبارها من الثوابت والحقائق التي لا ينازعه فيها أحد، ويجعل منه على يقين بأنّه على الحقيقة المطلقة، وكل من يخالفه هو بعيد جداً عن الصواب فيشنّ حرباً عدوانية عليه ليثبت أنّه على صواب.

وتكثر الآراء حول صفات المتطرف وعداؤه للحقائق، لكن ما سنذكره هنا باختصار أنّ المتطرف هو شخص أحمق فقد التوازن الفكري في معظم أموره، وكثير المخاصمة مع المخالف له بالرأي. وعادة ما يلحق بهذه الصفات أنه متشدد على نفسه، نزقاً متبعاً أهواءه، متعجلاً بإصدار القرار، مُغيّب العقل وكأنه في عالم آخر، فهو من صنع لنفسه عالماً خاصاً به.

تُوفر البيئة البعيدة عن الديمقراطية أو المجتمعات كثيرة الطوائف الدينية والقوميات المختلفة أو التي تعاني من صراعات طبقية ومذهبية والمجتمعات المتخلفة حضارياً بيئة مناسبة للتطرف، وقد تخلف هذه المجتمعات أفراداً ينتمون لفكر شاذ أو متحجر ناتج عن التثقيف المُركّز والتلقين الجامد البعيد عن إعمال العقل. وهنا تأخذ التنظيمات اتجاهات عدة فيؤدي التشدد إلى ظهور الأحزاب والطائفية وتصلب الأثنيات والقبليات.

كل هذا يقود حتماً إلى بروز الإرهاب بكل أشكاله والذي هو أحد أكثر الأشكال خطراً على الإنسانية، وقد يتساءل سائل؛ هل انحصر التطرف ببقعة جغرافية دون غيرها؟ وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الإرهاب قديم قدم التاريخ ولم ينحصر بفترة زمنية معينة فهو ظاهرة عالمية إن صح التعبير ينتشر في المجتمعات المتخلفة ذات الثقافات الشمولية وبإيديولوجية محدودة ذات شكل راديكالي تُجسد الاضطهاد ضد أصحاب الرأي الآخر في مسعى منه إلى نشر الأفكار المتطرفة، وحيث أن التطرف يعتبر مخالفته شكلاً من أشكال الخروج عن طاعته، فإنّه بذلك يعبّر عن ضعفه الفكري وعجزه لتقبل الآخر، ممّا يجعل منه شكلاً جامداً يقود إلى العنف مبتعداً عن العلم والعقل، ولهذا فقد حارب التطرف العلماء ومن وقفوا في وجهه متّخذين من العلوم الإنسانية حجة العقل في محاولة للتصدي للفكر المؤطّر والفكر الراديكالي.

ونستعرض هاهنا بعض الشخصيات العلمية العالمية التي أثرت التاريخ الإنساني بالعلوم والمعارف وممن خالفوا هذا الفكر المتطرف للحيلولة من انتشار الفكر المتحجر والحد منه بالطرق والنظريات العلمية بقوة الحجة وسلطة المعرفة.

١. غاليليو غاليلي Galileo Galilei :

أحد أشهر علماء القرن السابع عشر الميلادي، برع في الفلك ونشر نظرية كوبرنيكوس Nicolaus Copernicus حول أن الأرض كوكب من الكواكب التي تدور حول الشمس وليست مركز الكون، وأثبت خطأ نظرية أرسطو.

غاليليو شخصية علمية عبقرية أجبرت الكنيسة على الاستمرار بالاعتذار منها بعد مضي أكثر من ٤٠٠ سنة على وفاته، وُلد عام ١٥٦٤ في مدينة بيزا الإيطالية، ودرس في دير اليسوعيين، كانت رغبة والده أن يصبح غاليليو طبيباً، وبعد سنتين من دراسة الطب ترك غاليليو الجامعة ليتفرغ لدراسة الرياضيات وعلوم الفيزياء، درس غاليليو مؤلفات جالينوس وبحوث إقليدس ونظريات أرخميدس، وتطرق في أبحاثه إلى نظريات أرخميدس بالجاذبية، كما دأب على دراسة مراكز الثقل، وفي عام ١٥٨٩ أصبح رئيس قسم الرياضيات في جامعة بيزا، ومن ثم أستاذاً في جامعة بادوفا (البندقية)، ثم بدأ بإلقاء المحاضرات ضد فلسفة أرسطو وبطليموس، وصنع أول منظار في عام ١٦٠٩ وقام بتطويره (المنظار ذو العدستين) ليخترع التيلسكوب، بعد ذلك عمل على دراسة الفضاء والنجوم والكواكب ووصف القمر وجباله والبقع الشمسية، وأجرام درب التبّانة وأقمار المشتري وزحل والزهرة والأرض ومعظم كواكب المجموعة الشمسية. أثارت أبحاثه ضجة كبيرة لما فيها مخالفة للفكر السائد في وقته، فمكر به علماء ومفكري عصره وأنه مناهض لتعاليم أرسطو، فكتب غاليليو

رسائل عدة إلى الدوقة كريستينا يهاجمهم فيها المبدأ السائد في العلوم ونقض نظرية أرسطو، وفنّد في الكتاب المقدس وانتقد التفسير الحرفي فيه كما خالف تفسير التوراة أيضاً، كما عمل على إثبات نظرياته حول المذنبات وقربها من الأرض وأخطاء أخرى حول اعتبارها عقاب إلهي. كل هذا جعل من الكنيسة تنظر إليه كمعارض لها يستوجب العقاب، وعلى الرغم من أن أبحاثه كانت تدعو الكنيسة للنقاش والبحث إلا أن الكنيسة لم تعد تلقي له بالاً على الرغم من موافقة روما على نشر أبحاثه. وبعدة نقاشات عديدة دامت لأربع سنوات، كانت نتيجة آخر الشكاوى عليه أن قام البابا بإصدار حكم السجن عليه لمخالفته الكنيسة وقوانين محاكم التفتيش، ونشر الأفكار الخاطئة واتهامه بالهرطقة، ثم خُفف الحكم للإقامة الجبرية، وأعلنت المحكمة بمنع كتبه من التداول.

ظل غاليليو أسير بيته ثم أُصيب بالعمى إلى أن توفي في عام 2461 ودفن في فلورنسا.

في عام ١٧٤١ قدّمت الكنيسة الاعتذار لغاليليو وطُبعت كتبه واعتباره من أهم علماء التاريخ، وفي عام ١٩٩٢ أعلنت الكنيسة اعتذاراً رسمياً لغاليليو وتقرر عمل تمثال له في الفاتيكان.

أهم مؤلفاته:

- كتاب الرسول النجمي regnesseM yrratS

- كتاب الفاحص erotaiggaS

- محاوراتٍ حول علمين جديدين snoissucsiD ecneics wen owt tuoba

2 - أنطوان لافوازييه tneruaL eniotnA : reisiovaL

أحد أهم علماء القرن الثامن عشر الميلادي، ومن أبرز النبلاء الفرنسيين، اشتُهر لافوازييه بأنه عالم اقتصاد وعالم أحياء وكيمياء حيث يُعد أبو علم الكيمياء في العصر الحديث.

أثارت أبحاث غاليليو ضجة كبيرة لما فيها مخالفة للفكر السائد في وقته. فكتب غاليليو رسائل عدة إلى الدوقة كريستينا يهاجمهم فيها المبدأ السائد في العلوم ونقض نظرية أرسطو، وفنّد في الكتاب المقدس وانتقد التفسير الحرفي فيه كما خالف تفسير التوراة أيضاً، كما عمل على إثبات نظرياته حول المذنبات وقربها من الأرض وأخطاء أخرى حول اعتبارها عقاب إلهي. كل هذا جعل من الكنيسة تنظر إليه كمعارض لها يستوجب العقاب.

وُلد لافوازييه في عام ١٧٤٣، وبدأ حياته محامياً لكنه ما لبث أن تحوّل إلى الابتكار، حيث عمل على اختراع نظام جديد يقوم على إنارة شوارع باريس، ويُعد أول من تعرف على المادة وصاغ قانون حفظ المواد، كما تعرّف على الأوكسجين وفنّد نظرية الفلوجستون phlogiston theory.

عمل لافوازييه بأكاديمية العلوم الملكية، كما عُيّن موظفاً في مصلحة جباية الضرائب، وقد تعددت أبحاث لافوازييه في الكيمياء فيما يتعلق بالهواء وأنه يساعد على الاحتراق، وقد ارتبط اسمه مع العديد من أسماء الكيميائيين في ذلك الوقت أمثال هنري كافنديش وجوزيف بريستلي. وتعتبر قوانين لافوازييه ذات دقة كبيرة وتتسم بالوضوح، حيث وضع قانون بقاء الكتلة، وقانون حفظ المادة (إن المادة لا تفنى ولا تُستحدث بل تتغير من شكل إلى آخر)

وهذا القانون يُعد ضربة قاصمة للخرافات التي لفت علماء الكيمياء لآلاف السنين.

إلا أن أبحاثه كانت أكثر دقة، حيث أدخل مصطلحات كيميائية جديدة إلى هذا العلم حيث كان أول من أنتج الغاز المائي واخترع المغياز (جهاز لقياس كميات الغازات)، وقد أثبت أيضاً أن التنفس هي نتيجة عملية احتراق، وبناء على ذلك فإن جميع الكائنات الحية تستمد طاقتها من عملية احتراق المواد العضوية باستخدام الأوكسجين الذي تستنشقه.

عندما قامت الثورة الفرنسية حوكم ٢٤ شخصاً من ضمنهم لافوازييه بتهمة ترطيب تبغ الجيش خلال عملهم في لجنة المعايير، فحكم عليهم بالإعدام بعد اتهامه بترطيب تبغ الجيش والتلاعب بالمعايير، إلا أنها كانت مجرد اتهامات كان لافوازييه بريئاً منها عام ١٧٩٤م.

وعندما طلب من القاضي تخفيف حكم الاعدام على لافوازييه لمكانته العلمية كان رد القاضي (إن الثورة لا تحتاج إلى عباقرة) وذلك بعد أن تقدمت زوجته بطلب للعفو عنه، فأُعدم لافوازييه بالمقصلة في الثامن من أيار عام ١٧٩٤، وصودرت أمواله. يُجمع المفكرون أن إعدام لافوازييه هو وصمة عار في القضاء الفرنسي، واستخفافاً مشيناً بحق العبقرية والنبوغ. وعلى الرغم من إعادة الاعتبار للافوازييه بعد أشهر من قوط روبسبيار إلى أن الإنسانية خسرت عالماً قد لا يأتي أحد بمثل أبحاثه.

وقد قال أحد أصدقائه: "إن قطع رقبة لافوازييه لا يستغرق دقيقة واحدة، ولكن مائة سنة لا تكفي لتعويضنا بشخصية مثله".

أهم مؤلفاته:

- مبادئ الكيمياء fo selpicnirP yrtsimehc .

3 ـ جيوردانو برونو onurB onadroiG:

راهب وفيلسوف إيطالي، ولد في مدينة نولا بمملكة نابولي عام ١٥٤٨، وسافر في سن الحادية عشرة، وفي سن الخامسة عشرة انضم إلى الدومينيكان أوردر، درس علم اللاهوت والفلسفة، اعتنق نظرية كوبر نيكوس على الرغم من تحريمها من قبل رجال الدين المسيحي، بل ونشر أفكاره حول أن النظام الشمسي واحد من مجموعة هائلة من النُظُم الشمسية الأخرى في الكون، وقال: إنّ النظم الأخرى تشتمل على مجموعات شمسية أخرى قد تحمل على بعض كواكبها صور حياة يجهلها البشر. وابتداءً من أول القرن السابع عشر أنكر برونو العقائد الكاثوليكية والتي تتعلق بالثالوث وعقيدة الجحيم وعذرية مريم والاستحالة الجوهرية والكرستولوجيا، كما اعتقد برونو بلانهائية الكون مؤكداً على أن لكل إنسان حرية الرأي والفكر والتعبير وأن المعرفة ممكنة ولا نهائية أيضاً وهذا الذي دفع محاكم التفتيش لاعتباره مذنباً، فاتهمته الكنيسة بالهرطقة وتم نفيه، وعند عودته إلى روما حُكم عليه بالسجن لثمان سنوات، ثم قطعوا لسانه وأحرقوه بتهمة الكفر.

ولم تكتف الكنيسة الكاثوليكية المتطرفة في تلك الفترة بحرق بورنو فقط وإنما أحرقت توماس كرانمر (قائد عملية الإصلاح الإنجليزي في القرن السادس عشر)، وجان دارك (بطلة قومية فرنسية وقديسة في الكنيسة الرومانية في القرن الخامس عشر)، ووليام تيندال (باحث مصلح اجتماعي إنجليزي ومترجم الإنجيل إلى اللغة الإنجليزية في القرن السادس عشر)، ويان هوس (فيلسوف ولاهوتي تشيكي ومصلح كنسي في القرن الخامس عشر).

من مؤلفاته:

ـ A ceia da terça-feira de cinzas

4 ـ فولتير eriatloV:

اسمه الحقيقي François-Marie Arouet ، كاتب وفيلسوف فرنسي، ولد عام ١٦٩٤ ، عاش خلال فترة عصر التنوير، وعُرف عنه دفاعه عن الحريات المدنية وحرية العقيدة والمساواة وكرامة الإنسان، اشتُهر باسم فولتير وهم اسم استعاره في كتاباته وعُرف به، وكان كاتباً غزير الانتاج حيث كتب في الأدب والنقد والمسرحيات والمقالات والكثير من الأعمال التاريخية والعلمية وكذلك الخطابات والمنشورات (تزيد عن عشرين الف خطاب).

تلقى فولتير دراسته في مدارس اليسوعيين، وكان مُصراً على أن يصبح كاتباً على الرغم من دراسته للمحاماة، ثم ما لبث أن ترك المحاماة وعكف على كتابة المقالات التاريخية، ثم عمل لاحقاً

"ابتداءً من أول القرن السابع عشر أنكر برونو العقائد الكاثوليكية والتي تتعلق بالثالوث وعقيدة الجحيم وعذرية مريم والاستحالة الجوهرية والكرستولوجيا، كما اعتقد برونو بلانهائية الكون مؤكداً على أن لكل إنسان حرية الرأي والفكر والتعبير وأن المعرفة ممكنة ولا نهائية أيضاً وهذا الذي دفع محاكم التفتيش لاعتباره مذنباً، فاتهمته الكنيسة بالهرطقة وتم نفيه، وعند عودته إلى روما حُكم عليه بالسجن لثمان سنوات، ثم قطعوا لسانه وأحرقوه بتهمة الكفر."

على الرغم من القوانين الصارمة التي كانت تلاحق الكُتّاب في تلك الفترة إلا أن فولتير برع في فن المجادلة والمناظرة، ومدافعاً عن الإصلاح الاجتماعي، كما انتقد المؤسسة الدينية بشكل كبير وقال في إحدى كتاباته: (إذا كان الله غير موجود، فسيكون من الضروري أن نختلق واحداً)، مما أدى لاعتباره أنه إنسان ملحد، غلا أن الأمر ليس كذلك فقد كان في حقيقة الأمر أنه يشترك في الأنشطة الدينية، وبالتالي فقد اعتبر نفسه مؤمناً بالربوبية، كما أنه لم يعتقد أن الإيمان المطلق بالله يحتاج إلى الاستناد على أي نص ديني محدد أو فردي أو على أي تعاليم تأتي عن طريق الوحي.

وقد انتقد فولتير الديانات كثيراً إلا أنه في خطابه الذي أرسله إلى البابا بنديكت الرابع عشر بتاريخ ١٧ آب/أغسطس ١٧٤٥ كانت أكثر إيجابية تجاه الدين الإسلامي، حيث قال: (واضع شريعة المسلمين رجل رهيب ذو سطوة على أتباعه)، وقال أيضاً مخاطباً رجال الدين في اجتماع كنسي: (لقد قام الرسول بأعظم دور يمكن للإنسان أن يقوم به على الأرض، وإن اقل ما يُقال عن محمد أنه قد جاء بكتاب وجاهد، والإسلام لم يتغير قط أما أنتم ورجال دينكم فقد غيرتم دينكم عشرين مرة). كما انضم فولتير برفقة صديقه بنيامين فرانكلين إلى المنظمة الماسونية وذلك في عام ١٧٧٨ ، إلا أن بعض الباحثين يعتقدون أن هذه الخطوة كانت بهدف التقرب من فرانكلين. وقد عبّر فولتير كثيراً عن إعجابه بالحضارات الشرقية مشيراً بالوقت نفسه إلى أن الأوربية أقل منها كحضارة ذكية، وأن اليهود شعب "جاهل وهمجي".

استخدم فولتير أسالیباً استفزازية في كتاباته المثيرة للسخرية، وقد أوقعته بمشكلة مع السلطات الفرنسية في عام ١٧١٦ فنفي من باريس لأنه انتقد الوصي على العرش الفرنسي، ثم سُجن في الباستيل لكتابته قصيدة فاضحة بأن الوصي على

العرش كان على علاقة محرمة مع ابنته فسجن سنة ثم سُجن مرة أخرى في عام ١٧٢٦ نتيجة خلافاته مع أحد الارستقراطيين، ثم نفى نفسه طواعية إلى إنكلترا لمدة ثلاث سنوات. وأصبح ثرياً جداً من خلال استغلاله لخلل في اليانصيب الفرنسي ليشكل ثروة طائلة مكّنته من شراء قرى زراعية وقصور.

انتقد مسؤولون في النظام الكنسي الكاثوليكي وأرادوا منه الاعتراف بأخطائه على فراش الموت إلا أنه رفض ذلك، **ويذكر الباحثين أن فولتير على الرغم من ذلك مات مضطهداً فكرياً، أعزباً حزيناً قائلاً على فراش الموت بعد رفضه دعوات القديسين (دعوني أمت بسلام)**. وبعد أن مات فولتير عام ١٧٧٨ لم تقم له الطقوس المسيحية الكاثوليكية وإنما دُفن سراً من قبل أحد أصدقائه في إحدى الكنائس الكبيرة، إلا أن فرنسا اعتبرته بعد ذلك أحد المبشرين باندلاع الثورة الفرنسية، ثم تم تحنيط قلبه ودماغه، وتم نقل رفاته إلى مقبرة العظماء **"البانثيون الفرنسي"، إلا أن أحد العاملين أثناء ترميم قبره قام بسرقة رفاته وإلقائها في القمامة.**

أهم مؤلفاته:

- *Annals of the Empire Charlemagne A.D* ٧٤٢
- *The Age of Louis XV*
- *The Age of Louis XIV*
- رسائل فلسفية *Philosophical messages*
- زاديغ (صادق)
- المعجم الفلسفي *Philosophical glossary*

وإذا أردنا إحصاء العلماء الذين نال منهم التطرف، فقد لا يتسع المقال لإحصاء أسمائهم، فهناك أيضاً جان جاك روسو الذي ساعدت أفكاره على وفلسفته على قيام الثورة الفرنسية، وهو صاحب كتاب (إميل) الذي جاء فيه **(اتبعوا مع النشء الطريقة العكسية، وهي أن يشعر النشء بأنه هو صاحب الاختيار فلا توجد استجابة وتكريس إلا بالشعور بأن المرء حراً فيما يتعلمه، هذا هو التكريس الحقيقي)**، وقد انتشرت طريقة روسو في تربية النشء في مختلف الدول الأوربية، وبعد مرور عشرون يوماً على نشر كتابه هذا حكم عليه البرلمان بالحرق ففرّ إلى سويسرا ثم ذهب إلى إنكلترا، وعاد غلى فرنسا ليموت فيها.

وكذلك ابن المقفع المفكر الزرادشتي الذي اعتنق الإسلام وتعلم العربية، وترجم كليلة ودمنة، ووضع كتاب (الأمان)، وهو من قال في كتاب: (إذا أخلّ المنصور بشرط من شروط الأمان كانت نساؤه طوالق، وكان الناس في حل من بيعته)، مما أثار حنق المنصور العباسي الذي قتله ولم يتجاوز عمره ستة وثلاثون سنة. وغيره كأمثال الحلاج وأبي حيان التوحيدي. **أما ابن رشد فكان فيلسوفاً وطبيباً وقاضي القضاة في قرطبة، ويعدّ من أفضل الفلاسفة التي أنتجتهم الحضارة العربية والإسلامية، اتهم بالكفر والزندقة والخروج من الملة لانتقاده كتاب (تهافت الفلاسفة) للغزالي، فألف كتاب (تهافت التهافت) رداً عليه.**

ـ خالد الأسعد:

مؤرخ وعالم آثار سوري، ولد في تدمر عام ١٩٣٤، درس التاريخ في جامعة دمشق، عمل رئيساً لدائرة التنقيب والأبحاث في المديرية العامة للآثار والمتاحف، ثم مديراً لآثار تدمر وأميناً لمتحفها منذ عام ١٩٦٣ وحتى عام ٢٠٠٣.

عمل الأسعد مديراً للعديد من البعثات الأثرية أهمها في الأسوار الدفاعية لمدينة تدمر ومدفن زبدعته وحمامات زنوبيا وهيكل الموتى والبخراء

والحلابات والبازورية ومدفن بولحا ومدفن بريكي والسوق الأموية ودبسي الفرج وكهف الدوارة وقصر الحير وغيرها. ثمّ عمل مشاركاً في بعثات أثرية عالمية ساهمت أيضاً في التنقيب عن الآثار السورية. ثم عمل مستشاراً وطنياً في برنامج تطوير السياحة الثقافية وبرنامج تحديث الإدارة المحلية في عام ٢٠٠٨. كما شارك في مؤتمرات أثرية متعددة في البحرين ووارسو وواشنطن ولندن.

أتقن عالم الآثار خالد الأسعد اللغة التدمرية والآرامية قراءة وكتابة وهي من اللغات القديمة ومن العلماء القلائل الذين تعمقوا في هاتين اللغتين، عدا عن اللغة الإنكليزية. وارتبط بعلاقات علمية وصداقة وثيقة مع هنري سيريغ وروبير آمي وعدنان البني.

نال الأسعد وسام الاستحقاق برتبة فارس من رئيس الجمهورية الفرنسية ورئيس الجمهورية البولونية ورئيس جمهورية تونس.

ساهم الأسعد في جميع الدراسات المرتبطة بتأهيل الموقع وتقديمه للسياح بطريقة تتناسب مع أهميته وضرورة الحفاظ عليه للأجيال القادمة، وذلك حتى بلوغه سن التقاعد، حيث لم يبخل بعدها بتقديم الخبرة والمشورة، وإليه يعود الفضل في إعداد ملف تسجيل موقع تدمر الأثري على لائحة التراث العالمي لمنظمة اليونيسكو في شهر أيلول عام ١٩٨٠.

بعد هذه المسيرة الحافلة، لا بد أن أقتبس من الصحافة الحرة ما أطلقت عليه "قاهر داعش" وهو لقبٌ يتجاوزُ الأُطر الإعلاميّة والرّمزية، ويعكس حقيقة ما حصل فهو لو أنه أراد الاستمرار على قيد الحياة، لما كان في حاجةٍ إلى أكثر من الرضوخ لطلب وحيدٍ حاوَل جلاّدوه المستحيلَ لإجباره على تنفيذه، لكنّه رفضَ، فقهر والمستحيلَ معاً. فمنذ اعتقاله، حقّقوا معه أيّاماً، قبل أن يُحيلوه إلى الاستتابة، وهي إجراء أشبه بدورة إعادة تأهيل ديني وفقَ منظور

> **"انتقد مسؤولون في النظام الكنسي الكاثوليكي وأرادوا منه الاعتراف بأخطائه على فراش الموت إلا أنه رفض ذلك، ويذكر الباحثين أن فولتير على الرغم من ذلك مات مضطهداً فكرياً، أعزباً حزيناً قائلاً على فراش الموت بعد رفضه دعوات القديسين (دعوني أمت بسلام)، وبعد أن مات فولتير عام ١٧٧٨ لم تقم له الطقوس المسيحية الكاثوليكية وإنما دُفن سراً من قبل أحد أصدقائه في إحدى الكنائس الكبيرة."**

التنظيم المتطرّف، ويكفي رضوخُ المُستتاب لها، وإعلانه التّوبة حتّى يُحقن دمُه،)بايِع تنجُ، وتَفُزْ(: هذا هو العرض الذي قدموهُ له.

ومن السّهل تصوّر إقدام كثيرٍ منّا على قبول عرضٍ من هذا النّوع بدافعٍ من حلاوة الرّوح، لكن البديهي أيضاً أنّ رجُلاً من طراز خالد الأسعد ما كانَ له أن يفعلَها. لم يكن الرّجل عموداً من أعمدة تدمر، بل كان كلُّ واحدٍ من أعوامه الثلاثة والثمانين عموداً تدمريّا، ولو أنه بايعهم بما يمثله من رمزيّة ومرجعيّة، لمنحَهم ربما فرصة إحداث تحوّل اجتماعي في المدينة، لكنّه رفض ببساطة كما يفعلُ أي فارسٌ مثلُه، فأسقط شرعيتهم، وكما كان رفض التّدمريّ طبيعيّاً ومنسجماً مع ما جُبل عليه، وجاء ردّ الفعل منسجماً مع التطرف، فانتقم من قاهِره بقطع رأسه بتاريخ الثامن عشر من آب عام ٢٠١٥.

لقد جُرع الجميع المرارة الشديدة، ولم يكن

"إذا أردنا إحصاء العلماء الذين نال منهم التطرف، فقد لا يتسع المقال لإحصاء أسمائهم، فهناك أيضاً جان جاك روسو الذي ساعدت أفكاره وفلسفته على قيام الثورة الفرنسية، وهو صاحب كتاب (إميل) الذي جاء فيه (اتبعوا مع النشء الطريقة العكسية، وهي أن يشعر التشئ بأنه هو صاحب الاختيار فلا توجد استجابة وتكريس إلا بالشعور بأن المرء حراً فيما يتعلمه، هذا هو التكريس الحقيقي)."

بوسعهم فعل شيء حيال الجريمة النكراء، فأهالي تدمر أصيبوا بعد الحادثة بالذهول والخوف، والتزموا مساكنهم، أما من هم من الأقارب أو الأصدقاء وزملاء العمل فقد كانوا تحت المراقبة ولكن لم يكن بوسعهم عمل أي شيء، سوى أن البعض تمكن من اختطاف رأس الأسعد ودفنه على عجالة بعيداً عن الأنظار، واستطاعوا كذلك بعد ثلاثة أيام أن يسحبوا الجسد ويواروه الثرى بعيداً عن الأنظار.

أهم مؤلفاته:

المنشورات العلمية:

- مرحبا بكم في تدمر ١٩٦٥.
- القبائل البدوية في منطقة تدمر ١٩٦٦.
- مدينة في الصحراء (انكليزية).
- تدمر أثريا تاريخيا سياحيا (عدة لغات).
- المدفن البيت رقم ٣٦ (ألماني).
- المنحوتات التدمرية (فرنسي).
- النقوش التدمرية في متحف تدمر (انكليزية).
- مقالع الحجر في تدمر (ألماني)
- المنسوجات التدمرية (ألماني).
- النقوش والكتابات في تدمر (فرنسي) بالتعاون مع CNRS.

لقد كان التطرف ولا يزال عدواً للعلم والعلماء، لأنهم أصحاب التنوير والعلم والانفتاح، وضد الانغلاق والظلام الفكري، ولأن الإنسانية بطبيعتها تحارب التطرف والغلو في الفكر والمنهج والعلوم، وتدعو إلى الاعتدال والوسطية، ولهذا فقد كان العلماء على مدى التاريخ ضحية للجهل والتشدد، وما حدث في محاكم التفتيش مشابه تماماً لما حدث على يد الأنظمة الدينية المتطرفة، لأنها بهذه العقلية المتحجرة تعود لمئات وآلاف السنين من الهمجية والعنف وعداء الكلمة والمنطق.

المراجع:

- الكنيسة والعلم، جورج مينوا، ترجمة: موريس جلال، مراجعة: د. جمال شحيّد، دار الأهالي للنشر والتوزيع - المؤسسة العربية للتحديث الفكري - ٢٠٠٥
- تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم - دار المحرر الأدبي للنشر والتوزيع.
- The Fontana history of chemistry
- كتاب جوتة والعالم العربي - كاترينا مومزن - ترجمة: د. عدنان عباس علي - مراجعة : د. عبد الغفار مكاوي - سلسلة عالم المعرفة - العدد ١٩٤ - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت.
- آراء متنوعة من الشابكة الإلكترونية.

التحالف الخفي بين المتطرف في العالم (بوتين – ترامب – أردوغان) وتداعياته على الشرق الأوسط



سليمان محمود

مقدمة:

كان التدخلُ العسكري الروسي في سوريا في خريف عام 2015 بمثابة نقطة التحوّل الرئيسية في الحرب الأهلية السورية، وعودة روسيا إلى الشرق الأوسط كلاعبٍ رئيسي في القوة بعد غيابٍ دام عشرات السنين.

غيّرتِ القواتُ الجوية الروسية- بالتعاون مع القوات الإيرانية على الأرض- مسارَ الحرب، وأنقذت حكومةَ الرئيس السوري بشار الأسد من الانهيار الوشيك. استخدم الرئيسُ الروسي فلاديمير بوتين هذا الإنجاز لإحياء الشراكات القديمة وإطلاق شراكاتٍ جديدة. لقد عقد مؤتمراتٍ لتقرير مصير سوريا ما بعد الحرب

الأهلية، وتبادل الزياراتِ مع الحلفاء الأمريكيين في الشرق الأوسط منذ فترة طويلة. ووقع اتفاقاتٍ لبيعهم أسلحةً ومحطاتِ الطاقة النووية. يبدو أنّ روسيا عادت من الخليج إلى شمال إفريقيا، خاصة وأنّ الولاياتِ المتحدة- المنهكة منذ ما يقرب من عقدين من الحروب التي لا نهاية لها- تبدو حريصةً على تقليل التزاماتها في المنطقة إلى الحد الأدنى. ودون رغبة في الوقوف في طريق الطموحات الروسية، أصبحت سياسةُ الولايات المتحدة غيرَ منتظمة ومضطربةً بشكل متزايد للخصوم والحلفاء القدامى على حدّ سواء.

في الواقع، يعدُّ قرارُ الرئيس دونالد ترامب في أكتوبر ٢٠١٩ بسحب القوات الأمريكية المتبقية من شمال سوريا، ضوءاً أخضرَ على العمل العسكري الذي تقوم به تركيا والم
التي تقودها ضدّ الأكراد حلفاء الولايات المتحدة السابقين، يعدُّ أبرزَ مظاهر رغبة واشنطن في إنهاء ما يقرب من عقدين من الحرب. لقد ضاعفت من الانطباع بانسحاب أمريكي سريع من الشرق الأوسط وهيمنة روسيا. وما زاد الطينَ بلةً تزامنُ انسحاب الولايات المتحدة من شمال سوريا مع زياراتٍ منتصرة من بوتين إلى المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة، وكلاهما من الحلفاء الأمريكيين.

ومع ذلك، فإنّ التقييمَ الرصينَ لمساعي الكرملين في جميع أنحاء الشرق الأوسط يشيرُ إلى أن صورةَ صعوده هي نوعٌ من المبالغة إلى حدّ ما، وأن الإنجازاتِ الفعلية للدبلوماسية الروسية في جميع أنحاء المنطقة أكثرُ تواضعاً مما تبدو عليه في البداية. بالطبع، لا ينبغي التقليلُ من إنجازات الكرملين أو تجاهلها حتى الآن. لكن أكبرَ إنجاز منفرد - انتصار مشترك في الحرب الأهلية السورية - والذي وضع روسيا كقوة رئيسية في البلد الذي مزقته الحرب، يأتي مع مجموعةٍ من التحديات الدبلوماسية والعسكرية والاقتصادية الرئيسية، التي تجعل مهمةَ الفوز بالسلام أكثرَ صعوبةً من الفوز في الحرب.

من الخليج الفارسي إلى شمال إفريقيا، أنتجت الدبلوماسيةُ الروسية الرنانة مجموعةً من الصفقات المتعلقة بالتجارة والاستثمار والإعلانات المشتركة حول التعاون الموسّع في مختلف المجالات. ومع ذلك، فإن إلقاءَ نظرة فاحصة على هذا النمط المثير للإعجاب من النشاط يوضح أن التنفيذَ العملي لهذه الاتفاقيات والصفقات يتخلفُ أو لا يزال غيرَ محقّق. لا تزال تجارةُ روسيا مع الشرق الأوسط متواضعةً للغاية، وهناك احتمالٌ ضئيل أن يتغيرَ هذا الوضعُ في المستقبل المنظور.

روسيا وتركيا

كان تسليمُ روسيا لنظام الدفاع الجوي S_٤٠٠ إلى تركيا في يوليو ٢٠١٩ لحظةً محورية في العلاقات الروسية التركية. حينَ اشترت أنقرةُ نظامَ الدفاع الجوي الروسي، متجاهلةً تحذيراتِ واشنطن الواضحة والصريحة من تداعيات العلاقات الروسية التركية، والتهديد بفرض عقوبات، ومنع الوصول إلى أسلحة أمريكية متطورة. وقد أدت الطبيعةُ غير الواضحة للتحذيرات، وتجاهل القيادة التركية إلى تضخيم الانطباع بانفصالها عن الولايات المتحدة، والغرب عموماً، في محورها الجغرافي السياسي تجاه روسيا.

كان قرارُ أنقرة حيال منظومة /S_400/ أكثرَ إثارة للدهشة بالنظر إلى حجم ونطاق الفصل بين روسيا والغرب منذ عام ٢٠١٤، وبدايةَ ما يوصف غالباً بأنها حربٌ باردة جديدة. ومع ذلك، فإن محورَ تركيا تجاه روسيا له أسبابٌ أعمق، وكان في طور الإعداد من حلقة S_400 أو عودة ظهور روسيا كممثل إقليمي رئيسي من خلال تدخلها العسكري في سوريا. لقد كان التغييرُ في العلاقات الروسية التركية مستمراً منذ أكثر من عقدين، وبنظرة مختصرة على

ديناميكياتها يمكن الوصول لتصحيح مهمّ للانطباع السائد بأن التغيير كان مفاجئاً وغيرَ متوقع.

كان لنهاية الحرب الباردة وانفتاح الاقتصاد الروسي تأثيرٌ عميق على العلاقات الروسية التركية. وقد تلاشى تقريباً تراثُ التنافس التاريخي بين روسيا وتركيا- الذي أدى إلى حروب عديدة بين الحكام الإمبراطوريين الروس والعثمانيين، ومواجهة مزعجة خلال معظم القرن العشرين- وظهرت مكانها علاقةٌ تجارية مزدهرة بين البلدين.

ابتداءً من أوائل التسعينيات، ازدهرتِ العلاقةُ الاقتصادية بين روسيا وتركيا. ودخلت شركاتُ البناء التركية سوقَ العقارات المربح في موسكو، واكتشف السياحُ الروس شواطئَ البحر الأبيض المتوسط التركية، وعملت شركاتُ الطاقة الروسية والتركية في مشاريعَ طموحة لخط الأنابيب، ونما حجمُ التجارة السنوية بينهما من أقل من ملياري دولار في عام ١٩٩٢ إلى ٢٥ مليار دولار في عام ٢٠١٨، وفيما أعلن بوتين والرئيسُ التركي رجب طيب أردوغان عن طموحهما في زيادة هذا العدد إلى ١٠٠ مليار دولار.

ازدهرتِ العلاقاتُ التجارية على الرغم من تراث التنافس الجيوسياسي بين سانت بطرسبرغ «موسكو» وإسطنبول « أنقرة «، وكذلك مصادر الاحتكاك الأكثر حداثة بين البلدين. ونذكرُ في نزاع ناغورني كاراباخ بين أذربيجان وأرمينيا، انضمت تركيا إلى الأولى، في حين تولّت روسيا دورَ حامية الأخير التاريخية ضد العثمانيين (في الوقت الذي توفر فيه الأسلحة لكلا البلدين). وكذلك من الواضح أن الحكومةَ الروسيةَ قد غضت الطرف عن الدعم الذي قدمه الشتات التركي للمقاتلين الشيشان الذين يشنون تمرداً ضد روسيا في التسعينيات . ولم يمنع ذلك روسيا من توقيع اتفاق خط أنابيب رئيسي مع تركيا في عام ١٩٩٨. بينما رفضت

” كان قرارُ أنقرة حيال منظومة S__400 أكثرَ إثارة للدهشة بالنظر إلى حجم ونطاق الفصل بين روسيا والغرب منذ عام ٢٠١٤، وبدايةَ ما يوصف غالباً بأنها حربٌ باردة جديدة. ومع ذلك، فإن محورَ تركيا تجاه روسيا له أسبابٌ أعمق، وكان في طور الإعداد من حلقة S__400 أو عودة ظهور روسيا كممثل إقليمي رئيسي من خلال تدخلها العسكري في سوريا. “

تركيا الاعترافَ بضم روسيا لشبه جزيرة القرم، ولم توافق أو تشارك في عقوبات الاتحاد الأوروبي ضد روسيا.

ولكن هناك ما هو أكثر. حيثُ اتبعت كلٌّ من روسيا وتركيا مساراتٍ سياسية محلية مماثلة. ففي التسعينيات وأوائل العقد الأول من القرن العشرين، نفّذ كلا البلدين إصلاحاتٍ محلية كبرى، وسار كلّ منها في طريقه نحو علاقات أوثقَ مع أوروبا. في حالة تركيا، شمل هذا النهجُ محاولةَ الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. ومع ذلك، بعد فترة من المحاولات الفاشلة في نهاية المطاف للتقارب مع أوروبا، شهد كلا البلدين تحوّلاتٍ كبيرة في سياستهم الداخلية مع ظهور قادة استبداديين على نحو متزايد. ونتيجة لذلك، عانت علاقاتهم مع الاتحاد الأوروبي، إلى حد كبير، بسبب النظرة الخافتة لأوروبا وانتقاداتها لتطوراتهم السياسية الداخلية. وتحولت كل من روسيا وتركيا- اللتين تتبع كل منهما رؤية زعيمها- إلى منبوذين في

أوروبا بشكلٍ متشابه، وإن لم يكن بتطابق تامّ في المظالم ضد شركائهم الأوروبيين المحتملين.

وهكذا كانت العلاقةُ الشخصية بين بوتين وأردوغان على نفس القدر من الأهميّة لتطوير العلاقة بين روسيا وتركيا. لقد وجدَ الزعيمان نفسيهما أهدافاً للنقد الأوروبي- بسبب تراجعهما عن حقوق الإنسان والفساد - ورفض كلاهما مثلَ هذه الانتقادات والتدخل في شؤونهما الداخلية. حافظ كلاهما أيضاً على علاقةٍ غير مريحة مع واشنطن، وعلى وجه الخصوص علاقة شخصية صعبة مع أوباما.

وفي المجمل، هو مزيج من الإيجابيات والسلبيات هيّأ الزعيمين نحو الشعور بالتضامن مع بعضهما البعض، وإعلان العلاقات الشخصية الودية. مع ذلك، وإثر اندلاع الحرب الأهلية السورية، تم وضعُ العلاقة بين البلدين والقادة في اختبارٍ في عدة أزمات وبتتابع سريع.

إن سجلَ العلاقات التركية السورية معقدٌ، وغالباً ما كان مضطرباً. ويتضمن إرثَ علاقةٍ مضطربة بين إمبراطوريةٍ سابقة ومستعمرتها، التي تشترك في حدود ٥٠٠ ميل ولديها مطالب إقليمية متنافسة؛ وأيضاً إرثُ الحرب الباردة، عندما انضمت سوريا إلى حلف الاتحاد السوفيتي، بينما تركيا كانت ركيزةَ الجناح الجنوبي لمنظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو)؛ وكذلك قضيةُ إيواء الزعيم الكردي عبد الله أوجلان في سوريا، والذي اتهمته الحكومةُ التركية بتدبير حملة إرهابية داخل تركيا.

رحّب قادةُ تركيا بالربيع العربي، لأسبابٍ سياسية وجيوسياسية ودينية وفلسفية وداخلية خاصة بهم، هم في البداية حثوا الأسدَ على ممارسة ضبط النفس في جهوده لإخماد الاضطرابات المدنية في سوريا .ولم يترك الأسدُ- بشدّة ووحشية متزايدة في تعامله مع المعارضة- بشيء من الشكّ حول رفضه غير المشروط لتلك النصيحة، وانتقلت تركيا إلى صفّ خصوم الأسد وأنصار معارضته، في حين ظلّت روسيا حليفاً قوياً ومؤيّداً لنظامه.

كما هو الحالُ في العلاقات الأخرى بين روسيا ومختلف أطراف النزاع السوري، سواء المشاركين بشكل مباشر أو غير مباشر، جاءت اللحظةُ المحورية مع نشر القوات الجوية والبرية الروسية في سوريا في خريف عام ٢٠١٥. ووضع الجيشُ الروسي نفسَه على مقربة من تركيا- خصم الحرب الباردة السابق- وصار الاثنان يعملان في المجال الجوي السوري المكتظ بشكل متزايد.

في ٢٤ نوفمبر ٢٠١٥، أسقطت طائرةٌ تركية من طراز F-١٦ طائرةً روسية من طراز Su-٢٤، وفيما زعمت أنقرة - ونفت موسكو بشدة - أنّها اخترقت المجال الجوي التركي، أصرّ الروسُ على أن طائرتهم قد أسقطت فوق سوريا. أثار الحادثُ ردّ فعل غاضبٍ من روسيا، بما في ذلك مجموعة من العقوبات الاقتصادية والمطالبة باعتذار من أردوغان، الذي قدمه في يونيو ٢٠١٦ في محاولةٍ للتخفيف من العقوبات والضغط السياسي من روسيا.

بعد شهرٍ بالكاد، تلقّت العلاقاتُ الروسية التركية الفاترة دفعةً كبيرة من التحول غير المتوقع للأحداث في تركيا. كانت محاولةُ الانقلاب ضد أردوغان في يوليو ٢٠١٦ لحظةً محورية للسياسة الداخلية التركية، مما أدى إلى تطهيرٍ هائل من المجتمع المدني في البلاد، والعسكريين، والموظفين الحكوميين، ووسائل الإعلام.

أدى الانقلابُ، والتطهيرُ الشامل لخصوم أردوغان الذي أعقب ذلك، إلى مزيج من الحيرة والتردد والنقد الموجه ضد أردوغان من حلفاء تركيا الأوروبيين والولايات المتحدة. وكان الاستثناءُ الوحيد الملحوظ لردّ الفعل هذا هو بوتين. احتضن نظيره التركي واغتنمَ الفرصةَ لقيادة

إسفينٍ بين تركيا وحلفائها الأوروبيين في وقت من علاقاتهم المتوترة بالفعل بشأن معالجة أزمة اللاجئين السوريين. ويقال إن بوتين- في مكالمة هاتفية في ليلة الانقلاب- عرض مساعدةَ أردوغان العسكرية من قبل القوات الخاصة الروسية.

كان انقلابُ يوليو ٢٠١٦ الفاشل، وردّ فعل بوتين عليه، نقطةَ تحوّل في العلاقة التي لم تنتعش بعد من أزمة ٢٠١٥ على سوريا. في أغسطس ٢٠١٦، سافر أردوغان إلى روسيا — في أول رحلة خارجية له بعد الانقلاب- وشكر بوتين علناً على دعمه، مشيراً إليه على أنه «صديق عزيز». وسافر الرئيسُ التركي إلى روسيا مرة أخرى في مايو ٢٠١٧. وعند هذه النقطة أعلن بوتين أنّ العلاقةَ قد انتعشت تماماً من أزمة عام ٢٠١٥ وأن العلاقة الاقتصادية قد تعافت. وقد تطورت هذه العلاقة المزدهرة على خلفية تدهورٍ مستمر في العلاقات بين تركيا وحلفائها الغربيين؛ إثر تطهير أردوغان البلاد من الرتب العسكرية، حتى شمل تطهير الضباط الأتراك العاملين في مقر الناتو.

حدثت نقطةٌ مهمة أخرى في التقارب السريع بين البلدين، ومحور تركيا تجاه روسيا في ديسمبر ٢٠١٧. عندما وقع البلدان على صفقة بقيمة ٢,٥ مليار دولار ثمن شراء نظام الدفاع الجوي S_٤٠٠ من روسيا، بعد ما يقرب من عامين، وتحذيرات لا تُعدّ ولا تُحصى من جانبي الأطلسي وحلف الناتو حول التأثير السلبي على علاقات تركيا مع الولايات المتحدة، ولكن تمّت الصفقة.

كانت الصفقةُ S_400 انتصاراً لبوتين في مواجهته مع الولايات المتحدة وحلف الناتو أكثر منه كعلامة التقارب الاستراتيجي الحقيقي بين موسكو وأنقرة. كانت رمزيةً إلى حدّ بعيد الجائزةُ الأكثر أهمية لبوتين. فبعد سنواتٍ من الحدة في موسكو وواشنطن وبروكسل، وعقوباتٍ متعددة فرضت على روسيا بسبب

من الواضح أن الحكومةَ الروسيةَ قد غضت الطرف عن الدعم الذي قدمه الشتات التركي للمقاتلين الشيشان الذين يشنون تمرداً ضد روسيا في التسعينيات. ولم يمنع ذلك روسيا من توقيع اتفاق خط أنابيب رئيسي مع تركيا في عام ١٩٩٨. بينما رفضت تركيا الاعترافَ بضم روسيا لشبه جزيرة القرم، ولم توافق أو تشارك في عقوبات الاتحاد الأوروبي ضد روسيا.

انتهاكها للسيادة الأوكرانية وسلامة أراضيها وتجاوزات أخرى متعددة - العقوبات المفروضة بشكل خاص على Rosoboronexport ، كيان الدولة الروسي الذي باع نظام S_٤٠٠ إلى تركيا - حصلَ بوتين على اليد العليا، وساد أردوغان للمضي قدماً في عملية الشراء.

كما كانت صفقةُ S_٤٠٠ بمثابة انتصارٍ رمزي لأردوغان أيضاً، على الأقل في المدى القريب. لقد كان ذلك مفاجأة لواشنطن وبروكسل، حيث عانت سمعته بشدة في السنوات الأخيرة. كما كانت فرصةً لإظهار أهمية تركيا الاستراتيجية للغرب واستقلالها عنه.

وعلى الرغم من التهديدات المتكرّرة بفرض عقوبات على تركيا من أجل صفقة S_٤٠٠، فقد كافحت إدارةُ ترامب للتوصّل إلى استجابة مناسبة، وكان ردّ فعلها على تسليم النظام إلى تركيا صامتاً، وعلامة على أنّ الأسهمَ الأمريكية في خطر في تركيا، بما في ذلك وصول

وهكذا كانت العلاقةُ الشخصية بين بوتين وأردوغان على نفس القدر من الأهميّة لتطوير العلاقة بين روسيا وتركيا. لقد وجدَ الزعيمان نفسيهما أهدافاً للنقد الأوروبي- بسبب تراجعهما عن حقوق الإنسان والفساد - ورفض كلاهما مثلَ هذه الانتقادات والتدخل في شؤونهما الداخلية. حافظ كلاهما أيضاً على علاقةٍ غير مريحة مع واشنطن، وعلى وجه الخصوص علاقة شخصية صعبة مع أوباما.

الولايات المتحدة إلى قاعدة Incirlik الجوية، والرغبة في تجنب المزيد من الأضرار التي لحقت تماسك الناتو أو تفاقم الانقسام مع تركيا.

ومع ذلك، لا ينبغي فهمُ هذه النقطة العالية الجديدة في العلاقة بين موسكو وأنقرة على أنها تحوّلٌ استراتيجي حقيقي، فيما لا يتعدى أن يكون في أفضل الأحوال علاقةً معقدة في المستقبل المنظور. هناك عدةُ أسباب للحذر. فعلى الجانب الإيجابي، تعدّ العلاقاتُ التجارية والاقتصادية بين تركيا وروسيا أساساً مهماً لعلاقات البلدين، وتوفر كلاهما حوافز قوية للحفاظ على تلك العلاقة. وكذا يشتركُ قادة كلا البلدين في ضغينة ضد أوروبا والولايات المتحدة، كما لدى كل من أردوغان وبوتين أجنداتٌ سياسية محلية استبدادية مماثلة في الداخل، ويرفضان انتقاد القادة الآخرين باعتباره تدخلاً في شؤونهم الداخلية.

لكن لديهم خلافاتهم كذلك. فالدعمُ العسكري الروسي لنظام الأسد، الذي قلبَ مجرى الصراع وحفظه مما بدا أنه هزيمةٌ وشيكة، ترك للحكومة التركية خياراتٍ قليلة، بخلاف احتواء عدائها تجاه نظام الأسد وقبول حقيقة البقاء في السلطة في سوريا. ومع ذلك، تحولت هذه الانتكاسةُ الأولية لتركيا إلى فرصة غير متوقعة، بعد أن أوضحَ ترامب في ديسمبر ٢٠١٨ أنه يريد انسحاباً «كاملاً وسريعاً» لجميع القوات الأمريكية. على الرغم من أن هذا القرار تمّ عكسه تحت ضغط البنتاجون ومؤيدي حملة الدولة الإسلامية، إلا أن أردوغانَ استمرّ في الضغط باستمرار.

في أكتوبر ٢٠١٩، أعلن ترامب مرةً أخرى عن قرار بسحب القوات الأمريكية وتمهيد الطريق أمام تركيا لمهاجمة القوّات الكرديّة، والتي كانت تعمل حتى ذلك الحين في شراكةٍ وثيقة مع القوات الأمريكية. وهذه الفرصة بدورها خفّفت النشرَ السريع للقوات الروسية لملء الفراغ الذي خلّفه انسحاب القوات الأمريكية، والذي لم يترك للحكومة التركية أيّ خيار سوى قبول وجود الجيش الروسي والسوري في المناطق التي كانت تسيطر عليها في السابق المجموعات التي يقودها الأكراد بدعم وحماية الولايات المتحدة.

التحركاتُ التي أعقبت قرارَ إدارة ترامب بسحب القوات من شمال سوريا أرسلت إشارةً قوية إلى أردوغان بأنه في سعيه لتحقيق أهدافه في سوريا، سيكون عليه أن يولي عن كثبٍ التفضيلات والأولويات الروسية.

على الرغم من أن العلاقاتِ الاقتصادية بين روسيا وتركيا مهمة، ولكنها ليست بما يكفي لتجاهل بعض الجوانب التنافسية للعلاقة. فروسيا ليست حتى من بين أكبر عشر أسواق لصادرات تركيا. الصينُ وألمانيا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة، إلى جانب العديد من الاقتصادات الأوروبية الكبرى الأخرى كلها أقرب إلى تركيا. ورومانيا وبلغاريا وإسرائيل تشتري

من تركيا أكثر من روسيا. على الرغم من أنّ التجارةَ مع روسيا هي عنصرٌ مهم في علاقتها مع تركيا، إلا أن روسيا أثبتت أنها ليست فوق استخدام التجارة كسلاح ضدها.

في حين أن أنقرة قد أعلنت عزمها على تأمين حدودها من الأكراد الذين تقول أنهم يشكلون تهديداً كبيراً لأمنها الداخليّ، فإن روسيا، من جانبها، لم تكن فوق استغلال القضية الكردية في التعامل مع تركيا، وقد أمدت روسيا بالسلاح إلى القوات الكردية في العراق، وقيل إنها دعمت القوات الكردية التي تقاتل الجيش التركي في سوريا.

بشكلٍ عام، تبدو العلاقةُ الروسية التركية أشبهَ بعلاقة معاملات أكثر من كونها تحالفاً أو شراكة استراتيجية. باستثناء الروابط الاقتصادية، حيث يوجد قدرٌ كبير من التكامل والتي لديها القدرة على العمل كعامل استقرار، فإن العلاقاتِ بينهما - التاريخية والسياسية والجغرافية السياسية والاستراتيجية والشخصية بين الزعيمين- تفتقرُ إلى القوة والمتانة والثقة المطلوبة في شراكة حقيقية، ناهيك عن التحالف.

خاتمةٌ وانعكاساتٌ على المصالح والسياسة الأمريكية

عادت روسيا إلى الشرق الأوسط. ونجحَ الكرملينُ- في بلاد الشام، شمال إفريقيا، وفي الخليج الفارسي- في إعادة بناء بعض العلاقات القديمة التي تخلى عنها خلال التسعينيات المضطربة.

وبفضل التدخل العسكري الناجح في سوريا، برزت موسكو كوسيط قوة مهمٍ يقع عند تقاطع المصالح المتعددة التي تسببت فيها الحربُ الأهلية السورية في الصراع.

بمهارةٍ وإصرار واستعداد لقبول بعض المخاطر، قد لا تكون موسكو «الأمة التي لا غنى عنها» كما زعمت الولايات المتحدة عنها ذات مرة. لكنّ ممثلي الدولة الروسية ذوي القدرات العالية يحملون أنفسهم بطرق لا تدع مجالاً للشك في أن روسيا مرة أخرى في الطبقة العليا من سياسات القوة في الشرق الأوسط. ومع ذلك، هناك اختلافاتٌ كبيرة بين دور الولايات المتحدة بعد عام ١٩٩٠ والدور الذي تطمح روسيا إلى لعبه الآن. كانت الولاياتُ المتحدة في تسعينيات القرن الماضي هي صانع القواعد والمنفذ، وكانت قادرةً على القيام بهذا الدور على استعداد فريد. وكان هذا هو السببُ وراء رغبة جميع الأطراف الأخرى في التحدث إلى الولايات المتحدة.

في المقابل، لا يبدو أن روسيا لا غنى عنها. في حالات متعدّدة، أدخلت نفسها وأصبحت طرفاً تعتبر موافقته ضرورية، حتى لو كانت موسكو بالكاد في وضع يمكّنها من تقديم الحلول الصحيحة للمشاكل الخطيرة. قد ترغبُ دول الشرق الأوسط في التحدث إلى روسيا، لكنهم لا يتوهمون أن موسكو يمكن أن تحقق النتائجَ التي تسعى إليها.

لا ينبغي أن يخفي نجاحُ روسيا- في إعادة ترسيخ نفسها كعنصرٍ فاعل مهم في الشرق الأوسط- حقيقةَ أن مجموعةَ أدواتها، العسكرية والدبلوماسية والاقتصادية، للتخطيط والمحافظة على سلطتها ونفوذها في المنطقة متواضعةٌ للغاية. كانت الدبلوماسيةُ رفيعة المستوى مفيدةً لصورة روسيا كقوة كبرى في وقتٍ كانت فيه إدارتا أوباما وترامب تبحثان عن فرص لتقليل المشاركة الأمريكية في المنطقة. حتى عندما يقترن بمبيعات الأسلحة، وهي أداة رئيسية في مجموعة الأدوات الروسية، لا يستطيعُ الكرملين فعلَ الكثير لمعالجة التحديات الأمنية والاقتصادية والاجتماعية المجتمعية الملحّة في المنطقة.

علاوةً على ذلك، بصرف النظر عن سوريا، فإنّ أهمَّ علاقات روسيا في الشرق الأوسط تحدث

حدثت نقطةٌ مهمة أخرى في التقارب السريع بين البلدين، ومحور تركيا تجاه روسيا في ديسمبر ٢٠١٧، عندما وقّع البلدان على صفقة بقيمة ٢,٥ مليار دولار ثمن شراء نظام الدفاع الجوي S__٤٠٠ من روسيا، بعد ما يقرب من عامين، وتحذيرات لا تُعدّ ولا تُحصى من جانبي الأطلسي وحلف الناتو حول التأثير السلبي على علاقات تركيا مع الولايات المتحدة، ولكن تمّت الصفقة.

مع دولٍ غير عربية - إسرائيل وتركيا وإيران. ومع ذلك، فإن أكثرَ مشاكل الشرق الأوسط إلحاحاً هي داخل المجتمعات العربية. هناك القليلُ الذي يمكن لروسيا أن تقدمه لهم لمعالجة هذه المشاكل، والتي من المرجح أن تحدّ من وصولها والبقاء في المنطقة.

القدرةُ على التحدث مع جميع الأطراف هي العاصمةُ التي يبدو أن القادةَ الروس يقدرونها أكثر من غيرها ويحاولون لعبها بشكل متكرر. لكن عدمَ رغبة الكرملين في إنفاق أي من هذه العاصمة قد وضع قيداً قوياً على الدبلوماسية الروسية في الشرق الأوسط. في سوريا- على سبيل المثال- تتعارضُ المصالحُ الروسية إلى حدّ ما مع المصالح الإيرانية، بعد نجاحها المشترك في دعم نظام الأسد. يبدو أن روسيا غيرُ راغبة وغير قادرة على الانتصار على شريك رئيسي في المنطقة للتخلي عن السياسات التخريبية التي تهدد إسرائيل، والتي تريد روسيا من خلالها الحفاظ على علاقات جيدة .

وأيضاً في الخليج الفارسي- حيث وصلت العلاقاتُ مع المملكة العربية السعودية إلى أعلى مستوياتها التاريخية- تبدو موسكو غيرَ راغبة بالمثل وغير قادرة على الوقوف إلى جانبٍ بين الرياض وطهران، ناهيك عن التوترات المتصاعدة المعتدلة.

على الرغم من المهارة والإصرار اللذين أبداهما الدبلوماسيون والقيادة الروسية في السعي لتحقيق هدفهم المتمثل في إعادة روسيا إلى موقع بارز في الشرق الأوسط، والمخاطر الكامنة في أي استخدام للقوة العسكرية في المنطقة، فقد تم تسهيلُ عودة روسيا إلى المنطقة.

في سوريا، وقبل التحركات العسكرية الروسية في خريف عام ٢٠١٥، أوضحت إدارةُ أوباما بكل وضوح أنها لن تتدخل مباشرة إلى جانب المعارضة وأن الدورَ العسكري الأمريكي سوف يقتصرُ على الحملة ضد الدولة الإسلامية، مما يترك روسيا حرةً لدعم نظام الأسد.

في الخليج الفارسي، استفادت روسيا من المخاوف الناجمة عن محور الولايات المتحدة المعلن عنه على نطاق واسع تجاه منطقة آسيا والمحيط الهادئ والرغبة في طريقة جديدة مع إيران. وبالمثل، فإن تقاربَ تركيا مع روسيا كان مدفوعاً بتراجع علاقتها بالولايات المتحدة وأوروبا. وكذلك تحدث عودةُ روسيا إلى شمال إفريقيا على خلفية الغياب الأمريكي عن المنطقة منذ حملة ليبيا الفاشلة عام ٢٠١١.

على الرغم من التنبؤات المبكرة بأن روسيا كانت تتفوق في سوريا وقد تواجه عواقبَ وخيمة دبلوماسية وعسكرية واقتصادية، فإن الكرملينَ كان محافظاً بشكل عام في تصرفاته وتجنبَ بمهارة المخاطرَ التي لا داعيَ لها في مساعيه الشرق أوسطية. تم تنفيذُ التدخل السوري بمجرد أن أصبح من الواضح أن الولاياتِ المتحدة لن تقفَ في طريق الجيش الروسي. لقد عمل الجيشُ الروسي في سوريا

بطريقة تهدف بشكلٍ واضح إلى تقليل مخاطر الخسائر على الأرض وفي الجو. في أماكن أخرى، تم تنفيذُ ارتباطات روسية لتقليل تكاليفها وتحقيق أقصى قدر من الأرباح. بعبارة أخرى، كان الكرملينُ يكره المخاطرةَ، على عكس سمعته في الجرأة والتهور.

قوبلت عودةُ روسيا إلى الشرق الأوسط - في مجتمع السياسة في الولايات المتحدة الأمريكية - بالفزع والخوف من عودة ظهورها كعنصرٍ فاعل معادٍ لمصالح الولايات المتحدة، وبعبارة أخرى، كمفسد. تجلى هذا الموقفُ بشكل خاص في أعقاب قرار ترامب في أكتوبر ٢٠١٩ بسحب القوات الأمريكية من شمال سوريا وتمهيد الطريق أمام توغل تركيا في المنطقة، الأمر الذي عرَّضَت القوات الكردية التي تقودها الولايات المتحدة للخطر. أدى هذا التحولُ في الأحداث إلى تحرك القوات الروسية إلى المنطقة، واتفاقٍ بين القوّات الكرديّة وحكومة الأسد لإعادة الأراضي التي تسيطر عليها القوّات إلى سيطرة الحكومة كثمنٍ لوقف الهجوم التركي.

أعرب الكثيرُ من التعليقات في الولايات المتحدة عن أسفه للمكاسب التي يمكن أن تدركها روسيا نتيجةً لقرار ترامب. كانت الميزة البارزة لهذا التعليق أنه بالكاد قدّم أيّ منها رؤيةً واقعية للمصالح الأمريكية على المحك والتأثير المحتمل للقرار على المصالح الأمريكية. سيكون من الخطأ والضربة على المصالح الأمريكية إذا تم تعزيزُ هذه النظرة أحادية الجانب للوضع في إجماع في مجتمع السياسة، وأصبحت بالفعل الأساس المنطقي لسياسة الولايات المتحدة تجاه سوريا وروسيا والشرق الأوسط.

إنها لحقيقةٌ أن الولاياتِ المتحدة تحاول - دون جدوى - تخفيضَ التزاماتها في الشرق الأوسط منذ مطلع القرن. لقد خلق صعودُ الصين شرطاً قويا لصانعي السياسة في الولايات المتحدة لإعادة تركيز طاقاتهم ومواردهم على

وعلى الرغم من التهديدات المتكرّرة بفرض عقوبات على تركيا من أجل صفقة S__٤٠٠، فقد كافحت إدارةُ ترامب للتوصّل إلى استجابة مناسبة، وكان ردّ فعلها على تسليم النظام إلى تركيا صامتاً، وعلامة على أنّ الأسهمَ الأمريكية في خطر في تركيا، بما في ذلك وصول الولايات المتحدة إلى قاعدة Incirlik الجوية، والرغبة في تجنب المزيد من الأضرار التي لحقت تماسك الناتو أو تفاقم الانقسام مع تركيا.

مسرح آسيا والمحيط الهادئ. إن الطبيعةَ المتغيرة لأسواق الطاقة العالمية مدفوعةٌ بثورة الصخر الزيتي وضرورة معالجة تغير المناخ قد قللت- تدريجياً ولكن بشكل كبير- من أهمية الشرق الأوسط بالنسبة لصحة الاقتصاد العالمي. من المرجح أن تتسارع هذه العملية في المستقبل المنظور.

في ضوء هذه التطورات، يمكن تقسيمُ المصالح الأساسية للولايات المتحدة في الشرق الأوسط إلى الفئات الأربع التالية: منعُ الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة؛ منعُ إيران من امتلاك أسلحة نووية؛ ضمان أمن دولة إسرائيل؛ وتدفق النفط من الشرق الأوسط، والذي طالما ظلّ عاملاً مهماً لصحة الاقتصاد العالمي. وهكذا فإنّ عودةَ روسيا إلى الشرق الأوسط بصفتها وسيط قوة رئيسي لا يعرضُ أياً من هذه المصالح للخطر، فمع المهارة والإبداع الدبلوماسي، يمكن للمرء أن يتخيلَ أنه يمكن تسخيرُ الوجود المتزايد لروسيا لتعزيزها.

على الرغم من أن العلاقاتِ الاقتصادية بين روسيا وتركيا مهمة، ولكنها ليست بما يكفي لتجاهل بعض الجوانب التنافسية للعلاقة. فروسيا ليست حتى من بين أكبر عشر أسواق لصادرات تركيا. الصينُ وألمانيا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة، إلى جانب العديد من الاقتصادات الأوروبية الكبرى الأخرى كلها أقرب إلى تركيا. ورومانيا وبلغاريا وإسرائيل تشتري من تركيا أكثر من روسيا.

لروسيا أيضاً- مثل الولايات المتحدة- مصلحةٌ كبيرة في هزيمة الدولة الإسلامية وغيرها من الحركات الإرهابية. ولطالما كانت الشراكةُ مع روسيا في محاربة الإرهاب هدفاً رئيسياً للعديد من الإدارات الأمريكية، ويجب أن تستمر أو تحاول مرة أخرى. علاوةً على ذلك، تواصلُ الولاياتُ المتحدة الحفاظَ على وجودٍ عسكري قوي- بحري وجوي وبري- في الشرق الأوسط، ممّا يمكّنها من ضرب أهدافٍ إرهابية، وهو ما لا يعوقه الوجود العسكري الروسي في سوريا.

لا تزال الصفقةُ النووية لإدارة أوباما - خطة العمل الشاملة المشتركة - مع إيران هي الخيارُ الأفضل للتعامل مع البرنامج النووي الإيراني دون الحرب. لم تحلّ الخطةُ مشكلةَ طموحات إيران النووية، لكنها ساعدت على احتوائها وإدارتها لفترة طويلة. الأهم من ذلك أن روسيا كانت شريكةً في تلك المفاوضات ولا تزال طرفاً في الصفقة.

شهدتِ العلاقاتُ الروسية الإسرائيلية تحولاً كبيراً منذ الحرب الباردة وبلغت أعلى مستوياتها على الإطلاق. تجاهل معظمُ المسؤولين الروس الضرباتِ الإسرائيلية ضدّ الأهداف الإيرانية في سوريا وأعربوا عن التزامهم بأمن دولة إسرائيل. تشترك كلٌّ من موسكو وتل أبيب في استعادة درجة البكالوريوس إلى سوريا واحتواء النفوذ الإيراني هناك. من المرجح أن كلاهما يفضلان حكومةً مستقرة تدعمها روسيا ويقودها الأسد على الفوضى.

لا تشكل الدبلوماسيةُ الروسية في الخليج العربي تهديداً لتدفق النفط من المنطقة. إذ ليس لروسيا وجودٌ عسكري في المنطقة، حيث لا يزال الوجود الأمريكي قوياً. ينشغل الكرملين بمغازلة الدول الخليجية الرئيسية المنتجة للنفط، كما يتضح من زيارة بوتين الأخيرة للسعودية والإمارات العربية المتحدة. في حين أن النفوذَ الروسي تجاهَ إيران محدودٌ في أحسن الأحوال ، فإن قدرتها على التعامل مع طهران يمكن أن تثبتَ فائدتها في موقف الأزمة في المستقبل.

يجبُ أن تترجمَ حصةُ الولايات المتحدة المتناقصة في الشرق الأوسط إلى مجموعة مختلفة من المساعي للدبلوماسية الأمريكية في المنطقة. فبعد حربين فاشلتين مع أهداف تحويلية - في العراق وأفغانستان - ومع تركيز الولايات المتحدة بشكل متزايد على مسرح آسيا والمحيط الهادئ، من غير المرجح أن يكون هدفُ تحويل الشرق الأوسط وحل مشاكله العديدة دليلَ السياسة الأمريكية في المنطقة. الهدف الأكثرُ واقعيةً وواقعية لسياسة الولايات المتحدة هو مساعدةُ شركاء الولايات المتحدة في الشرق الأوسط على إدارة مشاكل المنطقة ومنعهم من التصاعد.

إن مزيجَ روسيا من الموارد المحدودة والطموحات الكبيرة يجعلها للوهلة الأولى أمراً غير مرجح، لكن عند النظر إلى مزيد من الشريك المعقول

للولايات المتحدة. إن المصالح الروسية لن تخدم بشكل جيد من خلال تصاعد التوترات في أجزاء مختلفة من المنطقة. من الأرجح أن يتم تقديم خدمة أفضل لهم من خلال تفاهم مشترك مع الولايات المتحدة يهدف إلى إدارة عدم الاستقرار ومنع تصاعد التوترات. يمكن أن يكون التقاء المصالح هذا بمثابة أساس للدبلوماسية الإبداعية ولإشراك روسيا واستكشاف كيف يمكن لعودتها إلى الشرق الأوسط أن تخدم المصالح الأمريكية.

سيتطلب هذا الجهدُ الدبلوماسي الجديد اتباعَ نهجٍ مختلف تجاه روسيا والشرق الأوسط من جانب الولايات المتحدة. على الرغم من انشغال الولايات المتحدة الحالي بالمنافسة بين القوى العظمى، فإن الكثيرَ من مجتمع الأمن القومي في الولايات المتحدة - إن لم يكن معظمه - لا يعتبرُ روسيا قوةً عظمى حقيقية، ويُنظر إليها في أحسن الأحوال كقوة عظمى كانت موجودة حالة طويلة الأجل، تراجع لا رجعة فيه. يمكن أن تؤدي وجهة النظر هذه لروسيا إلى تقدير محفوف بالمخاطر للطموحات والقدرات والموارد الروسية المتاحة لصانعي السياسة الروس، فضلاً عن ميل إلى إساءة فهم كيفية رؤية القوى والزعماء الآخرين لروسيا. يمكن أن تؤدي هذه المفاهيم الخاطئة إلى غطرسة وسوء تقدير محفوفان بنتائج سلبية على المصالح الأمريكية. بصرف النظر عن جميع مشاكل روسيا وأوجه القصور فيها، من المحتم أن تظل طرفاً فاعلًا مهماً في الشرق الأوسط تكون مصالحها في بعض الأحيان غير متوافقة مع مصالح الولايات المتحدة، ولكنها لن تكون دائمًا ضارة بها. سيكون التحدي الذي تواجهه الدبلوماسية الأمريكية هو إدارةُ الأول وتعظيمُ الأخير.

بالنسبة للولايات المتحدة، التي اعتادت منذ فترة طويلة على غياب روسيا عن الشرق الأوسط، فإن هذه الحقائقَ الجديدة بالكاد سببٌ

"بشكلٍ عام، تبدو العلاقةُ الروسية التركية أشبهَ بعلاقة معاملات أكثر من كونها تحالفاً أو شراكة استراتيجية. باستثناء الروابط الاقتصادية، حيث يوجد قدرٌ كبير من التكامل والتي لديها القدرة على العمل كعامل استقرار، فإن العلاقاتِ بينهما - التاريخية والسياسية والجغرافية السياسية والاستراتيجية والشخصية بين الزعيمين- تفتقرُ إلى القوة والمتانة والثقة المطلوبة في شراكة حقيقية، ناهيك عن التحالف."

للذعر. بدلاً من ذلك، من الضروري أن ندركَ أن الكثيرَ، إن لم يكن معظم ما تمكنت روسيا من تحقيقه في المنطقة، كان من مهام الولايات المتحدة إعادة تحديد مصالحها في الشرق الأوسط وإعادة تحديد موقعها هناك. إذا نظرنا إلى هذه التطورات، يجب أن يُنظر إلى هذين التطورين على أنهما فتحان لتصحيح مسار رئيسي لسياسة الولايات المتحدة يسترشدان بمجموعة من الأهداف الأكثر تواضعاً، ولكن في النهاية أكثر واقعية وإنتاجية.

نشأة العثمانية والتركياتية وتأثيراتهما على الشرق الأوسط



جاسم الهويدي

تمهيد

عندما نتناول موضوع منطقة الشرق الأوسط في بحثٍ ما لابدّ لنا أن نتناوله في فترات تاريخية مليئة بالدماء والصراعات، إلّا أنّ أكثر هذه الفترات دمويةً هي الحقبة العثمانية التي مازالت تأثيراتها على المنطقة حتى الآن.

إنّ الدولة العثمانية لها باع طويل في تاريخ الظلم البشري والقتل والتدمير والتهجير لشعوب الشرق الأوسط – ولا يطول عمر الدول بدون العدل والمساواة والحريات وينبري الجبروت والقهر صفة للعثمانيين في إذلال شعوب الشرق والغرب على حدّ سواء.

لقد عرفتهم مناطق بلاد الشام وبلاد المغرب وكردستان والحجاز بتاريخ عهد طويل من المذابح والمسالخ والتسلط والقهر .

إن الصراع الطويل بين أبناء الشرق والأقوام المختلفة مع العثمانيين لجدير بالدراسة والاهتمام والبحث.

فقد بدأ الاهتمام بتاريخ العثمانيين وحياتهم كجسم دولة في أوروبا في القرن السادس عشر في معاهد الاستشراق والجامعات الأوروبية.

ونرى عدائية أوروبا للعثمانيين واضحة في كلّ أحوالها، ممّا انعكس على جسم دين الإسلام جرّاء سلوك العثمانيين، ممّا أدّى إلى تقويض دعائم الدولة العثمانية فارتاح الغرب منها وساد الأمن واستتبّ الأمان.

يقول أحد العلماء وهو (مدير معهد الدراسات الشرقية):

«إنّ أوروبا وإيران وروسيا وبعض الدول الاشتراكية تعادي وتتصدّى للعثمانيين؛ لأنّهم حاولوا السيطرة على هذه الدول، ونشر اللغة التركية ونهب خيرات هذه الدول وذبح شعوبها».

بداية نشوء العثماني الدموي وصراعه مع الغرب

إنّ إسلامية الدولة العثمانية هي ستار واضح وجلّي في تاريخ سلاطين بني عثمان، لنهب واستعمار شعوب تلك المناطق، وأمثلة التاريخ في استعمار الشعوب شتّى، فقد استولى جنكيز خان على شمال الصين، وبدأ زحفه على تركستان، ولم تكن هناك قوة بشرية تستطيع الوقوف أمامه، لكن في عام ١٢٢٠ م ظهر قائدان عسكريان اجتازا منطقة تركستان، وأخذا بالاقتراب من إيران وهما؛ (جبانو يان – وسويداي نوبان)، وكان المغول يومها على دين الشامانية، ممّا أدى إلى بث الذعر في نفوس الأتراك في تركستان بشكل مخيف.

في هذه الفترة وفي هذا الجو المشوب بالخوف والترقب والهلع كان في جنوب صحراء قارا قورم بشمال خراسان ما يقرب ٧٠٠٠٠ ألف خيمة بدوية يسكنها حوالي نصف مليون إنسان من الأتراك، وكان من بين هؤلاء عشيرة صغيرة تسمّى قايي.

اضطر هذا الجمع الكبير إلى هجر وطنهم عندما أحسوا بقرب خطر المغول فعبروا إيران واقتربوا من الأناضول.

أمّا عشيرة قايي الصغيرة فقد وصلت نحو الأناضول على مدى ١٠ سنوات وكان رئيسهم أي عشيرة قايي رجل يدعى (كوندوز آلب) ثم خلفه ابنه أرطغرل في رئاسة العشيرة والد عثمان (مؤسس دولة آل عثمان) الذي عرفت العثمانية باسمه.

لقد دارت معركة في منطقة أرزنجان، وهي في الشمال الشرقي من تركية اليوم ، معركة سميت باسم (ياسي –جمن) بين سلطان قونية السلجوقي وبين جلال الدين خوارزمشاه –خاقان تركستان – كاد سلطان قونية أن ينهزم أمام جلال الدين لولا مساعدة – كوندوز – آلب – وتدخّله في المعركة لصالح سلطان قونية، فأقاله من عثرته، وتسبّب في انتصاره ممّا جعل سلطان قونية يقطعه وطناً أو ثغراً على الحدود بين سلطنته وبين الإمبراطورية البيزنطية.

وهذا الثغر بمنظار خريطة العالم اليوم هو المكان الذي تلتقي فيه ولايات (اسكيشهر – وبيراجيك – وكوتاهيه في تركية اليوم).

توفي كوندوز آلب عام ١٢٥٣م وخلفه ابنه أرطغرل، وفي هذا الوقت مات جنكيز خان وبعد مدة مات أرطغرل فأصدر سلطان قونية مرسوماً بتعيين عثمان محل أبيه. حكم عثمان المنطقة التي أهديت لعشيرته من قبل سلطان قونية وهي حوالي ٢٠٠٠ ألفين من الكيلو مترات المربعة، لكن أرطغرل توسّع على حساب البيزنطيين، إلى مساحة ٤٨٠٠ كم مربع، وهي المساحة التي ورثها ابنه عثمان – كان عثمان يتبع قونية بعض الوقت وكوتاهية أحيانا أخرى، وكانتا تابعتين لدولة

الإلخانيين، ومقر حكمهم تبريز، كانت تبريز تابعة لقويبلاي حفيد جنكيز خان، وكانت عاصمته بكين اليوم عاصمة الصين، وكان هذا الخان مسيطراً على الجزء الأعظم من آسيا وعلى شرق أوروبا أيضاً.

تسلّم عثمان الأمر أيّ رئاسة العشيرة وهو في عمر ال ٢٣ عاماً، واستطاع أن يجد لإمارته منفذاً على بحر مرمرة، وكانت عشيرته شبه بدوية، ثم أصابهم نوع من الحضارة وبهذا التوسع جعل إمارة آل عثمان متاخمة لكل من الصرب والغرب وألبانيا.

كانت أوروبا غاضبة لهذا التوسع ومنزعجة أشدّ الانزعاج، لذا قام البابا أوربانوس بتوحيد أوروبا لوقف تجاوزات العثمانيين، وحاول ملك الصرب مهاجمة أدرنة؛ عاصمة العثمانيين، ثم تمّ توحيد جيشَي الصرب والبلغار ليكونا اتّحاداً عسكريّاً في محاربة العثمانيين، لكنّ بني عثمان هزموا الجيشين المتوحدين وفرضت الجزية السنوية عليهما ومنذ ذلك اليوم قام تيمور وزير مراد بتنظيم سلاح للفرسان، واختار اللون الأحمر للعلم العثماني رمزاً للدم والفتوحات والاستعمار والظلم واستعباد شعوب الشرق فدخلوا صوفيا عاصمة بلغاريا اليوم، ودارت معارك سالت فيها الدماء بين ملك الصرب وأمراء البانيا ضد السلطان مراد العثماني، والتي انتهت باستعمار الصرب من قبل العثمانيين.

وعقب انتصار العثمانيين في (قو صووة) قام قائد العثمانيين بتفقد ساحة المعركة، وكان الليل حالك السواد وضوء الهلال والنجوم في السماء يعكس على ساحة المعركة المضرّجة بالدماء، فقد جاءت فكرة العلم العثماني من هذا المنظر، علم أحمر الأرضية – تزخر بالدماء التي ملأت أرض قوصووة ويزيّن هذا العلم (الهلال والنجوم)، وهو علم تركية الاستعمار اليوم، وأثناء تفقّد القائد العثماني المنتصر مراد ساحة القتال إذ بجندي صربي جريح يقوم من بين القتلى ليطعن القائد مراد بخنجره، ويقتله، وقد بلغ من العمر ٦٥سنة، وقد كان يدعى من قبل الكنيسة التي أعلنته عدوا لعيسى (كافرا). فحياته كلّها دماء واضطهاد، فقد بلغ عدد المعارك التي خاضها ٣٧ معركة، سواء في الأناضول أو في البلقان، ثمّ تسلّم ابنه بايزيد قيادة الدولة العثمانية الذي اتّصف بالدموية والتعدّي على أراضي أوروبا من ألبانيا إلى رومانيا وحاصر القسطنطينية، إلّا أنّ ملك المجر سيمسموند واجهه بحملة أوروبية، وتصدّى لجيشه، وكانت الجيوش مجرية وفرنسية وألمانية وبولندية وإيطالية وإنكليزية وإسبانية، ومن صفاته أيضا الغرور الذي أعمى عينه في حروبه المستمرة، والتحدّي لكافة دول العالم الغربي، ومن المثير للجدل والعجب أن العثمانيين تركوا الزحف إلى أراضي أوروبا واتّجهوا إلى الشرق في البلاد العربية وكردستان، وفرضوا عليهم سلطانهم، وكان الأولى بهم الحرب في أوروبا حيث الأمر فيه كل الاختلاف دينيّاً، ومذهبيّاً، والسرّ في ذلك أنّ السلطان سليم تولّى إمارة طرابزون في عهد والده السلطان بايزيد الثاني، وعهد بايزيد هذا كان يقابل تاريخيّاً عهد قيام الدولة الصفوية في إيران.

> طالما أن الدولة الصفوية تنمو وتكبر وستنازع السلطان العثماني على بلاد الشرق أي بلاد العرب والكرد ومن هذا الهدف نبعت استراتيجية عصر سليم وهي القضاء على الدولة الصفوية والنفوذ الشيعي في الأناضول، بدأ سليم يحصر أسماء العلويين في الأناضول فوجدهم ٤٠٠٠٠الف نسمة واستفتى في قتلهم فأفتي له . ومن هنا نرى أن حتى الإفتاء لسفك الدماء كان بخدمة السلطان.

الصراع العثماني الصفوي وزحف العثمانيين نحو الشرق

فبادر الشاه اسماعيل الصفوي إلى مدّ

نفوذه على أذربيجان، واستولى على كلّ أراضي الآق قوينلو، ورأى هذا الشاه أنّ من مصلحة دولته الشيعية الاستيلاء على الأناضول، وما لبث هؤلاء أن وجدوا بعض المؤيدين، وما لبثت جماعة القيزيل باش (أي العلويين) في منطقة أنطاكية أن قاموا بأوامر من الشاه إسماعيل الصفوي بالتمرّد على سلطة قولو أي: (عبد الشاه)، وكان هذا التمرّد رهيباً، فقد استخدم العثمانيون كلّ قوّتهم وسلطتهم وأعاجيب تصرفهم حتى استطاعوا إخماده، لأنّ التأييد الخارجي كان متلاحقاً لمساعدة العلويين، وكان لابدّ بالطبع من إعدام عبد الشاه.

كادت هذه الحركة من قبل العلويين تفعل فعلها عند العثمانيين، ولما اعتزل بايزيد العرش وتولى ابنه سليم الحكم عام ١٥١٢م جاءت الرسل من كل أنحاء العالم لتهنئة السلطان الجديد، ولم يحضر أحد من إيران الصفوية عدوّة سليم، لكنّ سليم كان يعد العدّة نحو هدفه الواضح، وهو (لا جهاد ولا غزو في أوروبا) طالما أنّ الدولة الصفوية تنمو وتكبر، وستنازعه على بلاد الشرق أي بلاد العرب والكرد، ومن هذا الهدف نبعت استراتيجية عصر سليم، وهي القضاء على الدولة الصفويّة والنفوذ الشيعي في الأناضول.

بدأ سليم يحصر أسماء العلويين في الأناضول، فوجدهم ٤٠٠٠٠ نسمة واستفتى في قتلهم فأفتي له.

من هنا نرى أنّ حتى الافتاء لسفك الدماء كان في خدمة السلطان.

لقد استولى العثمانيون على الأقطار العربية وكردستان زمن سليم الأول بعد معركة مرج دابق عام ١٥١٦م، وضمنوا حكمهم على بلاد الشام والحجاز وكردستان والعراق، كما أدّى انتصارهم في معركة الريدانية عام ١٥١٧م إلى دخول مصر، وضمّها إلى تحت حكمهم، وأصبحت شمال أفريقيا تحت سيطرتهم، واستولى العثمانيون على العراق عام ١٥٣٤ م في عهد سليمان القانوني.

لقد نهب العثمانيون خيرات الشعوب التي حكموها عنوة، وأخضعوها تحت سيطرتهم بقوة السلاح.

ومن سلبيات العثمانيين أنّ الدول الأوروبية الكبرى لا تنفكّ من التدخل في شؤون الدولة العثمانية بطرق وأساليب متعددة، وذلك استناداً إلى الامتيازات الأجنبية – هذه الامتيازات التي نشأت من الفرامين التي أصدرها سلاطين آل عثمان، والمعاهدات التي أبرموها في تواريخ مختلفة، وفي ظروف شتّى ومناسبات عدّة، وطبيعي أنّ البلاد العربية، وكردستان التابعة للدولة للعثمانية والمحكومة من سلاطين بني عثمان تأثرت كثيرا من التدخلات والمساومات مثل سائر الولايات العثمانية، بل وأكثر من معظم تلك الولايات.

وقد عانى الشرق في ظل الدولة العثمانية تخلّفاً في المجالين: الاقتصادي والاجتماعي. كما فرضت عليه العزلة السياسية والثقافية وبقي في معزل عن التيارات الفكرية العالمية، كل ذلك نتج عنه فقدان القدرة والعجز عن مجابهة أطماع الدول الاستعمارية التي بدأت بغزو الشرق منذ مطلع القرن التاسع عشر، ولم تكن لدى الدولة العثمانية القدرة على دفع الخطر عنه، وفي ظل السيادة العثمانية فقد الشرق كيانه الخاص، وعن طريق العثمانيين مارست أوروبا علاقتها مع بلاد الشرق، بل احتلته، واستعمرته، بسبب ضعف الدولة العثمانية وانحطاطها.

تأثير السياسة العثمانية على مر العصور وتسببُها بتدخل الغرب في الشرق

إلا أنّ تتابع الأحداث على الشرق أدّى إلى تنبيه الروح القومية والشعور بوطأة الحكم العثماني وضعفه بآن واحد، وعندما قامت الحرب العالمية الأولى رغب الحلفاء طمعاً في الاتفاق على تقسيم البلاد التابعة للدولة العثمانية ومنها كردستان والوطن العربي، وعقدت فيما بينها الاتفاقات السرية، وما إن انتهت الحرب حتى كان أكثر بلاد الشرق ينوء

تحت استعمار جديد هو الاستعمار الأوروبي، وبذلك سلم الاستعمار العثماني في فترات ضعفه بلاد الشرق لاستعمار جديد هو الاستعمار الأوروبي الذي لم يتخلّص منه إلا بالدماء والشهداء والتضحيات المريرة.

ومن سلبيات العثمانيين أنّ الدولة العثمانية منحت امتيازات خاصة للدول الاستعمارية الأجنبية، وتعتبر معاهدة ١٥٣٥م المعقودة بين فرنسا وتركية في عهد فرانسوا الأول وسليمان القانوني أساساً لجميع الامتيازات الأجنبية في تركية والأقطار التي تحكمها من بلاد الشرق وكردستان.

إلا أنّ هذه الامتيازات لم تكن لتؤدي في دور القوة والتوسع إلى التدخل الاجنبي في شؤون الدولة، لكن ما إن بدأ الضعف يدب في جسم الدولة العثمانية حتى بدأت بعض الدول الاوروبية بالاعتداء على السيادة العثمانية عن طريق هذه الامتيازات محاولة تحقيق أطماعها والحصول على المكتسبات الاقتصادية والسياسية وخاصة في المقاطعات والولايات التي تحكمها تركية من بلاد الشرق، لقد أثار العثمانيون الفتن الطائفية في الولايات من بلاد الشرق، لتبرهن للدول الأوروبية التي تقف بالمرصاد أنّ السكان عاجزون عن حكم أنفسهم.

ونتيجة السياسة العثمانية المتّبعة هاجمت النفوس بعضها البعض وبدأت الاصطدامات الطائفية دون أن يبذل الحكام الأتراك أيّ جهد لمنعها أو إيقافها بل على العكس، كانوا يزيدون عوامل التفرقة والإثارة.

فمثلا بدأت الحوادث بين الدروز والموارنة في بيت مري، وامتدّت إلى وادي التيم (حاصبيا وراشيا) وزحلة ودير القمر وانتقلت إلى دمشق، وقتل عدد من المسيحيين حتى كان موقف الوالي العثماني أحمد باشا لا يختلف عن موقف خورشيد باشا في لبنان.

جمعية الاتحاد والترقي، نشأتها ودورها في تأسيس العثمانية الجديدة

"عانى الشرق في ظل الدولة العثمانية تخلفا في المجالين الإقتصادي والإجتماعي . كما فرضت عليه العزلة السياسية والثقافية وبقي في معزل التيارات الفكرية العالمية كل ذلك نتج عنه فقدان القدرة والعجز عن مجابهة أطماع الدول الإستعمارية التي بدأت بغزو الشرق منذ مطلع القرن التاسع عشر ولم تكن لدى الدولة العثمانية القدرة على دفع الخطر عنه ."

حركة معارضة هدفها الإطاحة بالدولة العثمانية، وقد وصلت إلى سدة الحكم في الدولة العثمانية بعد انقلابها على السلطان عبدالحميد في ٢٧ نيسان ١٩٠٩م، وقد تورّطت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ممّا أدى إلى سقوطها وتقاسم الدول الأجنبية أراضيها، وتعود أصول نشأتها إلى عام ١٨٦٥م، ومن مؤسسيها عبدالله جودت، وبهاء الدين شاكر، وانضمّ إليها حزب أو أعضاء تركيا الفتاة.

ومن مؤسسيها إبراهيم تيمو الذي كان يمضي أوقاته خارج تركية حتى عام ١٨٩٥م وقد عقد الاجتماعات السرية؛ لكسب أعضاء كثيرين انتسبوا للجمعية، ومن أعضائها نامق كمال وضياء باشا، ونتيجة للمراسلات السرّية بين أعضاء الجمعية في الداخل والخارج تمّ الاتفاق على وحدة العمل العسكري والمدني ضد السلطان، وكان الفكر السياسي للجمعية يؤكّد على المفاهيم الطورانية

المتزمتة للترك، والتي من ضمنها فكرة أنّ الترك هم من أقدم أمم الأرض وأعرقها مجداً، وأسبقها إلى الحضارة، وأنّهم والجنس المغولي واحد في الأصل، وكان شعارهم عدم التديّن، وإحياء عقائد الترك الوثنية السابقة على أسلافهم، وقالوا نحن أتراك فكعبتنا طوران، فأثارت المشاعر القومية العنصرية عند الاتراك تحت حلم الطورانية.

كان حزب الاتحاد والترقي يقول منذ تأسيسه بنظام اللامركزية، وعندما استلم الحكم شعر بلزوم انتهاج خطة جديدة في إدارة البلاد العثمانية بوجه عام، وبلاد المشرق بوجه خاص، إلّا أنّ هذه الآراء الجديدة لم توضع موضع التنفيذ، وكانت أكثر الجمعيات المنشأة في المشرق تنادي بالحكم اللامركزي، والاستقلال الداخلي المحدود للولايات على أن تبقى البلاد ضمن الدولة العثمانية وتحت سيادتها.

بداية التناقضات في أهداف «الاتحاد والترقي» واتباع أسلوب الإبادة الجماعية بحق الأقليات

أسست جمعية الاتحاد والترقي، وكان من أهدافها أن تحصل شعوب الدولة العثمانية على حقوقها بعد القضاء على الاستبداد الحميدي، وانطلاقاً من الأفكار الليبرالية التي تأثروا بها دعوا أنفسهم (الأتراك الجدد) ولما استعدوا لعقد أول مؤتمر لهم في باريس عام ١٩٠٢ م، شاركهم فيه ممثّلون عن الأتراك والأرمن واليونانيين والعرب والكرد واليهود وغيرهم.

لكنّ المؤتمر انفضّ عن انشقاق عميق بين تيارين – تيار ليبرالي تزعمه صباح الدين، واسماعيل كمال الألباني وتيار متعصب للقومية التركية بزعامة أحمد رضا – كان التيار الاول يجهد من أجل إرساء نظام دستوري يقلل من مركزية السلطات حيث يحصل كل شعب غير تركي على نوع من الحكم الذاتي – أما التيار الثاني فكان يرفض أي خروج عن ضرورة ربط الدولة العثمانية بالقومية التركية دون المساس بمركزية الدولة والسلطة ومع ذلك استمر الشباب الاتراك بنضالهم خارج الامبراطورية العثمانية وداخلها إلى أن نجحوا في خلع السلطان واستلام الحكم عام ١٩٠٩م، فأقروا الدستور والحريات الفردية وتعهدوا بضمان رعايا الإمبراطورية كافة، ونتيجة ذلك سادت موجة من الابتهاج خلال بضعة أشهر، وتآخى الأتراك والأرمن والعرب والكرد في سائر أرجاء الإمبراطورية، لكنّ التيار المعتدل في جمعية الاتحاد والترقي ما لبث أن تراجع أمام نفوذ كل من أنور باشا وطلعت باشا اللذين عززا موقعهما، وحرّفا الجمعية لتتبنّى العقيدة الطورانية، وتحلّ محلّ الاتّجاه العثماني، ولجأ الحكام الجدد إلى الأسلوب نفسه الذي اتّبعه السلطان عبدالحميد، معتبرين أنّ الأتراك فوق القوميات الأخرى، والشعب التركي منزّل من السماء، والآخر لا شيء، ووسّعوا حدود اضطهادهم لشعوب الشرق، ومنها الأرمن والعرب والكرد بصورة مرعبة للقضاء على البعض منهم بأسرع ما يمكن، وفي مناخ التكتم وإخفاء الحقائق كان تاريخ ١٩١٥/١/٢م وكانت مجازر الأرمن التي أمرت الحكومة الاتحادية بتنفيذها بعد تشكيل لجنة مكوّنة من الدكتور ناظم والدكتور بهاء الدين شاكر ووزير التربية شكري مهمتها التخطيط لإبادة الشعب الأرمني برمته، وخلال عام كان الأتراك قد حوّلوا المناطق الأرمنية إلى قفار ودمار، ومما جاء في قانون الانتساب لجمعية (ترك أوجاغي) أو أحد فروعها أن يكون طالب الانتساب تركيّاً، وأن يدفع رسماً شهريّاً، وأن يتعهد ببذل حياته ونشاطه وماله لاعلاء شأن الترك، وبسط سيادتهم على الأمم الأخرى، وأن يغيّر اسمه باسم توراني يعرف به بين أصحابه، ممن كان اسم انور مثلا صار يعرف اليوم بين أصحابه باسم (ايشلراق) أي أنور بالتركية القديمة، ومن كان اسمه محمداً أو سليماً أو حسيناً أو سعيداً صار اسمه تيمور أو جنكيز أو هولاكو أو أوغوز، وحينما يجتمع تلامذة المدارس الحربية في ساحات مدارسهم ويستلون سيوفهم

ينشدون نشيدهم الوطني الذي يبتديء بهذه الأبيات:

جنكيز خانك بايراغي آنلي شائلي صانلاندي
آيت خانك بايراغي حربدة بويلة أكلاندي

ومعناها (لقد تموّجت أعلام جنكيز خان في جو المجد والشرف وأرشدتنا أعلام آية خان إلى نهج الطريق المجيد في الحرب)

والأغرب من ذلك كله هو ذلك الدعاء الجديد الذي ألّفته جمعية (تورك يوردي) وجعلت الترك يستعملونه في منازلهم ومدارسهم، وقد قرّرت أخيرا استعماله في الجوامع والمساجد في الآستانة والأناضول وهذه ترجمته:

(أيها الإله القادر على كل شيء أنعم على الترك بالصحة، والعافية، وأحسن إليهم بذئب أبيض، وأشملهم برعايا مولانا السلطان الأعظم) والذئب الأبيض اله من آلهة الترك الأقدمين وقد كان شعارا لهم !

وكذلك: (وأنت يا مملكة توران الجميلة المحبوبة، أرشدينا إلى الطريق المؤدية إليك لأنّ جدنا أوغوز الكبير يناديا، أيّها الاله القادر على كل شيء أنر طريق توران أمامنا، واجعل أمتنا كالورد الناضر، وأهدنا الصراط المستقيم).

وقد تمثلت هذه المطالبة بشكل جدّي في مؤتمر باريس عام ١٩١٣م، وقد دعا هذا المؤتمر إلى إعطاء الجمعية العربية الفتاة في باريس حقها، وذلك بغية إيجاد حلّ لقضايا الشرق بعد أن تنكّر الاتراك لمطالب العرب العادلة.

وقد تصدت حكومة الاتحاديين في البدء لعرقلة انعقاد المؤتمر، وسعت لدى الحكومة الفرنسية لمنع انعقاده في فرنسا، وأرسلت مدحت شكري بك إلى باريس مزوّداً بصلاحيات الاتفاق على أسس عامة مع الزعماء العرب، فتمّ الاتفاق بين الطرفين على المبادئ التي اعتبرها العرب أساساً للقيام بمفاوضات أخرى، ثم صدرت من السلطان في الآستانة أوامر تعطي في ظاهرها اتفاق باريس الشكل القانوني، لكنّها اختصرت إلى حد بعيد الحقوق التي اعترف بها الاتفاق للعرب، وأحاطت ما تبقّى منها للتحفظ والغموض، فقد أعلنت الآستانة على استعمال اللغة التركية إلى جانب اللغة العربية في المدارس الابتدائية والثانوية.

إلّا أنّ الحوادث التي توالت بعد ذلك، لاسيما الحرب العالمية الأولى غيّرت الأمور تغييراً جذريّاً، وتوقفت الاتفاقية عن التنفيذ.

تأثير العثمانية على انعزال الشرق الاوسط وتخلفه

إننا إذ نعود سنوات بتاريخ الشرق إلى الوراء، لنرى الشرق محتلا في اكثر أجزائه من قبل الدولة العثمانية التي عملت على عزله عن العالم وإبقائه في تخلف اجتماعي واقتصادي، وتكبيل الحريات وإخماد الاصوات وإغراق الشرق في الخلافات والمنازعات، وكانت الدولة العثمانية منذ تأسيسها تعد من الدول الكبرى في العالم، فقد بسطت نفوذها على أجزاء من القارات الثلاث آسيا وأوروبا وأفريقيا، وكوّنت إمبراطورية عظيمة ومنحت بعض الدول امتيازات، وعقدت معها المعاهدات، ولم تكن الامتيازات التي حصلت عليها الدول الأوروبية في أراضي الدولة تعني شيئا في فترة القوة، لكن ما إن بدأ انحطاط الدولة العثمانية حتى كانت الدول الأوروبية تلعب دورا أساسيّاً في التدخل في شؤون الدولة، حيث أثر تأثيراً كبيراً في أحوال الشرق وشعوبه الحرة، مما جرّ النكبات والتقسيمات المقسّمة إلى أجزاء، وأدّت إلى حروب طائفية قوية بين هذه الشعوب نفسها.

وقد تكشفت للغرب أهمية الشرق والمزايا التي يتمتع بها، لذلك عمل متضامنا في أكثر الأحيان لغرض التدخل، وإيجاد صيغ ينفذ من خلالها لتأمين مصالحه، والحصول على مغنم قريب المتناول، وسهل المنال، ولم يكن أسهل عليه من نهش جسم الدولة العثمانية المتداعية، وكان من جراء هذا التدخل، ونتيجة تلك المعاهدات والاتفاقيات التي عقدت تارة مع سلاطين ضعاف، أو مع الرؤساء البارزين في بلادهم، وأخرى مع دول حديثة: كمصر وسوريا

> **جمعية الاتحاد والترقي، حركة معارضة هدفها الإطاحة بالدولة العثمانية وقد وصلت الى سدة الحكم في الدولة العثمانية بعد انقلابها على السلطان عبدالحميد في ٢٧ نيسان ١٩٠٩م وقد ورطت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى مما أدى إلى سقوطها وتقاسم الدول الأجنبية اراضيها واصول نشاتها ترجع الى عام ١٨٦٥م ومن مؤسسيها عبدالله جودت وبهاء الدين شاكر وانضم اليها حزب او اعضاء تركيا الفتاة .**

والعراق، وكانت تلك المعاهدات ماسّة بكرامة شعوب الشرق من عرب وكرد ومسيحية، فهي تعترف باستقلال الأقطار العربية، لكنها من جهة أخرى تحدد ذلك الاستقلال بنصوص معينة تعطي المستعمر قواعد حربية وجوية وهيمنة اقتصادية، تؤمّن له استنزاف خيرات الشرق، وتؤكّد سيطرته على منابع الثروات الزراعية والمعدنية.

وبذلك خلقت تلك المعاهدات أوضاعا مؤلمة عاشتها شعوب الشرق طيلة فترة الاحتلال العثماني التركي وفترة الانتداب والاستعمار الاوروبي بعد ذلك، لقد فرضت تلك المعاهدات قيودا قاسية على الشعوب العربية والكردية وغيرها، إذ رزحت هذه الشعوب تحت نير بنودها سنين طويلة، ورغم الانتفاضات الشعبية، والحركات التحررية، فإنّ المعاهدات كانت تعدل، ولم تكن تفقد جوهرها الأساسي في السيطرة، لكن على الرغم من قيود المعاهدات هذه، فإنّ شعوب الشرق استطاعت أن تستكمل مرتكزاتها الفكرية وتفجر طاقاتها على شكل ثورات تفجرت في نقاط متعددة من أرض الشرق في سورية والعراق وقنديل كردستان، وكان محرّكها الضغط الاستعماري وقيود المعاهدات والحكم المتسلط.

وفي النهاية كان الاستعمار دوما يطأطيء الرأس أمام صلابة الشعوب الحرة، وقوة إرادتها، ونشاط قيادتها، وعلوّ همتهم، ونظرتهم الثاقبة إلى الأمور، والتصاقهم بشعوبهم، والتضحية من أجلهم، وتوجههم في التمسك بالأرض والمقاومة.

إنّ إرادة الشعب لا تقهر، والنضال مستمر مهما عظمت التضحيات والأحداث وجرت من حروب.

إن القيود ستكسر أمام إرادة الشعوب الحرة المؤمنة بعقيدتها والمتمسكة بأرضها والمحبة للسلام، والخيبة للاستعمار التركي نتيجة ونهاية.

المصادر:

١- مجازر الأرمن - الدكتور نعيم اليافي

٢- شهادة الارمن - يروانت بامبو كيان - مترجم الأب كيغام

٣- وثائق التدخل الاجنبي في الوطن العربي - موسى الكاظم

٤- العثمانيون في التاريخ - محمد حرب

٥- ثورة العرب - أسعد مفلح الداغر

٦- دير الزور خلال العهد العثماني - الدكتور رامي الضللي

٧- لواء الزور - اجتماعيا واقتصاديا - أيام العثمانيين — عمر صليبي

الصراع العثمانيّ – الصفويّ وانعكاساته على حركات الإسلام السياسيّ



جميل رشيد

المقدمة:

تتمتّع دراسة الصراع العثمانيّ – الصفويّ في هذه الفترة، بأهميّة بالغة، لجهة فهم الأبعاد التاريخيّة له، وكذلك لمعرفة ماهيّة الأسس التي يستند عليها الصراع الرّاهن بين الدّولتين اللتين ورثتا ميراث الإمبراطوريتين البائدتين، كما أنّ انعكاسات هذا الصراع تلقي بظلالها على شعوب منطقة الشرق الأوسط.

مرّ الصراع بين الإمبراطوريتين بمراحل عديدة، تخلّلتها فترات من الهدوء النسبيّ، توجّت بتوقيع عدد من الاتّفاقيات والمعاهدات التي حفظت نفوذ كلتيهما في المنطقة. لكنّ السّمة الرّئيسيّة للصراع انزلاقه إلى مستنقع التطييف الذي قطباه (السنّيّة والشيعيّة) في الظاهر، فيما كان الجوهر صراع على النّفوذ في المنطقة. متجاهلتين الآلام والمآسي الكبيرة التي

خلّفها طيلة أكثر من ٢٠٠ عام، ومازال الصراع مستمرّاً إلى الآن، ولكن بأشكال وصيغ أخرى.

سنحاول خلال هذه الدّراسة المقتضبة، عرض أن نعرج على أهمّ المراحل التاريخيّة التي مرّ بها هذا الصراع، وتبيان الجوانب التي دفعت كلا الطرفين إلى تأجيج أوّار الصراع، ودور السلاطين والأمراء في استدامته لمطامعهم في الاحتفاظ بحكم المنطقة وبناء أمجادهم الشخصيّة، ومن ثمّ التأكيد أنّ فترة السبات التي مرّت بها المنطقة عموماً جاءت نتيجة منطقيّة لهذا الصراع، حيث التّخلّف عن رُكبِ الحضارة الإنسانيّة، وتَلبُّس طرفي الصراع بِلَبوس الدّين والمذهب والطائفيّة، وتحوّله في مراحله الأخيرة إلى إيديولوجيّة عرقيّة (قوميّة)، وإعلاء شأن مفهوم الانتماء القوميّ للقوميّة الحاكمة.

التدرّج التّاريخيّ للصراع العثمانيّ – الصفويّ:

نكاد نرى تشابهاً كبيراً بين بدايات نشوء الإمبراطوريّتين العثمانيّة والصفويّة، من حيث الأسس والجذور الإيديولوجيّة والفكريّة والنظم العسكريّة المتّبعة لديهما، والظروف التاريخيّة والاقتصاديّة التي مرّت بهما، حيث كانت الفوضى تعمّ مناطق الأناضول وكذلك المناطق الإيرانيّة في بداية نشوئهما وتحوّلهما إلى (إمبراطوريّة).

مثّلت هزيمة السلطان بايزيد الأوّل على يد تيمورلنك في معركة أنقرة، الهزّة العنيفة الأولى التي تعرّضت لها "الدّولة العثمانيّة"، حيث ضعفت سلطتها على مناطق الأناضول، بعد أن كان أرطغرل وابنه عثمان قد وطّدا حكم آل عثمان على آسيا الصغرى، واستطاعا توحيد القبائل والأقوام التركمانيّة التي قدِمَتْ من أواسط منغوليا ومنشوريا واستوطنت في الأناضول.

انتقلت الدّولة العثمانيّة – الإمبراطوريّة إلى طور القوّة والتمدّد، لتغدو إمبراطوريّة مترامية الأطراف في عهد محمّد الفاتح، بعد أن تمكّن من السيطرة على مدينة القسطنطينيّة (أستانه سابقاً وإسطنبول حاليّاً) عام ١٤٥٣م، ومن ثمّ في عهد بايزيد الثاني وأبنائه من السّلاطين، بالامتداد شمالاً وجنوباً في السيطرة على دول البلقان وبلاد الشّام ومصر والعراق وبعض الدّول الإفريقيّة.

ويذكر العديد من المؤرّخين والمتابعين للشأن الإيرانيّ، أنّ الصفويّين لم يظهروا على مسرح الأحداث السياسيّة في الهضبة الإيرانيّة والمنطقة، إلا مع مطلع القرن السادس عشر.

تجلّى الطموح الصفويّ للتحوّل إلى إمبراطورية وفرض سيطرتها على المنطقة – حسبما يذكر المؤرّخ عبّاس آشتياني في كتابه "تاريخ إيران بعد الإسلام" – بعد أن تكرّست صفة "الصفويّين"، نسبة إلى الشيخ "صفيّ الدّين إسحق الأردبيلي (توفّي عام ١٣٣٤)، "وهو شيخ صوفي تركمانيّ الأصل أسّس لطريقة دينيّة، وكان يتبعه عدد من المريدين، وخلفه ابنه صدر الدّين موسى في قيادة الطريقة، فيما تحوّلت "الطريقة الصفويّة" في عهد حفيد الأردبيلي "جنيد" إلى ثورة ذات أبعاد عسكريّة"، مستفيدين من حالة الفوضى في الهضبة الإيرانيّة بين الأقوام التي كانت في إيران (كرد، بلوش، أذريّين، ...إلخ).

ويذكر جعفر المهاجر في كتابه "الهجرة العامليّة إلى إيران في العصر الصفويّ" بأنّه "مع مطلع القرن السادس عشر، استطاع إسماعيل، حفيد السلطان جنيد، أن ينتصر على مملكة آق قيونلو، وهي مملكة تركمانيّة حكمت مناطق ممتدّة بين إيران وآسيا الوسطى وأذربيجان منذ وفاة تيمورلنك عام ١٤٠٥، وأن يؤسّس دولة جديدة، جعل من تبريز عاصمةً لها".

توسّعت رقعة سيطرة الدّولة الصفويّة في عهد "إسماعيل"، الذي أطلق على نفسه لقب الشاه، وهي كلمة فارسيّة تعني "المَلِكُ"، وامتدّت حدود دولته من جبال تورا بورا في أفغانستان، إلى شرق الأناضول، مروراً بأذربيجان وأرمينيا والهضبة الإيرانيّة.

الطموح التوسّعيّ لدى الإمبراطوريّتين:

تمتدّ جذور هذا الصراع إلى أوائل القرن السادس عشر، وقبل تأسيس الإمبراطوريّة الصفويّة، كشكل متكامل من أنظمة الحكم التي تصارعت مع كافّة الامبراطوريّات والأنظمة التي تعاقبت على منطقة الشرق الأوسط، فيما الإمبراطوريّة العثمانيّة اشتدّ عودها بعد سلسلة من حروب خاضتها في المنطقة ضدّ الدّولة الصفويّة والإمبراطوريّة المملوكيّة.

يعتبر المؤرّخون أنّ الحروب بين الطرفين في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديّين، هي من أطول الصدامات في المنطقة، ولم تشهد المنطقة الاستقرار والثبات، إلا بعد حروب دامية خلّفت مئات الآلاف من الضحايا وكوارث اجتماعيّة، وتبدّلاً دائماً في خرائط السيطرة والنفوذ، تبعاً للحالة العسكريّة والجغرافيا التي يحتلّها كلّ طرف، لتغدو المنطقة ساحة صراع مفتوحة بين الطرفين.

ويذهب باحثون في تاريخ هذا الصراع إلى تقسيمه إلى أربع مراحل، مرحلة اعتلاء السلطان سليم ياووز الأوّل العرش في الإمبراطوريّة العثمانيّة، ومرحلة سليمان القانونيّ وطهماسب، ثمّ مرحلة توقيع معاهدة قصر شيرين، وأخيراً انهيار الإمبراطورية العثمانيّة. ولكلّ مرحلة منها سماتها وتفاصيلها، تختلف عن بعضها في رسم وجهة الصراع، كما انطبعت كلّ مرحلة بطابع السلطان والشاه الذي يحكم في تلك الفترة، لتأتي النتائج مغايرة نوعاً ما عمّا سبقتها.

"ويذهب باحثون في تاريخ هذا الصراع إلى تقسيمه إلى أربع مراحل، مرحلة اعتلاء السلطان سليم ياووز الأوّل العرش في الإمبراطوريّة العثمانيّة، ومرحلة سليمان القانونيّ وطهماسب، ثمّ مرحلة توقيع معاهدة قصر شيرين، وأخيراً انهيار الإمبراطورية العثمانيّة. ولكلّ مرحلة منها سماتها وتفاصيلها، تختلف عن بعضها في رسم وجهة الصراع، كما انطبعت كلّ مرحلة بطابع السلطان والشاه الذي يحكم في تلك الفترة، لتأتي النتائج مغايرة نوعاً ما عمّا سبقتها."

تمكّنت الدّولة الصفويّة في عهد أوّل شاه لها "إسماعيل الأوّل" من اقتطاع أجزاء من المناطق المتاخمة للإمبراطورية العثمانيّة وضمّها إلى دولته، وذلك في عهد السلطان العثمانيّ بايزيد الثاني الذي آثر أن يَجنح إلى الحلول الدِّبلوماسيّة، فأرسل بعض رسائل التهدئة إلى إسماعيل، حسبما يذكر كمال السيّد في كتابه "نشوء وسقوط الدّولة الصفويّة".

اعتلاء ياووز سليم الأوّل عرش الإمبراطوريّة العثمانيّة واحتدام الصراع في المنطقة:

أزاح الأمير سليم بن بايزيد الثاني عام ١٥١٢م، أمير طرابزون، أباه عن عرش (السلطنة – الإمبراطوريّة) العثمانيّة عن طريق القوّة وبالاعتماد على القوّات الإنكشاريّة، وقتَلَ معظم إخوته بعد اعتلائه العرش؛ خوفاً من طمعهم في السلطة.

اعتمد السلطان ياووز سليم الأول سياسة

الحديد والنّار والتصعيد العسكريّ في الدّاخل والخارج، عبر سلسلة من الحروب والغزوات التي خاضها في المنطقة، وتصفية خصومه في أروقة الإمبراطوريّة، حتّى طالت أقرب المقرّبين إليه، وسعى إلى الحرب في تصفية نزاعه مع الدّولة الصفويّة، على عكس أبيه بايزيد الثاني.

اتّجهت أنظار السلطان إلى الدّولة الصفويّة، للحدّ من نفوذها في المنطقة والاستيلاء على العديد من المناطق التي كانت تحت السيطرة الصفويّة. فأعدّ جيشاً ضخماً بلغ تعداده نحو ١٢٠ ألف مقاتل مزوّدين بالمدفعيّة الثقيلة، مقابل تجهيز عبّاس الأوّل ٦٠ ألف مقاتل، والتقى الجيشان في ٢٣ آب / أغسطس عام ١٥١٤ في صحراء تشالديران، فانتصر السلطان العثمانيّ سليم الأوّل على الشاه الصفويّ، ودخل عاصمتها تبريز، ولتمتدّ سيطرته على العراق وسهول شهرزور في كردستان.

لم يكتفِ السلطان المغمور بكسر شوكة الصفويّين، بل اعتبر أنّه جاء "فاتحاً" للشرق؛ فاتّجهت أنظاره نحو الإمبراطوريّة المملوكيّة، ووجّه رسائل استسلام إلى امبراطورها قانصو الغوري في القاهرة، حيث كانت الإمبراطوريّة المملوكيّة تمتدّ حتّى الحدود الشّماليّة لبلاد الشّام وديلوك (عنتاب) وماردين، إضافة إلى دمشق وحلب.

رفض الغوري طلب سليم الأوّل بالاستسلام، وجهّز جيشاً لملاقاة العثمانيّين عام ١٥١٦ في مرج دابق (شمال مدينة حلب)، لكنّ خيانة القادة المملوكيّين، قلبت موازين القوّة لصالح سليم الأوّل، فَقُتِلَ الغوري، وواصل السلطان العثمانيّ زحفه اتّجاه حلب ودمشق، ودخلها دون قتال يذكر، ثمّ اتّجه نحو القاهرة، بعد أن استلم طومان باي عرش الإمبراطوريّة المملوكيّة، واشتبك الجيشان العثمانيّ والمملوكيّ في منطقة "الريدانيّة" قرب القاهرة، ومرّة أخرى تمكّن ياووز سليم من الانتصار عبر شراء ذمم القادة والأمراء المملوكيّين، ودخل القاهرة ونكّل بأهلها وأعدم طومان باي، وفرض عليهم إتاوات وضرائب باهظة أثقلت حياة العوام.

استبدل السلطان العثمانيّ سليم الأول لقب "حامي الحرمين" بلقب "خادم الحرمين الشريفين" وأطلقه على نفسه "خليفة المسلمين"، اللّقب الذي يطلقه على نفسه الإمبراطور المملوكيّ، كما اعتبر نفسه ممثّلاً وزعيماً للعالم "السنّيّ" والتي ستلقي بظلالها إلى يومنا الراهن، حيث تبنّى من بعده جميع السلاطين العثمانيّين هذا اللّقب، لالتفاف الحاضنة الإسلاميّة السنّيّة حوله، واستغلالها في حروبهم المستمرّة.

تحالف السلطان سليم مع الكرد ودور إدريس البدليسيّ:

لعب المؤرّخ الكرديّ إدريس البدليسيّ دوراً كبيراً في اصطفاف الكرد إلى جانب الإمبراطوريّة العثمانيّة، وبفضل الكرد تمكّن العثمانيّون من تحقيق الانتصارات في كلّ معاركهم الخارجيّة. هذا التّحالف كان نقطة الانعطاف الرّئيسيّة في تحديد نوعيّة العلاقة بين الأتراك والكرد، والتي استمرّت مئات السنين وتركت آثارها على مصير الشعبين لاحقاً. ويذكر المؤرّخون أنّ البدليسيّ تمكّن من إقناع الكرد للانضواء تحت راية الإمبراطوريّة العثمانيّة، بناءً على الانتماء المذهبيّ، حيث معظم الكرد تابعون للمذهب السنّيّ على غرار العثمانيّين، فيما اعتنق الصفويّون المذهب الشيعيّ، وهو ما يعتبر السبب الرّئيسيّ في الصراع بين الطرفين والذي سنأتي عليه لاحقاً بشيء من التفصيل.

الحالة السائدة في المنطقة، وخاصّة بين الكرد، تميّزت بالولاء العشائريّ، وبمجرد كسب رؤساء وأمراء العشائر، يمكن كسب العشيرة بأكملها، وهو ما يعتبره بعض المؤرّخين الكرد بأنّه الثغرة التي تمكّن خلالها أعداء الكرد من التغلغل إلى كردستان، بعدما فشلوا عن طريق الحرب، وهذا الأسلوب مارَسه المسلمون عند أوّل

دخولهم لكردستان في زمن الخليفة عمر بن الخطّاب، وهو ما عمل عليه إدريس البدليسيّ والسلطان سليم أيضاً. ففي البداية انضمّ ٢٥ أميراً كرديّاً إلى الإمبراطوريّة العثمانيّة. انخراطهم في حروب مع العثمانيّين، مكّن من إعادة سيطرة الأخير على الموصل وكامل أراضي الجزيرة وكذلك ديار بكر وماردين. لكنّ الأكراد اشترطوا مع البدليسيّ استمرارهم في حكم مقاطعاتهم، وخاصّة ديار بكر، ووافق البدليسيّ عليها، وفق شروط معينة؛ تضمن الاحتفاظ بعائديّة تلك الاقطاعيّات واستغلالها، وكذلك يكون الحكم وراثيّاً ينتقل من الاب للابن في حكم الإمارات الكرديّة، مقابل أن تقوم هذه الاقطاعيّات بتقديم المساعدة للعثمانيّين في حروبها، وأن تقوم الدّولة العثمانيّة بالحفاظ على هذه الاقاليم من الاعتداءات الخارجيّة، وأن تدفع هذه الإمارات الضرائب لبيت المال، وقد قبِلَ السلطان سليم بتلك الشروط وشكر إدريس البدليسيّ على مواقفه.

لم يَدُمْ حكم السلطان سليم سوى ١٨ عاماً، ليخلفه ابنه سليمان القانونيّ، بالتزامن مع اعتلاء الشاه طهماسب عرش الإمبراطوريّة الصفويّة، بعد وفاة إسماعيل الأوّل في أذربيجان إثر خسارته في تشالديران.

قاد سليمان ثلاث حملات عسكريّة متوالية في أعوام (١٥٣٤، ١٥٤٨ و١٥٥٥) على الدّولة الصفويّة التي تمكّنت من استرجاع سيطرتها على إيران والعراق، غير أنّ جميعها باءت بالفشل، ويرجع المؤرّخون أسباب فشلها إلى انشغال الجيش العثمانيّ بالحرب مع النمساويّين.

اتّخذ الصفويّون وكذلك العثمانيّون، ومنذ بداية صراعهم، أسلوب الدّهاء والخديعة وتغليبهما على المواجهة العسكريّة المباشرة، وهو ما تميّز به أكثر الصفويّون بها، وأصبحت سمة غالبة على سلوك معظم حكّامهم وامتدّت تأثيراتها إلى يومنا هذا، فاستغل

> **استبدل السلطان العثمانيّ سليم الأول لقب «حامي الحرمين» بلقب «خادم الحرمين الشريفين» وأطلقه على نفسه «خليفة المسلمين»، اللّقب الذي يطلقه على نفسه الإمبراطور المملوكيّ، كما اعتبر نفسه ممثّلاً وزعيماً للعالم «السنّيّ» والتي ستلقي بظلالها إلى يومنا الراهن، حيث تبنّى من بعده جميع السلاطين العثمانيّين هذا اللّقب، لالتفاف الحاضنة الإسلاميّة السنّيّة حوله، واستغلالها في حروبهم المستمرّة**

طهماسب الخلافات الأُسريّة بين بني عثمان في صراعهم على السلطة، ليكسب بعض الإخوة إلى جانبه، حيث دعم الشاه طهماسب عام ١٥٥٨ الأمير بايزيد ضدّ أبيه سليمان القانونيّ، وقبله لجأ سليمان إلى دعم القاضي ميرزا في ثورته ضدّ أخيه طهماسب، كما يذكر عبّاس إقبال آشتياني.

استمرّت المعارك بين الطرفين، ولم يتمكّن أيّ منهما تحقيق انتصار يُذكر، ما دفعهما إلى توقيع هدنة أماسيا عام ١٥٥٥، تضمّنت الاتّفاق على بعض البنود التّجاريّة ووقف المعارك.

لم تَدُم الهدنة طويلاً، وسرعان ما اندلعت الحرب ثانية بين الطرفين بعد وفاة القانونيّ وطهماسب، وتمكّن عبّاس الأوّل من تحقيق الانتصار على العثمانيّين في عدد من المعارك، إلى أن تمّ توقيع معاهدة قصر شرين عام ١٦٣٩، وهي النقطة الفاصلة في الصراع بينهما.

معاهدة قصر شيرين أو (زهاب):

هي المعاهدة الأكثر تأثيراً وإيلاماً في تاريخ المنطقة والشعب الكرديّ خاصّة، من حيث أنّها قسمت بالدّرجة الأولى أراضي الكرد بين الصفويّين والعثمانيّين، وهي الجرح النازف إلى الآن في تاريخ الشعب الكرديّ، رغم أنّها واحدة من بين عدّة معاهدات أبرمتها الدّولة العثمانيّة والدّولة الصفويّة خلال تاريخ الحروب والمعارك التي دارت بينهما طيلة مئتي عام، وتُعدُّ هذه المعاهدة من أهمّ المعاهدات بين الدّولتين، حيث يعتبر الطرفين أنّها المعاهدة الأكثر أهميّة في تاريخهما.

وُقّعَتْ المعاهدة في (١٧ مايو/ أيّار ١٦٣٩) بين الدّولة العثمانيّة والدّولة الصفويّة في قصر شيرين. ويقع هذا القصر في الجنوب الشرقيّ من كركوك، وتسمّى أحياناً باتّفاقيّة (زهاب) نظراً لإطلال القصر على وادي زهاب في المنطقة. وأنهت هذه المعاهدة الحرب العثمانيّة الصفويّة التي استمرّت بين الجانبين طيلة قرنين من الزمن، وذلك في عهد السلطان مراد الرّابع العثمانيّ، في نهاية حملته لتحرير بغداد من الاحتلال الصفويّ.

استغرقت المفاوضات ١٣ يوماً حتّى تمّ توقيعها في ١٧ مايو / أيّار ١٦٣٩، وقّعها كلّ من السلطان مراد الرّابع والشاه عبّاس الأوّل الملقب "بالكبير"، وعَيّنَت هذه المعاهدة الحدود بين الجانبين، بطول ٢١٨٥ كم، على أساس الوضع الرّاهن، آنذاك. فأُعطيت أرمينيا وجورجيا للدّولة الصفويّة والعراق (بغداد والبصرة وشهرزور) للدّولة العثمانيّة. وقد ظلّت حدود الدّولتين التي تمّ تثبيتها في المعاهدة معتمدةً حتّى الوقت الحاضر، أي حدود إيران الحاليّة مع كلّ من تركيّا والعراق. وبالرّغم من توقيع المعاهدة؛ إلا أنّ الخلافات الحدوديّة لم تنتهِ، ففي الفترة من ١٥٥٥ حتّى ١٩١٨، وقّعت الدّولتان على ما لا يقلُّ عن ١٨ معاهدة تتعلّق بالخلافات الحدوديّة.

حافظت المعاهدة على فاعليّتها حتّى الآن، واتّخذت أساساً في المعاهدات التي تمّ توقيعها بين الطرفين لاحقاً، مثل معاهدة "كردن" الموقّعة مع نادر شاه عام ١٧٤٦، وكذلك معاهدتي أرضروم الأولى عام ١٨٢٣ والثانية عام ١٨٤٧، وخاصّة في مسائل ترسيم الحدود بين الطرفين وتثبيت تقسيم مناطق الكرد.

الدّين والمذهب ودورهما في الصراع:

في كتابه المهمّ "الفقيه والسلطان"، يؤكّد المؤرّخ اللبنانيّ وجيه كوثراني أنّ "الصراع الصفويّ – العثمانيّ كان صراعاً متكاملاً، وتضافرت في صنعه عوامل الجغرافيا والسياسة والاقتصاد، ولكن مع ذلك فإنّ وجهه المذهبيّ كان الوجه الأكثر بروزاً وشهرة".

اتّجه الصفويّون إلى خلق هُويّة مذهبيّة خاصّة بهم، وكذلك عمل العثمانيّون على ذات الوتر، في مسعى الطرفين إلى شرعنة حكمهم والتوسّع والسيطرة على الأماكن المقدّسة لدى الشعوب المسلمة في المنطقة. فاتّخذ الصفويّون المذهب الاثنا عشري الشيعيّ، فيما تمسّك العثمانيّون بالمذهب السنّيّ واعتبر السلطان العثمانيّ نفسه ممثّلاً للسنّة في العالم الإسلاميّ، وهي الفرضيّة التي بَنَتْ عليها حركة الإخوان المسلمين فكرها وأيديولوجيّتها وتوجّهها فيما بعد، معتبرة أنّ إعادة أمجاد الإمبراطوريّة العثمانيّة؛ إنّما يُعدُّ نصراً للإسلام والمسلمين.

ديناميّة الخلاف المذهبيّ طغى على مسار الصراع بين الصفويّين والعثمانيّين وفي كافّة مراحله اللّاحقة، رغم أنّ جوهره هو الصراع على النّفوذ وفرض الهيمنة في المنطقة، الأمر الذي كانت له آثاره المدمّرة على شعوب المنطقة أجمع.

الانقسام الحاصل في المذهب؛ امتدّ بين شعوب

وأقليّات رازحة تحت حكم الإمبراطوريّتين، رغم المقاومات العنيفة التي أبدتها تلك الشعوب ضدّ مساعي السيطرة، لكنّها جوبهت بحملات عنيفة من قبل كلا الطرفين وصلت حدّ الإبادة، كما حصل مع الإيزيديّين ضدّ الصفويّين، حيث فتك الشاه إسماعيل بالإيزيديّين عام ١٥٠٧ في كردستان، فيما السلطان سليم اعترف بدورهم تحت قيادة زعيمهم (عزّ الدين) في المناطق الكرديّة بحلب، إلا أنّ صدور الفرمانات (القرارات) العديدة لاحقاً من قبل السلاطين العثمانيّين ووضعهم بين خيارين؛ إمّا الإبادة، أو دخولهم الإسلام عنوةً، شكّل أكبر النزعات المذهبيّة السنّيّة لدى القادة العثمانيّين، ما دفع بالإيزيديين للانزواء جانباً والاحتماء في جبالهم الوعرة، درءاً من خطر الإمحاء. كما أجبر الفرس الكثيرين من أبناء جلدتهم على ترك المذهب السنّيّ، حسبما يذكر جودت القزويني في كتابه "المرجعيّة الدّينيّة العليا عند الشيعة الإماميّة".

اشتدتّ الانقسامات المذهبيّة وزُجّت به في أتّون الصراع بين الطرفين، وكأحد العوامل الرّئيسيّة لإدامته، فلجأ كلّ طرف إلى إبادة معتنقي المذهب المعارض لمذهب "الإمبراطوريّة" – إنّ صحّ التعبير – حيث ذَبَحَ السلطان سليم نحو ٤٠ ألفاً من الشيعة في منطقة الأناضول، بحسب ما يذكره حسن روملو في كتابه "أحسن التّواريخ".

ويذكر علي أكبر ذاكري في كتابه "المشهد الثّقافيّ الشيعيّ في العصر الصفويّ"، أنّ الدّولتين عملتا على إبقاء هذا الاختلاف المذهبيّ على أشدّه، لتتمكّنا من "تحريك عامّة الناس ضدّ الطرف الآخر ودحره".

الانتقال من الخلافات المذهبيّة إلى إصدار فتاوي دمويّة:

تصاعدت وتيرة الشحن المذهبيّ بين الإمبراطوريّتين، وعلى أعلى المستويات، وصلت حدود صدور فتاوي دمويّة داعية إلى القضاء المبرم على الطرف الآخر. ويورد الباحث محمّد يسري في دراسة له عن "الصراع العثمانيّ – الصفويّ"، أنّه "في عام ١٥٤١، كتب أحد رجال الدّين العثمانيّين، ويُدعى حسين بن عبد الله الشرواني، رسالة بعنوان "الأحكام الدّينيّة في تكفير القزلباش"، أفتى فيها بجواز قتل الشيعة وتكفيرهم. ومما ورد فيها: "مَنْ قتَلَ واحداً من هذه الطائفة الملعونة، فكأنّما قتل وغزا سبعين نفراً من أهل الحرب بل أكثر". أمّا في زمن السلطان مراد الثالث، فقد أفتى الشيخ نوح الحنفيّ بوجوب "قتل هؤلاء الأشرار الكفّار (يقصد الشيعة) تابوا أو لم يتوبوا".

ويضيف "تلك الفتاوي ساهمت في تضييق الخناق على الشيعة الموجودين في الدّولة الصفويّة، وأيضاً في استهداف الشيعة المقيمين داخل حدود الدّولة العثمانيّة، فقُتِلَ العديد من علمائهم، من أمثال نور الله التستري، وزين الدّين بن علي الجبعي العامليّ، الملّقب بالشهيد الثاني، بالإضافة إلى إرهاب جماعات الشيعة المقيمة في لبنان والقطيف والأناضول".

لم يكن الوضع أفضلَ في الطرف المقابل، حيث عمد الصفويّون إلى استهداف رموز السنّة وعلمائهم، حيث قتلوا سيف الدين التفتازاني، شيخ الإسلام في مدينة (هُراة)، وعظّموا قبر "أبو لؤلؤة المجوسيّ" قاتل عمر بن الخطّاب وكذلك قبر هارون الرّشيد، وبدأوا بتكفير أبو بكر الصدّيق وعمر بن الخطّاب إلى أن وصل بهم الغلوّ إلى اعتبار "كلّ من يحبّهم كافراً، وكلّ من يشكّ في كفرهم لعنة الله ورسوله عليه وعلى كلّ من يعتبرهم مسلمين، وعلى كلّ من لا يكفّ عن لعنهم"، إلا أن أصبحت المجاهرة بلعن وسبّ رموز المذهب السنّيّ في إيران أمراً مُباحاً وشائعاً، بل إنّ مَن تردّد في القيام به كان يعرّض نفسه للعقوبة والقتل، حسبما يذكر علي شريعتي في كتابه "التشيّع العلويّ

والتشيّع الصفويّ".

(القرا قوينلو) و(الآق قوينلو) ودورهما في إثارة الصراع:

تطوّرت الحركة القزلباشيّة (وهي تسمية تركيّة تعني ذوو الرؤوس الحمراء؛ حيث كانوا يضعون القبّعات الحمراء على رؤوسهم أثناء الحروب وغيرها أيضاً)، أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرّابع عشر، نحو التمذهب والاقتداء بالشيعة، وانتشرت في بلاد الشام بتأثير من الحركة الأردبيليّة في الإمبراطوريّة الصفويّة. فحدث، ولأوّل مرّة، انقسام في التوجّهات الدّينيّة و"التحوّل الجماعاتيّ"، حسب وصف الدّكتور محمّد جمال باروت في كتابه "الصراع العثمانيّ – الصفويّ وآثاره في الشيعيّة في شمال بلاد الشّام".

انقسمت العشائر التركمانيّة القاطنة في مناطق الأناضول بين المذهبين السنّيّ والشيعيّ، فسميّت العشائر التي اتّخذت "السنّيّة" مذهباً لها بـ(الآق قوينلو)، وتلك التي اتّخذت المذهب الشيعيّ بـ(القرا قوينلو)، وهو ما ساهم إلى حدّ كبير في تأجيج الصراع بين الصفويّين والعثمانيّين. وفي مراحل عديدة انحصر الصراع في هيئة الاحتراب المذهبيّ بين الآق قوينلو والقرا قوينلو، مثلما حصل عندما احتدم الصراع على ديار بكر في زمن حسن بيك (السلطان أوزون لاحقاً).

ويرجّح العديد من الباحثين أسباب وجوهر الصراع بين الإمبراطوريّتين الصفويّة والعثمانيّة إلى السيطرة على طريق الحرير ومنافذ التّجارة العالميّة القادمة من الهند وعبر البحار وبلاد الشّام، معتبرين أنّ الخلافات المذهبيّة والتطييف الحاصل عبر كلّ مراحل الصراع، ما هي إلا محفّزات وعناصر ثانويّة أو هامشيّة، وأنّها ساهمت إلى حشد كلّ طرف قوّته ضدّ الآخر. فعندما كانت توقّع الاتّفاقات والهُدَن وتفتتح طرق التّجارة أمام بعضهما البعض، كانت حدّة الصراع تخفّ وتتراجع معها لهجة الخطاب التكفيريّ بين الطرفين، وهو نوع من الدِّبلوماسيّة المرِنة التي لجأ إليها الطرفان، وخاصّة الصفويّون، في تغليب لغة المصالح على الانتماءات المذهبيّة والطائفيّة.

وفي هذا الإطار يعتبر الباحث (محمّد جمال باروت) أنّ "متغيّر الصراع السلطانيّ على طريق الحرير، بوصفه تكثّف خطّ التجارة الآسيويّة للوصول إلى المتوسّط فأوروبا عبر الأراضي العثمانيّة، قد حكم سائر المتغيّرات الأخرى في الصراع العثمانيّ الصفويّ طويل المدى، والذي كان قائماً بوضوح قبل نشوء السلطنة الصفويّة، لكنّه احتدم بشدّة بعد نشوئها، وشكّلت السيطرة على بلاد الشّام محوره الأساسيّ باعتبارها منطقة إستراتيجيّة كلّيّة لوصول طريق الحرير البرّيّة إلى البحر المتوسّط".

شكّل خطّ (تبريز – ديار بكر) نقطة مفصليّة هامّة في سياق الصراع، حيث جاهد الطرفان في السيطرة على هذا الخطّ التّجاريّ الحيويّ، وهو ما كان يحرّكهما في شنّ حروب طحنت أرواح آلاف البشر. ويؤكّد (باروت) أنّ التّاريخ الموضوعيّ للصراع التركمانيّ الدّاخليّ بين (الآق قوينلو والقرا قوينلو) تمثّل في السيطرة على طريق الحرير (تبريز – ديار بكر) والتحكّم في طريق (ديار بكر – بورصة)، العاصمة الاقتصاديّة للسلطنة العثمانيّة، وأصبحت إمارة بني قرمان التابعة رسميّاً للمماليك، بعد سيطرة حسن بيك على سلطة الآق قوينلو، إمارة حاجزة بين العثمانيّين والآق قوينلو، وموضوعاً للصراع بين السلطنات الثلاث؛ الآق قوينلو والعثمانيّة والمملوكيّة.

وكان لظهور موالين للصفويّين في مناطق سيطرة العثمانيّين دور كبير في تقوية نفوذهم، وتجلّت في الحركات التي قادها القزلباش والقرا قوينلو وكذلك الحركات البكداشيّة (الباطنيّة) التي ظهرت كتحدٍّ كبير أمام الإمبراطوريّة

العثمانيّة والسّلاطين العثمانيّين. في المقابل الحركات الصوفيّة مثل النقشبنديّة والكيلانيّة ولاحقاً النّوريّة، التي ظهرت في كردستان هي الأخرى غدت سنداً إيديولوجيّاً وطرائقيّاً جُهّز ما لا يستطع السلطان أن يَفتيَ به ليحكم قبضته على البلاد والعباد. فهي لعبت دوراً رجعيّاً إلى أبعد الحدود في تكريس سلطات الاحتلال العثمانيّ على كردستان والشعب الكرديّ.

يمكن القول بأنّه ظهرت في العالم الإسلاميّ، واستناداً إلى الشرخ المذهبيّ الحاصل، سنّتان؛ سنّة "سنّيّة" وأخرى "شيعيّة"، حسب ما يورد (باروت) في كتابه، وتوزّعت الولاءات بينهما على امتداد المنطقة، وظهر مفهوم "النّاس على دين ملوكهم" كفلسفة متّبعة من قبل الملوك والسّلاطين في الإمبراطوريّتين، معتبرين أيّ خروج عن طاعة السلطان، إنّما يعتبر كفراً وخروجاً عن طاعة الله، كما حصل مع الملّا خاطي أثناء محاصرة مير محمّد الرّاواندوزيّ الكرديّ، والملقّب بـ"ميري كور – أي الأمير الأعور" في قلعة "راواندوز" عندما أعلن تمرّده على السلطان العثمانيّ، فأفتى الملا خاطي بفتوة في صلاة الجمعة، قال فيها: "إنّ من يقاتل السلطان العثمانيّ وجيشَه فهو كافر ومرتدّ، ولا يملك من الشرف شيئاً"، فتركت حامية القلعة أسلحتها واستسلمت للجيش العثمانيّ، رغم عدم تمكّن العثمانيّين من اقتحامها لأشهر.

تمأسس المذهب ضمن (الإمبراطوريّة – الدّولة):

التطوّر الأبرز في مسار تحوّل العثمانيّين نحو التشدّد "السنّيّ" تجلّى في إنشاء منصب "شيخ الإسلام" كجهة فقهيّة وشرعيّة تُصدر الفتاوى الدّينيّة، وتُلزِمُ الكلّ الالتزام بها، وأنّ أيّ خروج عنها، إنّما يوجب القتل تحت مسمّيات وعناوين مختلفة.

"استغرقت المفاوضات ١٣ يوماً حتّى تمّ توقيعها في ١٧ مايو / أيّار ١٦٣٩، وقّعها كلّ من السلطان مراد الرّابع والشاه عبّاس الأوّل الملقب «بالكبير»، وعَيّنَت هذه المعاهدة الحدود بين الجانبين، بطول ٢١٨٥ كم، على أساس الوضع الرّاهن، آنذاك. فأُعطيت أرمينيا وجورجيا للدّولة الصفويّة والعراق (بغداد والبصرة وشهرزور) للدّولة العثمانيّة. وقد ظلّت حدود الدّولتين التي تمّ تثبيتها في المعاهدة معتمدةً حتّى الوقت الحاضر"

في الطرف الآخر، كان استدعاء علماء الدّين الشيعة من مختلف مناطق توزّع القزلباش والفرق الشيعيّة، وكذلك في المناطق التي تقع تحت سيطرة الصفويّين، دور كبير في تقوية الخطاب "التطييفي" المعادي بين الطرفين، حسب وصف (باروت)، فلجأ الصفويّون إلى استقطاب علماء ومشايخ جبل عامل في لبنان، ومنحوهم مناصب في الإمبراطوريّة، لضمان ولائهم واستخدامهم في صراعهم مع العثمانيّين.

زاد دور المؤسّسة الفقهية العثمانية اعتباراً من أربعينيات القرن الخامس عشر، وارتفعت وتيرة الاعتماد عليها لتصل إلى مرحلة المأسسة في زمن السلطان سليمان القانونيّ (١٥٢٠ – ١٥٦٦).

ويصف الباحث (باروت) أنّ "الحرب الفقهيّة التي شنّها فقهاء "مشيخة الإسلام" العثمانيّة ضدّ القزلباشيّة والشيعيّة عموماً،

المنتشرة في حلب وشمال بلاد الشّام، منذ العام ١٥١٠ تقريباً، كانت تمهيداً إيديولوجيّاً لمحاولة السيطرة العثمانيّة على شمال بلاد الشّام، التي تسبّبت في صراعات السلطنة مع المماليك طوال عهد بايزيد الثاني، ورافق تلك الحرب الفقهيّة التعبويّة منذ العام ١٥١٠ حرب نبوءات نشبت في مواجهتها حرب الرؤى العثمانيّة الصفويّة، التي تستند مرجعيّاً، في الميتافيزيقا التاريخانيّة الإسلاميّة، إلى التاريخ بوصفه تجسيداً للقدر".

وغدا تكفير السنّة للشيعة، وكذلك الشيعة للسنّة عُرفاً وتقليداً في أوساط العامّة من الناس، وحرّموا التّبادل التّجاريّ بين الطرفين، حتّى وصلت إلى اختيار الشيعة لمساجد خاصّة بهم، وأضافوا هم من طرفهم جملة أخيرة على الأذان "عليٌّ وليُّ الله"، ما اعتبره فقهاء السنّة تكفيراً وخروجاً عن سنّة رسول الإسلام محمّد.

الإيغال أكثر في شحن الخلافات المذهبيّة والتطييفيّة، وصل إلى مستوى بات معه من الصعب ردم الهوّة بين الطرفين، رغم ظهور مرورها ببعض فترات التهدئة والسكون، كما حصل في زمن حكم بايزيد الثاني، ولكن سرعان ما كانت تلتهب تلك الصراعات ثانيةً، كالنّار تحت الرّماد بعد اعتلاء سلطان أو شاه متشدّد العرش، إن كان لدى العثمانيّين أو الصفويّين على حدٍّ سواء.

تحوّلت النزعة التطييفيّة لدى العثمانيّين والصفويّين من مجرّد اعتبارها عبادة، إلى ما يشبه "مذهباً وديناً للدّولة" وإسقاطها على مجمل مناحي الحياة، المعاملات التّجاريّة والفنّ والأدب والإبداع والفكر، ومن ثمّ لتصبح إيديولوجيّة متكاملة تُدين بها الدّولة، وجعلها معياراً تُقاس به كلّ الأعمال، لتحيط المجتمعات الخاضعة لسلطة الإمبراطوريّتين بأسوار من الحديد والنار، حيث كانت عاقبة كلّ من يودّ، ولمجرّد التفكير بالخروج عن تلك الإيديولوجيّتين كفراً يستوجب تنزيل أقسى العقوبات بصاحبها، لدرجة الذّبح. والأخطر في هذا التحوّل؛ انتقالها إلى مرحلة المأسسة القانونيّة في عهد كلّ من "سليمان القانونيّ وطهماسب"، وصدور تشريعات وأحكام فقهيّة من المشرّعين وشيوخ الإسلام لدى الطرفين، وإخضاع الفقهِ والمذهب لرغبات السلطنة، وأصبحت العلاقة بين الفقيهِ والسلطان محكومة بتنفيذ رغبات السلطان في التمجيد وشرعنة الاحتلال وتغليفه بطابع ومِسحَةٍ "دينيّة – مذهبيّة"، وحشد العوام للسير خلف فتاوي الفقيه، والتي هي في الأساس رغبات وأوامر وفرمانات السّلاطين. فأغلقت الأبواب أمام أيّ انفتاح فكريّ، بل على العكس تعرّض المفكّرون في كلتا الإمبراطوريّتين إلى حملات القمع والقتل والذّبح وأتلفت نتاجاتهم الفكريّة، وأخضعت المجتمعات بأكملها لفتاوي رجال الدّين "المتمذهبين والمتطيّفين".

التحوّل من الدّعوة إلى الدّولة:

تزايد نفوذ رجالات الدّين والفقهاء وشيوخ الإسلام في الإمبراطوريّتين، العثمانيّة والصفويّة، واعتبرت الفتاوي الصادرة عنهم بمثابة صكوك غير قابلة للنقاش أو الردّ، لتغدو معها قوانين أبديّة غير قابلة للطعن فيها؛ لاستنادها إلى النظريّة الدّينيّة التي استطاع رجال الدّين المتطيّفين لوي عنقها لصالح الإمبراطوريّة.

وفي هذا الصدد يقول الباحث "باروت": "في مقابل إرساء المؤسّسة الفقهيّة الحنفيّة العثمانيّة، سيشرع الصفويّون منذ عهد الشاه إسماعيل في تكوين مؤسّساتهم الفقهيّة الشيعيّة القائمة على السنّة "الشيعيّة" المقنّنة فقهيّاً، في مقابل العرفانيّة القزلباشيّة المتمركزة حول نور الدّين الكركي وعلماء جبل عامل، وسط صراع بين علماء الشيعة، حول شرعيّة العلاقة مع السلطان في عصر الغيبة

الكبرى، معبّراً في ذلك عن مقتضيات الحاجة إلى الفقهاء في تنظيم التحوّل من الدّعوة إلى الدّولة. واستند إسماعيل الصفويّ على كتاب قواعد الإسلام للحسن بن يوسف المظهر الحلّي (١٢٥٠-١٣٢٦) ليتّخذه أساساً لاعتماد الشيعيّة الإماميّة مذهباً رسميّاً للسلطنة".

إخضاع المذهبيّة لمنطق المصالح:

برز المنطق الرّئيسيّ الذي يقود الإمبراطوريّتين بشكل أكثر وضوحاً في اتّفاق أماسيا عام ١٥٥٥، حيث غلبت لغة المصالح على الخلافات المذهبيّة، وحلّ التّوافق حول العديد من نقاط الخلاف بينهما، حيث قبل الإمبراطوريّة العثمانيّة، ولأوّل مرّة بالقزلباش واعتبرتهم مسلمين وفتحت أمام الشيعة طرق الحجّ إلى مكّة، مقابل فتح الصفويّين طرق التّجارة أمام العثمانيّين (طريق الحرير) في العراق ومضيق هرمز والوصول إلى الهند.

كما حاول الشاه إسماعيل الثاني (١٥٧٦ – ١٥٧٨) الحدّ من تقاليد السبّ والكراهية للسنّة وللصحابة، عبر إطلاق ما بات يُعرَف بـ" التسنّن الشيعيّ"، وهي طريقة جديدة ضمن المذاهب الشيعيّة السائدة والتي تكاثرت كالفطور في البيئة الخصبة التي وفّرتها الشاهنشاهيّة الصفويّة.

ذروة التوافق بين الإمبراطوريتين تجلّى في اتّفاق قصر شيرين عام ١٦٣٩، وعلى حساب أراضي الكرد، كاتّفاقيّة بين دولتين وفق معايير دوليّة، لا تبالي بأيّ خلافات مذهبيّة بينهما، بل يحكمها منطق مصالح الدّول.

تواترت الخلافات المذهبيّة بين الإمبراطوريّتين، وليغدو السنّة مقابل الشيعة، مع تراجع الفتاوي المضادة في فترة حكم محمّد الرابع (١٦٤٨ – ١٦٨٧)، وتراجع دور العثمانيّين في الشرق، بعد سلسلة من الانتفاضات التي أطلقتها شعوب ومجتمعات ضدّها،

> **"انقسمت العشائر التركمانيّة القاطنة في مناطق الأناضول بين المذهبين السنّيّ والشيعيّ، فسميّت العشائر التي اتّخذت «السنّيّة» مذهباً لها بـ(الآق قوينلو)، وتلك التي اتّخذت المذهب الشيعيّ بـ(القرا قوينلو)، وهو ما ساهم إلى حدّ كبير في تأجيج الصراع بين الصفويّين والعثمانيّين. وفي مراحل عديدة انحصر الصراع في هيئة الاحتراب المذهبيّ بين الآق قوينلو والقرا قوينلو، مثلما حصل عندما احتدم الصراع على ديار بكر في زمن حسن بيك"**

ودخولها في مرحلة الجمود والانكماش الفكريّ والاقتصاديّ امتدّت حتّى القرن التّاسع عشر لتنتهي باندحارها في مطلع القرن العشرين، والتي كانت سبباً في رضوخها للضغوطات الصفويّة، ووصلت في عهد نادر شاه إلى فرض قبول المؤسّسة الفقهيّة العثمانيّة "المذهب الجعفريّ" كمذهب خامس بجانب المذاهب الإسلاميّة الأربعة.

تشييع "السنّة" وتسنين "الشيعة" وحفاظ الكرد على مذاهبهم:

إثر توطيد الأركان الفقهيّة والشرعيّة لمذهب "الإمبراطوريّة – الدّولة"، سعت كلتا الإمبراطوريّتين العثمانيّة والصفويّة إلى تغيير التركيبة الدّينيّة والمذهبية للجماعات التي تعيش في كنفهما، عبر سلسلة طويلة وأليمة من التغييرات وإجبارها للتحوّل مذهبيّاً واعتناق مذهب "الدّولة"، فشرع الصفويّون إلى تشييع جميع المجتمعات السنيّة ضمن

أراضي حكمها. في المقابل بدأ العثمانيّون في "تسنين" الأغلبيّة الشيعيّة في بلاد الشّام، ودمّروا كلّ ما يمتّ بصلة للشيعة من أماكن العبادة وحسينيّات ومراقد تابعة لهم، حتّى باتت مصافحة الشيعيّ منبوذة، لتنقسم المجتمعات على نفسها وفق معادلة مذهبيّة غاية في التعقيد.

اللّافت في هذه المرحلة من عمليّة التحوّل القسريّ للمجتمعات والشعوب نحو مذهب "الدّولة"، أنّ الأكراد حافظوا، وإن نسبيّاً، على هُويّتهم المذهبيّة، عبر اعتناق القسم الخاضع لسلطة الصفويّين المذهب "السنّيّ"، مقابل تمسّك القسم المسيطر عليهم من قبل العثمانيّين بالمذهب "الشيعيّ – العلويّ" أو ما كان يسمّى حينها بالقزلباش، للحفاظ على هُويّتهم المذهبيّة وتجنّباً لعمليّات الصهر المذهبيّ والعرقيّ. وهذا ما يفسّر بقاء ولايات كرديّة بأكملها في القسم الذي تسيطر عليه تركيّا الآن على مذهبهم، مثل ديرسم وباطمان وقسم كبير من "ديار بكر – آمد". بموازاة ذلك لجأ الإيزيديّون إلى الجبال الوعرة والمناطق النائية للحفاظ على تقاليد دينهم، رغم الحملات العديدة التي قادها الصفويّون والعثمانيّون لإبادتهم.

هل شكّلت العثمانيّة هُويّة خاصّة بها..؟

والسؤال الذي يُطرح: هل تمكّنت الإمبراطوريّة العثمانيّة من تشكيل هُويّة عثمانيّة جامعة لشعوب المنطقة؟

أعتقد أنّ الإجابة عليه تتطلب بحثاً مستفيضاً، لكن يمكن القول: لو أنّ تلك الهُويّة كانت ولدت وترسّخت في وعي الشعوب والمجتمعات، ولها حوامل ثقافيّة بينها، لدافعت عنها وفي مقدّمتها الأتراك، ولم تكن جماعة الاتّحاد والترقّي وعلى رأسهم مصطفى كمال أتاتورك قد شرعت للقضاء على كلّ الموروث العثمانيّ وقطع صلاته بالدّين الإسلاميّ، والانتقال إلى بناء دولة حديثة على الطراز الغربيّ، بل على النقيض من ذلك، فإنّ شعوب المنطقة عموماً مازالت تعاني من وطأة ذاك الميراث العثمانيّ المبنيّ على دماء وجماجم مكوّناتها، وعاشت خلال فترة ٤٠٠ سنة من احتلالها للمنطقة في خواء فكريّ وتبلّد اجتماعيّ وموت سريريّ. ومن هنا يمكن استخلاص نتيجة مفادها: أنّ كلّ دعوة إلى إحياء تلك الهُويّة "الوهميّة"، إنّما يُراد بها إعادة الاحتلال بكلّ مسمّياته ومرتسماته.

في حين أنّ إيران لم تتمكّن هي الأخرى من بناء مرجعيّة شيعيّة موحّدة، وانقسم الشيعة فيما بينهم إلى فرق ونحل عديدة، كلّ واحدة منها تزعم تمثيلها للمرجعيّة الحقّة وأنّها من سلالة آل البيت. ادّعت إيران تمثيلها للمذهب الشيعيّ بعد الثورة التي قادها الخمينيّ عام ١٩٧٩ وإنشاء ما يسمّى بـ"ولاية الفقيه"، لكنّها لم تتمكّن من انتزاع المرجعيّة وحصرها بنفسها في مدينة "قُم"، فمازالت الحوزات الدّينيّة في النّجف وكربلاء، تشكّلان المرجع الأوّل لهم.

استمرّ الخلاف بين القطبين المتصارعين على هذا المنوال عقديّاً حتّى بداية القرن العشرين وتفكّك وانهيار الإمبراطوريّة العثمانيّة، ووقوع إيران التي ورثت أمجاد الدّولة الصفويّة في أحضان الدّول الغربيّة في زمن الشاه محمّد رضا بهلوي، فهدأت وطأة الصراع بينهما، وغاب الادّعاء العثمانيّ في تمثيله للعالم السنّيّ، بعد نشوء مرجعيّات عديدة، كالأزهر، واستحواذ آل سعود على لقب "خادم الحرمين الشريفين" بعد سيطرتهم على السّعوديّة التي نشأت إثر انهيار الإمبراطوريّة العثمانيّة إبّان الحرب العالميّة الأولى.

انهيار الإمبراطوريّة العثمانيّة ودعوات الإصلاح الدّينيّ:

مع انهيار الإمبراطوريّة العثمانيّة وانطلاق الثّورة العربيّة الكبرى، وبدء الزّحف الغربيّ

نحو المنطقة، وبالأخصّ البريطانيّ والفرنسيّ والإيطاليّ، تعالت الأصوات المنادية بإيجاد البديل لملء الفراغ الذي تركه العثمانيّون في المنطقة، عبر مجموعة من المفكّرين جمعوا بين الدّعوة للإصلاح الدّينيّ وإعادة بناء المجتمعات على أسس جديدة. فظهر جمال الدّين الأفغاني ومحمّد عبده ومحمد رشيد رضا وعبد الرّحمن الكواكبيّ وغيرهم من دُعاة الإصلاح الدّينيّ. لكنّ الجامع بين معظم هؤلاء المفكّرين والمحدّثين هو الدّين، فقد رفضوا تحديث المجتمعات الشرقيّة، تحت شعار "رفض التبعيّة الغربيّة"، مدّعين أنّ إدخال المفاهيم والنظريّات الغربيّة إلى البلاد الإسلاميّة تضعف الدّين وتجعل شعوبَها تبتعد عنه. وقد ذكر محمّد عبده في كتاباته في صحيفة العروة الوثقى «إنّ العلاج الناجع لأسقام الدّول الإسلاميّة لن يكون في تعدّديّة الصحف، إذ أنّ لها قدراً يسيراً من التأثير، ولا في بناء المدارس وفق النموذج الأوروبيّ، إذ يمكن استخدام تلك المدارس والعلوم التي تُدرّس فيها لتعزيز التأثير الأجنبيّ، ولا في التعليم الأوروبيّ ومحاكاة العادات الأجنبيّة، إذ أنّ تلك المحاكاة لم تنجح سوى في إخماد روح النّاس وفرض سيطرة الأجانب على تلك الدّول، ومن ثمّ فالحلّ الوحيد لتلك الأمم هو أن ترجع إلى أحكام دينها».

تلك الدّعوات الدّينيّة التي ترافقت مع الزّحف الغربيّ نحو بلدان الشرق المُنهكة والخارجة توّها من تحت نير الاحتلال العثمانيّ، والساعية نحو بناء دولها الوطنيّة، تلقّفتها دول الاستعمار الحديث، بعد أن بسطت انتدابها على دول المشرق، عبر السعي لإنشاء حركات دينيّة متشدّدة وسلفيّة، تناهض الحركات الوطنيّة وتعرقل مسيرتها، وأولى الحركات التي ظهرت للوجود كانت حركة الإخوان المسلمين في مصر وقبلها الحركة الوهّابية في الحجاز.

نشأة جماعة الإخوان المسلمين وعلاقتها ببريطانيا:

سعت بريطانيا منذ بداية تقسيمها للمنطقة وفق اتّفاقيّة سايكس – بيكو، إلى إثارة النزعات الدّينيّة والقوميّة والطائفيّة، واستخدامها كأداة متقدّمة في عرقلة سير بلاد المشرق نحو البناء والتنمية وتطوير دولها وفق النماذج الحضاريّة العالميّة. فاتّبعت بريطانيا سياسة "النخر من الدّاخل" واللّعب على الوتر الدّينيّ والطائفيّ والمذهبيّ، فأنشأت دولاً عديدة في المنطقة، تزامناً مع ضلوعها المكشوف في ولادة حركة الإخوان المسلمين في ٢٢ آذار / مارس عام ١٩٢٨ في مصر على يد مؤسّسها حسن البنّا.

لعبت حركة الإخوان المسلمين منذ نشأتها على استغلال الدّين الإسلاميّ ووضعه في خدمة أغراضها السياسيّة، فسعت في كلّ مراحل تطوّرها إلى تنظيم عالميّ، إلى بناء أيديولوجيّتها وفكرها السياسيّ؛ اعتماداً على استخدام القوّة والعنف، كما أنّها لم تتوانَ عن نشر فكرها الدّعويّ الهادف إلى الاستيلاء على السلطة، مستغلّة العاطفة الدّينيّة لشعوب المنطقة، ومناهضةً أيّ فكر تحرّريّ علمانيّ نحو بناء الدّولة الوطنيّة.

لم تؤمن حركة الإخوان المسلمين يوماً بالدّولة الوطنيّة، شعارها استعادة أمجاد "الأمّة الإسلاميّة"، لهذا فهي تعارض معظم الحركات والقوى الساعية لبناء الدّولة الوطنيّة والقوميّة، فعارضت الحركة الناصريّة في مصر وكذلك في اليمن وفي سوريا، وغالباً ما ترجمت معارضتها عبر إشعال نار الاقتتال الدّاخليّ وتهديم بنى الدّولة الوطنيّة.

وفي حديث لأحد قادة الإخوان المسلمين – فرع سوريا في سجن صيدنايا في أوائل التسعينات مع كاتب هذه السّطور، وأثناء مناقشة بنية وهيكليّة الدّولة، قال حرفيّاً: "إنّنا في حركة الإخوان المسلمين نكفّر نظام الدّولة القائمة؛ لأنّها غير مبنيّة على أسس الشريعة الإسلاميّة، وتؤمِن بالعلمانيّة".

> **تحوّلت النزعة التطييفيّة لدى العثمانيّين والصفويّين من مجرّد اعتبارها عبادة، إلى ما يشبه «مذهباً وديناً للدّولة» وإسقاطها على مجمل مناحي الحياة، المعاملات التّجاريّة والفنّ والأدب والإبداع والفكر، ومن ثمّ لتصبح إيديولوجيّةً متكاملة تُدين بها الدّولة، وجعلها معياراً تُقاس به كلّ الأعمال، لتحيط المجتمعات الخاضعة لسلطة الإمبراطوريّتين بأسوار من الحديد والنار، حيث كانت عاقبة كلّ من يودّ، ولمجرّد التفكير بالخروج عن تلك الإيديولوجيّتين كفراً يستوجب تنزيل أقسى العقوبات بصاحبها، لدرجة الذّبح**

مرّت العلاقة بين الإخوان وبريطانيا في حالات مدٍّ وجزر، تبعاً للمهام والظروف التي مرّت بها البلدان التي تغلغلت فيها. فهي نشطت بشكل كبير في مصر عبد الناصر، كتحدٍّ لتوجّهات الأخير نحو بناء دولة مصر الوطنيّة، وطرد الاحتلال البريطانيّ. وكان موقف الإخوان من قرار تأميم قناة السويس ومن بعده العدوان الثلاثيّ (الإسرائيليّ، البريطانيّ والفرنسيّ) على مصر مشوباً بالكثير من الالتباسات والتساؤلات. وحسب بعض الوثائق؛ فإنّ زعيم ومؤسّس حركة الإخوان المسلمين حسن البنّا كان قبلها يتقاضى قسماً من عوائد قناة السويس في زمن سيطرة بريطانيا وفرنسا عليه.

نظريّة العنف لدى الإخوان:

انتقلت حركة الإخوان إلى بناء تنظيمها العسكريّ السرّيّ منذ البداية، فهي تؤمن بالعنف هدفاً وليس وسيلة فقط، تحت مسمّى "الجهاد" في سبيل بناء "الدّولة الإسلاميّة"، وفق تصوّرها. وبدأت بأولى عمليّاتها العسكريّة في استهداف المسؤولين المصريّين مثل اغتيال رئيس وزراء مصر الأسبق "محمود فهمي النقراشي"، وكذلك حاولوا مرّات عديدة استهداف الرّئيس جمال عبد الناصر كما في حادثة المنشيّة عام ١٩٥٣، ما دفع الأخير إلى إطلاق حملات عسكريّة متتالية ضدّهم حتّى تمكّنت من اغتيال مؤسّس الحركة حسن البنّا واعتقال عدد من قيادات الصف الأوّل.

لقد وفّرت بريطانيا الملاذ الآمن لحركة الإخوان المسلمين وقاداتهم منذ نشوء الحركة وإلى اليوم، منطلقة من عدّة أهداف:

١ – لجم حركة التقدّم والتنمية في المنطقة.

٢ – إثارة التناقضات الطائفية والمذهبية في البلاد الإسلامية.

٣ – التعويل عليها في نشر الفوضى، وإبقاء المنطقة في حالة من اللااستقرار والحرب المستمرّة.

٤ – نشر الأفكار الهدّامة، وابتعاد شعوب المنطقة عن أفكار التحرر.

٥ – التحكّم بالمنطقة، عبر أذرعها من رجالات الحركة، ورفع تقارير دوريّة لها، لتكون على دراية تامة بمجمل الأحداث والتطورات فيها. وفي الآونة الأخيرة أكّد الدّكتور (مطانيوس حبيب) في مقال نُشِرَ على موقع صحيفة الاتّحاد بتاريخ ٣ آب / أغسطس ٢٠١٨ أكّد فيه أن القياديّ في تنظيم الإخوان الخارجيّ (العالميّ) نذير الحكيم والمقيم في تركيا، يذهب كلّ شهر إلى السفارة البريطانية في عمان بالأردن ويرفع لها تقارير عن عمل الإخوان ومجمل الأحداث في المنطقة وخاصّة عن سوريا خلال الأزمة.

٦ – الاستفادة من الأموال التي تُدَرُّ على الحركة من مختلف دول العالم ومن أتباعها، وفي الفترة الأخيرة قدّرت استثمارات حركة

الإخوان المسلمين في بريطانيا بحوالي /١٠/ مليارات دولار.

وفّرت بريطانيا أجواء مناسبة لإقامة زعماء وقادة الإخوان المسلمين على أراضيها وكذلك في البلدان الأوروبيّة المختلفة. فالمرشد العام الأسبق للجماعة (عصام العطّار) يقيم منذ أكثر من ٣٠ سنة في ألمانيا. وكذلك المرشد السابق (علي صدر الدين البيانوني ورياض الشقفة والناطق باسم الجماعة زهير سالم وأنس العبدة) وغيرهم حصلوا عن طريق الاستخبارات على الإقامات والجنسيّة البريطانيّة. وسهّلت لهم حرّيّة الحركة ضمن أراضي الدّول الأوروبيّة. وكذلك إقامة مشاريع خاصّة بالجماعة وبناء وتشييد المساجد والمراكز الدّينيّة والدّعويّة.

وجاء في الفقرة ١١ من تقرير صادر عن اللّجنة المشكّلة من قبل الحكومة البريطانيّة بتاريخ ١٧ كانون الأوّل / ديسمبر ٢٠١٥ بخصوص جماعة الإخوان المسلمين، بأنّ "تجربة حكم الإخوان في مصر ما بين عامي ٢٠١٢ و٢٠١٣ فشلت في إقناع المصريّين في إظهار الاعتدال السياسيّ أو الالتزام بقيم الدّيمقراطيّة".

كما جاء في الفقرة رقم ١٦ وصف الإخوان وإيمانهم بالعنف للوصول إلى أهدافهم "إنّ الجماعة استخدمت العنف بشكلٍ انتقائيّ وسياسيّ بما يخدم أهدافها"، مؤكّداً "أنّه في عهد حسن البنّا شنّت الجماعة عدّة هجمات وسلسلة من الاغتيالات ضدّ الدّولة المصريّة وبعض المصالح البريطانيّة واليهوديّة".

وواصل التقرير شرح البنية الفكريّة والإيديولوجيّة لتنظيم الإخوان "الجماعة تستمدّ أيديولوجيّتها من أفكار مؤسّسها وأفكار سيّد قطب – مُنَظّر الجماعة الأوّل – «العقيدة التكفيريّة» والتي تسمح بوصم المسلمين الآخرين بأنّهم كافرون ومرتدّون"، واصفاً عقيدة الإخوان بأنّ "استخدام العنف للوصول للمجتمع الإسلاميّ الكامل أمر مشروع، والمواجهة مع الحكّام (الظالمين في وجهة نظر الإخوان) أمر شرعيّ وحتميّ"، مضيفاً أنّ "الجماعة تحاول إعادة تفسير آراء سيّد قطب، ولكنّها لم تتخلَ عنها، وأنّ قادة جماعة الإخوان وبخاصّة التنظيم في مصر ما زال يعتنق هذه الأفكار، وهي تعاليم محوريّة في المناهج الدّراسية للإخوان، وأنّ أفكاره ألهمت العديد من المنظّمات الإرهابيّة في العالم مثل تنظيم القاعدة وفروعه الكثيرة".

تركيّا ودورها في حماية الإخوان:

غير أنّه بعد اندلاع الأزمة السّوريّة، ودخول جماعة الإخوان المسلمين على خطّ الأزمة، وبقوّة، توجّهت أنظار الجماعة نحو تركيّا ورئيسها أردوغان الذي ينتمي إلى ذات الفكر الأصوليّ، ويذهب البعض بالقول بأنّه يمثّل رأس التنظيم العالميّ للإخوان، ففتحت تركيّا أبوابها أمام القيادات والعناصر الإخوانيّة ووفّرت لهم الملاذ الآمن وأمّنت لهم كلّ أسباب العمل السياسيّ والعسكريّ، وأعدّت لهم معسكرات على أراضيها، بل وأشرفت على تدريب عناصر الجماعة المنتمين إلى عدّة تشكيلات وفصائل عسكريّة، وخاصّة تلك التي تنتهي أسماؤها بكلمة (الشّام) مثل أحرار الشّام والجبهة الشاميّة وفيلق الشّام ...إلخ.

كما سهّلت تركيّا سلاسة في نقل الأموال التي تَرِدُ إلى الجماعة، ورفعت كافّة القيود عن تحويل الأموال من وإلى الجماعة، وكذلك إدخالها إلى سوريّا ومصر، خاصّة بعد إقالة الرّئيس المصريّ الأسبق محمّد مرسي، وتجمّع معظم قيادات الإخوان المصريّة في تركيّا.

لما لم تنجح مبادرة وضع الإخوان على لائحة الإرهاب؟

بادرت الإدارة الأمريكيّة عام ٢٠١٦ إلى طرح مشروع قرار على الكونغرس الأمريكيّ والاتّحاد

> **برز المنطق الرّئيسيّ الذي يقود الإمبراطوريّتين بشكل أكثر وضوحاً في اتّفاق أماسيا عام ١٥٥٥، حيث غلبت لغة المصالح على الخلافات المذهبيّة، وحلّ التّوافق حول العديد من نقاط الخلاف بينهما، حيث قبل الإمبراطوريّة العثمانيّة، ولأوّل مرّة بالقزلباش واعتبرتهم مسلمين وفتحت أمام الشيعة طرق الحجّ إلى مكّة، مقابل فتح الصفويّين طرق التّجارة أمام العثمانيّين (طريق الحرير) في العراق ومضيق هرمز والوصول إلى الهند**

الأوروبيّ لوضع جماعة الإخوان المسلمين على لائحة الإرهاب. ولكنّ بريطانيا عارضت المشروع، فَوُلِدَ المشروع ميّتاً. ويعزو بعض المحلّلين الرّفض البريطانيّ، إلى تقاطع مصالح الدّول الغربيّة مع جماعة الإخوان، وأنّ الأخيرة لم تستنفد أدوارها في خدمة المشاريع الغربيّة في توفير أسباب التوتّر والانقسام والصراع في المنطقة.

يتمثّل المشروع العالمي للإخوان في إنشاء فروع للتنظيم في معظم البلدان الإسلاميّة ترتبط مع مركز واحد وتتّبع نهجاً وفكراً واحداً، كشبكة أخطبوط للتحكّم بمفاصل مهمّة من الحياة السياسيّة في تلك البلدان. فرغم أنّ مهد وولادة الجماعة كان في مصر، إلا أنّها انتشرت في معظم البلدان العربيّة والإسلاميّة، وعيّنت "إبراهيم منير" أميناً للتنظيم الدّوليّ للإخوان المسلمين. وفيما يلي الأسماء التي اتّخذتها الجماعة في مختلف البلدان العربيّة:

١ – مصر: جماعة الإخوان المسلمين.

٢ – سوريّا: جماعة الإخوان المسلمين.

٣- فلسطين: حركة المقاومة الفلسطينيّة (حماس).

٤ – الأردنّ: حركة الإخوان المسلمين.

٥ – الجزائر: "الموحّدون" ومن ثمّ حركة "مجتمع السلم".

٦– السّعوديّة: لم ينشأ فيها تنظيم على الأرض، فقط يوجد لهم نشاط عبر الإنترنت.

٧ – البحرين: "نادي الطلبة" فجمعيّة "الإصلاح"، ثمّ "المنبر الوطنيّ الإسلاميّ".

٨ – سلطنة عمان: الإخوان المسلمون.

٩ – قطر: الإخوان المسلمون كإطار فكريّ دون التنظيميّ.

١٠ – الكويت: جمعيّة "الإرشاد الإسلاميّة"، فـ"جمعيّة الإصلاح"، ثمّ "الحركة الدّستوريّة الإسلاميّة" (حدس).

١١ – اليمن: حزب "التجمّع اليمنيّ للإصلاح".

١٢ – لبنان: "الجماعة الإسلاميّة".

١٣ – ليبيا: "حركة الإخوان المسلمين" ثمّ حزب "العدالة والبناء".

١٤ – الإمارات: جمعيّة الإصلاح والتوجيه الاجتماعيّ.

١٥ – العراق: "جمعيّة الإخوّة الإسلاميّة"، ثمّ "الحزب الإسلاميّ العراقيّ".

١٦ – تونس: "الجماعة الإسلاميّة"، فحركة "الاتّجاه الإسلاميّ"، ثمّ "حركة النهضة الإسلاميّة".

١٧ – السودان: حركة الإخوان المسلمين.

١٨ – موريتانيا: "الجماعة الإسلاميّة" ثمّ حزب التجمّع الوطنيّ للإصلاح والتنمية (تواصل).

١٩ – المغرب: "الإخوان المسلمون"، ثمّ "حزب العدالة والتنمية".

٢٠ – الصومال: حركة الإصلاح.

٢١ – جيبوتي: "الإخوان المسلمون" ثمّ "التجمّع الوطنيّ" كإطار تحالف مع قوى وأحزاب أخرى.

كما يمتد وجود الحركة في عدد من الدّول الإفريقيّة والآسيويّة والأوروبية، ويتوزّع نشاطها بين الدّعويّ والخيريّ، مع افتقادها لهيكليّة تنظيميّة في معظم تلك البلدان، إلا أنّها تنشط تنظيميّاً وسياسيّاً في دول آسيويّة إسلاميّة مثل ماليزيا وباكستان وأفغانستان.

المرجعيّة الفقهيّة والشرعيّة لحركة الإخوان:

أذرع التنظيم الممتدّة إلى دول عديدة؛ مكّنته من استجلاب العناصر إلى ساحات التوتّر والصراع الرّئيسيّة وفق منظور وإستراتيجيّة الحركة. فالأزمة السّوريّة جعلت من التنظيم يشدّ أزره ويُدخِلُ إلى سوريّا معظم مؤيّديه وعناصره من مختلف الدّول. ويؤكّد معظم خبراء الحركات الإسلاميّة ومراكز البحث المختصّة، بأنّ حركة الإخوان المسلمين هي الجذر والمولّد لكلّ الحركات الأصوليّة المتشدّدة مثل القاعدة وفروعها (جبهة النصرة في سوريّا مثلاً) وتنظيم داعش وبوكو حرام والشباب الصوماليّ وتنظيم أنصار بيت المقدس في مصر، وكذلك الحزب الإسلاميّ التركستانيّ وحرّاس الدّين، وفي كردستان الحركة الإسلاميّة الكردستانيّة وأنصار الإسلام التي يتزعّمها الملا كريكار كفرع تنظيم القاعدة في كردستان.

إنّ استقدام عوائل مقاتلي الإيغور الصينيين وتوطينهم في جبال السّاحل السّوريّ كجبل الأكراد والتركمان وكذلك مؤخّراً في مدينتي رأس العين وتل أبيض في شمال شرق سوريّا، تأكيد على أهداف حركة الإخوان وإستراتيجيّتهم في تغيير خارطة المنطقة وفق رؤاهم ومنظورهم الإسلاميّ.

شكّلت حركة الإخوان المسلمين مرجعيّات فقهيّة وتشريعيّة لهم، تنوب عنهم في تمرير مشاريعهم السياسيّة، وتسبغ على قراراتهم صبغة "الشرعيّة"، عبر لوي عنق الشرع الإسلاميّ وبما يتوافق مع توجّهاتهم وطموحاتهم. ففي مصر التي دامت سيطرتهم عليها إبّان وصول محمّد مرسي إلى سدّة الحكم، غيّروا العديد من القوانين والتشريعات المتعارف عليها في الدّستور والقانون المصريّ، ما دفع بالجماهير المصريّة للنزول إلى الشارع والمطالبة بتنحي مرسي وإنهاء حكم الإخوان.

وفي سوريّا أنشؤوا "المجلس الإسلاميّ السّوريّ" كمرجعيّة فقهيّة وشرعيّة، تصدر الفتاوي بخصوص عمل أعضاء الحركة، إلا أنّ فتاواها لم تكن مُنْصِفَة، بل انحازت إلى ما يخدم مصلحة الحركة، كالفتوى التي أصدرها أثناء العمليّة العسكريّة التركيّة على عفرين، أجازت فيه الاستيلاء على أموال الأهالي ونهبها تحت مسمّى "الغنائم"، ثمّ ما لبثت أن تراجعت عن تلك الفتوى، كذلك أجازت مشاركة الجيش التركيّ في كلّ عمليّاته العسكريّة ضدّ الكرد، معتبرة أنّ الكرد "كفار وملاحدة يجب مقاتلتهم".

البراغماتية التي اتّسم بها عمل تنظيم الإخوان المسلمين في مختلف أماكن تواجدها، وإيمانها بالعنف كوسيلة للوصول إلى الحكم، جعلها مبعثاً للفوضى وعدم الاستقرار. ففي سوريّا ركبت موجة الثّورة، ومنذ بدايتها، واستغلتها لصالح تمرير مشاريعها وقادَتها نحو العسكرة والفوضى والحرب الأهليّة والطائفيّة والمذهبيّة. ورغم ادّعائها رفع شعار "الدّفاع عن حقوق السنّة ورفع المظلوميّة عنهم"، إلا أنّ الطائفة السنّيّة كانت أوّل وأشدّ المتضررين من سياسات وممارسات الإخوان والتنظيمات المتطرّفة التي تفرّعت عنها.

يتقاطع فكر وممارسة حركة الإخوان المسلمين

مع العديد من الحركات الإسلاميّة المتشدّدة التي ظهرت في العالم الإسلاميّ، مثل الحركة الوهّابيّة. فرغم التباينات بينهما من حيث الإيديولوجيّا والنهج العمليّ لممارسة الطقوس الدّينية والمذهبيّة، إلا أنّهما تلتقيان في نقطة واحدة من حيث إيمانهما بالعنف كطريق للوصول إلى الأهداف، تحت مسمّى "الجهاد" لإحياء الدّولة الإسلاميّة. فمن هي الحركة الوهّابيّة، وكيف تأسّست، وما هي الأفكار والإيديولوجيا التي تؤمن بها؟

الحركة الوهّابيّة.. النشأة والتطوّر:

أسّس الحركة محمّد بن عبد الوهّاب (١٦٩٩ – ١٧٠٣) م، والذي ينحدر من منطقة "العيينة" في هضبة نجد في الحجاز.

تنقّل محمّد بين كافّة الحواضر والمدارس الإسلاميّة، واستزاد من علومها وثقافاتها، بما فيها مدرسة (قم) الشيعيّة في زمن حكم نادر شاه على الإمبراطوريّة الصفويّة.

تميّز ابن عبد الوهّاب منذ بدايته بطرح الأفكار المتشدّدة، ظنّاً منه أنّه بذلك يستعيد زمن النبوّة والخلفاء الرّاشدين، فأجاز هدم الأضرحة واعتبر إقامتها نوعاً من الكفر والشرك بالله يجب معاقبة صاحبها، وكذلك ألغى تقديس المعابد وتقديم القرابين لها. كما أظهر تشدّده وغلوّه الدّينيّ في دعوته إلى إخراج كلّ من لا يتوافق مع المذهب الذي يؤمن به إلى خارج الدّيار الإسلاميّة، وخاصّة الشيعة منهم، بل وأصرّ على ضرورة محاربتهم، كنوع من "الجهاد في سبيل الله" وأنّها عبادة.

تمدّدت الوهّابية من خلال تشدّدها، حتّى ألغت ما كان يسمّى بـ"أهل الذمّة" من المسيحيّين واليهود والإيزيديّين، وأفتت بضرورة قتلهم حتّى وإن أعلنوا إسلامهم، معتبرةً أنّهم يتبعون "الشيطان"، لذا يتوجّب قتلهم. كما أحرق جميع كتب تفاسير القرآن والكتب والمجلّات العلميّة، ظنّاً منه أنّها من تأليف الغرب "الكافر"، كما استعاد مفهوم "الرِّدّة عن الإسلام" ونَشَرَهُ بين أتباعه.

إثر إعلانه عن أفكاره المتطرّفة في بلدته (العيينة) تمّ طرده منها، فاستقبله حاكم مدينة (الدرعيّة) محمّد بن سعود، الذي كان يمتلك قوّة عسكريّة مؤلّفة من عدّة آلاف من المقاتلين، ولكنّه كان بحاجة إلى تغطية سياسيّة ودينيّة، فاتّفق الطرفان ووقّعا ميثاقاً أنشأت بموجبه الدّولة السّعوديّة الحالية، بعد تبنّيها "المذهب الوهّابيّ".

تبنّى محمّد بن عبد الوهّاب المذهب الحنبليّ، فيما كانت الإمبراطوريّة العثمانيّة تتبنّى المذهب الحنفيّ، ما شكّل تعارضاً بينهما، ودفع بالأخيرة إلى شنّ حملات متعدّدة عليه. ورغم أنّ المذاهب الأربعة في الإسلام لا تكفّر بعضها البعض، إلا أنّ الوهّابيّة كفّرت المذاهب الثلاث الأخرى، واعتبرتهم غير مسلمين ودعت إلى قتلهم ونهب أموالهم وأملاكهم، وهو ما حقّق له الانتشار الواسع بين القبائل العربيّة في الحجاز، والتي اعتادت العيش على ثقافة الغزو والغنائم منذ ما قبل ظهور الإسلام. وأعطاها التمايز عن باقي المذاهب ابتداع طرق وممارسات دينيّة شاذّة أحياناً، مدّعية أنّها تمثل جوهر حكم النبوّة والسلف الصالح، مثل استرجاعه لثقافة (الرّجم) وقطع يد السارق وعنقه في حال ارتكابه معصية أو أمراً منافياً للشريعة، استناداً للأفكار التي وضعها مؤسّسها.

ركّز محمّد بن عبد الوهّاب في كتابه "التوحيد" على الأحاديث التي تستثير في النفوس الحماس لقتالهم. "..إنّ ذروة سنام الإسلام هو الجهاد، وإنّ الجنة تحت ظلال السيوف، وكذلك الوعد بنعيم الجنّة والحور العين". وهو ما شكّل النواة لتشكيل الفكر المتطرّف في الإسلام وانحرافاً عن قيم السّلام التي نادى بها الرّسول والصحابة، في قلب للمفاهيم الإسلاميّة السَمِحَة. وقد اعتمدت الحركة الوهّابيّة على

تلك المفاهيم والأفكار المتطرّفة في تسيير حملاتها العسكريّة في الحجاز وخارجها طيلة القرن الثامن عشر ولغاية بدايات القرن التاسع عشر، لتنتقل إلى أيّامنا هذه، عبر تبنّي معظم الحركات السلفيّة والجهاديّة المتطرّفة لأفكار ونهج الوهّابيّة مثل تنظيم القاعدة وداعش ومجموعات أخرى انتشرت في العالم الإسلاميّ.

امتداد الحركة الوهّابيّة:

انتشرت الحركة الوهّابيّة في المنطقة عبر الهجمات العسكريّة التي شنّتها على القبائل والدّول المجاورة، فامتدّت سيطرتهم على جنوب العراق والخليج العربيّ حتّى سلطنة عُمان، وارتكبوا كلّ الموبقات، من قتل وتدمير واغتصاب ونهب وسلب، كما هاجموا مرقد الإمام علي في كربلاء، ولكنّ الشيعة دافعوا عنه وكسروا الهجمة.

أصبحت الوهّابية عقيدة الدّولة السّعوديّة الحديثة التي تكوّنت في ظلّ ضعف سلطة الإمبراطوريّة العثمانيّة، وسعت لبسط سيطرتها على كامل المنطقة، ونشر أفكارها وإيديولوجيّتها المتشدّدة المستندة إلى القوّة العسكريّة للدّولة السّعوديّة، وتنامى الشعور لدى السّعوديّين بضرورة اعتناق المسلمين في العالم الإسلامي للمذهب الوهّابيّ بعد اكتشاف النفط وامتلاكها للقوّة الاقتصاديّة الهائلة. إلا أنّ الدّول الغربيّة وعلى رأسها بريطانيا ومن بعدها أمريكا، سعت للحدّ من النّفوذ الوهّابيّ في المنطقة، بإعادة تشكيل مراجع دينيّة أخرى، وولادة دول عربيّة إثر انهيار الإمبراطوريّة العثمانيّة في نهاية الحرب العالميّة الأولى.

كان لعودة جامعة الأزهر وأخذه دور المرجعيّة السنّيّة، الأثر البالغ في ضعف مكانة المذهب الوهّابيّ المتشدّد، حيث شكّل الأزهر بتعاليمه ونهجه، حالة الوسط بين الوهّابيّة والتطرّف الدّينيّ، ما حدا بزعماء الدّولة السّعوديّة، الذين تحوّلوا إلى مبشّرين للوهّابيّة، إلى لجم طموحاتهم، بعد أن تحقّق لهم ما كانوا يصبون إليه من السيطرة والنّفوذ في المنطقة والعالم الإسلاميّ.

إلا أنّ المفصل الأساسيّ في انهيار الدّولة السّعوديّة – الوهّابيّة الأولى كان سببها التشدّد في فرض أحكامها الدّينيّة الجائرة، ومحاولاتها السيطرة على الأماكن المقدّسة (مكّة والمدينة المنوّرة)، ما حدا بالسلطان العثمانيّ توجيه حملة عسكريّة كبيرة على آل سعود، تمكّنت من استرجاع السيطرة على مكّة والمدينة، وبالتالي انهيار الدّولة السّعوديّة، لكن عيّن العثمانيّون خليفة من الحجاز على الأماكن المقدّسة، نظراً لأنّ الأحكام كانت تفرض أن يكون الخليفة من السلالة الهاشميّة، وسمّوه (شريف مكّة).

دبّت الخلافات بين الأسرة السّعوديّة الحاكمة بعد منتصف القرن التاسع عشر، ما مهّد الطريق أمام العثمانيّين للتدخّل والقضاء على دولتهم الثانية، لكن رغم ذلك، ظلّ المعتقد والمذهب الوهّابيّ منتشراً في الجزيرة العربيّة، وامتدّ إلى الدّول الإسلاميّة شمال إفريقيا مثل ليبيا والجزائر، بل وصل مداه إلى باكستان وأفغانستان والهند، ليُعاد بعد انهيار الإمبراطوريّة العثمانيّة إعادة إحياء الوهّابيّة في هيئة المملكة العربيّة السّعوديّة.

خاتمة:

من خلال ما تمّ عرضه آنفاً؛ يمكن القول إنّ منطقة الشرق الأوسط عانت الويلات والمآسي بسبب الصراعات الدّينيّة والمذهبيّة التي استغلّها قادتها وأمراؤها في بسط نفوذهم على الدول المجاورة، متجاوزين في الكثير من المحطّات الخلاف المذهبيّ والطائفيّة، لينتقلوا

لعبت حركة الإخوان المسلمين منذ نشأتها على استغلال الدّين الإسلاميّ ووضعه في خدمة أغراضها السياسيّة، فسعت في كلّ مراحل تطوّرها إلى تنظيم عالميّ، إلى بناء أيديولوجيّتها وفكرها السياسيّ؛ اعتماداً على استخدام القوّة والعنف، كما أنّها لم تتوانَ عن نشر فكرها الدّعويّ الهادف إلى الاستيلاء على السلطة، مستغلّة العاطفة الدّينيّة لشعوب المنطقة، ومناهضةً أيّ فكر تحرّريّ علمانيّ نحو بناء الدّولة الوطنيّة

إلى تبادل المصالح المبنيّة على تقاسم النفوذ وإعادة تمركز سلطتهم وتقويتها، متجاهلين حقائق التاريخ والجغرافيا والدّين، وصولاً إلى تنفيذ رغباتهم في السيطرة وتثبيت حكمهم.

ولقد استغلّت الدّول الغربيّة الرّأسماليّة التي حوّلت أنظارها صوب المنطقة هذه الصراعات الدّينيّة والمذهبيّة، فأجّجت بعضاً منها، كما ساندت معظم الحركات الدّاعية إلى إعادة بناء الدّول التي قسّمتها مساطرهم على أسس مذهبيّة تفرّق أكثر ممّا تجمع، فليس من الغريب أن أنشأت بريطانيا حركة الإخوان المسلمين، وليس غريباً أيضاً أن دعمت فرنسا حركة الخميني حتّى أوصلتها إلى سدّة الحكم في إيران.

فما أشبه اليوم بالبارحة، حيث تستخدم الدّول الغربيّة حركات الإسلام السياسيّ كأداة لها في إعادة تقسيم المنطقة ورسم خرائط جديدة على أسس مذهبيّة وعرقيّة، مسترسلة في إدامة دوامة العنف الأعمى التي تحصد أرواح ملايين البشر، ودون أن يَرُفَّ لها جفنٌ. وهذه النتيجة كانت متوقّعة منذ الانكسار الذي شهدته المنطقة والعالم بعد انهيار الاتّحاد السوفياتي ومعه جبهة القوى اليساريّة، لتسعى الدّول الرّأسماليّة إلى إعادة إحياء الإسلام السياسيّ المتطرّف وينتشر في المنطقة كالنار في الهشيم، ولتُعاد صياغة المفاهيم والأفكار التي تُسيّر المجتمعات الشرقيّة تبعاً لأهواء زعمائها وقادتها الذين ربطوا مصير بلدانهم بالدول التي تدعمهم.

المراجع:

١ – عبّاس إقبال آشتياني ..... "تاريخ إيران بعد الإسلام".

٢ – جعفر المهاجر..... "الهجرة العامليّة إلى إيران في العصر الصفويّ".

٣ – كمال السيّد ..... "نشوء وسقوط الدّولة الصفويّة".

٤ – وجيه كوثراني ..... "الفقيه والسلطان".

٥ – جودت القزويني ....."المرجعيّة الدّينيّة العليا عند الشيعة الإماميّة".

٦ – حسن روملو ....."أحسن التّواريخ".

٧ – علي أكبر ذاكري ....."المشهد الثّقافيّ الشيعيّ في العصر الصفويّ".

٨ – محمّد يسري ....."الصراع العثمانيّ – الصفويّ".

٩ – علي شريعتي ....."التشيّع العلويّ والتشيّع الصفويّ".

١٠ – محمّد جمال باروت....."الصراع العثمانيّ – الصفويّ وآثاره في الشيعيّة في شمال بلاد الشّام".

١١ – محمّد عبده ..... "صحيفة العروة الوثقى".

١٢ – حديث لأحد قادة الإخوان المسلمين مع كاتب الدّراسة عام ١٩٩١ في سجن صيدنايا.

١٣ – الدّكتور مطانيوس حبيب مقال نُشِرَ على موقع صحيفة الاتّحاد بتاريخ ٣ آب / أغسطس ٢٠١٨.

١٤ – تقرير صادر عن اللّجنة المشكّلة من قبل الحكومة البريطانيّة بتاريخ ١٧ كانون الأوّل / ديسمبر ٢٠١٥.

١٥ – محمّد بن عبد الوهّاب ..... "التوحيد".

الوجود الكردي في الصراع الصفوي العثماني وتأثير اتفاقية قصر شيرين على هذا الوجود



مازداك ميتانى

ترجمه: عدنان حسن

إن العلاقة بين العثمانيين والصفويين ترجع إلى صراع السيطرة والقوة، ففي فترة ما أراد كلٌّ منهما توسيع سيطرته على المناطق المجاورة، وخاصة أنّ الصفويين كانوا قد بنوا أيديولوجيتهم على المذهب الشيعي، وكانت لهم أطماع توسّعية في الأراضي التي تقع تحت النفوذ العثماني الذي كان بدوره يتبنّى المذهب السني.

ولكي نعرف طبيعة الصراع بين الصفويين والعثمانيين، لا بدّ لنا أن نتعرف على الذهنية والأهداف التي كانوا يتبنّاها كلّ منهما، فالصفويون حركة إيديولوجية تبنّت المذهب الشيعي الذي بدوره يعتمد على التبعيّة أي (المُريد) فقد نظموا أنفسهم، وبنوا سياساتهم في 200 عام، فقد كانوا

يسعون إلى إنشاء نظام (الشاه الشيعي) فالصفويون بعد انهيار الساسانيين كانوا يسعَون دائما إلى إرجاع نظام الشاه الصفوي، لكن بطريقة أخرى، وبأفكار معاصرة للزمن، لأنهم كانوا يرون أنّه النظام الأمثل لهم، للحفاظ على وجودهم.

أمّا العثمانيون كانوا سياسيين أكثر من كونهم أصحاب أيديولوجية، إذ كانوا يستخدمون الدين ستاراً لتحقيق أهدافهم فقط، فبعد انهيار الساسانيين لم يستطع الإيرانيون الذين كانوا مسيطرين على المنطقة بالمذهب الزرداشتي الذي كان يحكمون به في عهد الساسانيين، وخاصة بعد الحكم الإسلامي، فكانوا يحاولون دمج العناصر الإسلامية على أفكارهم وسياساتهم لتتناسب مع أهدافهم، ومع أفكارهم الجديدة التي تبنّاه الناس بعد انتشار الاسلام. فكان من بينهم فصيل من العلويين ظهروا بالمظهر المخالف للسنة من العهد الأموي مروراً بالعباسي، فاستغلّ الصفويون هذا الفصيل المعارض للسنة، وبنوا عليه سياستهم، فكانوا من حيث الشكل يتظاهرون بالمعارضة الإسلامية، إلّا أنّهم كانوا في الأساس يتبنّون النظام الايراني. فهم كانوا بانتظار الفرصة المناسبة لإعلان نظامهم الشاه الشيعي، إلّا أنهم بسبب الخليفة الإسلامي والحكام السلجوق - الأتراك لم يكن هنالك وجودٌ فعلي للصفويين، إنما إمارات صغيرة تابعة للخليفة الاسلامي إلّا أنّه بعد هجوم المغول على المنطقة كانت الفرصة التي ينتظرها الصفويون لتشكيل كيانهم بشكله الجديد ألا وهو نظام الشاه الشيعي الذي استفقده الإيرانيون حوالي ألف عام تحت الحكم الاسلامي، فمن خلال انقلاب عسكري تمكّنوا من السيطرة على تبريز، وتوسّعوا في المنطقة، لأنّهم كانوا قد نشروا أفكارهم مسبّقاً ضمن الجغرافية الإيرانية، حتى أنّهم ارتكبوا المجازر بحق شعبهم ليحولوهم إلى المذهب الشيعيّ، كي يبنوا عليه نظامهم الجديد، فوصل بهم الأمر إلى تحريض وتنظيم العشائر الكردية والتركمانية العلوية ضمن الأراضي التي تقع تحت النفوذ العثماني السني.

إلّا أنّ العثمانيين لم يعطوا لتصرفاتهم تلك أيّ أهمية، لأنّهم كانوا منشغلين بالحروب مع أوروبا، ففي عهد السلطان بايزيد الثاني زادت متابعة العثمانيين لتحرّكات الصفويين، حتى أنّه هنالك رسائل من السلطان العثماني للحكام الكرد في إمارة الموكريان، يسألهم فيها عن الصفويين، وماهي غاياتهم وسياستهم؟ فهنالك سببان للصراع العثماني الصفوي وهما: موت السلطان بايزيد وظهور حركات صفوية شيعية مناهضة للعثمانيين السنة.

فبعد موت السلطان بايزيد، وتولّي الحكم من قبل السلطان سليم الذي واجه صراعات داخلية ضمن عائلته فور وصوله إلى الحكم، كما أنّ بعض العشائر التركمانية التي حاولت أن تنفصل من العثمانيين، دعمها الصفويون

ولكي نعرف طبيعة الصراع بين الصفويين والعثمانيين، لا بدّ لنا أن نتعرف على الذهنية والأهداف التي كانوا يتبنّاها كلّ منهما، فالصفويون حركة إيديولوجية تبنّت المذهب الشيعي الذي بدوره يعتمد على التبعيّة أي (المُريد) فقد نظموا أنفسهم، وبنوا سياساتهم في ٢٠٠ عام، فقد كانوا يسعون إلى إنشاء نظام (الشاه الشيعي) فالصفويون بعد انهيار الساسانيين كانوا يسعَون دائما إلى إرجاع نظام الشاه الصفوي، لكن بطريقة أخرى، وبأفكار معاصرة للزمن، لأنهم كانوا يرون أنّه النظام الأمثل لهم، للحفاظ على وجودهم.

وحركة نور علي خليفة الذي كان أحد المريدين الصفويين، الذي هاجم العثمانيين في أكثر من مناسبة، فأحس السلطان العثماني بالخطورة وجمع الملالي السنة، وطلب منهم إصدار الفتاوي بحقّ الصفويين الشيعة، واتهامهم بالإلحاد والكفر. ونتيجة هذه الصراعات كانت معركة جالديران التي انتصر فيها العثمانيون على الصفويين، لأنّ العثمانيين كانوا أكثر منهم في العدد والعتاد والتجارب القتالية، ودخل العثمانيون تبريز التي كانت عاصمتهم، وبعد تلك المعركة سادت الخلافات في العلاقات العثمانية الصفوية حتّى مئة عام.

معركة جالديران ودور الكرد فيها

يمكننا تقييم دور الكرد في معركة جالديران من جانبين، الأول كواقعة تاريخية كيف حصلت؟! ومن الناحية الثانية لماذا هذه العلاقات بين الطرفين؟!

لم تكن علاقة الكرد مع الصفويين علاقة جيدة، فالصفويون بعد وصولهم إلى السطلة كانوا ينشرون المذهب الشيعي في كل مكان يصلون إليه، حتّى أنهم ارتكبوا المجازر في بعض المناطق لهذه الغاية، وكان الكرد من السنة، لهذا لم تكن علاقة الكرد مع الصفويين جيدة. فهنالك بعض الرسائل في تاريخ تشير إلى أن الإمارات الكردية، وقتئذٍ كانوا يراسلون العثمانيين كونهم سنة مثلهم، ويدركون خطورة الصفويين عليهم وعلى دينهم. وكان الشاه إسماعيل الصفوي شيعياً راديكاليّاً، كانت له أهداف توسّعية، ويفعل أيّ شيء لتحقيق أهدافه تلك. فأنشأ الشاه إسماعيل (اتحاد قزل باشا) أي بتشكيل جنود مرتبطين به أيديولوجيّاً فكان معظمهم من القبائل والعشائر الكردية والتركمانية وغيرهم من العلويين التي كانت على خلاف مع العثمانيين، وكانوا يعتبرون العثمانيين خطراً عليهم، فقد شكل الشاه إسماعيل هذا الاتحاد ليواجه به العثمانيين. فكانت علاقات الكرد مع الصفويين

"أحس السلطان العثماني بالخطورة وجمع الملالي السنة، وطلب منهم إصدار الفتاوي بحقّ الصفويين الشيعة، واتهامهم بالإلحاد والكفر. ونتيجة هذه الصراعات كانت معركة جالديران التي انتصر فيها العثمانيون على الصفويين، لأنّ العثمانيين كانوا أكثر منهم في العدد والعتاد والتجارب القتالية، ودخل العثمانيون تبريز التي كانت عاصمتهم، وبعد تلك المعركة سادت الخلافات في العلاقات العثمانية الصفوية حتّى مئة عام"

على مبدأ" عدو العدو صديق" فكان الكرد الذين هم في خلاف مع العثمانيين يتقاربون مع الصفويين والعكس صحيح. فكان للكرد الدور الأكبر في هذه المعركة لترجيح كفة الغلبة لهم، كون المعركة كانت في أراضي الكرد، وإنّ تحالف أيّ طرف مع الكرد سيحسم المعركة لصالحه.

واستعان السلطان العثماني بإدريس البدليسي لتقاربه مع الكرد، فكان البدليسي من الشخصيات الدينية والأدبية المعروفة بين الإمارات الكردية، وكان قد وصف الصفويين في كتاباته إبّان وصولهم إلى الحكم" بفتنة أخر الزمان" ويجب محاربتهم. فيجتمع متحدث السلطان العثماني عن طريق إدريس البدليسي الذي كان مقبولاً من معظم الإمارات الكردية وقتذاك، وطلب منهم تشكيل اتفاق مع السلطان لمواجه الصفويين، وتشكيل اتحاد الإمارات الكردية المتحالفة مع العثمانيين ضد الصفويين، إلّا أنّ إدريس البدليسي لم يكن

يرى في السلطان العثماني خليفة المسلمين ليشكل ذاك الاتحاد، ولا حتّى الإمارات الكردية ترى ذلك، لهذا تمّ الاتفاق مع العثمانيين من خلال كل إماره على حدى. وعلى هذا الأساس انخرط الكرد في معركة جالديران، بعضهم مع الصفويين عن طريق اتحاد قزل باشا، وبعضهم مع العثمانيين عن طريق إدريس البدليسي.

كثيراً ما يقال بأنّ السبب الرئيسي، لتقارب الكرد والعثمانيين من جهة، والصفويين من جهة أخرى هو العامل الديني، أنا كشخص واثق بأن العامل الإسلامي فقط لم يكن السبب الرئيسي، لأنّنا إذا تعمّقنا في الموضوع، وإذا نظرنا إلى تاريخ كردستان برؤية تحليلية، سنرى أنّ هنالك تيار من الكرد لا يقطع الصلة بالقوى الحاكمة في المنطقة، ويجد أنّ وجوده مرتبط بعلاقاته مع تلك القوى، أي لا يعطي المجال كي يكون هنالك كيان كردي مستقل فيما بينهم. فيجب علينا أن نحلّل هذه النقطة جيداً كونها حالة تاريخية ومازالت مستمرة حتى الآن.

فحينها كانت هنالك طبقة كردية حاكمة في المنطقة، وهذه الطبقة كانت قد تأسست على يد الساسانيين، فكانت غاية الساسانيين من تشكيل طبقة حاكمة للكرد في بعض المناطق التي تسيطر عليها، أن تسعى لفرض سيطرتها على جبال زاغروس، وبعض مناطق أخرى عن طريق بعض العائلات الكردية التي منحها الساسانيون بعض الامتيازات. فهؤلاء الحكام الكرد كانوا يمثّلون الساسانيين في مناطق الكرد وليس العكس. فكانت تلك الطبقة الحاكمة في المناطق الكردية تدعم جميع مشاريع الساسانيين، وتدعمها في جميع حروبها مع الروم، فهم فرضوا سيطرتهم على المناطق الكردية بدعمٍ من الساسانيين، وكانوا هم أنفسهم العقبة الأكبر في تشكيل كيان كردي مستقل عن القوى الحاكمة في المنطقة. فكانت هنالك بعض المجموعات أو العائلات التي لا ترضخ لمثل هذا النظام أو الحكّام، وتهاجم هؤلاء الحكام بين الحين والآخر، لكن كانت تلك الهجمات هي ترسيخ لسياسة الساسانيين آنذاك، أي بمثابة جدار فاصل بين المجتمع الكردي الذي يرفض هيمنة الحكام الكرد باسم الساسانيين على المناطق الكردية وبين الساسانيين، فتأتي مأساة الكرد من هذه النقطة بالذات.

فهذه الطبقة التي تحدثنا عنها لكونها مرتبطة بالسلطة والهيمنة لا غير، فعند مجيء الإسلام وقفوا مع المسلمين ضد الساسانيين لأنّ الغلبة كانت للمسلمين على حساب الساسانيين. فكان سبب الانتصار وانتشار الإسلام في كردستان، ليست قوة المسلمين الفكرية أو العسكرية، إنما تعاون تلك الطبقة الحاكمة معهم لبقائهم على الحكم كما كانوا في عهد الساسانيين. كما أنهم نشروا الفكر الإسلامي بين المجتمع الكردي حتى يبقوا حكاماً على مناطقهم، إنما هذه المرة تحت إمرة الإسلام، فهذه الطبقة هي سبب فشل الكرد في تشكيل كيان مستقل بهم، على الرغم من أنه كانت لديهم كلّ مقومات ذلك وقتها، إلّا أنّ هذه الطبقة اختارت أن تكون تحت رحمة الحكم الإسلامي الجديد واستمرار هيمنتهم على مناطقهم، وارتباطهم بالهيمنة الخارجية الأقوى، وهي الحكم الإسلامي على حساب انهيار الساسانيين.

وبسبب التحالفات الكردية الخاسرة بين طرفي الصراع في معركة جالديران، أي بين العثمانيين والصفويين فكان الخاسر الأكبر هو الكرد، وكان أوّل انقسام لكردستان حينها. وليست فقط انقسمت كردستان بعد معركة جالديران، إنما لم يبق للكرد أي أمل في تشكيل كيان كردي مستقل بهم، لهذا يجب علينا أن نرى الدور السلبي الذي لعبه حكام الطبقة الحاكمة للكرد، والتي كانت دائماً تابعاً للسلطة المركزية في جميع مراحل تاريخ كردستان، لأنها كانت السبب الأساسي لتقسيم كردستان.

وتشتيت الصف الكردي عبر الفرص التاريخية التي سنحت للكرد.

فمثل هذه التحالفات التي أبرمتها تلك الطبقة مع القوى الخارجية نراها اليوم أيضاً، فمثلاً حاول العثمانيون والصفويون أيضاً الآن يحاولون باسم تركيا وإيران لكسب الكرد إلى جانبهم بتحالفات تخدم مصالحهم، ومع الأسف لا نزال نرى تلك العقلية التي تفكر بما كانوا يفكرون بها تلك الطبقة التي تسعى إلى السلطة على حساب مكتسبات الشعب الكردي، إلّا أنّنا نرى مقابل ذلك سياسة الطرف الثالث التي تتمثل بفكر الأمة الديمقراطية، وتسعى جاهدة لمنع تلك الطبقة من تحقيق مآربها على حساب الوجود الكردي.

أهمية اتفاقية قصر شيرين

لا تأتي أهمّية معاهدة قصر شيرين من الاتفاقية بحدّ ذاتها، وإنّما من المرحلة التي كانت سبباً لتوقيع هذا الاتفاق، فكانت تلك المرحلة مليئة بالصراعات والحروب، حتى كانت تلك الاتفاقية بين العثمانيين والصفويين نهاية لتلك المرحلة، والبدء بمرحلة جديدة وفقاً لما تم الاتفاق عليه في معاهدة أو اتفاقية قصر شيرين، والجدير بالذكر هنا أنّ بنود اتفاقية قصر شيرين حتى لم تظهر للعلن لا في الأرشيف العثماني، ولا في الأرشيف الصفوي، إنما فقط ذكرت في المراسلات التي يراسلها الحكام العثمانيون والصفويين وقتها.

فهذه المرحلة بدأت بمعركة جالديران حتى توقيع هذه الاتفاقية، إلّا أن ما بين المعركة والاتفاقية، فكانت أهمية المنطقة الجغرافية والوجود السكاني، ودوره في تلك المرحلة، وأهمية المنطقة ما بين طرفَي الصراع.

فقبل معركة جالديران كانت هنالك منطقة تعتبر مهمة لمن يستولي عليها، وهي المثلث الذي يواصل بين آمد وتبريز وبغداد، فتلك

وكان الشاه إسماعيل الصفوي شيعياً راديكالياً، كانت له أهداف توسّعية، ويفعل أيّ شيء لتحقيق أهدافه تلك. فأنشأ الشاه إسماعيل (اتحاد قزل باشا) أي بتشكيل جنود مرتبطين به أيديولوجيّاً فكان معظمهم من القبائل والعشائر الكردية والتركمانية وغيرهم من العلويين التي كانت على خلاف مع العثمانيين، وكانوا يعتبرون العثمانيين خطراً عليهم، فقد شكل الشاه إسماعيل هذا الاتحاد ليواجه به العثمانيين.

الجغرافية التي تصل هذه المناطق فيما بينها هي المناطق الكردية. حيث كانت الإمارات الكردية تتوزع في تلك المنطقة لذلك كلا طرفَي الصراع في جالديران، كان مجبوراً لقيام تحالفات مع الإمارات الكردية، ومن كسب الكرد إلى جانبه كانت له كفّة الغلبة، وهذا ما فعله العثمانيون على يد إدريس البدليسي.

فمعركة جالديران وبنتيجتها توقيع اتفاقية قصر شيرين هما إحدى أهم الأحداث التاريخية في منطقة الشرق الأوسط، وتغيير خارطتها إلى اليوم، فكانت جالديران بداية لمرحلة مفصلية للعثمانيين بدخولهم الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، فلولا تحالف العثمانيين مع الكرد لما استطاع العثمانيون الانتصار في جالديران على الصفويين، والزحف إلى داخل منطقة الشرق الأوسط.

وتجدر الإشارة إليه هنا بأنّ المؤرخين الترك في يومنا هذا ينكرون دور تحالف الإمارات الكردية

بسبب التحالفات الكردية الخاسرة بين طرفي الصراع في معركة جالديران، أي بين العثمانيين والصفويين فكان الخاسر الأكبر هو الكرد، وكان أوّل انقسام لكردستان حينها. وليست فقط انقسمت كردستان بعد معركة جالديران، إنما لم يبق للكرد أي أمل في تشكيل كيان كردي مستقل بهم، لهذا يجب علينا أن نرى الدور السلبي الذي لعبه حكام الطبقة الحاكمة للكرد، والتي كانت دائماً تابعاً للسلطة المركزية في جميع مراحل تاريخ كردستان.

مع العثمانيين في انتصار العثمانية في المنطقة، وتقوية جيشها وإمبراطوريتها. فالأتراك يسعون الآن مرة أخرى لاسترجاع أمجادهم، وتشكيل إمبراطوريتهم، إلّا أن هذه المرة بدون الكرد، بل أكثر من ذلك على حساب إبادة الكرد، وهذا ما لن يحدث أبداً. فلو فعل الأتراك ما فعله أجدادهم العثمانيون من اتفاق مع الكرد لربما كانوا قد حققوا ما يحلمون به في المنطقة، إلا أنّهم يجهلون الدور الكردي في المنطقة، ويسعون لتفادي هذا الدور عن طريق إبادتهم.

كان أبرز ما نتج عن اتفاقية قصر شيرين هو تحديد الحدود بين العثمانيين والصفويين، وهذه الحدود كانت العقبة الأكبر في تحقيق الحلم الصفوي الشيعي في تشكيل إمبراطوريته. «والآن بدخول إيران إلى العراق وسوريا هي تجاوز لبنود اتفاقية قصر شيرين".

وحتى الحدود الغربية للدولة الإيرانية الحالية تشكّلت وفقاً لبنود هذه الاتفاقية، وهنا على الرغم من خسارة الصفويين في جالديران، وتحديد حدودها في اتفاقية قصر شيرين، فلولا هذه الاتفاقية لما رأينا بعد الحرب العالمية الأولى دولة باسم الجمهورية الإيرانية، وهذا ما يؤكده بعض المؤرخين الايرانيين أنفسهم.

وبعد اتفاقية قصر شيرين ازدادت قوة الإمارات الكردية التي تحالفت مع العثمانيين، لأنّ العثمانيين كانوا يرون مدى أهمية تحالفهم مع تلك الإمارات الكردية، فكانوا يدعمون تلك الإمارات ويتحالفون معهم في الحروب التي يخوضونها في المنطقة، وحتى في أوروبا والبلقان.

وتفسيرنا لسياسة تلك المرحلة من نقاط مهمة توضّحها لنا تلك المرحلة، فالعثمانيون لم يمارسوا سياساتهم وقتها، وفق قوميتهم التركية، وإنما وفق الإمبراطورية العثمانية ولأجل تحقيق مآرب إمبراطوريتهم، حيث كانوا منفتحين على تحالفات تخدم مصالحهم. وهذا ما أمدّ بعمر الإمارات الكردية إلى أواخر القرن الثامن عشر.

المقاربة بين قصر شيرين وسايكس بيكو

إنّ المقاربة بين قصر شيرين وسايكس بيكو أمرٌ صعب، كون كلٍ منهما تم في ظروفٍ وعصرٍ مغاير. إلّا أنّهما رغم ذلك يجتمعون في نقطة ذات أهمية؛ وهي في قصر شيرين فكانت هنالك امكانية وفرصة لتشكيل كيان كردي مستقل، إلّا أنّ هذه الفرصة تلاشت مع تلك الاتفاقية. وفي سايكس بيكو تم الإنكار الفعلي لوجود الكرد في المنطقة. إلّا أنّ السبب الرئيس لفشل الكرد - أكرر وأعود - بأن الطبقة التي تحدثنا عنها سابقاً هي العائق الأكبر في تحقيق مكتسبات الشعب الكردي عندما تتوفّر له الفرص التاريخية.

التأثير الألماني على جمعية الاتحاد والترقي وصولاً إلى التأثير الأمريكي والبريطاني والروسي على تركيا وتأثيرات هذه العلاقة على منطقة الشرق الأوسط



عبد القادر رمو

تمهيد

فشل الأتراك في إبداع حروف تناسب لغتهم التي يتحدثون بها فاستخدموا الأبجدية الصينية ثم الأيغورية لعدة قرون ومع اعتناقهم للإسلام وبدافع تحقيق أحلامهم التوسعية وتشكيل إمبراطورية خاصة بهم في عهد عثمان بن أرطغرل خضعوا للثقافة العربية والإسلامية وثقافة شعوب المنطقة من أكراد وأرمن و فرس وأذر .... وبدؤوا بالكتابة بحروف اللغة العربية كونها لغة القرآن الكريم وكوسيلة للتغلغل في المنطقة باسم الدين الإسلامي اعتبارا من القرن العاشر الميلادي كما أضافوا حروفاً من اللغة الفارسية الناتجة عن شعوب تلك المنطقة من فرس وكرد وآذر لتكون (الأحرف العربية والفارسية) سويّاً

ما عرف لاحقا بالأبجدية العثمانية، حتّى أصدر مؤسس الجمهورية التركية؛ مصطفى كمال أتاتورك قراره بإحلال الأحرف اللاتينية محل العربية، وهي لغة المنتصرين في الحرب العالمية الأولى.

جمعية الاتحاد والترقي استبدال الاستبداد العثماني بالاستعمار الغربي

كان لجمعية الاتحاد والترقي وجناحها السياسي تركيا الفتاة الدور الرئيسي في توريط الدولة العثمانية والشعوب والجغرافيا المكونة لها في هذه الحرب التي ترتب عليها انهيار الدولة العثمانية وفتح الطريق للاستعمار الغربي ليضع سوطه بدل العثمانيين على رقاب وأراضي تلك الشعوب وتقاسم الحلفاء المنتصرون أراضي الدولة المنهارة وقاموا بمشاريعهم الاستعمارية وبرموا عدة اتفاقيات ومعاهدات ونفذوا وعودا مثل (اتفاقية سايكس بيكو واتفاقية لوزان واتفاقية سيفر ووعد بلفور) فقسموا البلاد إلى دويلات وأخضعوا شعوبا كالكرد مقسمين للدول المستحدثة ونفذوا وعدهم ببناء دولة إسرائيل على أرض فلسطين و قيام دولة أرمينيا ....

يذكر أرمستروخ في كتابه **(الذئب الأغبر)**: انحاز أتاتورك لأفكار جمعية الاتحاد والترقي العنصرية المتشددة مدّعياً أنّ العربية (لغة ثقيلة تعابيرها مصطنعة وسبب كل تخلف ورجعية وفقر واضطراب في العالم الإسلامي، وأنّ أتاتورك مفتون بالغرب وحضارته، واعتقد أنّ تقدّم جمهوريته الجديدة (تركيا) هو السير على طريقتهم، فأعلن قيام الجمهورية سنة /١٩٢٢/ وعاصمتها أنقرة، ثم أسس حزب الشعب الجمهوريّ، وعيّن عصمت إينونو نائباً له، ورئيساً للوزراء، وأخذ على عاتقه طمس ما بقي فيها من هوية إسلامية، وإنكار أيّ عنصر عرقي آخر غير العرق التركي، من عرب وفرس وكرد وآذر وروم ويونان .... ، واستبدال كل ما قامت على إرثه حضاريّاً وثقافيّاً الدولة العثمانية من حضارة إسلامية وفارسية وعربية وكردية وغربية بالتركية وثقافة التتريك، ففي العام /١٩٢٥/ منع أتاتورك رفع الآذان وأداء الصلاة في آيا صوفيا، وأمر بطبع القرآن الكريم باللغة التركية، وأجبر الشعب على قراءته بها بدلا من العربية، رغم اعتراض علماء الإسلام في العالم، فضياء كوك آلب القيادي في جمعية الاتحاد والترقي ذكر في كتابه (القومية التركية بين الإسلام و المعاصرة) "إنّ الدولة التي يدرس القرآن في مدارسها، ويرفع صوت الآذان في مآذنها، وتقام الصلاة في مساجدها بالتركية، ويفهم كل الناس معانيها، هذه هي دولتك يا ابن الترك) كتوجيه لأتاتورك لاتباع سياسة التتريك، وإلغاء كافة العناصر المنضوية تحت عباءة الدولة العثمانية البائدة والدولة التركية الجديدة، ولشدة عنصريته يقول أيضا: "على الشعب التركي إبعاد المفردات العربية قدر الإمكان واستبدالها بأخرى غربية، وإن لم تجدوا فاذهبوا إلى الأقاليم والدول غير العربية التي كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية، وقبل ذلك ابحثوا في لغتنا التركية الأصلية، قبل أن تتراكم عليها المفردات العربية، ولكثرة ما أخذوا عن الأكراد من مفردات، وليتنصلوا من ذلك قاموا بإطلاق تسمية (أتراك الجبل) عليهم، ولصهرهم في دولتهم الجديدة.

كما ورد في اعترافات **(فاسيلي بارتوولد)** المستشرق الروسي قوله في كتابه (تاريخ الترك في آسيا الوسطى): إنّ أتاتورك طلب منه الترويج لفكرة تحويل تركيا إلى دولة علمانية غربية، بين طلبة الجامعات، فألقى فاسيلي /١٢/ محاضرة باللغة التركية في جامعة إسطنبول بين عامي /١٩٢٦/ و /١٩٢٧/ وأكد فاسيلي في محاضراته حسب قوله : (على سمو الحضارة والثقافة التركية على الحضارة الإسلامية والعربية (وشعوب المنطقة) والأحرى بالشعب التركي البعد عن كل مظاهر التراث العربي بشكل خاص، والشرق أوسطي بشكل عام من لغة وحضارة وتاريخ، بحجة

أنّها لا تناسب الجمهورية التركية الحديثة في القرن العشرين.

الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر

لابدّ لنا أن نعرج على المرحلة التي مرت بها الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، والعوامل التي أدّت إلى نشأة جمعية **(الاتحاد والترقي)** في تلك المرحلة كانت الدولة العثمانية متهالكة ومثقلة بالديون، وعرضة للتدخلات الأجنبية بدافع الامتيازات الممنوحة، لتلك الدول مثل روسيا وإنكلترا وألمانيا وفرنسا، والتنافس فيما بينها لتحقيق مطامعها الاستعمارية، في تركة (الرجل المريض) فضلاً عن قيام بعض الأقاليم التابعة للدولة العثمانية بالمطالبة بالاستقلال عنها، وخاصة المسيحية مثل اليونان والبلقان والأرمن والبلغار... وانتشار أفكار الثورة الفرنسية وقيام الدول القومية والدستورية الديموقراطية ونشاط المحافل الماسونية الأوربية وحدوث المسألة الشرقية، في هذه الفترة كان السلطان عبدالعزيز متقلداً أمور السلطنة، وقد قام بطلب التحالف مع الألمان لكبح جماح الدول الأخرى الطامعة، لكنّ المستشار الألماني (بسمارك) أبدى تحفظّاً، ورفض التحالف مع العثمانيين، وبعد حادثة خلع السلطان عبد العزيز وتنصيب ابن أخيه مراد الخامس سلطانا للدولة، والذي لم يدم في منصبه سوى /٩٣/ يوماً، وعزل بسبب أنه فقد عقله، فتسلّم السلطان عبد الحميد الثاني مقاليد الحكم سنة /١٨٧٦/ وسط ظروف مزرية؛ فوفاة عمه غامضة بين انتحار أو اغتيال اتهم بالمشاركة فيه الصدر الأعظم مدحت باشا، الذي كان ميّالاً لإنكلترا وأخيه مراد الخامس الذي يقال: إنّه كان عضواً في الماسونية، قام السلطان عبد الحميد الثاني بإبطال العمل بالدستور، وجمد البرلمان، واستفرد بالحكم، وتدخّل في كل صغيرة وكبيرة، واضطّر إلى الدخول في حرب ضد روسيا سنة /١٨٧٧- ١٨٧٨/ خسرت

كما ورد في اعترافات (فاسيلي بارتوولد) المستشرق الروسي قوله في كتابه (تاريخ الترك في آسيا الوسطى): إنّ أتاتورك طلب منه الترويج لفكرة تحويل تركيا إلى دولة علمانية غربية، بين طلبة الجامعات، فألقى فاسيلي /١٢/ محاضرة باللغة التركية في جامعة إسطنبول بين عامي /١٩٢٦ و ١٩٢٧/ وأكد فاسيلي في محاضراته حسب قوله : (على سمو الحضارة والثقافة التركية على الحضارة الإسلامية والعربية (وشعوب المنطقة).

خلالها الدولة العثمانية عدة أقاليم، وأجبرت على توقيع معاهدة سان ستيفانو في -٣- مارس /١٨٧٨/ مع روسيا بشكل منفرد، لكنّ هذه المعاهدة لاقت رفضاً من عدّة جهات دولية وشعبية أخرى على رأسها إنكلترا والنمسا، فنشأت أزمة دولية حول بنود هذه المعاهدة، وبعد فترة من المفاوضات المستمرة وافقت روسيا على أن تعرض المعاهدة للمراجعة بمعرفة الدول الكبرى في مؤتمر يعقد في برلين في شهر يونيو، وقد تفاهمت كل من روسيا وإنكلترا على التغييرات الأساسية التي يجب إحداثها على المعاهدة، وقد عدّلت المعاهدة برعاية ألمانيا وإنكلترا و النمسا.

أطماع الدول الغربية في الدولة العثمانية :

كانت لألمانيا مطامعها في الدولة العثمانية، لكنّها كانت تنتهج سياسة مختلفة عن

إنكلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا. فقد كانت أهداف ألمانيا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى تجاه الدولة العثمانية بشكل خاص، والبلدان الإسلامية بشكل عام غير مختلفة عن أهداف الدول الإمبريالية الأخرى التي شكّلت لاحقاً منظومة ما عرف بدول الاستعمار الجديد بعد الحرب العالمية الثانية. وإذا سلّمنا بوجود اختلاف ما فسيكون ذلك الاختلاف قاصراً على الوسائل المتّبعة من أجل تحقيق تلك الأهداف. فعلى حين فضلت دول الاستعمار الاعتماد على الطرق العسكرية بهدف الاستحواذ على البلدان المنضوية تحت السلطة العثمانية وقضم أراضيها، فقد اتبعت ألمانيا وسيلة أخرى للوصول إلى تلك الأهداف من خلال ربط سياسات البلدان الإسلامية بسياساتها، والسيطرة التدريجية على أسواقها، لتتمكّن في النهاية من السيطرة على اقتصادها، وبذلك تصل إلى مبتغاها بأيسر السبل. فقامت بمدّ السكك الحديدية، ومنها خطّ برلين – بغداد، وأوفدت بعثات عسكرية وعلمية إلى الدولة العثمانية.

نشأة جمعية الاتحاد والترقي

كان الشباب العثماني المثقف في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد تأثر بأفكار الثورة الفرنسية التي حققت حكما دستوريا ديموقراطيا في فرنسا، وأتت بالأفكار القومية والعلمانية والتحرر، من حكم الفرد كما تأثروا بالحركة القومية الإيطالية التي قادها (ماتزيني) بنظمها وخلاياها، وكانت الدولة العثمانية قد تعرّضت لحملات عسكرية وإعلامية غرضها إضعاف الدولة حجة التدخل فيها من قبل الدول الغربية، ممّا دفع بعض الشباب المثقف التركي إلى التفكير في الخروج من المأزق الذي باتت دولتهم فيه، وكان من المهم لهم إنشاء دولة وجيش حديثين، وفي العام /١٨٦٥/ كان ستة من الشباب العثماني المثقف يسرون عن أنفسهم في حديقة في ضواحي استنبول (غابة بلغراد)، تناقش هؤلاء الشباب في موضوعات سياسية وخرجوا بفكرة تشكيل جمعية سرية على غرار جمعية (إيطاليا الفتاة) التي أسّسها الزعيم الإيطالي (ماتزين) سنة /١٨١٣/ بهدف الوحدة الإيطالية تحت راية الجمهورية، وأطلق هؤلاء الشبان على جمعيتهم اسم (اتفاق الحمية)، ومن ضمن هؤلاء الشبان؛ الشاعر الذي أصبح فيما بعد واسع الشهرة (نامق كمال) وعلي سعاوي ومحمد ضياء، ورأوا أن العمل لابدّ أن يكون بتعريف الشعب بحقوقه السياسية، وحصوله عليها، وبالتالي فإنّ رغبة الشعوب المسيحية بالاستقلال بمناطقها عن الدولة، لن تجد لها ما يبرر التدخل الأجنبي لحماية الأقليات الدينية، ومساندتها وكانوا يرون أن إنقاذ الدولة من حالة الانحطاط والتردي التي وصلت إليهما، يكون بإيجاد نظام سياسي ديموقراطي وكان في فرنسا آنذاك الأمير المصري مصطفى فاضل باشا الذي نازع فؤاد باشا على عرش مصر، وفي فرنسا أعلن الأمير مصطفى أنه ضمن التيار المنادي بالدستور في الدولة العثمانية، وقدّم نفسه بعبارة (ممثّل حزب تركيا الفتاة)، وأعجب هذا الاسم المجتمعات الأوربية

> تسلّم السلطان عبد الحميد الثاني مقاليد الحكم سنة /١٨٧٦/ وسط ظروف مزرية؛ فوفاة عمه غامضة بين انتحار أو اغتيال اتهم بالمشاركة فيه الصدر الأعظم مدحت باشا، الذي كان ميّالاً لإنكلترا وأخيه مراد الخامس الذي يقال: إنّه كان عضواً في الماسونية، قام السلطان عبد الحميد الثاني بإبطال العمل بالدستور، وجمد البرلمان، واستفرد بالحكم، وتدخّل في كل صغيرة وكبيرة.

المعنية فشاع اسم حزب **(تركيا الفتاة)** في أوروبا. التحق ثلاثة من الإعلاميين الثوريين العثمانيين بالأمير مصطفى وهم (نامق كمال وعلي سعاوي ومحمد ضياء). وكونوا منظمة أسموها جمعية (العثمانيين الجدد). وكان من شخصيات هذه الجمعية شعراء وإعلاميين وأدباء ومن أبرزهم: (نامق كمال وعلي سعاوي) وكان من أشهر شخصيات هذه الجمعية تأثيرا على الساحة الأوروبية.

(نامق كمال) الذي تثقف ثقافة إسلامية كما تأثر بفلاسفة الثورة الفرنسية مثل (روسو). وله حياة أدبية واسعة من كتابات امتدّت لربع قرن. عبّر عن أفكاره من خلالها. وكانت كتاباته تسعى إلى الإجابة عن ثلاثة أسئلة هي:

١- ماهي أسباب انحطاط الدولة العثمانية؟

٢- ماهي الطرق التي يمكن بها أن نوقف هذا الانحطاط ؟

٣- ماهي الإصلاحات اللازم عملها في هذا السبيل؟

ومن أقواله التي وصفها السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته بأنه قطع رأس التنين حين قال: **(كلب هو الذي يأمن لخدمة صياد غير منصف)** بعد أن وجد السلطان عبد الحميد الثاني أن جماعة العثمانيين الجدد بقيادة مدحت باشا تمارس ضغطاً متواصلاً لقبول أفكارها أجبر على دخول الحرب الروسية العثمانية. وخرجت دولته خاسرة فقام بالعمل على تشتيت أعضائها. فبدأ بنفي كبيرهم الصدر الأعظم: مدحت باشا إلى الطائف. **بعد ذلك مباشرة قامت محاولتان لخلعه واحدة بقيادة (علي سعاوي)، وهو أحد أعضاء جمعية (العثمانيين الجدد) والأخرى ماسونية قامت بها جمعية (كولانتي سكاليري – عزيز) وكانت المحاولتان بالتآمر مع إنكلترا ومدعومتان من قبلها. لكنّهما فشلتا ودفعتا السلطان العثماني للتشدّد أكثر في مراقبة الفكر الوافد والمتأثرين به.**

> **كان الشباب العثماني المثقف في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد تأثر بأفكار الثورة الفرنسية التي حققت حكما دستوريا ديموقراطيا في فرنسا، وأتت بالأفكار القومية والعلمانية والتحرر، من حكم الفرد كما تأثروا بالحركة القومية الإيطالية التي قادها (ماتزيني) بنظمها وخلاياها، وكانت الدولة العثمانية قد تعرّضت لحملات عسكرية وإعلامية غرضها إضعاف الدولة حجة التدخل فيها من قبل الدول الغربية.**

وقامت خلال ذلك خلية سرية من طلاب المدرسة الحربية في إستنبول من أصحاب الفكر الجديد: هدفها مقاومة حكم السلطان. **واستطاع أحد أعضاء جمعية (كولانتي – عزيز) الماسونية، وهو (علي شفقتي بك) الفرار إلى نابلوي ثم جنيف حيث أصدر بين عامي (١٨٧٩ و ١٨٨١) جريدة مناهضة للحكم العثماني بعنوان (استقبال) بمعنى المستقبل. وفي عام /١٨٨٩/ تأسّست منظمة طلابية في المدرسة العسكرية - فرع الطب في إستنبول، حيث كان الأساتذة، هناك يحرضون الطلاب للقيام بمعارضة حكم السلطان الفردي. ونشر أفكار العثمانيين الجدد بين الطلاب. وكان المؤسس لهذه الجمعية (إبراهيم تيمو) الألباني الأصل. الذي تأثر بالمحافل الماسونية الإيطالية وصار عضواً فيها. وأطلق على هذه المنظمة اسم (الاتحاد العثماني) واختير يوم الاحتفال بالذكرى المئوية للثورة الفرنسية تاريخاً لإنشاء هذه**

تثقّف نامق كمال ثقافة إسلامية كما تأثر بفلاسفة الثورة الفرنسية مثل (روسو)، وله حياة أدبية واسعة من كتابات امتدّت لربع قرن، عبّر عن أفكاره من خلالها، وكانت كتاباته تسعى إلى الإجابة عن ثلاثة أسئلة هي: ١- ماهي أسباب انحطاط الدولة العثمانية ؟ ٢- ماهي الطرق التي يمكن بها أن نوقف هذا الانحطاط ؟ ٣- ماهي الإصلاحات اللازم عملها في هذا السبيل؟

المنظمة، وجعلوا من أهدافهم مقاومة حكم السلطان، وتكوين دولة مناسبة لأفكار العصر السياسية، تتخذ من الدول الغربية نموذجا لها مثل (إنكلترا – فرنسا – ألمانيا)، والمناداة بالدستور والحرية والديموقراطية، ومن المدرسة العسكرية الطبية سرت أفكار جمعية (الاتحاد العثماني) إلى مختلف المدارس العليا الأخرى.

وكانت خلايا هذه الجمعية تعمل بسرية على نهج جمعية (الكاربوني) الإيطالية، ولم تكن الجمعية متعجّلة لا في الدعاية لأفكارها، ولا في الحركة ضد السلطان، حتى أنّ (أحمد رضا بك) وصل إلى منصب مدير إدارة المعارف في منطقة (بورصة) وسافر سنة /١٨٨٩/ إلى باريس بحجّة حضور معرض باريس الدولي، ووصل إلى هناك، ثمّ أعلن عدم عودته إلى البلاد، وبقي لمدة ستة سنوات دون أن تصدر عنه حركة معارضة جديرة بالتسجيل إلى حين أصدر جريدة (مشورات) ١٨٩٥م، كما يذكر بأنّ مؤسّس جمعية (الاتحاد العثماني) (إبراهيم تيمو) كان يمضي أوقاته في الخارج حتى سنة ١٨٩٥م، بمحاولة كسب أعضاء جدد لمنظمتهم لتربيتهم تربية ثورية، وبعقد الاجتماعات السرية وقراءة الأعمال الأدبية التي ألقاها أعضاء جمعية (العثمانيين الجدد) مثل (نامق كمال وضياء باشا) وقراءة منشورات (علي شفقتي بك) عضو كولانتي الماسونية، ونتيجة للمراسلات السرية بين أعضاء جمعية (الاتحاد العثماني) في الداخل والخارج، تمّ الاتفاق على توحيد العمل العسكري والسياسي المدني المعارضين ضد السلطان، وتمّ الإعلان عن جمعية الاتحاد والترقي في باريس لتكون إطاراً للعمل المشترك في المعارضة، وجاءت التسمية بهذا الشكل، فكلمة الاتحاد احتفظ بها العسكريون مؤسسي جمعية (الاتحاد العثماني)، وكلمة الترقي أصرّ عليها الجناح المدني متمثلا بـ (أحمد رضا بك) المتأثر بفلسفة (أوغاست كانت) وكان دستور هذا الفيلسوف (الانتظام والترقي)، لقد تغلغلت خلايا هذه الجمعية في وحدات الجيش، وبين الموظفين المدنيين، وتمكّنت الجمعية من إجبار السلطان عبد الحميد الثاني في ١٩٠٨/٧/٢٤م على إعلان الدستور، وتفعيل البرلمان الذي كان قد عطّله في سنة ١٨٧٧م.

الحلم الكبير (الجامعة الطورانية)

كان الفكر السياسي لجمعية (الاتحاد والترقي) يؤكّد على المفاهيم الطورانية على المستويين الداخلي والخارجي، والطورانية تسمية تشير إلى وطن الأتراك الأصلي، ونسبة إلى جبل (توران) الواقع شمال شرق إيران، وكان داخل حركة الاتحاد والترقي اتجاهٌ قويٌّ يؤكد أنّ الترك هم من أقدم أمم الأرض وأعرقها مجداً، وأسبقها إلى الحضارة، وأنّهم هم والجنس المغولي واحد في الأصل، ويلزم أن يعودوا واحدا، ويسمون ذلك بـ (الجامعة الطورانية)، وكان شعارهم عدم التدين، وإهمال الجامعة الإسلامية، إلّا إذا كانت تخدم القومية التركية فتكون وسيلة لا غاية.

وهذا الاتجاه يعني أنّه يدعو لإحياء عقائد الترك الوثنية السابقة كالوثني التركي: بوز قورت (الذئب الأبيض)، الذي صوروه على طوابع البريد، ووضعوا له الأناشيد وألزموا الجيش أن يصطف لينشدها، عند كل غروب، وكأنهم يحلّون تحية الذئب محلّ الصلاة مبالغة منهم، في إقامة الشعور العرقي محل الشعور الإسلاميّ، وهذا ما ولّد ردة فعل لدى مكونات الدولة العثمانية من عرب وكرد و أرمن وغيرهم، وارتكبت المجازر بحقّ هذه الشعوب، ممّا وسّع الشرخ بين شعوب المنطقة، وزرع بينها البغضاء تجاه الأتراك، وفيما بينهم حتى في سبيل تحقيق هذه الأيدولوجية.

التزاوج بين الفكر الطوراني والتطرف الإسلامي

إنّ الأيديولوجية التي انتهجتها جمعية (الاتحاد والترقي) و انتهجها الكماليون، ولايزالون ينتهجونها وينتهجها بشكل مقنع بالإسلام زعيم حزب العدالة والتنمية ورئيس تركيا الحالي (رجب طيب أردوغان)، وتتلاقى ضمنيّاً مع فكر الاتحاد والترقّي وحزب الشعب الجمهوري، والقوميين الأتراك، ويمضي قدما في تحقيق الحلم الطوراني حيث يجعل من الإسلام وسيلة، كما أوردنا سابقا للوصول إلى الغايات والأهداف التوسعية، ولتأمين دور محوري للعنصر التركي على الساحة الدولية والإقليمية، وما يحدث على مساحة الشرق الأوسط من سوريا إلى ليبيا وأوروبا والشرق الأدنى، من تدخّل تركي في شؤون الدول والشعوب وابتزاز الغرب بورقة اللاجئين، ودعم للفصائل الجهادية المتطرّفة، وما جلبته من ويلات على أوطانها من سفك للدماء، ونهب وسلب وتغييرات ديموغرافية، كما يحدث في مناطق (عفرين ورأس العين وتل أبيض) السورية وغيرها، وجلب العناصر الأجنبية وتوطينها، بدلاً من أصحاب الجغرافيا والتاريخ، والتذرّع بشعارات براقة؛ مثل حماية المدنيين، ودعم الشرعية، وحماية المسلمين والأقليّات. فإنشاء المنطقة الآمنة؛ ما هو إلّا تدخّل تركي

"ونتيجة للمراسلات السرية بين أعضاء جمعية (الاتّحاد العثماني) في الداخل والخارج، تمّ الاتفاق على توحيد العمل العسكري والسياسي المدني المعارضين ضد السلطان، وتمّ الإعلان عن جمعية الاتحاد والترقي في باريس لتكون إطاراً للعمل المشترك في المعارضة، وجاءت التسمية بهذا الشكل، فكلمة الاتحاد احتفظ بها العسكريون مؤسسي جمعية (الاتحاد العثماني)، وكلمة الترقّي أصرّ عليها الجناح المدني متمثلا بـ (أحمد رضا بك) المتأثر بفلسفة (أوغاست كانت)."

لإكمال ما بدأ به الاتّحاديون الطورانيون من تفتيت واستباحة لأوطان الشعوب.

دور اليهود والماسونية والدول الغربية في تفتيت منطقة الشرق الأوسط

كان تأثير اليهود والماسونية والدول الغربية الطامعة في تركة الدولة العثمانية أمراً واضحاً، حيث أنّ أغلب قيادات جمعية (الاتحاد والترقي) كانوا أعضاء في المحافل الماسونية، وكانت الجمعية تضمّ عدداً كبيراً من اليهود، وبشكل خاص يهود (الدونمة) حتى أنّ معقل الجمعية الرئيسي كان في (سلانيك).

ويقول الكاتب (نيازي بريكس) في كتابه (المعاصرة في تركيا): "إنّ لليهود الأوربيين والمحليين في الدولة العثمانية في القرنين: التاسع عشر والعشرين دوراً ضخماً في إرساء تيار القومية الطورانية، فالعلماء اليهود في الغرب مثل (لون لي دافيد و ليون كاهون

”إنّ الأيديولوجية التي انتهجتها جمعية (الاتحاد والترقي) و انتهجها الكماليون، ولايزالون ينتهجونها وينتهجها بشكل مقنع بالإسلام زعيم حزب العدالة والتنمية ورئيس تركيا الحالي (رجب طيب أردوغان)، وتتلاقى ضمنيّاً مع فكر الاتحاد والترقّي وحزب الشعب الجمهوري، والقوميين الأتراك، ويمضي قدما في تحقيق الحلم الطوراني حيث يجعل من الإسلام وسيلة؛ للوصول إلى الغايات والأهداف التوسعية، ولتأمين دور محوري للعنصر التركي على الساحة الدولية والإقليمية.“

وأرمنيوس فاليري) تصدّوا للكتابة عن أصول الفكرة القومية الطورانية. كما أنّ اليهود المحليين في السلطنة مثل (عمانويل قره صو، وموئيز كوهين، وأبرهام كالانتي) كان لهم ضلع في جمعية الاتحاد والترقّي. وقد ذكر (نيازي بريكس) في كتابه هذا؛ بأنّ (موئيز كوهين) هو مؤسس الفكر القومي الطوراني في الدولة العثمانيّة، وبأنّ كتاب موئيز كوهين هو الكتاب المقدس للسياسة الطورانية، وكان موئيز كوهين نشطاً جدّاً في التعريف بحركة الاتحاد والترقّي في الصحف الأوربية. فقد كان يعرف إلى جانب اللغتين العبرية والتركية عدة لغات أوربية، وبدأ بمقال باللغة الفرنسية يحمل عنوان **(الأتراك يبحثون عن روح قومية)** لقد ساهم موئيز كوهين في التخطيط للسياسة العنصرية الطورانية التي سارت على نهجها جمعية الاتحاد والترقي والكماليين بعد ذلك، وهي السياسة التي شقت شعوب الدولة العثمانية، وأوجدت بينها العداوة والبغضاء، ورمت بالأتراك بين أيدي الدول الغربية الاستعمارية. وكان موئيز هذا لا يَكلّ ولا يَملّ من نشر الفكر القومي التركي لتفتيت الدولة العثمانية، وكتب ثلاثة كتب اعتمدتها جمعية الاتحاد والترقي وهي:

1ـ ماذا يمكن أن يكسب الأتراك في هذه الحرب؟

2ـ الطورانية،

3ـ سياسة التتريك

كما أسهم هذا الكاتب في كتابة الفكر الكمالي بكتابه (الكمالية) وكتابه (الروح التركية) الذي أرّخ فيه تطور العنصر التركي. **لقد قامت جمعية الاتحاد والترقي على إثارة المشاعر القومية لدى الأتراك متأملين بتحقيق الحلم الكبير (الجامعة الطورانية)، وقد تقنعوا بالمناداة بمفاهيم جديدة مثل الوطن والدستور والديموقراطية، وعضوية أعضاء جمعية (الاتحاد والترقي) في المحفل الماسوني في روما أمر يؤكده السفير البريطاني (جيرارد لاوث) فمما جاء في رسالته: أنّ الماسونية الأوربية تسيطر على الاتحاد والترقي، وإنها وراء الإطاحة بالسلطان العثماني لرفضه للصفقة، التي قدمها (تيدور هرتزل) مؤسّس الحركة الصهيونية: (هجرة اليهود إلى فلسطين وتسليمها لهم) مقابل مبالغ ذهبية بالجنيه الإسترليني، والمؤكّد أنّ إلغاء مصطفى كمال أتاتورك الخلافة الإسلامية في بدايات القرن العشرين، والتمكين للثقافة، والدولة العلمانيتين في تركيا كان بتحالف وتوجيه من الماسونية ودول الاستعمار الغربي، وكان على رأس هذه اللعبة (الإطاحة بالسلطان العثماني، وإلغاء الخلافة الإسلامية، والمجازر المرتكبة بحق شعوب الدولة العثمانية من أرمن و كرد وعرب وغيرهم، وتوريط الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وتغلغل الاتحاد والترقي**

في السلطنة ثم قيادتها، ثم التوقيع على معاهدة لوزان مع الحلفاء، مضمونها تنازل أتاتورك عن أراضي الدولة العثمانية لصالح المنتصرين في مقابل قبول قيام دولة تركيا دولة علمانية يقبلها الغرب، بينهم أحد اليهود المحليين اسمه: (عمانويل قره صوه)، وهو محامٍ يهودي إسباني الأصل، وهو من أوائل المشتركين في حركة تركيا الفتاة، وكان مسؤولاً أمام جمعية الاتحاد والترقي عن إثارة الشغب، والتحريض ضد السلطان، وتأمين التخابر بين سلانيك وإستنبول فيما يتعلّق بالاتصالات والحركة، وكان في اللجنة المشكّلة لإبلاغ السلطان عبد الحميد بقرار عزله وتولية شقيقه (رشاد)، وكان نائباً مرة عن سلانيك، ومرتين عن إستنبول، وكان معه في اللجنة كل من (آرام وهو أرمني، وعضو مجلس الأعيان العثماني، وأسعد طوبطاني، وهو ألباني الأصل، ونائب في مجلس المبعوثان عن منطقة – دراج - وعارف حكمت؛ وهو فريق بحريّ، وعضو مجلس الأعيان، وهو كربجي العراق، أما الجيش الذي زحف من سلانيك ودخل إستنبول، وأعمل فسادا وقتلاً ونهباً فيها خلال عملية خلع السلطان عبد الحميد الثاني، كان بقيادة (محمود شوكت)، وهو عربيّ الجنسية، ثم صارت تركيا بقيادة أتاتورك تلهث وراء التطبيع مع الغرب على حساب جيرانها ومواطنيها من عرب وكرد وغيرهم، وكانت ثاني دولة إسلامية بعد إيران الشاه التي قامت بالاعتراف بقيام دولة إسرائيل، وبعد اعتراف الولايات المتحدة بأسبوع فقط، وكانت تركيا رابع دولة بعد أمريكا وفرنسا وإنكلترا تستقبل ملحقا عسكريا إسرائيليا يمارس مهام عسكرية وأمنية على أرضها.

وفي آذار ١٩٥٠م افتتحت تركيا سفارتها في تل أبيب، وكان (سيف الله أسبن) أوّل سفير تركي لدى إسرائيل، وفي نوفمبر ١٩٥٠م ربط الرئيس التركي (جلال بيار) الأمن الإقليمي لتركيا، بالأمن العالمي، وبإسرائيل، واعتبر أنّ تركيا جزءاً من العالم الغربي، ودخلت في حلف الناتو، وظلّت تسعى إلى تنفيذ مشاريعه الاستعمارية في منطقة الشرق الأوسط، ولا زالت تركيا حتّى التاريخ الحاضر تتآمر مع الدول الأجنبية على تفتيت واحتلال وتقاسم النفوذ في منطقة الشرق الأوسط، وتعرقل أيّ عمل من شأنه أن ينهض بالمنطقة إلى مستوى ديموقراطي وتعايشي سلمي، يُبنى على احترام المكوّنات لبعضها، ويحفظ لكلّ مكوّن خصوصيته، وما حربهم ودعمهم للمتطرفين الإسلاميين على مناطق شمال وشرق سوريا، واحتلال المنطقة الممتدة من جرابلس إلى لواء الإسكندرون في سوريا إلّا لمنع حدوث نهضة فكرية وعلمية واجتماعية، تجلب الاستقرار إلى سوريا خصوصاً والشرق الأوسط عموماً.

الختام

نرى ممّا سبق أنّ الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، والدولة التركية في القرن العشرين خضعت لتأثير الدول الغربية، فخوفاً من روسيا القيصيرية ارتمت عند أقدام الألمان والأوربيين، ودخلت في تحالفات وحروب جلبت الويلات لها وللشعوب التي كانت تنضوي تحت سيادتها، وارتكبت أفظع المجازر بحقّ الشعوب حتّى أنّ السلطان العثمانيّ: عبد الحميد الثاني لُقّب بالسلطان الأحمر؛ لكثرة ما سفك من دماء في عصره، هذا اللقب أعطاه إياه الغرب؛ بسبب الإبادة التي قام بها العثمانيون بحقّ الأرمن، علماً أنّ الضحايا لم يكونوا من الأرمن فقط، بل من المناطق التي حدثت فيها هذه المجازر، والتي كان يقطنها الأكراد والآذريّون والعرب وحتى التركمان، إلى جانب الأرمن، ولم يكن الأرمن يحققون نسبة النصف مئوية فيها، لكن بسبب انتمائهم الديني جعلت الدول الغربية المسيحية القضية قضيتهم فقط، وهناك مجازر أخرى ارتكبها الأتراك بحق الكرد في مناطق كردستان، وصلت إلى إبادة وإحراق

> **”إنّ الجيش الذي زحف من سلانيك ودخل إستنبول، وأعمل فسادا وقتلا ونهبا فيها خلال عملية خلع السلطان عبد الحميد الثاني، كان بقيادة (محمود شوكت)، وهو عربيّ الجنسية، ثمّ صارت تركيا بقيادة أتاتورك تلهث وراء التطبيع مع الغرب على حساب جيرانها ومواطنيها من عرب وكرد وغيرهم، وكانت ثاني دولة إسلامية بعد إيران الشاه التي قامت بالاعتراف بقيام دولة إسرائيل.“**

آلاف القرى والبلدات الكردية، وبحقّ العرب في مناطق سوريا ولبنان من قبل جمال باشا الذي لقبه العرب بالسفاح؛ لكثرة ما سفح من دماء الأبرياء والمناضلين، ومازالت طاحونة الدم التركية الطورانية مستمرة في نهجها، وما التقارب الحالي بين تركيا وروسيا إلّا في نفس مصبّ ذلك الفكر الطوراني، والحلم بتحقيق مكانة بين الدول الكبرى، لتركيا في الساحة الدولية، وذلك من خلال الحفاظ على مسافة واحدة بين الروس والغرب دون المساس بمصالحهم المفصلية، وهذه العلاقات التي تبنيها تركيا في سبيل تحقيق الأحلام الطورانية لها تداعيات كارثية على منطقة الشرق الأوسط، فتبقيه بؤرةً للاقتتال البيني، والتأخّر العلمي، والتخلف المعرفي والاقتصادي، وتأجيج الروح الطائفية والعدائية بين المكونات المجتمعية للشرق الأوسط، وتبقيه أرضية خصبة لاستمرار التنظيمات الإرهابية المتطرّفة وتكرار ظهورها، وضمان بقائها ساحة للتدخلات الخارجية.

فمشروع الكتلة التاريخية التركية هو مشروع معادٍ للديموقراطيّة، وهو نابع من الأيديولوجيا الأصلية لجمعية (الاتحاد والترقي) التي كانت مكوّنة من مجموعة متنوعة متأثرة بجذور فكرية غربية لدول استعمارية معظمها فرنسية ألمانية.

المراجع

١- حسن السرات: تحالف الماسونية واليسارية في العالم

٢- أ- مصطفى عاشور: عبد الحميد الثاني وجدل لم ينتهي في ذكرى ميلاده

٣- محمد طلابي: من أجنحة المكر الماسونية

٤- أحمد نوري النعيمي: اليهود والدولة العثمانية

٥- محمد السوسي: السلطان عبد الحميد والتآمر الصهيوني على فلسطين

٦- محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة

٧- سميرة سليمان: ذكرى سقوط الخلافة العثمانية ... إمبراطورية دان لها العالم وخذلها سلاطينها

٨- د -أ — عبد الرؤوف سنّو

٩- محمد عبد الرحمن عريف

١٠- نيازي بريكس: كتابه المعاصرة في تركيا

١١- المستشرق الروسي: فاسيلي بارتوولد - كتابه تاريخ الترك في آسيا الوسطى

١٢- الدكتور عبد الوهاب المسيري : اليد الخفية دراسة عن الحركات اليهودية الهدامة والسرية

١٣- أحمد السباعي أديب سعودي

١٤- نادية محمود كاتبة

"العثمانية الجديدة"... وَهْمٌ أم حقيقة؟



د. محمد نورالدين

باحث في الشأن التركي استاذ التاريخ واللغة التركية بالجامعة اللبنانية

تمهيد

سيتمّ الحديث في هذا المبحث عن الميثاق الملّي واتفاقية لوزان في *24* تموز *1923* ورسم الحدود وما هو البند الأوّل، وكيف تمّت مسألة التمييز بين الهويات، وإنكار التعددية القومية داخل حدود الميثاق الملّي، عبر مطالب وهي كالتالي:

المطلب الأوّل: من الميثاق الملّي إلى لوزان

كيف صار التركيز على الأقلّيّات ذات الخصوصيّة الدينيّة، وعدم الاعتراف بوجود أقليات ذات هويّات عرقية، وكيف نجح مصطفى كمال في هذا في لوزان؟ وكيف تمّ نقل وتهجير المواطنين من أصل كردي، وكيف استطاع أن يرسّخ هذه النظريّة التي مفادها: "هناك عرق واحد يحدّد هوية تركيا، ويرسم حاضرها ومستقبلها هو العرق التركي." وما الهدف من هذا الإنكار؟ وما هو تتريك الاقتصاد؟

المطلب الثاني: الطرح القومي – الإسلامي

(العثمانيّة الجديدة) ما هو الهدف من هذا الطرح؟ ومن أوّل من استخدم مصطلح العثمانية الجديدة في تلك الفترة من المسؤولين؟ وكيف تستفيد العثمانية الجديدة من المحيط الإقليمي لتركيا المضطرب؟

المطلب الثالث: العثمانية الجديدة والشرق الأوسط الكبير

كيف تقاطعت العثمانية الجديدة مع المشروع الأميركي للشرق الأوسط الكبير؟ كيف أصبح أردوغان الرئيس الشريك في قيادة مشروع الشرق الأوسط الكبير؟ ما هو شعار" العمق الاستراتيجي" الذي وضعه أحمد داوود أوغلو عنواناً لكتابه الأشهر؟

المطلب الرابع: العثمانية الجديدة والربيع العربي

لماذا اعتبر ما سمّي بالربيع العربي الفرصةَ الأكبر والأهمّ أمام حزب العدالة والتنمية لتطبيق مشروعه العثماني؟ كيف ولماذا تعاون حزب العدالة والتنمية مع جماعات الإخوان المسلمين في الدول العربية؟ ما هما شِقّا العثمانية الجديدة؟

المطلب الخامس: أدوات العثمانية الجديدة

لماذا تعذّرت السلمية في تطبيق مشروع العثمانية الجديدة؟ والتجاء تركيا إلى التنظيمات المسلحة؟

ما هي العقيدة الأمنية الجديدة للعثمانية الجديدة في محاربة ما تسميه بالإرهاب في معاقله قبل أن تصل إلى تركيا؟

المطلب السادس والأخير: من العثمانية الموسعة الى العثمانية المصغرة: (الميثاق الملّي)

ما هي إشارات أردوغان المتكرّرة إلى حدود "الميثاق الملّي" وربط التواجد "الإرهابي الكردي" بالمناطق التي كانت ضمن الميثاق الملّي عام 1920 أي في شمال سوريا وشمال العراق؟ ما هي التغييرات في البنى الديموغرافية والمالية والتعليمية والدينية والإدارية والأمنية والعسكرية في المناطق التي احتلتها تركيا في سوريا؟ وكيف صارت تنسجم مع توجهات الحكومة التركية؟ كيف صار السعي إلى تطبيق "العثمانية الجديدة" تلقائيّاً الاصطدام بالقوى المتضرّرة من إحياء هذا المشروع؛ وفي مقدمها السعودية وإيران؟ وكيف بدأ أردوغان صراعه مع الوهابية التي وصفها أردوغان مرة" بأنها "إيديولوجيا متطرفة لا تنتمي إلى الإسلام"؟

الاستنتاج النهائي:

كيف لجأ أردوغان إلى (العثمانية المصغّرة) بعد فشل (العثمانية الموسعة)؟ وما هي

> **"إنّ المناطق ذات الأغلبية العربية، والتي كانت تحت حكم الاحتلال المعادي قبل الهدنة في ٣٠ تشرين الأول ١٩١٨، يتقرر مصيرها وفقاً لاستفتاء يجري فيها. وكل الأراضي التي تسكنها، داخل خط الهدنة المذكور وخارجه، غالبية عثمانية- إسلامية مرتبطة فيما بينها بوحدة دينية وعرقية وممتلئة بمشاعر التضحية والاحترام المتبادل، فهي - ولأيّ سبب كلّ - لا تتجزأ."**

حدودها؟

المبحث

في ٢٨ كانون الثاني 1920 أقرّ مجلس (المبعوثان) العثماني ما عرف باسم خريطة "الميثاق الملّي". وهي تعكس نظرة النخبة التركية حينها إلى الحدود الجغرافية للدولة الجديدة بعد انهيار الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى.

وفي معاهدة لوزان في 24 تموز 1923 ثُبتت الحدود الجغرافية لتركيا التي كانت قد رسمتها اتفاقيات مختلفة سابقة مع سوريا والقوقاز واليونان وبلغاريا بين 1920 و 1923.

استغرق رسم الحدود الجديدة للدولة الجديدة حوالي عشرين عاما من العام *1920* إلى العام *1939* عندما سلخ لواء الاسكندرون عن سوريا وضُم إلى تركيا. لكن الفرق شاسع وكبير بين رسم الحدود الجغرافية لتركيا وبين رسم حدودها الإيديولوجية.

في البند الأول من بنود الميثاق الملي الستّة ورد ما يلي:

-1 إنّ المناطق ذات الأغلبية العربية، والتي كانت تحت حكم الاحتلال المعادي قبل الهدنة في 30 تشرين الأول 1918، يتقرر مصيرها وفقاً لاستفتاء يجري فيها، وكل الأراضي التي تسكنها، داخل خط الهدنة المذكور وخارجه، غالبية عثمانية- إسلامية مرتبطة فيما بينها بوحدة دينية وعرقية وممتلئة بمشاعر التضحية والاحترام المتبادل، فهي - ولأيّ سبب كلّ - لا تتجزأ.

في هذا البند تمييز واضح بين الأراضي التي تسكنها غالبية عربية، وبين تلك التي تسكنها جماعات من أصول وغالبية إسلامية عثمانية. أمّا القول بغالبية من أصول اسلامية عثمانية

> **"في معاهدة لوزان في ٢٤ تموز ١٩٢٣ كان التمييز الأكبر ضدّ الأكراد وكلّ القوميّات غير التركية. اعترفت لوزان بالأقلّيّات ذات الخصوصيّة الدينيّة. في تركيا هناك مسلمون وغير مسلمين لكن الاعتراف بوجود أقليات ذات هوية عرقية فهو ما نجح مصطفى كمال في ألا يشار إليه في معاهدة لوزان. فهناك عرق واحد يحدّد هوية تركيا، ويرسم حاضرها ومستقبلها هو العرق التركي."**

فهي تعني في التمييز السابق أنها من أصول تركية.

من هنا تبدأ مسألة التمييز بين الهويات، وإنكار التعددية القومية داخل حدود الميثاق الملّي. ولمّا كانت حدود الميثاق الملّي وفق الخرائط التي اعتمدت حينها تضمّ كل ولاية الموصل أي محافظتي الموصل وكردستان العراق الحاليتين إضافة إلى الشريط الحدودي السوري مع تركيا، فهذا يعني أنّ النخبة التركية حينها كانت تتجاهل الهويات القومية لغالبية القاطنين في شمال العراق وشمال سوريا وأكبرها تلك التي تنتمي إلى العرق الكردي.

لقد اختلف مصطفى كمال مع السلطان العثماني حول قضايا كثيرة، لكنّ الميثاق الملّي رسم حدوده في اجتماع البرلمان في العاصمة إسطنبول، وكانت مركز السلطان، ووفقاً عليه من جانب البرلمان المتبقي من العهد العثماني، وبحضور مصطفى كمال،

والبعض قال: إنّ خريطة الميثاق الملّي وضعها نفسه.

من الميثاق الملّي إلى لوزان

في معاهدة لوزان في 24 تموز 1923 كان التمييز الأكبر ضدّ الأكراد وكلّ القوميّات غير التركية. اعترفت لوزان بالأقلّيّات ذات الخصوصيّة الدينيّة. في تركيا هناك مسلمون وغير مسلمين لكن الاعتراف بوجود أقليات ذات هوية عرقية فهو ما نجح مصطفى كمال في ألا يشار إليه في معاهدة لوزان. فهناك عرق واحد يحدّد هوية تركيا، ويرسم حاضرها ومستقبلها هو العرق التركي.

كان الهدف من هذا الإنكار خلق مجتمع وهوية متجانسين. ولأجل هذا كانت اتفاقية تبادل السكان مع اليونان في لوزان في مطلع العام 1923، بحيث يترك يونانيو تركيا، وهم مواطنون أتراك، تركيا ويذهبون إلى اليونان، ويترك مسلمو أو أتراك اليونان أو تراقيا اليونان ويعودوا إلى تركيا. ولولا ذلك، وباعتراف أحد وزراء حزب العدالة والتنمية في بداية القرن الواحد والعشرين، لما أمكن خلق مجتمع متماسك في تلك الفترة.

في 30 آب 1930 كان رئيس الحكومة التركية مصطفى إينونو يقول في افتتاح خط لسكة الحديد في سيواس: **"إنّ للشعب التركي وحدِه أن يحدد مطالبه وليس أيّة مجموعة قومية أخرى"**. وبعد ذلك في خريف العام نفسه كان وزير تركي يقول: **"إن أيّ عرق ليس نقيا بما فيه الكفاية لا يحق له سوى أن يخدم التركي"**. **وفي وقت لاحق في 1937 كان قائد قمع انتفاضة ديرسيم محافظ ديرسيم عبدالله ألب دوغان يقرّر إطلاق صفة أتراك الجبال على الأكراد.**

وقد رافقت هذا المواقف والتصريحات، عمليات لتغيير البنى العرقية على الأرض بنقل وتهجير المواطنين من أصل كردي من أماكن سكناهم إلى مناطق أخرى من تركيا وإسكان مواطنين من العرق التركي مكانهم وفقاً لقوانين أقرّتها الحكومة والبرلمان، فضلاً عن عمليات القمع الدمويّ لانتفاضات الأكراد على امتداد العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين.

كان هدف الهوية المنسجمة في صلب حراك النخب التركية. مثالاً بارزاً آخر هو العمل على تتريك الاقتصاد من خلال انتزاع أكبر عدد من المكاسب التي كانت بحوزة غير المسلمين من مسيحيين ويهود من خلال فرض «ضريبة الثروات» في العام ١٩٤٢ بنسبة وصلت إلى ٨٠٪ من حجم الثروات التي طالت غالبية التجار اليهود والمسيحيين (نسبتهم ٨٧٪ من الذين استهدفتهم الضريبة) الذي باعوا أملاكهم ودفعوا أموالهم لتسديد الضريبة، ثمّ مغادرة البلاد

كان هدف الهوية المنسجمة في صلب حراك النخب التركية. مثالاً بارزاً آخر هو العمل على تتريك الاقتصاد من خلال انتزاع أكبر عدد من المكاسب التي كانت بحوزة غير المسلمين من مسيحيين ويهود من خلال فرض "ضريبة الثروات" في العام 1942 بنسبة وصلت إلى 80% من حجم الثروات التي طالت غالبية التجار اليهود والمسيحيين (نسبتهم 87% من الذين استهدفتهم الضريبة) الذي باعوا أملاكهم ودفعوا أموالهم لتسديد الضريبة، ثمّ مغادرة البلاد، ومن لم يستطع كانت معسكرات الاعتقال في انتظاره. وكذلك الأمر مع أحداث 6 و 7 أيلول 1955 في شارع الاستقلال بإسطنبول التي استهدفت تهجير الأرمن واليونانيين واليهود.

الطرح القومي – الإسلامي

عندما نذكر **"العثمانية"** كتوجّه وعقيدة، بشقّيها القومي والديني. وهذا ما ترجمه نظام انقلاب 12 أيلول العسكري عام 1980 الذي شرّع ما سمّي بالطرح القومي- الديني الإسلامي لمواجهة النزعات القومية الكردية والشيوعية واليسارية. وقد كان ذلك أساساً قويّاً لظهور مصطلح "العثمانية الجديدة" للمرة الأولى في التاريخ التركي الحديث مع تورغوت أوزال، الابن المدلّل لانقلاب 12 أيلول رغم سعيه الدائم للتمايز عنه، الذي كان أوّل من حاول تطبيق هذه العثمانية من خلال رغبته في احتلال شمال العراق وضمّه إلى تركيا أثناء حرب الخليج الثانية عام 1990. والمفارقة أنّ الهدف الأهمّ كان محاولة ضمّ أكراد العراق إلى الدولة التركية بصيغة فدرالية بهدف إبقاء الأكراد كلهم في تركيا والعراق تحت رقابة الدولة المركزية التركية.

انتشر نقاش واسع في تركيا في مطلع التسعينيات حول ضرورة أن تنتهج تركيا سياسات خارجية جديدة تنسجم مع تفكّك الاتحاد السوفياتي، والآفاق التي خلّقها سقوط الشيوعية. حيث انكشف عالم تركي جديد، وهو ما دفع أوزال إلى إطلاق شعار من "الأدرياتيك إلى سور الصين" الذي جاء في سياق نقاشات العثمانية الجديدة. لكنّ المفارقة أنّ أوّل من استخدم مصطلح العثمانية الجديدة في تلك الفترة من المسؤولين كان النائب عن حزب الرفاه؛ عبدالله غول، الذي أصبح عام 2007 رئيساً للجمهورية، ومن أهمّ مؤسّسي حزب العدالة والتنمية قبل ذلك في العام 2001. قال غول في العام 1992 : **"أرى أن هذه النقاشات حول مفاهيم مثل الجمهورية الثانية أو العثمانية الجديدة صحّية جداً. وأنظر إلى المستقبل بأمل كبير". ومع أن الزعيم الإسلامي الأبرز ورئيس الحكومة السابق نجم**

بدوره كان أحمد داوود أوغلو، في سنواته الأكاديمية، في الثمانينيات والتسعينيات، وقبل أيّ دور سياسي لاحق، يشير بوضوح إلى العثمانية الجديدة كنهج. ففي الأول من كانون الأول ١٩٩٦ اعتبر داوود أوغلو في مقالة له في صحيفة يني شفق أنه « في أساس المشكلات الأهمّ في السياسة الخارجية التركية هو الفشل في الانسجام مع الإرث العثماني من أجل تشكيل أرضية سياسية خارجية ملائمة لرسم سياسات جديدة».

الدين أربكان لم يكن من أنصار العثمانية الجديدة، لكنه كان يواظب على إحياء الموروث العثماني انطلاقا من كونه سلاحاً في وجه المؤسسة العسكرية والعلمانيين، وليس بهدف العمل لمثل هذا المشروع، ومن ذلك إحياؤه السنويّ لذكرى فتح إسطنبول عام 1453.

بدوره كان أحمد داوود أوغلو، في سنواته الأكاديمية، في الثمانينيات والتسعينيات، وقبل أيّ دور سياسي لاحق، يشير بوضوح إلى العثمانية الجديدة كنهج. ففي الأول من كانون الأول 1996 اعتبر داوود أوغلو في مقالة له في صحيفة يني شفق أنه " في أساس المشكلات الأهمّ في السياسة الخارجية التركية هو الفشل في الانسجام مع الإرث العثماني من أجل تشكيل أرضية سياسية خارجية ملائمة لرسم سياسات جديدة".

بقدر ما كان المحيط الإقليمي لتركيا يضطرب

”تقاطعت العثمانية الجديدة مع المشروع الأميركي للشرق الأوسط الكبير. بل كان منظّروها يرَون أنها يمكن أن تكون طليعة الشرق الأوسط الكبير؛ الذي يعني ضرب الدول والقوى المعادية للسياسات الغربية، وتفجير البنى الاجتماعية وربما الجغرافية للمنطقة لضمان الهيمنة الغربية والإسرائيلية عليها. هكذا أعلن أردوغان بالصوت والصورة في العام ٢٠٠٥ أنّه سيكون الرئيس الشريك في قيادة مشروع الشرق الأوسط الكبير.“

بقدر ما كانت تتحرك النزعة العثمانية. هكذا كان بعد حرب الخليج الثانية في التسعينيّات، لا سيّما في العراق، وكذلك بعد أحداث 11 أيلول 2001 وغزو أفغانستان، ثمّ غزو العراق، وكذلك بعد انفجار ما سمّي بالربيع العربي. اضطراب المحيط وتفكّكه كان شرطاً لانبعاث العثمانية، ومحاولة تطبيقها. وهي قاعدة أساسيّة في التاريخ في عمليات تغيير الوقائع والخرائط.

ندم أوزال على عدم المشاركة في حرب تحرير الكويت لمعارضة الجيش ورئيس وزرائه. وكذلك ندم رجب طيب أردوغان؛ رئيس حزب العدالة والتنمية، ولم يكن قد أصبح بعد نائباً ولا رئيس حكومة، لعدم موافقة البرلمان التركي على مذكرة الأول من آذار 2003 لمعارضة الجيش كما العلمانيين، فضلاً عن تمرّد العشرات من نواب العدالة والتنمية على أردوغان، ورئيس الحكومة عبدالله غول. لكنّ التطلع إلى عثمانية جديدة لم يتوقف خصوصاً أنّ ظروف تطبيقها أصبح أكثر مؤاتاة مع وصول حزب يعتنقها ويتبنّاها إلى السلطة وبيده أخذ المبادرة.

العثمانية الجديدة والشرق الأوسط الكبير

تقاطعت العثمانية الجديدة مع المشروع الأميركي للشرق الأوسط الكبير. بل كان منظّروها يرَون أنها يمكن أن تكون طليعة الشرق الأوسط الكبير؛ الذي يعني ضرب الدول والقوى المعادية للسياسات الغربية، وتفجير البنى الاجتماعية وربما الجغرافية للمنطقة لضمان الهيمنة الغربية والإسرائيلية عليها. هكذا أعلن أردوغان بالصوت والصورة في العام 2005 أنّه سيكون الرئيس الشريك في قيادة مشروع الشرق الأوسط الكبير. وإذا كان التحرك التركي العملي في إطار هذا المشروع قد تأخر إلى حين تشكّل ظروف مؤاتية فإن السجالات الفكرية والإيديولوجيا قد بلغت ذروتها مع ازدياد النفوذ الإيراني والشيعي في العراق حيث امتلأت الصحف التركية بعد غزو العراق ولسنوات بسجالات تستحضر من جديد النزاع الصفوي- العثماني.

إن شعار“ العمق الاستراتيجي“ الذي وضعه أحمد داوود أوغلو عنواناً لكتابه الأشهر لم يكن سوى استعادةً للروابط التاريخية والثقافية بين تركيا والمستعمرات التي كانت تخضع للسيطرة العثمانية. وغالباً ما كان يتحدث المسؤولون الأتراك - لا سيما داوود أوغلو - عن ”مسؤوليات تاريخية“ تجاه المجتمعات التي كانت سابقاً تحت السيطرة العثمانية. ويمكن العودة هنا إلى حوارنا مع داوود أوغلو ككبير مستشاري أردوغان، وغول في السياسة الخارجية في خريف العام 2004 في بيروت، ونشرناه في فصلية **”شؤون الأوسط“** في العام 2005.

توالت الإشارات العثمانية للمسؤولين الأتراك في 22 آب 2003 وفي حوار مع ديريا سازاك في موقع "انترنت خبر" يقول وزير خارجية تركيا حينها؛ عبدالله غول في معرض سؤال عن العراق: "تركيا ليس لها مطامع في أي أرض." **"لكن هنا يجب القيام بتحليل عميق. فعندما تقول: لن أتدخّل في شأن العراق فإنك ستدفع الثمن مع الإرهاب. ومن زاوية استراتيجية فإن خنق تركيا داخل الأناضول وحبسها هناك غير وارد. فحدود تركيا الكامنة ليست الحدود الرسمية. فتأثير تركيا ومصالحها يتخطّى حدودها".** سُئل: هل هذه عثمانية جديدة؟ فاستأنف قائلاً: **"كيفما تصفها صفها فالبلقان والشرق الأوسط وآسيا الوسطى مناطق تعنينا عن كثب. فتركيا لا يمكن أن تحبس داخل الأناضول. طبعاً ليس هذا مغامرة. نحن نأخذ دروساً من التاريخ. لكي تكون بسعادة ورفاهية داخل حدودك يجب أن تهتم بما وراء الحدود. فاستقرار العراق مصلحة لتركيا. تركيا ستأخذ ضمن نظام قانوني حقها من نفط العراق. وستكون لتركيا كلمة في إعادة بناء العراق".**

وفي 8 شباط 2007 وفي تلميح لعودة الموصل لتركيا، تحدث وزير الخارجية غول في ندوة في واشنطن قائلا: **"إننا في العام 1926 عندما أعطينا الموصل، إنما لعراق موحد أعطيناها. ونريد اليوم أن نرى أمامنا عراقاً موحّداً".**

في 24 تشرين الثاني 2009 يردّ أحمد داوود أوغلو (وكان أصبح وزيراً للخارجية في أيار 2009) في مؤتمر لنواب حزب العدالة والتنمية على منتقدي سياسات تركيا فيقول: **"نحن لنا إرث باقٍ من العهد العثماني. يقولون عثمانية جديدة. نعم نحن عثمانيون جدد. نحن يتحتم علينا الاهتمام بدول منطقتنا، كما الاهتمام بدول شمال أفريقيا".**

"في ٢٤ تشرين الثاني ٢٠٠٩ يردّ أحمد داوود أوغلو (وكان أصبح وزيراً للخارجية في أيار ٢٠٠٩) في مؤتمر لنواب حزب العدالة والتنمية على منتقدي سياسات تركيا فيقول: « نحن لنا إرث باقٍ من العهد العثماني. يقولون عثمانية جديدة. نعم نحن عثمانيون جدد. نحن يتحتّم علينا الاهتمام بدول منطقتنا، كما الاهتمام بدول شمال أفريقيا»."

وكانت ذروة مواقف داوود أوغلو، تصريحه لصحيفة واشنطن بوست في مطلع كانون الأول من العام 2010 في حوار مع الكاتب جاكسون دايهل وإشارته إلى **"العثمانية الجديدة"** بقوله: **"كما هي إنكلترا زعيمة لكومنولث إنكليزي من مستعمراتها السابقة، فلماذا لا تقيم تركيا من جديد زعامة في الأراضي العثمانية السابقة في البلقان والشرق الأوسط وآسيا الوسطى".**

العثمانية الجديدة والربيع العربي

شكّل ما سُمّي بالربيع العربي الفرصةَ الأكبر والأهمّ أمام حزب العدالة والتنمية لتطبيق مشروعه العثماني. فالمنطقة اضطربت ودخلت في حروب أهلية وتحارب السكان على أسس عرقية ودينية ومذهبية، وليس أفضل من هذا الخلل الكبير للتسلّل والتغلغل بكل الوسائل في المجال الحيوي للعثمانية الجديدة. خصوصاً أنّ أصحاب المشروع العثماني كانوا

> **لم يكن الشرق الأوسط الجديد الذي تريده تركيا سوى العثمانية الجديدة التي جاهرَ بها أردوغان بعد ذلك بشهرين ونيف فقط في ١٥ تموز ٢٠١٢ ردّاً على منتقدِي تدخّل تركيا في الشأن السوري قائلاً: «يسألوننا عن أسباب انشغالنا بسوريا. الجواب بسيط للغاية؛ لأننا بلد تأسس على بقية الدولة العلية العثمانية. نحن أحفاد السلاجقة. نحن أحفاد العثمانيين. نحن على امتداد التاريخ أحفاد أجدادنا الذين ناضلوا...**

في البداية في انسجام مع المشروع الأميركي والغربي الهادف لتفتيت المنطقة جغرافيّاً واجتماعيّاً وتلقائيّاً ضمان أمن إسرائيل.

انخرطت تركيا بصورة مباشرة في الأحداث في تونس ومصر وليبيا وسوريا والعراق واليمن. ويمكن هنا التوضيح أنّ تعاون حزب العدالة والتنمية مع جماعات الإخوان المسلمين في الدول العربية لإحلال وقائع سياسية جديدة، لا يعني أنّ العثمانية الجديدة هي مشروع إخواني صرف. **فالعثمانية الجديدة أكبر وأوسع من المشروع الإخواني وترتبط بإحياء عثمانية ذات شقّين: (إيديولوجي ديني، وقومي تركي) وحزب العدالة والتنمية حليف إيديولوجي حاسم للإخوان المسلمين، لكنه يستفيد من - حتى لا نقول يستخدم - جماعاتِ الإخوان المسلمين لتحقيق عثمانية قومية- دينية.**

رأى رئيس الحكومة رجب طيب اردوغان أنّ **"سوريا ليست مسألة خارجية بل نراها مسألة داخلية تركية، ولن نبقى متفرّجين على ما يجري هناك"**. وفي 27 نيسان 2012 يعلن أحمد داوود أوغلو في خطاب أمام البرلمان عن الهدف المركزي لتركيا: **"سنقود كتركيا موجة التغيير في الشرق الأوسط، وتركيا صاحبة فكر جديد يحدد مستقبل الشرق الأوسط. وستكون تركيا طليعة هذا النظام ورائدته والناطقة باسمه. إنّ ما نريده لتركيا من طموحات هو ما نريده للشرق الأوسط"**.

ولم يكن الشرق الأوسط الجديد الذي تريده تركيا سوى العثمانية الجديدة التي جاهرَ بها أردوغان بعد ذلك بشهرين ونيف فقط في 15 تموز 2012 ردّاً على منتقدِي تدخّل تركيا في الشأن السوري قائلاً: **"يسألوننا عن أسباب انشغالنا بسوريا. الجواب بسيط للغاية؛ لأننا بلد تأسس على بقية الدولة العلية العثمانية. نحن أحفاد السلاجقة. نحن أحفاد العثمانيين. نحن على امتداد التاريخ أحفاد أجدادنا الذين ناضلوا... إنّ حزب العدالة والتنمية هو حزب يحمل في جذوره العميقة روح السلاجقة والعثمانيين"**. ولم يتردّد أردوغان مرة في القول: **"إنّ الشعب السوري أمانة أجدادنا في أعناقنا"**. وفي نهاية تشرين الثاني 2012 كان أردوغان يقول: **"إننا سنصل إلى كل نقطة وصل إليها أجدادنا على ظهور الخيل وسنهتم بها"**.

أدوات العثمانية الجديدة

اتّبعت تركيا كل الوسائل الممكنة لتمكين القوى المؤيدة لها للوصول إلى السلطة. فحيث أمكن لها مساعدتهم سلميّاً كان ذلك، كما في مصر وتونس. وحيث تعذّرت السلمية التجأت تركيا إلى تنظيمات مسلحة متطرفة في العقيدة مثل "داعش" و"النصرة" ومسلّحِي الأويغور والشيشان. وعملت الحكومة التركية

على محاولات شقّ صفوف الجيوش الوطنية في سوريا وفي العراق وفي ليبيا. ثمّ اتبعت سياسات التدخل المباشر كما في العراق في معسكر بعشيقة وغيره، أو في سوريا عبر احتلال مثلث جرابلس- أعزاز - الباب في عملية درع الفرات، ثم احتلال عفرين فاحتلال تل أبيض حتّى رأس العين في عمليّة نبع السلام، إضافة إلى حماية التنظيمات المسلّحة الموالية لها في إدلب أطول وقت ممكن.

وعملت تركيا على تشكيل عقيدة أمنية جديدة وهي محاربة ما تسميه بالإرهاب في معاقله قبل أن يصل إلى تركيا، وذلك عبر إقامة قواعد عسكرية متناثرة في قلب المنطقة العربية (كما في أذربيجان وكوسوفا، إلى الوجود العسكري التركي الدائم في قبرص). فكانت مراكزها العسكرية في العراق، وكانت القاعدة العسكرية في قطر وقبلها في الصومال، واليوم تجري خططاً لتحويل جزيرة سواكن السودانية إلى قاعدة أمنية لتركيا تحت واجهة الترميم الثقافي لحاضرة عثمانية سابقة، في خطوات تعكس تهديداً للأمن القومي السعودي والمصري في إطار الصراع بين تركيا (وقطر) وكل من مثلث السعودية – مصر- الإمارت.

إن التغلغل في المنطقة المجاورة مباشرة للحدود التركية، سواء في سوريا أو العراق، انطلق من مبدأ أنّ "الإرهاب الانفصالي" الكردي في سوريا يشكّل خطراً على الأمن القومي التركي خصوصاً أنّ حزب الاتحاد الديموقراطي الكردي في سوريا ينتمي عقائديا للخط العقائدي نفسه لحزب العمال الكردستاني، ومؤيّد له، وإنّ حزب العمال الكردستاني متمركز في مناطق سنجار العراقية المحاذية لتركيا.

ربما يكون هذا جدّيّاً بالنسبة لتركيا. لكن هؤلاء "الإرهابيين" هم أنفسهم لم يكونوا كذلك عندما اجتمعت تركيا مع زعيمهم (صالح

"اتّبعت تركيا كل الوسائل الممكنة لتمكين القوى المؤيدة لها للوصول إلى السلطة. فحيث أمكن لها مساعدتهم سلميّاً كان ذلك، كما في مصر وتونس. وحيث تعذّرت السلمية التجأت تركيا إلى تنظيمات مسلحة متطرفة في العقيدة مثل «داعش» و«النصرة» ومسلّحي الأويغور والشيشان. وعملت الحكومة التركية على محاولات شقّ صفوف الجيوش الوطنية في سوريا وفي العراق وفي ليبيا. ثمّ اتبعت سياسات التدخل المباشر كما في العراق في معسكر بعشيقة وغيره."

مسلم) في أنقرة في بداية الحرب على سوريا، وهم الذين اتفقت معهم عبر زعيم حزب العمال الكردستاني المعتقل في تركيا عبدالله أوجالان على خطوات جدّيّة لحلّ المشكلة الكردية في تركيا، فكان اتفاق "دولما باهتشه" (في اسطنبول) العلني في 28 شباط من العام 2015 الذي رفض أردوغان الاعتراف به بعد ذلك بأقل من شهرين.

من العثمانية الموسعة الى العثمانية المصغرة: (الميثاق الملي)

منذ خريف العام 2016 بدأ أردوغان يكرّر الإشارة إلى حدود "الميثاق الملّي" وربط التواجد "الإرهابي الكردي" بالمناطق التي كانت ضمن الميثاق الملّي عام 1920 أي في شمال سوريا وشمال العراق. تحدث أثناء معركة تحرير الموصل عن أنّ **"الموصل كانت لنا"**. وفي 11 كانون الثاني 2018 قال أردوغان: **"إن شمال سوريا كانت ضمن حدود الميثاق الملّي، ولن نسمح**

> **إن التغلغل في المنطقة المجاورة مباشرة للحدود التركية، سواء في سوريا أو العراق، انطلق من مبدأ أنّ «الإرهاب الانفصالي» الكردي في سوريا يشكّل خطراً على الأمن القومي التركي خصوصاً أنّ حزب الاتحاد الديموقراطي الكردي في سوريا ينتمي عقائديا للخط العقائدي نفسه لحزب العمال الكردستاني، ومؤيّد له، وإنّ حزب العمال الكردستاني متمركز في مناطق سنجار العراقية المحاذية لتركيا**

بقيامة كيان إرهابي هناك". وفي 24 كانون الثاني 2018 قال: **"لا تنسَوا حساسيتنا تجاه حدود الميثاق الملي. حدود الميثاق هي حيث يوجد الآن الإرهاب في شمال سوريا وشمال العراق"**. أمّا الإعلام الموالي لأردوغان فكان يتحدث عن إحلال **"درع تركي"** بدلاً ممّا وصفه بـ **"الكوريدور الكردي"** في شمالي سوريا والعراق.

وفي السابع من كانون الثاني 2019 تحدّث وزير الداخلية التركي سليمان صويلو في مقابلة تلفزيونية مع محطة "خبر تورك" عن منطقة الميثاق الملّي في معرض حديثه عن اللاجئين السوريين في تركيا وعن الأزمة السورية عموما. قال صويلو حرفيا: **"إن 62% من اللاجئين السوريين في تركيا جاؤوا من أراضي حدود الميثاق الملي. وفي معركة "تشاناق قلعه" (خلال الحرب العالمية الأولى) سقط 1102 شهيدا من سوريا. ومنذ العام 2011 قدّمت تلك الأراضي من أجل بلادهم 71 ألفا و923 شهيدا. ولا يمكن بعد هذا أن نقول ما الذي يفعلونه هنا(في تركيا)؟"**.

وترافقت كل هذه التصريحات مع تغييرات في البنى الديموغرافية والمالية والتعليمية والدينية والإدارية والأمنية والعسكرية في المناطق التي احتلتها تركيا في سوريا، بما ينسجم مع توجهات الحكومة التركية.

إنّ العودة إلى حدود الميثاق الملّي مباشرة، أو غير مباشرة كانت تقتضي ليس فقط إسقاط النظام السوري، بل كذلك إضعاف الدولة المركزية في سوريا (كما في العراق)، وربما إسقاطها. لذا تعمل الدولة التركية على منع عودة الدولة السورية إلى مناطق الاحتلال التركي وفي إدلب أيضا. ففي 16 أيلول 2018 كان أردوغان يتحدث إلى الصحافيين الأتراك في طريق عودته من باكو عاصمة أذربيجان: **"نحن لا نعترف بالنظام السوري، ونحن لا نعترف بالدولة السورية.** إذا كانت بعض القوى (يقصد بها إيران وروسيا) تقول: **إنها في سوريا بناء لدعوة النظام، فنحن هناك بناء لدعوة الشعب السوري.** في إدلب لا يحمل الناس الأعلام الروسية ولا الأميركية بل التركية". وكرّر أردوغان عدم الاعتراف بالدولة السورية كدولة، بعد عودته من قمة "سوتشي" الرابعة في 15 شباط 2019 والتي جمعته مع الرئيسين الروسي فلاديمير بوتين والإيراني الشيخ حسن روحاني. وغالباً ما يكرّر المسؤولون الأتراك أنّهم سيسلّمون لاحقاً المناطق التي يسيطرون عليها في سوريا إلى "أهلها المحليين" خارج أيّ توجه لتسليمها إلى الدولة السورية الشرعية.

إلى ذلك فإنّ السعي لتطبيق **"العثمانية الجديدة"** كان يعني تلقائيّاً الاصطدام بالقوى المتضرّرة من إحياء هذا المشروع، وفي مقدمها السعودية وإيران. فالسعودية بما هي، قبل

التأسيس، مساحة إيديولوجية وهّابية، كانت في تنافس وصدام مع تركيا العثمانية سابقاً، ومع وصول حزب العدالة والتنمية حاليا. وكان الصراع بين الوهابية التي وصفها أردوغان مرة (24 كانون الأول 2017) بأنها **"إيديولوجيا متطرفة لا تنتمي إلى الإسلام"**، وبين توجّهات حزب العدالة والتنمية المتقاطعة مع فكر الإخوان المسلمين، قد توسّع وتفاقم مع وصول الإخوان المسلمين إلى الحكم في مصر وتونس والمغرب وغير ذلك، ثمّ دور السعودية في الاطاحة بحكم الرئيس المصري الإخواني؛ محمد مرسي. وفي حزيران 2017 كان إغلاق القاعدة العسكرية التركية في قطر أحد مطالب السعودية والإمارات ومصر والبحرين لفكّ الحصار عن قطر.

وإلى السعودية ومصر، كانت إيران أيضا من الدول التي تستهدفها العثمانية الجديدة. وقد عبّر أردوغان عن ذلك بوضوح في أكثر من مناسبة مستحضرا القاموس التاريخي باتّهامه إيران بممارسة سياسات **"توسعية فارسية"**. من ذلك تصريح له في 13 تشرين الثاني 2016 عندما حذّر من **"التوسع الفارسي في العراق والتي (إيران) تدعم الميليشيات المسلحة بالمال والسلاح"**. وفي 19 نيسان 2017 قال أردوغان في مقابلة تلفزيونية: **"إنّ إيران تنتهج سياسة انتشار وتوسّع فارسية في المنطقة. تريد أن تتغلغل في سوريا والعراق واليمن ولبنان من أجل تشكيل قوة فارسية في هذه الدول"**. وفي 17 حزيران 2017 قال أردوغان: **"أنا أرى أنّ النشاط الإيراني هو توسّع فارسي وليس صراعا عرقيا ودينيا. وأؤكّد شخصيا أنني أعارض مثل هذه التوسعات الإيرانية"**.

مما تقدم نعتقد أنّ **"العثمانية الجديدة"** مشروع جدّي وحقيقي ترفده التصريحات والمواقف والممارسات. وبعدما فشلت **"العثمانية الموسعة"** على مستوى المنطقة العربية انتقل الخطاب التركي إلى مستوى أدنى من التطلعات في نطاق "عثمانية مصغرة" حدودها حدود **"الميثاق الملي"** لعام 1920. وهذا واضح من خلال حركة سلطة حزب العدالة والتنمية السياسية والعسكرية والاجتماعية في سوريا تحديدا (والعراق إلى حد ما) في السنتين الأخيرتين في إطار تفاهمات أستانا التي أتاحت لتركيا احتلال المنطقة من جرابلس إلى عفرين وصولا إلى إدلب واجتياح شمال شرق الفرات بعملية "نبع السلام" وصولاً إلى منطقة سنجار داخل العراق عند المثلث التركي – السوري- العراقي.

"منذ خريف العام ٢٠١٦ بدأ أردوغان يكرّر الإشارة إلى حدود «الميثاق الملّي» وربط التواجد «الإرهابي الكردي» بالمناطق التي كانت ضمن الميثاق الملّي عام ١٩٢٠ أي في شمال سوريا وشمال العراق. تحدث أثناء معركة تحرير الموصل عن أنّ «الموصل كانت لنا». وفي ١١ كانون الثاني ٢٠١٨ قال أردوغان: «إنّ شمال سوريا كانت ضمن حدود الميثاق الملّي، ولن نسمح بقيامة كيان إرهابي هناك»."

أردوغان في استراتيجية مركز القرار العالمي



حسين عمر

تمهيد :

تدرس هذه الورقة:

- **بروز أردوغان على الساحة السياسية التركية والظروف المساعدة لذلك**
- **دور القوى الرأسمالية فيما بعد تلاشي الإمبراطورية العثمانية.**
- **الأزمة الاقتصادية التي عصفت بتركيا، وكيف تخطتها؟**
- **نوايا أردوغان التي ظهرت للعلن إبّان المقتلة السورية.**
- **نجاح أردوغان في دمج الإسلام السياسي والطورانية الأتاتوركية**

ـ المقالة

لم يكن ظهور أردوغان على الساحة السياسية التركية صدفة، كظهور أية شخصية أخرى ساعدته الظروف في تبوء مكانة داخل مجتمعها، بل كان نتيجة حاجة مركز القرار العالمي الذي استطاع أن يعيد سيطرته على العالم بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وانقلاب (مناهضي) الإمبريالية على أنفسهم، وفتح أبواب دولهم على مصراعيها أمام الشركات والاستثمارات الرأسمالية.

بدأت المذكورة بشكل علني وواضح مع بروسترايكا، واستلام يلتسين السلطة في الاتحاد السوفيتي من خلال انقلاب شكلي مفضوح الأهداف ليصير إلى تفكيك الاتحاد وهرولة الدول (المستقلة) للاحتماء بالمظلة الرأسمالية، وإزالة جدار برلين وتفكيك يوغوسلافيا، ثمّ إنهاء الحكومات اليسارية في أمريكا اللاتينية، وآسيا وأفريقيا، وبذلك تمّ تفكيك النظام المنافس والمعرقل لظهور الرأسمالية المتوحشة التي ظهرت كقوة تدخل سريع يقضي على كل أمل إنساني بسرعة لم يسبق لها مثيل.

والجدير بالذكر بأنّ التحضيرات لوضع خطط للقضاء على النظام المنافس المذكور بدأ مع ظهور النظام نفسه، لأنّه ضيق الأسواق على الشركات التي بدأت تتحوّل إلى عابرة للحدود، للحصول الى الطاقة، والمواد الخام، وخاصة لتصنيع الحديد والنسيج.

اتّجه المركز إلى إذكاء الميول الطائفية والمذهبية الدينية، وبدأت أجهزتها المختصة العمل في المستعمرات لتشكيل تنظيمات عملية تنفذ مخططاتها بعد الانسحاب.

بعد تفتيت الإمبراطورية العثمانية وظهور الدول المختلفة في المنطقة وكذلك بعد انتشار الحكومات الاشتراكية في شرقي أوروبا دعمت وعملت القوى الرأسمالية على تشكيل تنظيم سياسي تحت غطاء ديني ليكون أحد أهمّ ركائز سيطرتها على شعوب المنطقة، والتحكّم بها من خلال تشكيل تنظيم الأخوان المسلمين من قبل الاستخبارات البريطانية، هذا التنظيم الذي وضع على عاتقه وحسب أهدافه الاستيلاء على الحكم في مصر بداية، والانتشار من بعدها، لكنّ الظروف السياسية والاجتماعية للبلد لم تسمح لهم، وقد حاول جمال عبد الناصر تقزيمهم، وبتر أجنحتهم في فترة الخمسينيات، إلّا أنه بقي تنظيماً نشطاً، واستطاع أن يشكّل فروعاً له في العديد من دول العالم، ومنها تركيا التي كانت قبل أعوام العشرينيات دولة ذا نظام إسلامي تحدّد سياساتها وقوانينها من خلال الشريعة الإسلامية، مع استيلاء مصطفى كمال أتاتورك على السلطة والإعلان عن نظام جمهوري، بدا يحكم الدولة من خلال دستور جديد بعيد عن الشريعة، ممّا أدّى إلى ظهور

اتجه المركز الى إذكاء الميول الطائفية والمذهبية الدينية وبدأت أجهزتها المختصة العمل في المستعمرات لتشكيل تنظيمات عملية تنفذ مخططاتها بعد الانسحاب. بعد تفتيت الإمبراطورية العثمانية وظهور الدول المختلفة في المنطقة وكذلك بعد انتشار الحكومات الاشتراكية في شرقي أوروبا دعمت وعملت القوى الرأسمالية على تشكيل تنظيم سياسي تحت غطاء ديني ليكون احد اهم ركائز سيطرتها على شعوب المنطقة والتحكم بهم من خلال تشكيل تنظيم الاخوان المسلمين من قبل الاستخبارات البريطانية

حركات قومية ظاهرياً، وإسلامية الطابع في سياساتها وأنظمتها، دون أن تكون تابعة لتنظيم الأخوان العالمي، والذي أخذ من القاهرة ولندن، ثمّ بعد تشكيل دويلة قطر - الدوحة مقرات لأعمالها . ومن المدن الثلاثة بدأ التنظيم يمد جذوره نحو بقية الدول، وخاصة الإسلامية منها، وتركيا كانت إحدى تلك الدول على الرغم من الرقابة الصارمة للدولة على التحركات الإسلامية، خوفاً من الانقلابات، والعودة إلى نظام السلطنة الذي كانت تدعو إليه العديد من التنظيمات السرية والطرق الصوفية المنتشرة، لكنّ أتاتورك أصدر العديد من القوانين التي نصّت على إنهاء تلك الحلقات والتنظيمات، ليبقى مؤيّدو العودة لعهد السلطنة مجموعات انتشرت ضمن الأحزاب التي تشكلت وخاصة القومية منها، إلى أن ظهر نجم الدين أربقان، واقتحم الساحة السياسية التركية العلنية، وأعلن عن تأسيس حزب الرفاه - فروع تنظيم الأخوان المسلمين التركي - الذي ضم مجموعة من الدعاة وشيوخ الدين، وكان رجب طيب أردوغان أحد القيادات الشابة للحركة، ذو كاريزما تساعده لتبوء مكانة داخل التنظيم.

بدأ أردوغان حياته السياسية كواعظ يخطب في الجوامع والاجتماعات السرية منها والعلنية، واستطاع خلال تلك الفترة توطيد علاقاته مع القيادات الأخوانية في العالم، وخاصة مركز الجذب الجهادي - أفغانستان – حيث غلبدين حكمتيار؛ القائد الأخواني الذي استطاع أن يكون أحد الأطراف المهمّة في الحرب الأهلية الأفغانية إلى جانب تنظيم القاعدة المؤسس حديثاً، ليستقطب أكثر الإسلاميين راديكالية للانضمام الى أتون الحرب الدائرة هناك، وبذلك ظهر تنظيمان سياسيان علنيان يمثلان المذهب السني في تشريعاتهما، وعلى الرغم من الخلافات العميقة بينهما إلّا أنّهما يمتلكان الاستراتيجية نفسها، وهو الاستيلاء على السلطات في الدول المختلفة، وفرض الشريعة الإسلامية فيها.

أصدر أتاتورك العديد من القوانين التي نصّت على إنهاء تلك الحلقات والتنظيمات، ليبقى مؤيّدو العودة لعهد السلطنة مجموعات انتشرت ضمن الأحزاب التي تشكلت وخاصة القومية منها، إلى أن ظهر نجم الدين أربقان واقتحم الساحة السياسية التركية العلنية، وأعلن عن تأسيس حزب الرفاه – فروع تنظيم الأخوان المسلمين التركي - الذي ضم مجموعة من الدعاة وشيوخ الدين، وكان رجب طيب أردوغان أحد القيادات الشابة للحركة.

لم يُخفِ أردوغان منذ ذاك نهاية الثمانينيات، وما بعد ميوله للعودة بتركيا إلى عهد الخلافة – السلطنة - ودعا في العديد من خطبه إلى ذلك، لا بل دعا إلى الجهاد في سبيل تحقيق أهداف المسلمين، واعتقل بسبب ذلك ليسجن خمسة أعوام، لكنّ التحضيرات كانت جارية لتعزيز مكانته، وحتى هو بالسجن ليكون الزعيم الإسلامي الأكثر شعبية في تركيا حتى في فترة وجوده بالسجن، وسبب تلك التحضيرات باعتقادنا؛ هو ولاؤه المطلق لتنظيم - الأخوان المسلمين – ومحاولاته الجدية في سبيل إنهاء فترة العلمانية في تركيا؛ الفترة التي كانت أغلبية الشركات والمؤسسات والمعامل ملكاً للدولة، ولهذا كان مركز القرار العالمي بحاجة الى تفكيك سيطرة الدولة على قطاع الأعمال، وامتلاكه لكاريزما (قومودينية)، تمكّنه من تحقيق أهداف الشركات عابرة الحدود، وفعلا بعد فشل تجربة أربقان تبوّأ أردوغان المركز الأول في

سلم الزعامة الإسلامية في تركيا، وأسس مع رفاقه من حزب الرفاه مع بعض الشخصيات الليبرالية التي ضحك عليها، بتبنيه لها ظاهرياً، ليستطيع في فترة قصيرة بدعم من مركز القرار العالمي الوصول إلى سدّة الحكم في تركيا العلمانية، وبدأ ببيع القطاع العام، وبخصخص الشركات والمؤسسات وقطاع الطاقة والمواصلات، وببدأ بالانقلاب على من دعمه من الشخصيات والمجموعات غير الأخوانية؛ منها الليبراليين وحركة فتح الله كولن - حركة النور الإسلامية.

بدأ بالقضاء على الأفكار الكمالية بالتدريج، وخاصة داخل مؤسسة الجيش التي كانت بمثابة حامي الكمالية ونظريتها الوطنية، وخلال بداية ٢٠٠٢ وحتى ٢٠١٦ استطاع أن ينهي هيمنة الجيش، وأن يحوله إلى تابع أمين لشخصه، وبذلك أصبح أردوغان مطلق الصلاحيات في تركيا، وربط الاقتصاد التركي بالبنوك والشركات العالمية، وهو ما كان مركز القرار العالمي يريد أن تتحول تركيا له، فبعد أن كانت دولة يهيمن عليها العسكر، ويعتمد في تطور اقتصاده على قروض البنك والصندوق الدوليين مع الأولوية للقطاع العام، وتحكّم الدولة بالاقتصاد جعل أردوغان من تركيا سوقاً مفتوحة للاستثمارات العالمية، وبدأ من خلال تهافت الشركات أن يعمل على السيطرة الاقتصادية على دول الجوار، وغزت البضائع المنتجة في تركيا أسواق دول المنطقة كلها، من بلدان الشام والعراق والخليج والشمال الافريقي مما عزز لظهور أردوغان كقائد إسلامي ناجح يلفت الأنظار، وكان لخطاباته وبهلوانياته المعادية لإسرائيل والمدافعة عن الإسلام الدور الأساسي في أن يصبح أمل الإسلاميين في قيادتهم ضد التجبر العالمي - وهو صنيعة ذلك التجبر – وضد إسرائيل وهو الذي تطوّرت العلاقات الاقتصادية والعسكرية في عهده مع إسرائيل إلى مستوى لم يسبق له مثيل في تاريخ العلاقات التركية الإسرائيلية.

كان من الممكن أن تؤدي الأزمة الاقتصادية الصامتة والتي بدأت بالظهور العلني في منتصف العام ١٠١٥ والركود الذي أصاب الاقتصادي التركي و تهاوي سعر الليرة، وإيقاف الآلاف من المستثمرين أعمالهم، إلى انهيار الاقتصادي التركي، وبالتالي سقوط الفاشية الحاكمة، لكن المجموعة المصغرة بقيادة جاريد كوشنر والتي تضم أعضاء من وزارة الخزانة والخارجية والدفاع، ومعهم اللوبي الداعم لاستمرارية نظام أردوغان في أوروبا وإسرائيل وحتى روسيا، تدخلت بسرعة لوقف ذلك التدهور من خلال ارسال تطمينات للخارج والدعم العلني من قبل ترامب ومركل لأردوغان وإبقاء تركيا في حقل الشريك التجاري المفضّل، وعدم مطالبة البنوك الأوروبية بديونها المستحقة، ومحاولة تلك البنوك مساعدة الشركات التركية المدانة من خلال تمديد المهل، وتسهيل الحصول على قروض ترميمية، وقد أدى جعل بوتين من أردوغان شريكا أساسيّاً في سوريا، وشريكا تجاريّاً على كافة الأصعدة، إلى خلق نوع من الاستقرار، وإيقاف تهاوي الليرة، وإزالة المخاوف بانهيار محتمل للاقتصاد التركي، وهذا الأمر أدى إلى أن تفكر شركات عالمية كبرى

تبوّأ أردوغان المركز الأول في سلم الزعامة الإسلامية في تركيا، وأسّس مع رفاقه من حزب الرفاه مع بعض الشخصيات الليبرالية التي ضحك عليهم بتبنيه لها ظاهريا ليستطيع في فترة قصيرة بدعم من مركز القرار العالمي، للوصول إلى سدّة الحكم في تركيا العلمانية، وبدأ ببيع القطاع العام وخصخصة الشركات والمؤسسات وقطاع الطاقة والمواصلات، وبدأ بالانقلاب على من دعمه من الشخصيات والمجموعات غير الأخوانية.

كشركة فولكس فاكن الألمانية العملاقة بفتح فرع لها في تركيا، بعد أن كانت قد ألغت الفكرة قبل عدة شهور.

من الجانب الآخر أدّت التهديدات الأمريكية المتتالية منذ سنتين لتركيا إلى نتائج عكسية، وهذا ما كانت تعلمه المجموعة الأمريكية المصغرة التي تريد تركيا قويّة إسلامية متمردة على الغرب، لتكسب الجماهير الغفيرة من بسطاء المسلمين، لأنّ تلك المجموعة نفسها تعلم مدى كره المسلمين لأمريكا وإسرائيل، وهو ما يستثمرونه بشكل جذاب وفعال، قد ظهر اردوغان في عدة مواقف اهان فيها الرئيس الإسرائيلي وحتى بعض رؤساء الغرب دون أن يردعه أحد.

أظهر أردوغان نواياه بعد اندلاع المقتلة السورية، كي يكون ممثل الإسلام السني السياسي، وقائدها الديني والسياسي دون منازع، وقد ساعده في الترويج لذلك الهدف المرسوم له من قبل مركز القرار العالمي في نيويورك ولندن، وترك له كامل حرية التحرك على كافة الأصعدة من خلال تعزيز العلاقات مع إيران بالتوازي مع زيادة العلاقات الاقتصادية والعسكرية مع إسرائيل، والتي يدّعي معاداته لها، وتعزيز مكانته أكثر، فتوقفت الجهات الاقتصادية العالمية عن الحديث عن الاقتصاد التركي، ولم تعد البنوك العالمية تتحدث عن ديونها على تركيا، فقد غدا الوضع الاقتصادي تحت السيطرة، ولا خوف على مستقبله في المرحلة الحالية.

وما ترديد البعض وخاصة الإعلام العربي عن الاقتصاد التركي، وكأنه منهار ما هو إلا تكرار لأخبار ما قبل سنة من الآن، فهناك مسألة مهمة وهو دليل دامغ على تدخل تلك المجموعة، وكذلك ترامب نفسه لإنقاذ الاقتصاد التركي، وهو أنّ البنك الدولي وصندوق النقد الدولي لم يصدرا بيانات عن حاجة تركيا للقروض، أو التقشّف في السنة الأخيرة، وهو ما يعني بأنّ الثالوث الذي يملك تلك البنوك لا يريد لحكومة أردوغان أن تقع تحت قروضها، وهو بالأساس ينفذ مخططاتها دون الحاجة لفرضها عليه عن طريق الديون.

والجدير بالذكر أنّ تركيا كانت ترزح تحت ديون البنك والصندوق النقد الدوليين بعد الحرب العالمية الثانية وحتى قبل ٢٠٠٩، وكان مركز القرار العالمي يتعامل مع مؤسسة الجيش، ويجعل الحكومات رهينة القروض حتى تبقى تحت السيطرة واضعة نصب أعينها العلاقات القوية التي كانت تربط حكومات الجمهورية التركية المتعاقبة قبل الحرب العالمية الثانية مع الاتحاد السوفيتي؛ حينها وهذا ما خلق شكوك دائمة لدى المركز المذكور من اية حكومة تستلم الحكم في تركيا ولهذا جعلت من الجيش العصى الذي تضرب به رأس الحكومات وتسقطها بانقلابات عسكرية حتى وجدوا ضالتهم في اردوغان المنفذ الصادق لمتطلبات المركز ولهذا بدأت امريكا والغرب بشكل عام غض الطرف عن الجيش والتعامل مع الحكومة ورئيسها كأهم ضامن والموثوق في تمثيل مصالحهم في المنطقة.

حاول الغرب أن يخلق من نجم الدين أربقان حليفاً موثوقاً قبل أردوغان، لكنّه لم يستطع أن يدمج بين الطورانية التي تمثلها الأتاتوركية وبين نهجه الدينيّ، ممّا أدّى إلى عزله، وبقاء الجيش كقوة موثوقة وحيدة من قبلهم، إلى أن ظهر أردوغان كخطيب ديني يجمع بين الطورانية الاتاتوركية والاسلام السياسي وهو ما أدى الى وقوف الغرب معه ودعمه، بعد أن اثبت للمركز بانه قادر على مزج النهجين وتمثيلهما في تركيا .وبذلك انتهى دور المؤسسة العسكرية كقوة موازية للحكومة وبدأ الغرب يعتمد كليا على اردوغان لتمثيل رؤاها ومصالحها ويقود حركة الإسلام السياسي في المنطقة وهو ما لم ينجح اية شخصية إسلامية في تمثيلها كما اردوغان .

أبناء الحوريين والميتانيين لازالوا يُهجرون من "واشو كاني" ويتعرضون للمجازر



لزكين إبراهيم

تعد سورية الطبيعية من أقدم المناطق المأهولة في منطقة حوض البحر المتوسط، إذ توجد فيها مستوطنات ومراكز بشرية تعود إلى أكثر من مليون سنة، وقد ساعد موقعها الجغرافي ومناخها وطبيعتها المتنوعة، من سهول وهضاب وجبال على جذب المهاجرين إليها.

وكما كانت سوريا ملتقى للطرق التجارية كانت أيضاً ملتقى الشعوب المختلفة، وهنا سنركز على منطقتي "سري كانية "واشو كاني" الواقعة أقصى شمال شرق سوريا على الحدود الفاصلة بين سوريا وتركيا الحالية، والتي احتلتها تركيا مؤخراً. وسنذكر لمحة عن أقدم الشعوب والأقوام التي سكنوا فيها والمراحل التي مرت بها عبر التاريخ، وكيف تعرض

أهلها للتهجير والمجازر، ولازالت تواجه التغيير الديمغرافي ويتعرض أهلها الأصليون أحفادُ الحوريين والميتانيين للإبادة والانتهاكات.

الحوريون... أجداد الكرد القدماء ومناطق انتشارهم

من بين الشعوب التي سكنت سوريا منذ العصور التاريخية القديمة واستمروا على هذه الأرض حتى الآن هم الشعب الكردي. فقد سكن أجدادهم الهوريون (الحوريون – الخوريون) والميتانيون سوريا منذ الألف الثاني قبل الميلاد وهم من شعوب جبال زاغروس القديمة (الأجداد القدماء للشعب الكردي). وقد أسس الحوريون في سوريا مملكة قوية سيطرت عليها وعلى معظم المنطقة ردحاً من الزمن.

وقد ظهر الحوريون على مسرح التاريخ في أواخر عهد الدولة الأكادية ٢٣٦٠ –٢١٨٠ ق.م. إذ نجد بين الوثائق واللقى التاريخية المتفرقة من تلك الحقبة إشارات تدل على ظهور بعض الممالك الحورية الصغيرة، إذ وجدت سلالات حاكمة في المنطقة ذات أسماء حورية، كانت ترى نفسها في مستوى ملوك أكاد ((مثل الملك : أَتَل-شِن، أو آري – شِن، الذي يسمي نفسه في أحد النقوش باسم " ملك أوركيش")).

ومعنى كلمة (هوردي- خُرَدي Huradi الجندي اليقظ) وهذا المصطلح قريب من حيث الاسم والمعنى من كلمة الكرد، فإذا كانت كلمة خُرَدي تعني الجندي اليقظ، فإن كلمة (كرد أو كردي في اللغة الآشورية تأتي بمعنى القوي وفي الفارسية القديمة " البهلوية " البطل أو المصارع)، وهي بذلك قريبة من المعنى السابق أو هي صفة من صفات الجندي اليقظ.

وفي منتصف الألف الثانية قبل الميلاد شكل الحوريون مملكة قوية امتدت من جبال زاغروس شرقاً حتى الفرات الأوسط غرباً، وقد اتخذوا من مدينة أوركيش (كري موزان القريبة من مدينة عامودا حالياً) عاصمةً لهم، ونتيجةً لسيطرتهم على الطرق التجارية بين وادي النيل وبلاد الرافدين والأناضول ازدهرت المملكة الحورية بسرعة وازدادت رقعة مساحتها، فسيطرت على معظم سوريا بما فيها ممالك الساحل الفينيقية كمملكة أوغاريت **(ما جعل المصريين في عهد الدولة الحديثة ١٥٧٥ – ١٠٨٧ ق.م يسمون سورية باسم بلاد الحوريين)** ويشكل (تاريخهم – أي الحوريون – صفحات أساسية من تاريخ سوريا القديم خلال الألف الثاني قبل الميلاد. فقد ارتحلوا إليها كغيرهم في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد، واتخذوها موطناً، وأسهموا في تاريخها السياسي والحضاري، وتمكنوا في مطلع القرن الخامس عشر قبل الميلاد بالتحالف مع الميتانيين من تشكيل مملكة قوية، تمركزت في مناطق الجزيرة السورية العليا، وامتدت غرباً في الشمال السوري، وشرقاً في الشمال العراقي.

الدولة الميتانية التي اتخذت من "واشو كاني" عاصمة لها

للعودة الى تاريخ مدينة عريقة مثل واشو كاني (سري كانيه) علينا أن نعود ٣٠٠٠ سنة إلى الوراء في زمن المملكة الميتانية والتي كانت عاصمتها حين ذاك واشو كاني والتي هي نفسها "تل الفخيرية" الواقعة بالقرب من سري كانيه المستحدثة من تلك المدينة العظيمة، والتي يعود تاريخ نشأتها الى نهاية القرن السادس عشر ق.م وامتدت حتى شواطئ البحر الأبيض المتوسط.

وبدءاً من القرن الخامس عشر قبل الميلاد أخذ بعض ملوك الهوريين يلقبون أنفسهم بالميتانيين، وخاصةً أولئك الذين تمركزوا في وادي نهري الخابور والبليخ. وأطلق على هذه المملكة الحورية اسم المملكة الميتانية.

تشير كنية "ميتانني" التي نراها غالباً في سجلات الألف الثاني قبل الميلاد، إلى نظام سياسي ظهر في البلاد الكردية الحالية، بيد عناصر من الهنود ـ الآريين، الذين شكّلوا الطبقة الأرستقراطية في المجتمع الحوري، وعُرف محاربوهم من الفرسان بـ MERYAN (ميران الكردية "السادة، أو الأمراء"). فبعد استقرار هذه العناصر التي أنشأت نظامها السياسي في القرن السادس عشر ق. م، باسم الدولة الميتانية، وتمركزت في السهول الواقعة فيما بين جبال طوروس، وبادية سوريا، حيث خضعت لها الممالك المحلية في أرابخا "كركوك الحالية"، وآشور، وألالاخ، وإيبلا، وحلب.

وقد امتدت المملكة الميتانية على نفس المساحة التي قامت عليها الدولة الحورية بالإضافة إلى فلسطين التي بلغ من قوتها أن امتد حكمها من البحر المتوسط إلى مرتفعات ميديا والتي ترد أحياناً في الوثائق الأكادية والآشورية باسم "خاني جَلْبَت، أو خالي جلبت"، ويدل كلا الاسمين " ميتاني وخاني جلبت " على البلاد الواقعة بين منعطف نهر الفرات والمجرى العلوي لنهر دجلة، وهي تسمية ميتانية أطلقت على معظم مناطق الجزيرة العليا ومركزها منطقة مثلث ينابيع الخابور، ويرجح أن مملكة ميتاني كانت تشمل أيضاً مناطق طور عابدين والسهل المحيط بديار بكر وذلك ما بين تاريخي ١٥٢٠ ق. م وحتى ١٢٤٠ ق. م.

واتخذت الدولة الميتانية من مدينة "واشو كاني" التابعة لمدينة سري كانية الحالية عاصمةً لها وكانت حكومتها إحدى الحكومات الأربع الكبيرة في ذلك الوقت وهي :"الدولة المصرية الحديثة، والدولة الحثية، ودولة كاردونياش، والدولة الميتانية".

وبذلك التأكيد على كون مدينة "سري كانية/ واشو كاني" أول من سكنها هم الآريون الكرد بالإضافة إلى أن المدينة كانت تترنح بين سيطرة الكرد تارة والآشوريين تارة أخرى عليها حتى

"ازدهرت المملكة الحورية بسرعة وازدادت رقعة مساحتها، فسيطرت على معظم سوريا بما فيها ممالك الساحل الفينيقية كمملكة أوغاريت (مما جعل المصريين في عهد الدولة الحديثة ١٥٧٥ – ١٠٨٧ ق.م يسمون سورية باسم بلاد الحوريين) ويشكل (تاريخهم – أي الحوريون – صفحات أساسية من تاريخ سوريا القديم خلال الألف الثاني قبل الميلاد، فقد ارتحلوا إليها كغيرهم في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد، واتخذوها موطناً، وأسهموا في تاريخها السياسي والحضاري"

زمن الخليفة عمر بن الخطاب والذي أمر جيشه بالدخول اليها والسيطرة عليها لتصبح في فترة الحكم الإسلامي وما بعد بيد ثلاث قوميات هم الكرد والسريان والعرب.

الحزام العربي وتأثيراته على ديمغرافية سري كانية

الحزام العربي هو مشروع قررته الحكومة السورية في عام ١٩٦٥، يهدف إلى تفريغ منطقة الجزيرة أو محافظة الحسكة من السكان الكرد الأصليين وتوطين أسر عربية بدلاً عنهم. وامتد الحزام بطول ٣٠٠ كيلو متر وعرض ١٠-١٥ كيلو متر، من الحدود العراقية في الشرق إلى سري كانية/رأس العين في الغرب.

واغتنمت السلطات فرصة بناء سد الفرات ومشروع إعادة توزيع الأراضي الزراعية كي تستولي على أراضي الفلاحين الكرد لإقامة مزارع نموذجية مزودة بالمياه والمدارس والحماية

الأمنية وتمليكها لفلاحين عرب غمرت مياه السد قراهم، وبالفعل تم توطين أكثر من أربعة آلاف أسرة عربية في الشريط الحدودي وتوزيع أكثر من ٧٠٠ ألف دونم من الأراضي المصادرة عليهم. ورافق ما سبق سياسة ممنهجة تهدف إلى طمس الهوية الكردية وصهر الكرد كأفراد في بوتقة القومية العربية، تجلت في قمع الحركة السياسية الكردية واعتقال نشطائها وتغيير الأسماء الكردية التاريخية لمئات القرى والبلدات والتلال والمواقع واستبدالها بأسماء عربية، وحرمان الكرد من التحدث بلغتهم الخاصة ومنع الموسيقا والأغاني الكردية.

وكان لمدينة "واشو كاني" نصيب من هذا المشروع الذي غير من ديمغرافيتها وأوفدت إليها المئات من العوائل العربية مقابل تهجير الكرد منها.

بداية هجمات المجموعات المتطرفة على سري كانية وسبب اختيار هذه المدينة

بعد تحرير وحدات حماية الشعب مدينة سري كانيه عام /٢٠١٢/ من قوات النظام، تعرضت المدينة لهجمات من قبل فصائل "جهادية" تابعة للمعارضة السورية المسلحة، في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام ذاته، واندلعت اشتباكات مسلحة بين الطرفين.

وعلى أثر تلك الاشتباكات، تمكنت تلك الفصائل التي كانت تتزعمها (جبهة النصرة) وكان من أبرز فصائلها كتيبة "غرباء الشام" التي كانت تضم مسلحين من خارج سوريا كتونس وليبيا والمغرب واليمن وغيرها من دول العالم، والتي كانت تدعمهم تركيا، من الاستيلاء على عدد من القرى في ريف المدينة، إلا أن مركزها بقي تحت سيطرة وحدات حماية الشعب.

وبعد نحو شهر من اندلاع الاشتباكات، توصل الطرفان إلى اتفاق لوقف إطلاق النار في كانون الثاني/ديسمبر ٢٠١٢، والذي لم يدم طويلاً.

فمع بداية عام ٢٠١٣ استأنفت الاشتباكات من جديد، وكانت أغلبها تقع في أرياف المدينة، ونادراً ما كانت تصل لداخلها، حتى وصلت إلى داخل المدينة في شهر شباط/فبراير من العام نفسه، حيث انقسمت السيطرة عليها بين الجزء الغربي الذي حافظت الوحدات على السيطرة عليه، والجزء الشرقي الذي خضع لسيطرة الفصائل المرتزقة والجهادية الذين ما كانوا ليتمكنوا من دخول المدينة لولا الدعم التركي وشن الهجمات من خلف الحدود التركية على المدينة.

لم يكن صدفة اختيار «سري كانيه»- التي عرّب اسمها إلى «رأس العين» وتغيرت ديمغرافيتها على مر السنوات السابقة كأول مدينة كردية تخترقها وتحتلها مجاميع جهادية وتكفيرية- إذ أن اختيارها جاء بهدف تحويل الثورة في روجآفا إلى حرب عرقية، بعد أن حوّل الجهاديون الثورة السورية إلى حرب طائفية سنية ــ علوية، وبغية توسيعها إلى حرب عرقية كردية ــ عربية، كما هو مخطط له وفق سيناريو احتلال «سري كانيه» التي تعد خططها في تركيا، فاختيار المدينة لم يأت اعتباطاً، إذ تمثل سري كانية مصغراً عن سوريا، حيث يوجد إلى جانب الكرد، العرب والسريان والأرمن والشيشان والمسيحيون والإيزيديون والمسلمون، ما يجعلها منطقة حساسة وقابلة للتفجير، وهنا أتى اللعب على هذا الوتر بما يفجر المنطقة الكردية ككل. منطقة غدت حاضنة للنازحين واللاجئين الهاربين من الحرب من المناطق العربية السورية.

ورغم أنّ الكرد كانوا مصرين على المضي في ثورتهم السلمية وعدم تحولهم الى طرف في الصراع الطائفي المشتد في البلد، لكن مع شروع المجموعات الجهادية والمرتزقة في الهجوم على المواطنين الكرد ومحاولة استهداف الرموز والأعلام الكردية وحواجز الأمن (الأسايش) الكردية، كان لا بد لوحدات حماية الشعب من

التصدي لها واعتماد خيار الدفاع عن النفس، وصولاً الى طرد هذه المجموعات من المدينة. وتكبدت هذه المجموعات المرتزقة خسائر فادحة في العتاد والأرواح على أيدي القوات الكردية التي أظهرت معركة «سري كانيه» مدى تطور قدراتها ومهاراتها القتالية التي ترفدها بالأساس الروح المعنوية العالية والالتفاف الشعبي الهائل حولها كقوات دفاعية تحمي شعبها وأرضها في وجه كافة الاعتداءات.

وفي شهر تموز/يوليو ٢٠١٣، أطلقت وحدات حماية الشعب حملة تمكنت على أثرها من طرد تلك الفصائل من المدينة وريفها، وصولا إلى المناطق المتاخمة لبلدة تل أبيض/ كرى سبي غرب المدينة.

وفي /١٦/ حزيران/يونيو من عام ٢٠١٥ بدأت الوحدات حملة عسكرية بغية السيطرة على كامل المناطق الحدودية الممتدة من مدينة سري كانيه شرقاً حتى كوباني غرباً، مروراً بمدينة كري سبي/تل أبيض.

الهجمات التركية الأخيرة على سري كانيه والجرائم التي رافقتها

بعد حوالي ٤ سنوات من التحرير والعيش بحالة من الأمن والسلام والتآخي التي شهدتها روج آفا عامة ومدينة سري كانية بشكل خاص، تحت كنف الإدارة الذاتية الديمقراطية، عادت تركيا هذه المرة للتدخل بشكل مباشر وشن هجمات على هذه المدينة ترافقها المجموعات الجهادية والإرهابية من بقايا تنظيم داعش وجبهة النصرة وغيرها من المجموعات التي شكلتها تركيا، حيث بدأت الهجمات بتاريخ ٩ تشرن الأول ٢٠١٩ باستخدام الطيران الحربي والقصف المدفعي، تلاها اجتياح بري للمدينة وريفها لتشكل هجماتها المنطقة الممتدة من سري كانية وحتى مدينة كري سبي/تل أبيض وأريافها، ورافق تلك الهجمات الكثير من

واتخذت الدولة الميتانية من مدينة «واشو كاني» التابعة لمدينة سري كانية الحالية عاصمةً لها وكانت حكومتها إحدى الحكومات الأربع الكبيرة في ذلك الوقت وهي :»الدولة المصرية الحديثة، والدولة الحثية، ودولة كاردونياش، والدولة الميتانية».وبذلك التأكيد على كون مدينة «سري كانية/واشو كاني» أول من سكنها هم الآريون الكرد بالإضافة إلى أن المدينة كانت تترنح بين سيطرة الكرد تارة والآشوريين تارة أخرى

الجرائم والانتهاكات التي ترتقى لجرائم الحرب وجرائم ضد الإنسانية وسنذكر هنا بعضها.

جرائم بحق الطوائف والاثنيات

ربما أكثر المجتمعات المتضررة من الهجوم التركي وهمجية مرتزقته، من بقايا داعش وجبهة النصرة وأحرار الشام المدعومة من تركيا، هم الإيزيديون والمسيحيون في روج آفا وشمال سوريا عموماً، حيث لم تتوقف تهديدات الدولة التركية ومرتزقته بنحرهم وحرق قراهم وإجبارهم على اعتناق دين غير دينهم أو قتلهم، وهذا ما يعانيه اليوم المسيحيون والإيزيديون في كل من سري كانيه وتربه سبيه وديرك.

ففي سري كانيه يتكرر سيناريو المطاردة وارتكاب جرائم الحرب بحق الإيزيديين والمسيحيين مرة أخرى على يد جيش الاحتلال التركي والمرتزقة بعد هجماتهم سنوات ٢٠١٢ و ٢٠١٣ والتي أحرق على أثرها الأخير القرى الإيزيدية وذبح رجال الدين الايزيديين في قرى الأسدية ودردارا

وجافا بسري كانيه وجر جثثهم بالسيارات في طرق المدينة وقراها.

فمنذ بدء الهجوم التركي على شمال سوريا وعلى وجه الخصوص سرى كانيه، أفرغت ١٤ قرية إيزيدية ومسيحية في ريف مدينة سري كانيه وهم كل من: جان تمر الصغيرة وجان تمر الكبيرة، سكريا، الأسدية، مريكيس، دردارا، جافا، سعيد، لزكه، شيخ حمود، خربة بنات، تليلية، الدريعي، تل صخر، بالإضافة الى حي زرادشت شرقي المدينة والذي يقطنه الإيزيديون على وجه الخصوص. وفي تربه سبيه أفرغت ٩ قرى إيزيدية ومسيحية بسبب القصف العشوائي والعنيف عليهم.

وهجر حتى الآن آلاف الإيزيديين والمسيحيين من المدينة وقراها نحو مدينتي تل تمر والحسكة والقرى الإيزيدية في ريف الحسكة هرباً من البطش التركي ومرتزقته، دون أن تتدخل أي منظمة دولية.

وفي تربه سبيه وديرك قصفت قرى تل خاتونك وزورافا وتل جيهان وملا عباس وكركى شامو والحكمية وقصر ديب و برك، بشكل عشوائي لتتضرر تلك القرى بشكل شبه كامل وجرح على أثرها عدد من المدنيين، لينزح أهلها نحو الداخل هرباً من القصف.

وبتاريخ ١٤ تشرين الثاني ٢٠١٩ تعرضت العائلات الأرمنية في مدينة كري سبي/ تل أبيض للتهجير بشكل كامل وأصبحت كنيستهم مقراً عسكريا لتركيا ومرتزقتها.

استهداف وإعدام الطواقم الطبية المحلية والدولية

بتاريخ ٣ تشرين الثاني ٢٠١٩ قصف جيش الاحتلال التركي موكباً لأطباء من منظمة فري بورما رينجر "freeburmarangers" الأمريكية والمختصة بنقل المدنيين والجرحى من مناطق النزاع، بين قريتي الرشيدية والقاسمية بناحية تل تمر، ما أدى لفقدان عضو المنظمة "زاو سنك" وهو من تايلاند ويبلغ من العمر ٣٧ عاماً حياته نتيجة إصابته الحرجة. وإصابة اثنين من أعضاء المنظمة بجروح.

يذكر أنه ووفق القانون الدولي فإن استهداف الطواقم الطبية يعتبر جريمة حرب، وسبق لجيش الاحتلال التركي أن ارتكب مجازر حرب عبر استهداف الطواقم الطبية وإعدام أفراد الطواقم الطبية ميدانياً كما حصل مع ٣ من أفراد الطاقم الطبي في كري سبي/تل أبيض الذين اختطفوا على الطريق أثناء عملهم لنقل الجرحى، وتعرضوا لتعذيب وحشي ثم أعدموا ميدانياً ورميت جثامينهم في حفر الصرف الصحي.

جرائم ضد الإنسانية.. قتل وخطف النساء والتمثيل بجثامينهن

بتاريخ ٢٢ تشرين الأول ٢٠١٩، وبالرغم من وقف إطلاق النار المعلن بحسب الاتفاقية الأمريكية التركية، شن جيش الاحتلال التركي ومجموعاتها المرتزقة هجوماً على أحد نقاط تمركز وحدات حماية المرأة في ريف كوباني. الهجوم أسفر عن استشهاد إحدى المقاتلات في صفوف وحدات حماية المرأة وتدعى "أمارا" ووقع جثمانها بيد مرتزقة تركيا.

حيث أقدم أولئك المرتزقة على التمثيل بجثمان المقاتلة على غرار ما فعلوه سابقاً بجثمان المقاتلة بارين كوباني في شباط/فبراير عام ٢٠١٨ أثناء الهجوم التركي على عفرين، ونشروا مقاطع فيديو وهم يمثلون بجثمانها ويرددون نفس شعارات داعش.

بالإضافة إلى نشر المرتزقة مقاطع فيديو والتقاط صور أثناء أسرهم لمقاتلة جريحة تدعى "جيجك كوباني" ويظهر فيها الأسلوب الوحشي في التعامل مع الأسرى وسط

تهديدها بالذبح على غرار ما كانت تفعل داعش.

اغتيال السياسية هفرين خلف والتمثيل بجثمانها

وفي ظروف قاسية، أقدم مرتزقة تركيا على ارتكاب جريمة بشعة بقتلهم للأمين العام لحزب سوريا المستقبل هفرين خلف على الطريق الدولي M٤ الذي يربط بين محافظتي الحسكة والرقة.

هذا ونشر المرتزقة أنفسهم مقطعاً مصوراً دموياً يوثق إقدامهم وبطريقة وحشية إعدام هفرين وسائقها، وتظهر خلالها جثمان هفرين. ويتحدث في المقطع المصور أحد الإرهابيين قائلاً إن من قام بعملية الاغتيال "لواء السلطان" المدعوم من الجيش التركي والمشارك في المعارك الدائرة. فيما وصفت صحيفة "يني شفق" التركية المقربة من النظام التركي عملية قتل السياسية الكردية بأنها "ناجحة"

بالإضافة إلى إقدام الفصائل الموالية لتركيا على تنفيذ عملية إعدام ميداني بحق ٩ مواطنين بإطلاق النار المباشر عليهم عقب سيطرتهم على الطريق الدولي، وقال مدير المرصد السوري لحقوق الإنسان، رامي عبدالرحمن، في بيان، إن "المدنيين التسعة أعدموا على دفعات إلى الجنوب من مدينة تل أبيض" الحدودية في ريف الرقة الشمالي، وأشار إلى أن بينهم رئيسة حزب كردي محلي.

مجزرة استهداف القافلة المدنية المتجهة إلى سري كانية وقتل الصحفيين

وبتاريخ ١٣ تشرين الأول ٢٠١٩ ارتكب جيش الاحتلال التركي مجزرة بحق المدنيين الذين توجهوا عبر قافلة إنسانية صوب مدينة سريه كانيه المحاصرة وذلك بهدف فتح ممر إنساني للجرحى المحاصرين في المدينة، وأدى استهداف

"لم يكن صدفة اختيار «سري كانيه»- التي عرّب اسمها إلى «رأس العين»، وتغيرت ديمغرافيتها على مر السنوات السابقة كأول مدينة كردية تخترقها وتحتلها مجاميع جهادية وتكفيرية- إذ أن اختيارها جاء بهدف تحويل الثورة في روجآفا إلى حرب عرقية، بعد أن حوّل الجهاديون الثورة السورية إلى حرب طائفية سنية ـ علوية، وبغية توسيعها إلى حرب عرقية كردية ـ عربية، كما هو مخطط له وفق سيناريو احتلال «سري كانيه»"

القافلة وبحسب إحصائية الهلال الأحمر الكردي لفقدان ١١ مدني لحياتهم بينهم صحفيان اثنان وأصيب ٧٤ آخرون بينهم ٧ صحفيين.

والصحفيان اللذان استشهدا هم كل من مراسل وكالة أنباء هاوار سعد أحمد، ومراسل تلفزيون "جرا تي في" محمد رشو، والصحفيون الذين أصيبوا هم كل من "محمد أكنجي مراسل وكالة ANHA وآرسين جاكسو مراسل وكالة فرات، وأمل يونس مراسلة ستيرك تي في، ودلسوز دلدار مراسل نورث بريس والمراسلين بيرجان يلدز وروجبين آكين، وعبد الرشيد، ومحمد محمد".

وجرت هذه الجرائم تحت رعاية تركيا رغم أن المادة ٩٧ من البروتوكول الإضافي الأول من اتفاقية جنيف تقول :"يعد الصحفيون الذين يباشرون مهمات مهنية خطرة في مناطق المنازعات المسلحة أشخاصاً مدنيين" أي تجب حمايتهم

> **بعد حوالي ٤ سنوات من التحرير والعيش بحالة من الأمن والسلام والتآخي التي شهدتها روج آفا عامة ومدينة سري كانية بشكل خاص، تحت كنف الإدارة الذاتية الديمقراطية، عادت تركيا هذه المرة للتدخل بشكل مباشر وشن هجمات على هذه المدينة ترافقها المجموعات الجهادية والإرهابية من بقايا تنظيم داعش وجبهة النصرة وغيرها من المجموعات التي شكلتها تركيا، حيث بدأت الهجمات بتاريخ ٩ تشرن الأول ٢٠١٩**

وعدم الاعتداء عليهم عسكرياً.

استخدام الدولة التركية الأسلحة المحرمة دولياً

تصاعدت المقاومة في مواجهة الهجمات التي أطلقتها دولة الاحتلال التركي ضد مناطق شمال وشرق سوريا في التاسع من شهر تشرين الأول، ومع تصاعد المقاومة بشكل يومي، أقدم الاحتلال التركي على استخدام الأسلحة المحرمة دولياً في اليوم الثامن للمقاومة في مدينة سريه كانيه، حيث لوحظ على أجساد عدد من الجرحى الذين نقلوا إلى مشافي قامشلو والحسكة آثار حروق تشير إلى تعرضها لأسلحة محظورة دولياً. وبحسب المعاينات الطبية في مشافي شمال وشرق سوريا، فإن آثار الحروق ناجمة عن استخدام أسلحة محرمة، وناشدت المؤسسات الطبية المؤسسات الدولية بإجراء تحقيقات معمقة في الموضوع.

بحسب تقرير لجمعية حقوق الإنسان، وهو التقرير الخاص بالأسلحة الكيمياوية والصادر عام ٢٠١١ فإن الجيش التركي استخدم أسلحة كيمياوية محرمة ضد مقاتلي حزب العمال الكردستاني في الفترة الواقعة بين أعوام ١٩٩٤ و ٢٠١١.

وبحسب التقرير فإن الجيش التركي استخدم أسلحة بيولوجية ٤٦ مرة، وتم رصد مقتل ٤٣٧ شخصاً خلال تلك الهجمات.

حصيلة القتلى والجرحى المدنيين التي أعلنت عنها هيئة الصحة

وبحسب الإحصائية التي نشرتها هيئة الصحة بشمال وشرق سوريا في اليوم الخامس من الهجمات التركية على شمال وشرق سوريا أكد بأن عدد جرحى هجمات الاحتلال التركي وصل إلى ٦٧٧, أما الشهداء فعددهم ٢٣٥ بينهم ٢٢ طفل.

هذا وارتفعت الحصيلة فيما بعد إلى أضعاف ذلك العدد، ولازال يرتفع باستمرار نتيجة استمرار الهجمات وارتكاب المجازر بحق المدنيين في كل من سري كانيه وكري سبي.

وجاءت هذه الجرائم أيضاً برعاية الدولة؛ تركيا رغم أنها من الموقعين على اتفاقية جنيف الرابعة، التي وقعت عليها ١٩٦ دولة في أغسطس/آب ١٩٤٩، والتي تحمي بموجبها الأشخاص المدنيين في وقت الحرب، وتحظر إصدار أحكام عليهم أو تنفيذ إعدامات في حقهم. ولكن ورغم ارتكاب تركيا وفصائلها جرائمها تلك وخرقها للقوانين الدولية، ولكن لم يتم محاسبتها حتى الآن.

أضرار هائلة في القطاع التعليمي وحرمان آلاف الطلبة من مدارسهم

هذا وكشفت هيئة التربية والتعليم لشمال

وشرق سوريا خلال بيان أصدرته بعد ٩ أيام من بدء العدوان التركي على المنطقة عن عدد المدارس التي استهدفها جيش الاحتلال التركي في كل من إقليمي الجزيرة والفرات. وبحسب الحصيلة أن عدد المدارس التي تم استهدافها خلال تسعة أيام منذ بدء العدوان عددها ٨١٠ مدرسة والتي أصبحت خارج الخدمة بسبب العدوان التركي وتدمير ٢٠ منها بشكل كامل، ما أدى إلى توقف العملية التربوية حيث أصبح أكثر من ٨٦٠٠٠ طالب وطالبة محرومين من التعليم وتوقف ٥٢٢٤ معلم ومعلمة عن العمل التربوي.

وفي نفس السياق كانت منظمة اليونسيف قد أصدرت بياناً على خلفية الهجمات التركية أكدت فيها أن أكثر من ٨٠ ألف طفل نزحوا نتيجة هجمات تركيا على شمال وشرق سوريا، واصفة ما يجري "بأحد أسوأ الأزمات الإنسانية في العالم".

انتهاكات بحق المواقع الأثرية

طوال عام ونصف من سيطرة الاحتلال التركي ومرتزقته على منطقة عفرين السورية، تم ارتكاب الكثير من عمليات النهب والسرقة والتخريب بحق العديد من الممتلكات الثقافية والمواقع الأثرية الهامة والعريقة. والآن هناك أكثر من ٤٠موقعاً أثرياً في مناطق سري كانييه/رأس العين وكري سبي/تل أبيض مهددة بالتخريب والسرقة من قبل فصائل المرتزقة التي جندها الاحتلال التركي لتدمير ونهب آثار الحضارة السورية.

وتعتبر هذه المواقع الأثرية من أمهات المواقع الهامة في سوريا على غرار: تل حلف وتل الفخيرية والصبي أبيض وحمام التركمان ومدينة الفار وتل خويرة، وهذه المواقع جميعها سبق وعمل فيها بعثات أثرية مختلفة هولندا وألمانية وسورية.

> **"فمنذ بدء الهجوم التركي على شمال سوريا وعلى وجه الخصوص سرى كانيه، أفرغت ١٤ قرية إيزيدية ومسيحية في ريف مدينة سري كانيه وهم كل من: جان تمر الصغيرة وجان تمر الكبيرة، سكريا، الأسدية، مريكيس، دردارا، جافا، سعيد، لزكه، شيخ حمود، خربة بنات، تليلية، الدريعي، تل صخر، بالإضافة الى حي زرادشت شرقي المدينة والذي يقطنه الإيزيديون على وجه الخصوص."**

فرار المئات من الدواعش وعوائلهم ونشاط للخلايا النائمة

بالتزامن مع شن تركيا الهجمات على شمال وشرق سوريا تمكن ٧٨٥ عنصراً من منتسبي داعش الأجانب الفرار من مخيم عين عيسى بتنسيق مع مجموعة من مرتزقة تركيا وبغطاء من القصف التركي ومساندة من الهجوم التركي ومرتزقته الذين شنوا هجوما عنيفا على المخيم وقيام هؤلاء العناصر الداعشية بالهجوم على حراسة المخيم وفتح الأبواب للفرار.

فيما ازدادت خلال هذه الفترة نشاط خلايا داعش في عموم شمال وشرق سوريا وازدياد عدد التفجيرات والاغتيالات، وكان ابرزها التفجيرات التي طالت مدينة قامشلو والتي راح ضحيتها أكثر من ٤٥ شخص بين قتلى ومصابين. بالإضافة إلى تفجيرات متفرقة في الحسكة والرقة ودير الزور.

> **يذكر أنه ووفق القانون الدولي فإن استهداف الطواقم الطبية يعتبر جريمة حرب، وسبق لجيش الاحتلال التركي أن ارتكب مجازر حرب عبر استهداف الطواقم الطبية وإعدام أفراد الطواقم الطبية ميدانياً كما حصل مع ٣ من أفراد الطاقم الطبي في كري سبي/تل أبيض الذين اختطفوا على الطريق أثناء عملهم لنقل الجرحى، وتعرضوا لتعذيب وحشي ثم أعدموا ميدانياً ورميت جثامينهم في حفر الصرف الصحي.**

هذا وأدانت دول عربية وغربية العملية العسكرية التي قالت إنها تفاقم الصراع الدائر في سوريا وتزيد مخاطر هروب أسرى تنظيم داعش الإرهابي من المعسكرات التي يحتجزون بها وسط الفوضى.

وبالفعل أنعش العدوان التركي على شمال سوريا تنظيم داعش وبدأت خلاياه في قامشلو والحسكة تنفذ هجمات بسيارات مفخخة بين المدينتين بين الحين والآخر.

نزوح قسري لأكثر من ٣٠٠ ألف إنسان

وعلى خلفية المعارك المتواصلة بعنف بمحاور عدة بالإضافة للقصف الجوي والبري، كشفت الإدارة الذاتية الديمقراطية لشمال وشرق سوريا عن إحصائيات لعدد النازحين الذين وصل عددهم لنحو ٣٠٠ ألف مدني نزحوا نحو عمق المنطقة، وسط أوضاع إنسانية صعبة تعيشها المنطقة من التصاعد الكبير في أعداد النازحين ووجهتهم، وخروج محطات تغذية كهرباء عن الخدمة بسبب القصف والاشتباكات.

وبنتيجة النزوح فإن عدة مدن وبلدات وقرى باتت خالية من السكان تماما، والكثير من النازحين يفترشون العراء لعدم وجود مكان يذهبون إليه وعليه بادرت الإدارة الذاتية وبإمكاناتها المحدودة افتتاح مخيمات للنازحين في كل من الحسكة وريف عين عيسى بمنطقة الرقة، بالإضافة إلى إيواء آلاف العوائل في المدارس، وسط تقاعس للمنظمات الإنسانية والدولية في تقديم الدعم اللازم

تعرض المناطق المحتلة للتغيير الديمغرافي على يد تركيا هذه المرة

بعد احتلال تركيا لمنطقتي سر ي كانية وكري سبي عمدت لنشر المجموعات المرتزقة التي تم تأسيسها وتنظيمها من قبل المخابرات التركية مثل "مجموعة السلطان مراد، السلطان سليمان شاه، الفاتح سلطان محمد الفاتح، المنتصر بالله، سمرقند والحمزات" نشر هذه المجموعات في المواقع الاستراتيجية بالمناطق المحتلة وخاصة على المعابر الحدودية التي تعتبر مناطق استراتيجية بالنسبة لحركة العبور.

وجاءت هذه السياسة من قبل الدولة التركية تمهيداً للعمل على استقدام وجلب بقايا عناصر مرتزقة داعش والذين ينتمون إلى تركمانستان وتركستان وطاجيكستان والأوغور، من أجل إعادة تجربة عفرين، وتوطينهم في سري كانية وكري سبي.

الدولة التركية تعلم جيداً أن بقاءها في هذه المناطق ليس دائمياً، ولذلك فإنها تسعى لتنفيذ مشروعها القائم على إنشاء ما يسمى بـ **"الحزام التركماني"** في عمق ٥ كم في الأراضي السورية المحاذية للحدود التركية.

خلال الهجمة الاحتلالية عمدت المخابرات التركية بشكل خاص إلى حماية ورعاية

المجموعات المرتزقة التركمانية، فيما تم نشر المجموعات التي تضم عناصر عربية على جبهات الحرب الأمامية.

إنّ مساعي ومشاريع الدولة التركية الرامية إلى بسط سلطتها ونفوذها في سوريا والعراق ليست مشاريع ومخططات جديدة. في عام ٢٠١٤ عندما اشتدت هجمات مرتزقة داعش في العراق، حاولت المخابرات التركية تسليح "الجبهة التركمانية العراقية، واستخدامها في السيطرة على العراق وإضعاف سلطة وسيطرة الكرد في كركوك، وسعت على الدوام إلى خلق التوتر في المنطقة عبر مرتزقة داعش.

وسعت الدولة التركية على الدوام إلى إثارة موضوع عدد السكان التركمان في العراق، وحاولت عبر اللجنة التركمانية التدخل في الشؤون العراقية الداخلية.

ورغم أن الدولة التركية تدعي أن هناك الملايين من التركمان يعيشون في العراق، إلا أن الإحصائيات الرسمية للحكومة العراقية تؤكد أن نسبة التركمان في العراق تبلغ حوالي ٧٪ فقط من عدد السكان، مما يعني أن عددهم يبلغ حوالي ٢٥٠ ألف نسمة فقط.

وبحسب إحصاء عام ٢٠٠٤ فإن نسبة عدد السكان في سري كانيه تبلغ نسبة الكرد ٦٠٪ فيما تبلغ نسبة العرب ٣٥ ٪ إضافة إلى وجود الأرمن والسريان، كما يعيش في المدينة عدد من الشيشان الذين هاجروا إليها في القرن التاسع عشر.

في كري سبي يبلغ عدد سكان المدينة حوالي ١٠٠ ألف نسمة، تبلغ نسبة التركمان في المدينة ١٠ إلى ١٥ بالمائة، إضافة إلى نسبة قليلة من الأرمن.

"هذا ونشر المرتزقة أنفسهم مقطعاً مصوراً دموياً يوثق إقدامهم وبطريقة وحشية إعدام هفرين وسائقها، وتظهر خلالها جثمان هفرين. ويتحدث في المقطع المصور أحد الإرهابيين قائلاً إن من قام بعملية الاغتيال «لواء السلطان»، المدعوم من الجيش التركي والمشارك في المعارك الدائرة. فيما وصفت صحيفة «يني شفق» التركية المقربة من النظام التركي عملية قتل السياسية الكردية بأنها «ناجحة»"

المصادر والمراجع

ملفات وتقارير من وكالة أنباء هاوار ANHA

- كتاب الحضارات القديمة ب جزئيها الاول والثاني - الكاتب: ف . دياكوف - س . كوفاليف (ترجمة: نسيم اليازجي).

- صفحات من تاريخ الكرد في سورية حتى العهد الإسلامي للكاتب فارس عثمان -٢٠١٤-٠٥-٠٩

- الحوار المتمدن-العدد: ٤٧٨٢ - ٢٠١٥ / ٤ / ١٩ - ٢٢:٢٨ الحضارات التاريخية في غرب كوردستان (كوردستان سوريا) والمُدن الموجودة فيها ج ١ للكاتب "ديلان شرف"

- «سري كانيه» (رأس العين) توحّد أكراد سوريا--- مقالة في صحيفة الأخبار للكاتب شيرزاد عادل اليزيدي الخميس ٢٩ تشرين الثاني ٢٠١٢

البوتينيّة... ودولةُ الإيديوقراطيّة



رامان آزاد

كان سقوط الاتحاد السوفييتيّ مدوّياً، انعكست تداعياتٍ على خرائط النفوذ والتموضع السياسيّ على مستوى العالم، وأدخلت روسيا كبرى الدول في حالةِ ارتباكٍ ومشاكل اقتصاديّة وعلى مشارف «الأطلسة» التي غرقت فيها دول شيوعيّة في شرق أوروبا. وشكّل وصول فلاديمير بوتين إلى السلطة اللحظة الصفريّة للتحوّل، لتطرحَ النظرية «الأوراسيّة»، التي تجسّدها مبادئُ «البوتينيّة السياسيّة»، ولتعودَ روسيا تدريجيّاً إلى ساحةِ الصراعِ الدوليّ، وتتجّه شرقاً نحو آسيا الوسطى فتكرّس التحوّلَ نحو أوراسيا، ويُعادُ النظرُ في العقيدة العسكريّة الروسيّة، وتُرسم ملامحٌ جديدةٌ للنظامِ العالميّ وتُصاغُ مجدداً التكتلاتُ الإقليميّةُ والتحالفاتُ الدوليّة، ويتأجج الصدامُ الجيوسياسيّ بين الأوراسيّة والأطلسيّة في مناطقَ عدةٍ من العالمِ مثل سوريا وأوكرانيا.

انهيارُ الاتحادِ السوفييتيّ وتغيّرُ خرائطِ النفوذِ

في منتصف ليلة ١٩٩١/١٢/٣١، انتهى وجودُ الاتحاد السوفييتي، الذي نشأ على أنقاض الإمبراطورية الروسية عام ١٩٢٢، في أعقاب الثورة الاشتراكية ١٩١٧. سبق ذلك عامان من التفكّكِ الذي أخذ وتيرة متسارعة، ووصل الذروة باستقالة ميخائيل غورباتشوف من رئاسة الاتحاد السوفييتيّ. وفي مطلع العام الجديد، ١٩٩٢، أُنزل العلم السوفييتيّ الأحمر ذي المطرقة والمنجل من على الكرملين، لتنتهيَ دولةُ لينين وستالين، القوة الشيوعية العظمى بأهدافها الثوريّة وشعاراتها المناصرة للبروليتاريا واستبداديّة الدولة، ودخل العالم فعلياً مرحلة القطب الواحد، بقيادة واشنطن.

بانهيارِ الاتحادِ السوفييتيّ انتهت صلاحية الخريطةِ التي رُسمت في مؤتمر يالطا في ١٩٤٥/٢/١١، بخروج أحد القطبين من مضمار التنافس ونهاية الحرب الباردة. وخابتِ الآمالُ بتقديمِ الغرب تنازلاتٍ بالمقابلِ والانتقالِ إلى صيغةِ تقاربٍ، ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل. فالتنازلات كانت من جانبِ الاتحادِ السوفييتيّ فقط، وانتهز الغربُ الفرصةَ لتعزيز أيديولوجيته الرأسمالية والليبرالية وتوسيع إطار نفوذه، واتسع نطاق حلفِ الناتو بانضمامِ بلدان أوروبا الشرقية إليه (رومانيا، المجر، جمهورية التشيك، سلوفاكيا، بلغاريا، بولندا، سلوفينيا، كرواتيا)، ثم انضمّت دولُ البلطيق من تركةِ الاتحادِ السوفييتيّ (إستونيا وليتوانيا ولاتفيا). فتغيّرت خارطةُ النفوذِ في العالمِ، ودانت للقطبِ الواحدِ، **وانفردت واشنطن بقيادةِ العالمِ. وصاغتها بشكلٍ يخدم مصالحها الاستراتيجية**، والتي كان أهمّها الحفاظُ على الهيمنةِ المطلقةِ، ومواجهة مناوئيها بالعقوباتِ الاقتصاديّةِ والتدخلاتِ العسكريّةِ المباشرة وغير المباشرة، ثمّ بتشجيعِ تصديرِ الوصفةِ الديمقراطيّةِ فيما سُمّي بـ"الثورات الملوّنة".

عانت روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفييتيّ مشاكلَ اقتصاديّةَ وسياسيّةً واجتماعيّةً جمّة، كان لها تأثيرها الواضح على أداءِ وفعاليّة سياسة موسكو الخارجيّة، وكان استيرادُ القمح مؤشراً في غاية السلبيّة في بلدٍ كان فيما مضى من أوائلِ المصدّرين.

بعد تفككِ الاتحادِ السوفييتيّ ساد المجتمع الروسيّ ما يُسمى **«أطلسة روسيا»** وانتشرتِ القيم الغربيّة والأمريكيّة. ودخلتِ البلادُ أزماتٍ اقتصاديّةً، أخطرها شدّة التسعينيات وفق تسمية الروس، وسادت سياسة رأسماليّة قاسية وفقرٌ مدقعٌ وجريمةٌ طاغية. وتحوّلتِ السياسةُ الخارجيّةُ الروسيّةُ، فأبدت على مدى عقدِ التسعينات من القرن الماضي، توافقاً واستجابةً مع المواقفِ الأمريكيّةِ، وانسحبت روسيا من بعضِ المواقعِ التي كان وجودُها فيها يمثّلُ نوعاً من التحدّي الموجّه للولاياتِ المتحدةِ الأمريكيّةِ لاسيما في منطقة الشرق الأوسط. وكانت روسيا من الدولِ التي حاولت استثمارَ أحداثِ ٢٠٠١/٩/١١ للتقاربِ مع الولاياتِ المتحدةِ، فراحت تقدّمُ نفسَها على أنّها الشريكُ والحليفُ الذي يعتمدُ عليه في محاربةِ ما يُسمّى الإرهابِ، وفي سبيل ذلك قدّمت روسيا تنازلاتٍ سياسيّةً وأمنيّةً وعسكريّةً في آسيا الوسطى، كان البعضُ يعتبرها إلى عهدٍ قريبٍ من المحرّماتِ في السياسةِ الروسيّةِ.

كان انهيارُ المعسكرِ الشيوعيّ وتقسيمُ الاتحادِ السوفييتيّ ضربةً مباشرةً في صميمِ الهويةِ الثقافيّةِ والسياسيّةِ والاقتصاديّةِ الروسيّةِ، بالمقابلِ أعلن المعسكر الغربيّ الأمريكيّ-الأوروبيّ انتصارَ أيديولوجيته السياسيّةِ الليبراليّةِ بكلِّ مفرداتها؛ ما حدا بكلِّ دول الجوار أن تعدّلَ سياساتها الخارجيّةِ وتموضعها وفق هذا المتغيّر، وتدخلَ منطقةُ الجوارِ الروسيّ على اتساعِها تحولاتٍ شاملةً.

بدأت روسيا بحثاً محموماً عن أيديولوجيا جديدة تحلّ مكان الشيوعية بعد سقوطها. وانخرط الكرملين رسمياً في عهد بوريس يلتسن بالبحث عن هذه الأيديولوجية، أو عقيدة قومية جديدة. وكان البحث يتمحور حول الديمقراطية وتداول السلطة وحقوق الإنسان وغيرها من القيم السائدة في المجتمعات المعاصرة، التي كان يسود الاعتقاد بأن روسيا تتهيّأ للانتقال إليها.

خلال عامي ١٩٩٥-١٩٩٧، من مرحلةِ البحثِ تعرضت ثروات روسيا لنهبٍ أوليغارشيّ متوحشٍ عبر الخصخصةِ وصُودرت مدخرات الشعبِ الروسيّ عبر التضخمِ، واستشرى الفسادُ، وانهار الجيشُ الروسيّ والقدرة العسكرية، وفقدت روسيا هيبتها العسكرية.

في ظلِّ الارتباكِ وعجزِ النخبِ السياسيّةِ الروسيّةِ على التوافقِ على صيغةٍ انتقاليّةٍ تنتشل البلاد من حالة الارتباك وتعبُرُ بها إلى الدولةِ المعاصرةِ، دفعتِ الأجهزةُ الأمنيّةُ فلاديمير بوتين للسلطةِ، ولتبدأ معه رحلةُ العودةِ إلى المربعِ السوفيتيّ الأول بكلّ أدواتهِ المعروفة بإدارة السلطة، وصُودر العملُ السياسيّ بالمجتمع.

في مطلعِ الألفيّة طرحتِ الطبقةُ الحاكمةُ الحالية في روسيا **"الديمقراطيّة الموجّهة"**، وفي عهد ديمتري ميدفيدف **"الديمقراطيّة السياديّة"**. لكن عام ٢٠١٢ **وصف ميدفيديف نفسَه الديمقراطية البرلمانية بأنها "كارثة لروسيا"**، **وتأرجّحت روسيا بين عدة طروحات في انتمائها وهويتها القاريّ والعرقيّ والدينيّ، فمن القول "بأوروبا الكبرى"، إلى القولِ إنّ روسيا "أكبر من أيّةِ عقيدةٍ قوميّةٍ"، ثمّ إلى فكرة "الإمبراطوريّة الأرثوذكسيّة".**

دينيّاً طُرح شعار "موسكو هي روما الثالثة"، بإصرار من الكنيسةِ الروسيّة، على الدفاعِ عن "العالمِ الأرثوذكسيّ والعالم الروسيّ،

> **"بعد تفكك الاتحاد السوفييتيّ ساد المجتمع الروسيّ ما يُسمى «أطلسة روسيا»، وانتشرت القيم الغربيّة والأمريكيّة. ودخلت البلادُ أزمات اقتصاديّةً، أخطرها شدّة التسعينيات وفقَ تسمية الروس، وسادت سياسة رأسماليّة قاسية وفقرٌ مدقعٌ وجريمةٌ طاغية. وتحوّلت السياسةُ الخارجيّةُ الروسيّةُ، فأبدت على مدى عقد التسعينات من القرن الماضي، توافقاً واستجابةً مع المواقف الأمريكيّة، وانسحبت روسيا من بعض المواقع التي كان وجودُها فيها يمثّل نوعاً من التحدّي الموجّه للولاياتِ المتحدةِ الأمريكيّة"**

بحسب بوتين في خطابِ التنصيبِ عام ٢٠١٢. ثمّ كانتِ العودةُ إلى الفكرةِ الأوراسيّة، وجرى العملُ بدأبٍ على إحياءِ الاتحاد السوفييتيّ تارّةً تحت اسم "اتحاد الدول المستقلة"، وطوراً باسم "الاتحاد الأوراسيّ"، إلّا أن طرحَ الرئيس بوتين الوطنيّة عقيدةً قوميّةً روسيّةً.

في تعريفِ البوتينيّة

البوتينيّةُ مصطلحٌ يشيرُ إلى الأيديولوجيا والأولوياتِ السياسيّة للرئيسِ بوتين، وقد جاءتِ البوتينيّةُ محصلةً فشلِ عمليةِ التحوّلِ الديمقراطيّ والوفاءِ للميراثِ الإمبراطوريّ، وفشلِ الليبراليين في إنجازِ عمليةِ الإصلاحِ الاقتصاديّ خلال عهدِ الرئيسِ بوريس يلتسين في تسعيناتِ القرنِ الماضي، إذ أجرى وزيرُ الاقتصادِ إيغور جايدار، إصلاحاتٍ اقتصاديّةً وصفها بأنّها «العلاجُ بالصدمةِ». وتقومُ خطته الاقتصاديّةُ على التعجيلِ بتحريرِ الأسعارِ وخصخصةِ مؤسساتِ الدولةِ وإقامةِ

السوقِ الحرّة. لكنّ التدابير انتهت إلى تفاقمِ التضخمِ. وحتى عام ١٩٩٧، تمّت خصخصة ١٢٠ ألف شركة. وشابَ عمليةَ الخصخصةِ فسادٌ كبيرٌ وبيعت ممتلكاتُ الدولةِ بأقل من قيمتها السوقيّةِ. وقد ساهمت بأكثر من ٧٠٪ من الناتج المحليّ الإجماليّ.

في كتابه البوتينيّة يشيرُ الكاتب الأمريكيّ والتر لاكور إلى ثلاثة محاور أساسيّة يجتمعُ عليها الحسّ الشعبيّ الروسيّ وتدورُ حولها الوحدةُ المجتمعيّة في البلادِ وهي الاعتقادُ الراسخُ والعميقُ بالكنيسةِ الأرثوذكسيّةِ، والحسّ القوي بالانتماء الأوراسيّ الذي يؤمنون به قَدراً ومصيراً، والمحور الثالث هو التوجسُ من مواجهةِ العدوِ الخارجيّ، وتشكّل هذه المحاور ثوابت راسخةً وقواسم مشتركةً بين الروسِ منذ عام ١٩٠٤.

ويطرحُ لاكور السؤالَ المباشرَ ما هي البوتينيّة؟

ويجيبُ **«البوتينيةُ هي رأسماليةُ الدولةِ، سياسةٌ اقتصاديةٌ ليبراليةٌ**، لكنّها أيضاً تنطوي على قدرٍ كبيرٍ من تدخلِ الدولةِ، تدخلاً شاملاً تقريباً عندما يتعلقُ الأمرُ بالقضايا المهمّة... **البوتينيةُ حكومةٌ استبداديةٌ**، وهذا ليس جديداً في التاريخ الروسيّ حيث يجري التخفيفُ من حِدّةِ الاستبداديّةِ وتلطيفُها بالفسادِ وعدمِ الكفاءةِ. **هناك برلمانٌ لكنَّ أحزابَ المعارضةِ ليست حقيقيةً في المعارضةِ. هناك صحافةٌ حرةٌ، لكنَّ الحريةَ مقصورةٌ على الصحفِ الصغيرةِ، وينبغي على النقدِ ألا يتمادى أكثر من اللازمِ.**

الاقتصادُ والإعلامُ والمجتمعُ المدنيُ بقبضةِ الدولةِ

يمكنُ اعتبارُ الفترة الزمنيّة بدءاً من الولايةِ الأولى عام ٢٠٠٠ حتى أزمةِ أوكرانيا وضمِّ القرم عام ٢٠١٤، (شغل منصب الرئيس لولايتين حتى ٢٠٠٨ ثم رئيساً للحكومة لوزراء حتى عام ٢٠١٢، حيث عاد رئيساً)، ففي المرحلةِ الأولى من قيادته بدا بوتين بصورةِ منقذِ روسيا الدولةِ والشعبِ، ومخلصِ البلادِ من قوى الدمارِ الداخليّة والخارجيّة، ومن فسادِ الأقليّة (الأوليغارشيين) وهيمنتهم على شؤونِ الدولةِ، ومن الحركاتِ الانفصاليّةِ الإسلاميّة شمال القوقاز وتأثير الغربِ.

في ٢٠٠٠/٥/٧، وخلال خطاب تنصيبه رئيساً جديداً لروسيا الاتحاديّة، قال بوتين: **«روسيا تأسست كدولةٍ شديدةِ المركزيةِ منذ البدايةِ. وهذا أمرٌ متأصلٌ في جيناتنا وتقاليدنا وعقليةِ الشعب»**. وبنفس الخطاب تحدّث عن الديمقراطيّةِ وسيادةِ القانونِ، ولكنه ركّز على إعادةِ بناءِ الدولةِ والنظامِ المؤسسيّ. **وحدّدَ هدفاً رئيسياً هو ضمان «دكتاتوريةِ القوانين» وتقوية «الهياكل العموديةِ للسلطةِ»** وتحييدِ تأثيرِ حكمِ الأقليّةِ التي هيمنت على ولايةِ بوريس يلتسين الرئاسيّةِ ووضعته في مأزقٍ. **واستهدفت إصلاحات بوتين ثلاثة مجالاتٍ هي (الاقتصادُ والإعلامُ والمجتمعُ المدنيُّ)**، والواقعُ أنّ خطةَ العملِ أُعدّت على التوازي من غير تمايزٍ بالترتيبِ.

اقتصادياً بدأ بوتين حملةَ التخلصِ من الطبقةِ الأوليغارشيةِ التي استولت على الاقتصادِ الروسيّ، فأمر باعتقالِ رجالِ أعمالٍ تورطوا في نهبِ الاقتصاد باسمِ الخصخصةِ ونفى أو طردَ آخرين وصادر ثرواتهم دون محاكمةٍ. فيما فُرضت صفقةٌ على الأوليغارشيين، للتخلّي عن أيّ دورٍ سياسيّ وترْكِ الشأن السياسيِّ للسلطةِ الجديدةِ. وكان مصيرُ الذين رفضوا الصفقةَ السجنُ كما في حال رجلُ الأعمالِ ميخائيل خودوركوفسكي، الذي خسر شركةَ النفط "يوكوس"، أو النفي كما في حالِ إبراموفيتش وبيريزوفسكي الذي وُجد مقتولاً بمنزله ببريطانيا عام ٢٠١٣. وتمّ استملاكُ الشركاتِ، من طبقةِ الشيوعيّةِ

القديمةِ "النومينكلاتورا"، التي فقدت سلطتها كشيوعيين ولكنهم استعادوها عبر حكمِ الأقليّة (الأوليغارشيّة).

يعتبر دوغين أن العدو الأخطر لبوتين هو النخبةُ السياسيةُ الروسيةُ المحابيةُ للغربِ المحيطةُ به، واتهمهم بالخيانة. ويقول أنّهم بصدد الاختفاء، لصالح اليوم زيادة نفوذ الأوراسيين وميلهم للحروبِ الخارجيّةِ. ويسأل ألم تكن الحروب الكبرى، في الغالب الأعم، نتيجة حتمية لأفعال إمبراطوريات في طور الانحلال؟

فرضُ السيطرةِ على الاقتصادِ الرأسماليّ كان الهدفَ الرئيسيّ لإصلاحاتِ بوتين الاقتصاديّة عام ٢٠٠٠. وهكذا ومع بوتين على رأسِ الحكومةِ، شهدت روسيا أوّل نموّ اقتصاديّ منذ تفكّك الاتحاد السوفيتيّ. والمحورُ الذي ارتكزت عليه إصلاحات بوتين الاقتصاديّة هو رفضُ النيوليبراليّة الراديكاليّة التي سادت خلال أولى سنواتِ حكمِ بوريس يلتسين ووُضعَ مخططٌ استراتيجيّ يخضعُ لسيطرةِ الدولة. فتحوّلت روسيا إلى النظامِ الحداثيّ الاستبداديّ، أي نظامٌ استبداديّ يدفعُ التحديثَ الاقتصاديّ عبر التحكمِ بالمواردِ الطبيعيّةِ، وتوزيعِ الإنتاجِ، وبفضله استمرّ بوتين في السلطة.

تعدُّ الحداثةُ الاستبداديّة نموذجاً فعّالاً جداً في المراحلِ الأولى لعلاجِ الاقتصاداتِ المنهارة. وقد نجحت في تطبيقه اليابان بعد الحربِ العالميّةِ الثانية. لكنّها في روسيا فقدت فعّاليتها بمرورِ السنواتِ؛ بسببِ تفشّي المحسوبيّةِ والفسادِ واحتفاظِ الأوليغارشيّة بالقوةِ التي مكّنتها من استعادةِ بعضِ مراكزها.

أحكم بوتين القبضةَ على وسائطِ الإعلامِ خلال ثلاثة أشهر من حكمه، وأخضعَ أهم القنوات التلفزيونية ومنها قناة (NTV)، والصحفِ والمطبوعاتِ الدوريّة والإذاعات. ورغم وجودِ أكثر من ٣ آلاف قناة تلفزيونية إلّا أنّ معظمها يتجنبُ الأخبارَ السياسيةَ، كما يُعرفُ عن شخص الرئيس بوتين طابعه المحافظُ وتعاملُه الحذرُ مع التكنولوجيا الحديثة، وذُكر أنّه لا يستخدمُ البريدَ الإلكترونيّ، وكثيراً ما ينتقدُ الإنترنت والمشكلاتِ التي يطرحُها.

تمكّن بوتين من إزاحة الحرس القديم ومعارضيه وإبعاده عن مراكز قوتهم، وغدا في بؤرة الاهتمامِ الإعلاميّ وتحكّم بالرأي العام داخل روسيا وفقاً لسياسته. فقدّمَ الإعلام تغطيةً خاصةً لحربِ الشيشان متجاوزاً هجماتِ الجيشِ الروسيّ الدمويّة، ودعم شعبيّةَ الرئيسِ وعظّم روسيا الجديدة. كما لاحقت وكالة الأمنِ الفيدراليّ الإعلاميين والصحفيين المعارضين والمتردّدين، واعتقلت بعضهم وشوّهت سمعةَ المئات وتمّت تصفية البعض، وتم التحكمُ بسوقِ الإعلاناتِ. وأصبح الصحفيون الذين يجرون تحقيقاتٍ حول قضايا الفسادِ أو الانتهاكِ الصارخِ لحقوقِ الإنسانِ في حربِ الشيشان معرّضين للمخاطر بما فيها الموتُ.

كان التوجّه مركّزاً باتجاه المجتمع المدنيّ بالنسبة للرئيس بوتين، ففَرضَ التقنينَ على أنشطةِ منظماتِ ومؤسساتِ المجتمعِ المدنيّ، ووُضعت تحت عينِ الدولةِ والأجهزةِ الأمنيّةِ، وفُصِلت عن الناسِ، ووُجّهت التُّهم للمؤسسات والعناصرِ الفاعلةِ فيه كالعمالةِ للغربِ واعتمادها عليه في التمويلِ والرعايةِ والتدريبِ. وبالمجملِ لم تبقَ في روسيا منظماتُ مجتمعٍ مدنيّ تراقبُ الانتخاباتِ ولا مؤسساتٍ إعلاميّةً مستقلةً يمكن أن تنتقدَ أداءَ الحكومةِ وتمارسَ دورها الرقابيّ.

شموليّة وديمقراطيّة شكليّة

استهدفتِ الإصلاحاتُ السياسيّةُ الأولى لبوتين استعادةَ سلطةَ الدولةِ المركزيّةِ على ٨٥ من الكياناتِ الاتحاديّةِ. وفي أيار ٢٠٠٠، أي بعد أسابيعَ قليلة من تنصيبه، وضع بوتين نظاماً جديداً مكوّناً من سبعة «مناطق» يرأس كلّ

> **البوتينيّةُ مصطلحٌ يشيرُ إلى الأيديولوجيا والأولويات السياسيّة للرئيس بوتين، وقد جاءت البوتينيّةُ محصلةَ فشلِ عمليةِ التحوّلِ الديمقراطيّ والوفاءِ للميراثِ الإمبراطوريّ، وفشلِ الليبراليين في إنجازِ عمليةِ الإصلاحِ الاقتصاديّ خلال عهدِ الرئيس بوريس يلتسين في تسعينيات القرنِ الماضي، إذ أجرى وزيرُ الاقتصادِ إيغور جايدار، إصلاحات اقتصاديّةً وصفها بأنّها «العلاجُ بالصدمة». وتقومُ خطته الاقتصاديّةُ على التعجيلِ بتحريرِ الأسعارِ وخصخصةِ مؤسساتِ الدولةِ وإقامةِ السوقِ الحرّةِ.**

منها «مفوّض». وهو النموذجُ طُبق في روسيا لأول مرةٍ في عهدِ القيصر إيفان الرابع (١٥٣٠-١٥٨٤).

وفي عام ٢٠٠٤ تركزت السلطات أكثر من ذي قبل في أيدي بوتين بعد فوزه الباهر في الانتخابات الرئاسيّة (حصل على ٧١,٣١٪ من الأصوات). وكانت أولى التدابير منحَ الرئيسِ صلاحيةَ تعيينِ حكامِ الجمهوريات، رغم أنّ المقترحاتِ المختلفةَ الخاصةَ بهذا القانون ستخضعُ لتصويتِ المؤسساتِ الإقليمية. وبنفسِ السياقِ، تزايدت سلطةُ الأعضاءِ السابقين في الاستخباراتِ من زملاءِ بوتين.

في عام ٢٠٠٥ **عرّف فلاديمير بوتين النظام السياسيّ الروسيّ بأنه «حقّ كلِّ شخصٍ باختيارِ شكلِ الحكمِ الذي يناسبُ ظروفه المحلية الخاصة بدلاً مما يتوافق مع المعاييرِ الديمقراطية العالمية».** ووصف فلاديسلاف سوركوف المستشار السابق لبوتين الدولةَ الروسيّةَ بأنّها «ديمقراطية سياديّة» في عام ٢٠٠٦، للتأكيدِ على اختلافها مع الديمقراطيّةِ الليبراليّةِ. وكان هذا النموذجُ «الديمقراطيّ»، مثالُ «الدولة الهجينة»، إذ يلبّي المطالبَ الشكلانيّةَ للديمقراطيّةِ بانتخاباتٍ حرّةٍ نسبيّاً، ونظامٍ حزبيّ تعدديّ وحريةِ السوقِ والتعبيرِ من الناحية النظريّة، ولكنها تمنعُ ترسيخَ دعائمَ الديمقراطيّة عبر مؤسسات «غير مرئية» كالأجهزةِ السريّةِ، والسيطرةِ على وسائل الإعلام وعدم التهاونِ مع الفسادِ، ما يساعدُ على إدامةِ السلطةِ الاستبداديّة المشخصنةِ والأوليغارشيّة الاقتصاديّةِ. ويُسمّى هذا النظام أيضاً «الديمقراطيّة غير الليبراليّة» أو «الديمقراطيّة المقلّدة». ولا يتجاوزُ دورُ النظامِ متعدّدِ الأحزابِ بالدولةِ الهجينةِ محاكاةَ اللعبةِ الديمقراطيّة.

توجدُ في روسيا ثلاثُ مجموعاتٍ حزبية رئيسية: أهمها حزبُ روسيا الموحدة «الرسميّ»، ويحظى بأغلبية مطلقةٍ في مجلسِ الدوما. وأحزابُ «المعارضةِ الرسمية»، التي أسهم الكرملين بتأسيسِ بعضها، وهي تجمعات مسجّلةٌ تشاركُ في السباقِ الانتخابيّ، لكنها تخضعُ لإرادةِ الكرملين، ودورُها إعطاءُ صورةٍ ظاهريةٍ للتعدديةِ الحزبيةِ وتقييدِ المنافسةِ السياسيةِ. و «المعارضةُ غير الرسمية»، وهي مجموعاتٌ أو حركات سياسية عجزت عن تلبيةِ متطلباتِ التوثيقِ كأحزابٍ رسميةٍ أو حُظرت لموانعَ وفق قانونِ الأحزابِ السياسية. وفي كلِّ الأحوال فإنّ الديمقراطية السيادية تنطوي على تناقضٍ، فهي تصادرُ ما تمنحه من حريةٍ بمنطقِ القانون.

وبدءاً من نيسان ٢٠٠٦، بدأتِ الدولةُ تمارسُ سيطرةً شاملةً على المنظماتِ المدنيّةِ من خلال مؤسسةٍ جديدةٍ تسمّى الغرفةُ العامّة لروسيا الاتحاديّة. وعُوملتِ الوكالاتُ والمؤسساتُ

الأجنبيّة باعتبارها جهاتٍ مشبوهةً.

يمثلُ كانون الأول عام ٢٠١١ نقطةَ تحوّلٍ في المرحلةِ الأولى من البوتينيّة. فقد اجتاحتِ المظاهراتُ المدنَ الروسيّةَ الكبرى احتجاجاً على التزويرِ المزعومِ للانتخاباتِ التشريعيّةِ. وفي ردِّ فعلٍ للحكومةِ ومنعاً من تكرارِ هذه الاحتجاجاتِ الحاشدةِ، أقر مجلس الدوما عام ٢٠١٢ العديدَ من القوانين التي تستهدفُ توفيرَ دعمٍ وغطاءٍ قانونيّ للنظامِ الذي بدا طابعه الاستبداديّ يبرزُ على نحوٍ متزايد، وإضفاءِ الشرعيّةِ على القمعِ السياسيّ وإحباطِ أيّةِ محاولةٍ من جانبِ المعارضةِ للمنافسةِ على الساحة السياسيّة. ومن أبرز هذه القوانين الجديدة، قانونُ المظاهراتِ (الذي يتضمنُ إمكانيةَ فرضَ غرامةٍ تصل إلى ٩٣٠٠ يورو على أيّ مواطن بسببِ التظاهر). وقانون الإنترنت الذي يقضي بإنشاءِ لجنةٍ يمكنها أن تغلقَ مواقعَ الانترنت «الخطرة». وأطلق الكرملين خطاباً حول وجود «عدو داخليّ» يفترضُ أنّه يتلقّى مساعداتٍ من «عدو خارجيّ» (الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبيّ). ولذلك، صدر قانونُ الخيانةِ الذي ينظمُ معاملةَ كلّ هؤلاء الذين يُعرفون بأنّهم «عملاء أجانب».

بوتين رجلُ الاستخباراتِ الروسيّةِ السابق في مدينة درسدن الألمانيّة يحفظُ في عقله الخوف من الثوراتِ الشعبيّةِ، فقد شهد بأمِ العينِ خروجَ الناسَ للشوارعِ وتوجههم إلى جدارِ برلين الذي كان رمزاً لعالمين ولصراعٍ أيديولوجيّ بين معسكرين، ومرَّ بلحظاتٍ عصيبةٍ عندما أحاطتِ الدبابات بمقره، فيما لم تحرّك حكومةِ موسكو التي كان يقودُها غورباتشوف ساكناً، فبادر وقتها إلى حرقِ التقاريرِ والوثائقِ الموجودةِ بالمقر. كما أنّه شاهدٌ على النتائج المروّعةِ للربيعِ العربيّ.

بالنظرِ إلى وضعِ روسيا الحالي، فالنظامُ فيها يستمدُّ شرعيّته من التدخلِ العسكريّ الخارجيّ في الفضاء الأوراسيّ، ويترجمُ ذلك إلى أصواتٍ في صناديقِ الاقتراع. فيما احتكرتِ السلطةُ الروسيّةُ من قبلِ الدائرةِ الضيّقةِ المحيطةِ بالرئيسِ، بعدما شملتِ العقوباتُ الغربيّة معظم الشخصياتِ. ومن الطبيعيّ أنّ يستلزمَ التوجّهُ للحروبِ الخارجيّة، تحوّلاً بنيويّاً في النظامِ إلى الشموليّة، بعد فرض الوصاية الكاملة على الدولة وغيابِ التعدديّة وإضعافِ المؤسساتِ الديمقراطيّة، ما فرضَ تغييراً في سماتِ السلطةِ الروسيّةِ، ظهرت نتائجُه بسيطرةِ الأوراسيين على مراكزِ القرارِ، واستبعادِ الخبراءِ والسياسيين.

وفي حملة الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠١٢، والتي ترشح فيها بوتين للمرة الثالثة، وعد بالعودةِ إلى اختيارِ الحكامِ المحليين عبر الانتخابِ، والتخفيفِ من القوانين الانتخابيّة، وتكثيف مكافحةِ الفساد. وفي أحد خطاباته الانتخابيّة التي يتحدث فيها عن الشعب الروسيّ قال «واجبنا ليس فقط المحافظةُ على هويتنا الوطنيّة وروحنا كروس، بل وتطويرها أيضاً. لا يمكننا أن نضيعَ كدولةٍ؛ علينا أن نكونَ روساً ونظل روساً». وبنفس الخطابِ أكّد على أهميّةِ الأسرةِ والعقيدةِ الدينيّة، وبعد ثلاثة أشهر فقط من المظاهراتِ ضد تزويرِ الانتخاباتِ التشريعيّةِ، فاز فلاديمير بوتين في الانتخابات الرئاسيّة ٢٠١٢/٣/٤ بنسبة ٦٢٪ من الأصوات في الجولة الأولى، رغم عدم تغيّر الآليّة الانتخابيّة.

روسيا ما بين الإيديوقراطيّة[1] والديمقراطيّة

كتب فلاديسلاف سوركوف أحد منظري الكرملين السابقين مقالاً استخدم فيه مصطلح «البوتينية» بوصفها "اختراقاً سياسياً عالمياً، وطريقة فعالة للحكم"، واخترع سوركوف مصطلحاتِ (الديمقراطية السيادية، ودستورية حكم بوتين). ويُقالُ

١ نظامَ حكمٍ يقومُ على الأيديولوجيا

إنّ الفضلَ في الكثيرِ من نجاحاتِ بوتين يعود لسوركوف الذي توجدُ بين أصابعه الكثيرُ من الخيوطِ التي يسيطرُ من خلالها على البنيةِ السياسيّةِ، وهي بنيةٌ معقّدةٌ للغاية، ولا يعرفُ سواه المكانَ الصحيحَ لكلِّ مكوّنٍ (المعارضة، والأحزاب السياسيّة، والنواب، والمحافظون، وإطلاق أو إنهاء حركاتٍ سياسيّةٍ أو منظماتٍ المجتمعِ المدنيّ، والكنيسة).

ويصفُ سوركوف البوتينيّة بأنّها «إيديولوجيا فاعلةٌ في الحياةِ اليوميّةِ، مع كلِّ إبداعاتها الاجتماعيّةِ وأشكالها المثمرة". ووفق رؤيته، لا يحتاجُ الروسُ إلى الديمقراطيّةِ على النمطِ الغربيّ، لأنّ بوتين شيّد نظاماً يفهمُ أبناءَ شعبه (احتياجاتهم، ورغباتهم، وأغراضهم) على نحوٍ أفضلَ من فهمهم لأنفسهم. على نحوٍ مماثل، يوافقُ الفيلسوفُ ألكسندر دوغين على أنَّ البوتينيّةَ ناجحةٌ بسببِ أسسها الأيديولوجيّة. والواقعُ أنّ دوغين كثيراً ما يؤكّدُ أنّ الأيديولوجيا تشكّلُ عنصراً أساسيّاً في بقاءِ الدولةِ الروسيّةِ، خاصةً وأنَّ بنيةَ السلطةِ الروسيّةِ الرأسيّةِ تفتقرُ إلى المرونةِ اللازمةِ لتحفيزِ ديناميةٍ اقتصاديّةٍ لا تقلُّ كفاءةً عن نظيرتها في الغربِ.

روسيا في نظر دوغين وسوركوف، مثلها كمثلِ الاتحاد السوفييتيّ، يجب أن تكونَ **«إيديوقراطيّة» (نظامَ حكمٍ يقومُ على الأيديولوجيا)** تحكمُها أقليّةٌ مقدّسةٌ من ذوي الخلفيّةِ الأمنيّةِ والعسكريّةِ وتقود البلادَ نحو تحقيقِ هدفٍ ما غير معروفٍ بشكلٍ كاملٍ إلا لهم، وفي الواقعِ فإنّ معظمَ أصحابِ المناصبِ الرفيعةِ الذين يعتمدُ عليهم بوتين في قيادةِ البلاد هم أعضاءٌ بالحزبِ الشيوعيّ ومن المؤسسةِ الأمنيّةِ والعسكريّة ويُشار إليهم باسم "طبقة النومنكلاتورا الجديدة".

وإذا كانتِ الطبقةُ الحاكمةُ وحدها القادرةُ على فهمِ الغايةِ الأعلى لروسيا، فإنّ أعضاءها فقط هم القادرون على تقييمِ أدائهم. وهم يقرّرون متى يجب إزالة زملائهم أو استبدالهم؟ وكيف ينبغي استخدام موارد البلاد؟ بما في ذلك العمالة ــ سواء لتعزيز النمو الاقتصاديّ ورفع مستويات المعيشة أو لتوطيد وترسيخ الإيديوقراطيّة. ففي ظلِّ البوتينية، يُفترضُ بالناسِ عدمُ الامتعاضِ من انخفاضِ مستوى الدخلِ، ويمكن اعتبار ذلك تضحيةً ضروريّةً وربما بطوليّة. كما يُفترضُ بهم الاعتقادُ دائماً بقصورهم عن إدراك الحكمةِ البالغة لسياسة الحكومة، فإذا ما صُودرت معاشاتهم التقاعديّة أو التدخل في نتائج الانتخابات، فيجب عليهم أن يفترضوا أنّ ذلك يخدم غاية سامية. ووفق هذا المنطق، فإنّ مطالبة الحكومة باحترامِ حقوقهم الإنسانيّة بمثابة تحريض على الفتنةِ والعصيان. وعلى هذا الأساسِ فالبوتينيّةُ لا تضمنُ استمرارَ هيمنةَ الساسةَ فحسب؛ بل إنّها تحوّلُ أيضاً دون مساءلتهم.

لم يقدّمْ سوركوف سوى مؤشراتٍ غامضةٍ للمحتوى الإيديولوجيّ للبوتينيّة، ويقول إنّها ستزداد وضوحاً عبر المناقشاتِ الجاريةِ، إلا أنّ المعالمَ الأساسيّةَ اتضحت، وتنطوي على معارضةَ الغربِ، وتركيبةٍ من الانعزاليّةِ المجتمعيّة والتوسّعِ العسكريّ، وتضحياتِ الشعبِ الماديّة، والتضييق على المعارضين، ورغم أنّ الدستور الروسيّ يؤكّد على الطابعِ العلمانيّ للدولةِ فإنّ دورَ الدينِ من تتزايد أهميته.

وعلى هذا يمكن اعتبار البوتينيّة نظاماً سياسيّاً لدولةٍ هجينةٍ تطبقُ الحداثةَ بأساليبَ استبداديّة وصلت إلى أقصى حدودها في السياسة الداخليّة. وقد أراد فلاديمير بوتين عبر تقدّمه مرشحاً مستقلاً في الانتخابات الرئاسيّة في (٢٠١٨/٣/١٨)، النأي بنفسه عن الفساد وعن إخفاقات حزب روسيا المتحدة الحكوميّ. البوتينيّة ستتطور نحو نظامٍ أكثر استبداديّة وقومية يستغلُ الإنجازاتِ العسكريّة والسياسة الخارجيّة ويستثمر مشاعر الشعب

الروسيّ المعادية للغرب كقوةٍ دافعةٍ رئيسيّة له. وفي أولى التعليقات على الانتخابات نشر موقع DW الألماني في ٢٠١٨/٣/١٩ مقالاً بعنوان "صحفٌ ألمانيّة: بوتين يستفيد من كون أوروبا تجرح شعور الفخر لدى الروس"، وأشارت إلى أنّ السياسة الغربيّة ساهمت في فوز بوتين، وأنّ الانتخاب كان تظاهرة استعراضيّة ليس لها علاقة بالديمقراطيّة فهي تصلحُ لتثبيتِ شرعيّةِ الرئيس.

يُوجزُ نيقولاي بيتروف، توصيف البوتينيّة في دراسة صادرة عن المجلس الأوروبيّ للعلاقات الخارجيّة «ECFR»، في٢٠١٦/٤/١٩ فيقولُ: "إنّ روسيا باتت رهينة النظام، والنظام رهين بوتين، وبوتين رهين أفعاله التي ضيّقت خياراته جذريّاً"

عداوةُ الغربِ محرّكُ السياسةِ الروسيّة

عمل الرئيس الروسيّ على استعادةِ الركائزِ الثلاثِ للهويةِ الوطنيّةِ الروسيّةِ النمطيّة (الديانة الأرثوذكسيّة والأوتوقراطيّة والأمة)، والتي تعني بالمقابلِ الانفرادَ بالحكمِ بموجبِ الحقِّ المقدّس. لكنّ الحاجةَ كانت محرّضاً قويّاً يجمعُ شملَ الروسِ ويستأثرُ بمجامعِ نفوسهم ويدفعُهم جميعاً لتأييدِ سياسةِ الحكومةِ، وهنا تأتي أهميةُ وجودِ العدو الذي صِيغَ بصورةٍ هلاميّةٍ على أنّه الغربُ ليس كقوةٍ عسكريّةٍ وسياساتٍ بل على كلّ المستويات بما فيها الاجتماعيّ والثقافيّ والتقانيّ.

أيّاً كانتِ العقيدةُ القوميّةُ في روسيا، تبقى العلاقاتُ مع الغربِ، أساساً تستندُ إليه هذه العقائد، ويعملُ مفكرون روس على التمحيص بها منذ مطلع القرنِ الثامن عشر، لكنّ أجوبةَ المفكّرين الروسِ متناقضة جدّاً تتأرجحُ بين العزلةِ والاشمئزازِ من الغرب، والتوجّه نحوه والتعاون معه، أو البحث عن سبيلٍ آخر والانسلاخ عن أوروبا.

لا يقتصر الأمرُ على روسيا، فعلاقةُ الغربِ بها ليست ثابتةً أيضاً، وتتراوحُ بين العداءِ والتقاربِ، التفهّمِ والنبذِ، وتشكّل روسيا لغزاً بالنسبةِ للغربِ يصعُبُ حلّ رموزه. وقال ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية، وهو من عرف روسيا بأحلك ظروفها أثناء الحربِ الأهليّة ومجاعة الثلاثينيات والحربِ العالميّة الثانية: «لا أستطيعُ التنبؤَ بما تأتيه روسيا من أعمالٍ، فهي لغزٌ يُغلفُهُ التكتمُ وتلفُّه الأحجيةُ». ولم تتغيّر صورةُ روسيا بالنسبةِ للغرب حتى اليوم، وكتب موقع "دي فيلت Die Welt الألمانيّ" أواخر أيار٢٠١٥: "تبقى روسيا أحجيةً بالنسبة لنا في كلّ ما تأتيه، وكيف ما نظرنا إليها. فحتى في ظلِّ بطرسِ الأكبر لم تكنِ الإمبراطوريّةُ الروسيّةُ مفهومةً بالنسبةِ للغربِ. ولم يتغير شيءٌ في عهد بوتين".

بعد اجتيازِ المرحلةِ الأولى التي يُفترضُ أنّها أنهت عواملَ الضعفِ الذاتيّة، باتتِ الحاجةُ ملحّةً لإيجادِ محرِّض جديدٍ يكونُ مبررَ السياسةِ الروسيّةِ ويعطي الذريعةَ للتدخلِ الخارجيّ ويسوّقها للرأي العام الروسيّ، ذلك لأنّ مهمةَ الرئيس الروسيّ الآن تجاوزت إنقاذَ الناسِ من القلةِ الفاسدةِ (الأوليغارشيين)، إلى ضمانِ الأمنِ القوميّ وحماية الروس جميعاً، بما فيهم الأوليغارشيين أنفسهم، إزاء عدوٍ مشترك، وهو الغرب.

قفزت نسبة مؤيدي الرئيس الروسيّ إلى معدلٍ غير مسبوق بعد ضمِّ شبه جزيرة القرم في شباط ٢٠١٤، ووصلت إلى ٨١-٨٣٪. والمفارقة أنّه رغم تدهور الوضع الاقتصادي في روسيا بسبب انخفاض أسعار النفط والعقوبات الاقتصادية. وفيما التزم بوتين مواقعَ الدفاع طيلةَ الفترةِ السابقة، فقد أخذ زمامَ المبادرةِ بالهجومِ، وانتقل من صورةِ المخلّصِ إلى شخصيةِ بوتين "المحارب" الزعيم الذي يناضلُ لاستعادةِ هيبةِ روسيا الدولية من خلال التدخلاتِ العسكريّةِ

”ينتهج الرئيسَ بوتين أيديولوجيةً سياسيّةً يرجّح مبدأ المصلحة السياسيّة بغطاءٍ براغماتيّ، لاستعادةِ الأمجادِ السوفيتيّةِ السابقةِ. إذ يقول بوتين «إنّ الأسلحةَ والمعدّاتِ العسكريّةَ الروسيّةَ يجب أن تتفوّقَ على مثيلاتها الغربيّةَ من حيث النوعيّةِ، فالتعادلُ لا يمكن أن يرضيَ روسيا». وأكّد مواصلة تطوير الجيش والأسطول البحريّ وتحديثَ معداته بنسبة ٧٠٪ العام المقبل“

في أوكرانيا ومن بعدها سوريا. وقد شكّل التدخلُ العسكريّ الخارجيّ المرحلةَ الثانيةَ لقيادةِ بوتين.

بعد سلسلة الإصلاحات الهيكليّة العميقة في الاقتصاد لم يعدِ الضعفُ الاقتصاديّ في روسيا يبرّر بوجود الفساد الإداريّ. بل هو نتيجة للعقوبات الاقتصاديّة التي فرضها الغرب. وتمّ استغلال العقوبات لتبرير عملية التطهير التي بدأها الكرملين عام ٢٠١٧. والتي تتمثّل في التدمير المنهجيّ للبنوك الخاصة بالبلاد لتعزيز القوة الماليّة لمصارف الدولة (التي تأثرت بالعقوبات) وكذلك تعزيز الكرملين. كما أن مواجهة العدو لا تعني الاقتصار على مواقع الدفاع ورد الفعل بل المبادرة لاستخدام القوة العسكريّة وإظهار القوة وخوض حروبٍ استباقيّة لمنع وصول التهديد الأمنيّ إلى الأراضي الروسيّة. ويمكن في هذا السبيل خوض حروبٍ غير متكافئةٍ وحربِ المعلوماتِ لتحقيق أهداف السياسة الخارجيّة الروسيّة باستعادة مناطق النفوذ الروسيّ في فضاءِ ما بعد الاتحاد السوفييتيّ واستعادةِ موقعَها كقوةٍ عظمى على الساحةِ الدوليّةِ.

كانتِ المشاعرُ القوميّةُ والوطنيّةُ والفخرُ القوميُّ التي أثارها نجاحُ ضمٍّ شبهِ جزيرة القرم والتدخلُ في سوريا. أدواتِ اللحمةِ الاجتماعيّة والسياسيّة في المرحلةِ الثانيةِ من البوتينيّة. وقد استخدم بوتين مفهومَ الأمةِ المقسّمةِ. في ٢٠١٤/٣/١٨ في خطابِه بعد ضمّ القرم: «الملايين ذهبوا للنومِ في بلدٍ واستيقظوا في دولٍ أخرى عديدةٍ. ليتحوّلوا بذلك إلى أقلياتٍ عرقيّةٍ في الجمهوريات السوفييتيّة السابقة. وهكذا أصبحت الأمّة الروسيّة واحدة من أكبر الأمم في العالم - إن لم تكن أكبرها على الإطلاق - التي تفصلها الحدود عن بعضها البعض“. وبذلك شكّلتِ الإيحاءات إلى وضع التقسيم والدعوة إلى الوحدة العنصر الأساسيّ في سياسة روسيا تجاه الجوار والجمهوريات السوفيتيّة السابقة. وفي سياسةِ روسيا للعودةِ إلى الطور الإمبراطوريّ.

ويهدف «الأوراسيون الجدد» في روسيا إلى دعمِ اليمينِ المتطرفِ في أوروبا. سياسيّاً وفكريّاً للوصولِ للسلطةِ. ليتمّ تفكيكُ أوروبا بأيدٍ أوروبيّة. وتُرفع الهيمنة الأمريكيّة عنها. وتصبح القارة العجوز لأبنائها الأوروبيين. ويسدل الستار على الاتحاد الأوروبيّ. وسيشكّل ذلك ضربة في الصميم لحلف الناتو والنيل من قوته وربما تفكّك. الأوراسيّة.

خلافاً لكلّ القياداتِ السابقةِ جعلتِ القيادةُ الروسيّةُ الحاليةُ من العِداءِ للغربِ. سياسة داخليّةً وليس سياسةً خارجيّةً. ويتوقف كثيرون من الساسةِ الروسِ ورجالاتِ الدولةِ عن الوجودِ كسياسيين ورجالِ دولة. إذا توقفوا عن إلقاءِ خطاباتِهم المعاديةِ للغربِ. فقد تحوّل الصراعُ مع الغرب منذ زمنٍ بعيدٍ إلى مهنةٍ ومعنى حياةٍ بالنسبة لهؤلاء. ويمكن للقيادة الروسيّة الحالية أن تتفقَ مع الغربِ على أيّ شيءٍ يمكنُ

تصوّرُهُ، إلا التوقفَ عن الخطابِ المعادي للغربِ وترسيخ الكراهية لما هو غربيّ، فأضحى ذلك من شروط وجودها.

لم يكن بالإمكان الاقتصارُ على عناوين مثل «الاتحادِ الأوراسيّ» وأبعادِه الأمنيّة، و«العالم الأرثوذكسيّ» لحمايةِ المسيحيين في الشرق والاستغراق في حربٍ دينيّة وتلقّي مضاعفات ذلك في الجغرافيا الروسيّة، لتبريرِ التدخلِ العسكريّ في سوريا التي أضحت ميدانَ النزالِ الدوليّ وتنازعِ الإراداتِ الدوليّة، ولا تقبل موسكو تغييب دورها، بل أرادتها بوابةَ الخروجِ من العزلةِ، فكانت سوريا المنصةَ التي خاطبت منها روسيا الغربَ وانتزعت منه الاعترافَ بها مجدداً دولةً عظمى تشاركه تقرير مصائر شعوبِ المنطقة ودولها ولتأكيد أنّه لا يمكنُ بدونها معالجةُ أيّةِ قضيةٍ في العالم، وقد نجحت لدرجةٍ كبيرةٍ.

قدمتِ الروسيتان السوفييتيّة والقيصريّة نفسيهما بلداً له «رسالةٌ إنسانيّةٌ عميقة" مضمونها تحرير الشعوبِ من ظلمِ واستبدادِ الغربِ الاستعماريّ. واليوم تحرصُ روسيا على الحفاظ على هذه الصورة، وألا تُوضعَ على قدمِ المساواةِ مع الدولِ الغربيّة، وتصرُّ على أنّها تحملُ قيماً اجتماعيّة مختلفة كليّاً عن قيمِ المجتمعاتُ الغربيةُ «المنحلّةً أخلاقيّاً". ولهذا، بقي الرئيس الروسيّ بوتين "الرفيق بوتين" لدى الشيوعيين الأحزاب والهيئات والمنظمات القوميّة واليساريّة وهو «القيصر بوتين" لدى المؤمنين المسيحيين الأرثوذكس.

في هذا السياقِ أيضاً فقد جعلت الحكومة الحالية يوم الاحتفال بالنصر على النازيةِ مناسبةً للدعايةِ وحوّلت كلَّ حروبها حتى التدخل العسكريّ في سوريا لامتدادٍ مباشرٍ للحربِ الوطنيّةِ العُظمى، ما قسّم الأمةَ بدلَ أن يرسّخ وحدتها.

صحيحٌ أنّ الصراعَ مع الغرب تاريخيّ أبديّ يعودُ إلى القرونِ الأولى لاعتناقِ روسيا للمسيحيّة.

لكن غالبية الروس تؤمن عميقاً برسالةِ روسيا الروحيّة بإنقاذ العالم من الماديّة التي أوصلها إليه الغرب. ولهذا تنفرد روسيا بين دول العالم التي لا تنادي قيادتها الحالية بالحداثةِ والإصلاح، بل تدعو إلى الحفاظِ على «قيمِ المجتمعِ الروسيّ الروحيّة" بوجهِ «الانحطاطِ والتفكّكِ» في المجتمعاتِ الغربيّة. وينتقد مفكرون روس وفنانون القياصرة بطرس الأكبر وكاترين الثانية وألكسندر الأول (الذي هزم نابليون) لسعيهم لربط روسيا بالغرب وعاداته وتقاليده. بل إنّ رئيس المجلس الدستوريّ الروسيّ فاليري زوركين قال: "لا يمكنُ لروسيا أن تأخذَ بقيمِ الغربِ بما فيها الديمقراطيّة".

ورغم أنَّ سياساتِ بوتين تسببت بعقوباتٍ اقتصاديّة معوقة ردّاً على ضمِّ شبه جزيرة القرم، إلا أنّ ١٢٪ من الروس فقط يفكرون بالتظاهر ضدها، فيما ترى الغالبيّة أنّه يكفي وقوفُ بوتين في وجه الغرب، فالروس يؤمنون بأنّ الولايات المتحدة وحلف الناتو يريدان إخضاع روسيا.

إعادةُ هيكلة الجيش وتجديدُ العقيدة العسكريّة

عادتِ القيادةُ الحاليةُ الحاكمةُ القهقرى إلى ماضيها السوفييتيّ، لتقدمه وفق تصورٍ جديدٍ يخدمُ سياستها، تصورٌ مؤطرٌ بنظرية المؤامرة التي يحيكها الغربُ ويستخدم مختلف الأدواتِ في الداخل والقوى الإقليميّة لاستهداف الأمن القوميّ الروسيّ وعرقلة عجلةِ التقدمِ والتطورِ في البلادِ.

ورثتِ المؤسسةُ العسكريّةُ الروسيّةُ ميزاتِ وعيوبِ الجيشَ السوفييتيّ، وكانت من أهمّ أهدافِ عمليةِ الإصلاحِ التي قادتها حكومةُ فلاديمير بوتين، وكان الهدفُ جعلَها أداةَ السياسةِ الخارجيّةِ الروسيّة في مرحلةِ ما بعد الاتحادِ السوفيتيّ، ودلّت بعضُ الوقائعُ على ضعفِ أداءِ المؤسسةِ العسكريّةِ منها

حرب الشيشان الأولى (١٩٩٤-١٩٩٦) والثانية (١٩٩٩-٢٠٠٩)، وحادثُ تحطّم الغواصةِ النوويّةِ K-١٤١ كورسك في بحر بارنتس في ٢٠٠٠/٨/١٢، الذي أدّى إلى مقتلِ ١١٨ بحّاراً.

شهدتِ العلاقاتُ الروسيّةُ - الغربيّةً مرحلة توترٍ، بعد الأزمةِ الأوكرانيّةِ، وضمّ شبه جزيرة القرم، ودعمها لمن يُسمّى بالمتمرّدين الأوكرانيين. بالمقابل، فرضتِ الدولُ الغربيّةُ عقوباتٍ اقتصاديّةٍ على موسكو التي هدّدت بوقفِ ٦٠٪ من صادراتِ الغازِ إلى أوروبا. وقد شكّلت جملةٌ من الوقائعِ في هذا السياقِ مؤشراتِ عودةِ الحربِ الباردةِ بين روسيا والولايات المتّحدة ومعها الدول الغربيّة.

كانت حرب كوسوفو من المحطاتِ المهمّةِ التي لم تستطع موسكو أن تتجاوزها، إذ قامَ حلفُ الناتو بقيادةٍ أمريكيّةٍ في ١٩٩٩/٣/٢٤ وعلى مدى ٧٩ يوماً باستهدافِ مواقعَ صربيّة دعماً لكوسوفو، وهي مرحلة ضعفٍ مؤلمة لروسيا، وقد حذّر الرئيس الروسيّ الأسبق، بوريس يلتسين، الغربَ من احتمالِ انخراطِ موسكو بالحربِ، ولكنه عمليّاً لم يفعل شيئاً، فيما شنّت الولايات المتحدة وحلف الناتو غارات جويّة سمّتها موسكو "حربَ التماس" ودمّرت خلالها القدراتِ العسكريّة الصربيّة، ما حدا ببوريس يلتسين لتقديمِ استقالته بنهاية عام ١٩٩٩ ووصولِ فلاديمير بوتين إلى السلطةِ.

كانت حربُ يوغسلافيا محطةً مهمةً على مستوى التنظيرِ العسكريّ، والاستعداداتِ الاحتياطيّةِ لمواجهةِ حربٍ يخوضُها حلفُ الناتو ضد روسيا، قريباً من دول حلف وراسو وجمهوريات البلطيق المستقلة. وشمل ذلك تدريباتٍ عسكريّةً موسّعةً لمواجهةِ حربٍ إقليميّةٍ ومشاركةِ الطيران الاستراتيجيّ. ولم تُستبعد التدابيرُ النوويّةُ من الحساباتِ، وإمكانيّةُ المبادرةِ باستخدامها دفاعاً عن الأمنِ القوميّ الروسيّ.

وضع بوتين في أولى حساباته استعادةَ روسيا مكانتها عبر إعادةِ بناءِ القوةِ الروسيّة، وتوسيعِ نطاق نفوذها. وفي دليلٍ لعدم تجاوزِ حربِ يوغسلافيا، توقف بيانُ الخارجيّةِ الروسيّة في آذار ٢٠١٩ أي بعد عقدين، على التدخلِ الأمريكيّ في يوغسلافيا ووصفته بأنه "سيظلُّ وصمةَ عار ولن تمحوها مساعي ضمّ دولِ المنطقةِ للحلفِ وتعميقِ خطوطِ الانقسام والتناقضاتِ الاجتماعيّةِ في البلقان".

إعادة هيكلة القوات المسلحة الروسيّة بدأت فعليّاً عام ٢٠٠٨ في أعقابِ الحربِ الجورجيّةِ وفقَ الدروسِ المستقاةِ منها، وتمّ تحديثُ الجيشِ تكنولوجيّاً وتطويرِه والتركيزُ على الصناعاتِ العسكريّةِ وارتفعت مبيعاتُ السلاحِ من ٨,٣٥ مليار عام ٢٠٠٨ إلى ١١,٦ مليار عام ٢٠٠٩. وأنفقت نحو ٧٢ مليار دولار على التسلح.

وفي تأكيدٍ على توجّهاتِ موسكو السياسيّةِ صدّق الرئيسُ الروسيّ؛ فلاديمير بوتين، في ٢٠١٤/١٢/٢٦، على الصيغةِ الجديدةِ للعقيدةِ العسكريّةِ الروسيّة التي اعتبرت تحرّكاتِ حلف الناتو، بقيادةِ الولايات المتحدة الأمريكيّةِ، في الجوارِ الروسيّ من أهم الأخطار الخارجيّة. واتّسمّتِ العقيدة الجديدة بصيغةٍ دفاعيّةٍ متشددة أكّدت على مخاطر وجود قوات الناتو بالقرب من حدود روسيا، وأجازت إمكانية استخدام السلاح النوويّ في حال استخدام أسلحة الدمار الشامل ضدّها أو بأسلحة تقليديّة تهدّد وجود الدولة، كما ركّزت على تطوير القدرات العسكريّة لروسيا.

وإذ فشلتِ القوّاتُ الروسيّةُ وفق نظامِ التجنيدِ التقليديّ في خوضِ حربِ الشيشان نهاية عام ١٩٩٠، فقد كان واضحاً أثرُ الحربِ التي خاضتها روسيا ضد جورجيا عام ٢٠٠٨ في العقيدةِ العسكريّةِ الروسيّة، بالاعتمادِ على "القواتِ دائمةِ الجاهزيّة" وهي قواتٌ بريّةٌ أُعيد تنظيمها وفقَ نظامِ التعاقدِ، ولا تعتمدُ نظامَ التعبئةِ الاحتياطيّةِ، كما بدا الفرق واضحاً في حرب

جورجيا ولم يبدِ حلفُ الناتو موقفاً عمليّاً إزاءها.

الحصارُ جزءٌ من المخيلةِ الروسيّة

من المهمِ مراجعةُ مرحلةِ الحربِ الباردةِ حيث وصف دوغين هزيمةَ الاتحاد السوفيتيّ بالحربِ الباردةِ من وجهةِ نظرٍ جيوسياسيّةٍ بأنّها انتصارٌ لحضارةِ البحر «التالاسوكراتيا» على حضارةِ البر «التيلوروكراتيا».

كان الاتحاد السوفييتيّ يشغل مساحة ٢٤ مليون كم٢. إلا أنّه لم يكن يطل مباشرةً على البحار الدوليّة، وهي نقطة ضعفٍ جيوبوليتيكيّة خطيرة أسهمت بحصاره. ما حدث في مواجهة بريطانيا في القرنين ١٨ و١٩، ومن بعدها الولايات المتحدة الأمريكيّة في القرن العشرين. فالحربُ الأولى بين إنكلترا وروسيا القيصريّة انتهت بهزيمةِ روسيا القيصريّةِ، وانتهت الحربُ العالميّة الثانية بانتصارِ الولاياتِ المتحدةِ الأمريكيّةِ ومعسكر الناتو. فيما خرج المعسكر الاشتراكيّ مثخنَ الجراحِ وبخسائرَ كبيرةٍ. وإن لم يُهزم بالنتيجةِ. وفي كلتا الحربين لم يكنِ الصراعُ العالميُّ أيديولوجيّاً صرفاً بين الرأسماليّةِ والاشتراكيّة، بين قوى البر والبحر، بل كان الدافعُ هو الجغرافيّا والمصالحُ التي تترتبُ فوق أرضيّةِ الجغرافيّا. كما كان غزو أفغانستان محاولةً لترميمِ هذا الخللِ. وبعد عشرِ سنوات من الاحتلال مُنِيَ الجيش السوفييتيّ بالهزيمة أدّت إلى تفككه. وقد لعبت واشنطن دوراً مهماً في دعمِ حركةِ طلبان.

وبهذا يُفهمُ عدمُ تردّدِ الكرملين بقرار الدّفاعِ عن المصلحةِ الجيوسياسيّة. ولو اقتضى الأمرُ صراعاً عسكريّاً طويلاً في سوريا. فروسيا بدفاعها عن سوريا تحافظُ على نفوذِها قوةً دوليّةً عظمى، وتدافعُ عن وجودِها على الساحلِ الشرقيّ للبحرِ المتوسطِ. فسوريا جزءٌ مهمٌ جداً من الفضاءِ الأوراسيّ. الذي تتطلع موسكو لقيادته لمواجهة الغربِ. وخسارتها لا تُعوّضُ.

> **خلافاً لكلّ القيادات السابقة جعلت القيادةُ الروسيّةُ الحاليةُ من العداءِ للغربِ، سياسةً داخليّةً وليس سياسةً خارجيّةً. ويتوقّف كثيرون من الساسةِ الروسِ ورجالاتِ الدولةِ عن الوجودِ كسياسيين ورجالِ دولة، إذا توقفوا عن إلقاءِ خطاباتهم المعاديةِ للغربِ. فقد تحوّل الصراعُ مع الغربِ إلى مهنةٍ ومعنى حياةٍ بالنسبة لهؤلاء.**

ينطلقُ بوتين من اعتبارِ المنطقةِ الأوراسيّة جزءاً من الأمنِ القوميّ والمصالحِ الوطنيّةِ الروسيّةِ المركزيّةِ. لا يجوزُ التهاونِ فيها. وجاءتِ السياسةُ الروسيّةُ على نسقٍ واحدٍ في الفضاءِ الأوراسيّ. وتعدّدت مواقفُ موسكو فكانت عسكريّةً في الشيشان وجورجيا وتدخّلت شرق أوكرانيا لتكون النتيجة استقلال جمهورتي دونيتسك ولوغانسك الشعبيتين، وضمّت شبه جزيرة القرم إليها. وتدخلت بثقلٍ نوعيّ في سوريا. والتزمت مواقفَ سياسيّة مرنة حيال البرنامج النوويّ الإيرانيّ. فيما واجهت بقوةٍ توسّعَ حلف شمال الأطلسيّ في أوروبا الشرقيّة ونشر الدرع الصاروخيّ الأمريكيّ. فالاستسلامُ للتفردِ الأمريكيّ الأطلسيّ بقيادة العالم موتٌ وفناءٌ. ومواجهته تتطلب بلورة تكتل جيوبوليتيكيّ مناوئ للأطلسيّة.

في كتابه «أسس الجيوبوليتيك» يقول ألكسندر دوغين عراب المشروعُ الأوراسيّ: «من حيثُ المبدأ، أوراسيا ومحيطها، مركزُها

روسيا، تبقى منطقة انطلاقِ الثوراتِ المناهضةِ للولايات المتحدةِ الأمريكيّة والبرجوازية». وجاءَ التدخلُ الروسيّ في أوكرانيا وسوريا مطابقاً لهذا القول. وتعتبر موسكو أنّ واشنطن كانتِ المبادرةَ باتخاذ إجراءاتٍ عدائيةٍ لها فنشرتِ صواريخ بولندا والمجر، فردّت عليها بتعزيزات عسكريّة في محيط دول البلطيق. وعندما دعمت واشنطن الانقلاب ضد الرئيس الأوكرانيّ السابق فيتكور يانكوفيتش الذي يحظى بدعم موسكو، إذ عزله البرلمان في ٢٠١٤/٢/٢٢، كان الردُّ الروسيّ بضمّ شبه جزيرةِ القرم في ٢٠١٤/٣/١٨. فموسكو لا تعارضُ استقلالَ أوكرانيا السياديّ سواءً كانت حليفاً لها أو محايدة، لكنّها لا تقبل بتحولها لنقطة ارتكاز للناتو.

جاءتِ الأزمةُ الأوكرانيّة في سياقِ «الفوضى الخلاقة» الأمريكيّة على حكومة كييف المنتخبة. فكان قرار بوتين في مواجهة الأزمة بقوة الدولة العظمى، كما حدث ذلك في أوسيتيا الجنوبية وفي أبخازيا، وتكرّر في شبه جزيرة القرم عام ٢٠١٤ فضمتها روسيا إليها، حيث يؤمنُ الضم «قاعدة سيفاستبول» الإطلالة الروسيّة الوحيدة على البحر الأسود، ما يمكّن روسيا لوجستياً من الوصولِ إلى البحر المتوسط والمياه الدافئة. شكّل ضم شبه جزيرة القرم نقطة تحوّل مفصليّة في الاستراتيجيّة الروسيّة، ليس فقط على الصعيدِ الدوليّ والأوروبيّ، بل تجاه الشرق الأوسط أيضاً. ثم عاد التوتر مع أوكرانيا ليتصاعد مع استقلال جمهوريتي "دونتسك و"لوهانسك" شرق أوكرانيا الموالتين لموسكو بعد استفتاء دونباس في ٢٠١٤/٥/١١، ويقول دوغين: «لو خسرنا دونباس، فإنّنا سنفقد القرم وبعد ذلك روسيا كلها، هذه الأحداث كانت مؤشراتِ حربٍ باردة جديدة تشبه العلاقات السوفييتية-الأمريكيّة في عقود ما قبل انهيار الاتحاد السوفييتيّ. وفيما بعج الانقسام أصبح "الناتو" على أبواب روسيا حيث انضمّت دولٌ محاذية لروسيا كدول البلطيق الثلاث وبولونيا ورومانيا وبلغاريا إلى الأطلسيّ.

ومن جهة ثانية هناك رغبة روسيا المستاءة من استراتيجيّة التطويق والحصار المفروضة عليها من جانب أمريكا عبر دخول معظم بلدان أوروبا الشرقيّة في منظمة الحلف الأطلسيّ، ما دفعها أخيراً إلى خوضِ حربِ القوقازِ لاستعادةِ مجالها الحيويّ في جورجيا، وعبر إعادةِ تفعيلِ الدور الروسيّ في منطقة الشرق الأوسط، واستعادةِ موقعها على الصعيد الدوليّ، حيث تشكّلُ سوريا بوابة مهمةً إلى المنطقة بالنسبة لموسكو لما لها من دور وتأثير إقليميّ.

وخلال سنوات حكمه الطويلة ركّز بوتين في خطابه السياسيّ الموجه للشعب الروسيّ، على روسيا "القاعدة المحاصرة" لجذب الجمهور إليه، من خلال لعبه على العامل الوطنيّ. فالتأكيد على الطابع الوطنيّ، وتجييشه في نفوس الجماهير الروسيّة، من جانب بوتين، يدخل في سياق الرسالة التي يوجّهها إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة، وهي أن ثمة قاعدة جيو-سياسيّة قديمة تقول: "من يسيطر على روسيا يسيطر على أوراسيا"، أي (أوروبا وآسيا). فروسيا ترفض نشر الدرع الصاروخية في بعضِ بلدان أوروبا الشرقيّة وتركيا، وتعتبر ذلك جزءاً من استراتيجيّة التطويق والحصار لكيانها السياسيّ والجغرافيّ ومجالها الحيويّ الاستراتيجيّ، ويعتقد بوتين أنَّ مشروعَ نشرِ الدرعِ الصاروخيّة يشكّلُ تهديداً مباشراً للترسانة العسكريّة التقليدية والنوويّة لروسيا، ويُفترضُ اتخاذُ كلّ التدابير الوقائيّة والاستعداداتِ لإحباطِ أيّ عمليةِ إطلاقٍ للصواريخ الأمريكيّة أينما كانت.

يقول غورباتشوف، الذي لا تتركُ السلطةُ الراهنةُ فرصةً إلّا وتكيلُ له فيها الإهاناتِ والاتهاماتِ بالمسؤوليّة المباشرة عن سقوط الاتحادِ السوفيتيّ "إنَّ السلطةَ الراهنةَ بزعامةِ بوتين تفرضُ على روسيا وضع **"القلعة**

المحاصرة" من قبل جميعِ الذين يكرهونها. وفي طليعتهم الغرب". وتستغل المجموعة الحاكمة مناسبة النصر العظيم على الفاشية، لتمجيدِ فكرةِ الحربِ واستعدادِ روسيا الدائم لها وليس للعملِ من أجلِ السلامِ. والملفت فعلاً، انفرادُ روسيا بالاحتفالِ السنويّ بهذه المناسبة، وإقامة عرضٍ عسكريّ كبيرٍ بمشاركةِ كلِّ صنوفِ الأسلحة بما فيها الطيران الاستراتيجيّ والأسلحةُ النوويّةُ لتبعثَ برسائلِ الاستعدادِ للحربِ. ويُذكرُ أنَّ ستالين كان قد أوقفَ في عام ١٩٤٨ الاحتفالَ بهذا اليومِ وأصدر قراراً باعتباره يومَ عملٍ عاديّ. ولكن أُحتفل به في عهد ليونيد بريجنيف عام ١٩٦٥ وعادت السلطة الحالية للاحتفال بهذا اليوم وهي تتعمدُ "العسكرة، وإلى استغلال المناسبةِ وجعلها منصّةً لشحنِ المشاعرِ القوميّة الروسيّة وتنمية الشعور "بالقلعةِ المحاصرة" وعداءِ الجميعِ لروسيا، ما حوّل هذا اليوم إلى رسالةٍ تهديدٍ للآخرين. وقد علقت إحدى الصحف الروسيّة بعد الاحتفال في ٩ أيار ٢٠١٦، بالقول: "إنَّ السلطةَ الحالية حوّلت يومَ النصرِ على ألمانيا النازيّةِ إلى عيدٍ للمرحِ، بعدما كان يوماً للخلودِ للذاتِ والتأملِ في فظائعِ الحربِ ونعمةِ السلام وذرفِ الدمعِ وفاءً لذكرى الشهداءِ. وحوّل هذا اليوم على يدِ السلطة الحالية إلى مهرجانٍ لتجييشِ الشعورِ القوميّ الروسيّ والتطبيلِ للحربِ واستصغارِ شأنها وجعلها أمراً محبباً للأجيالِ الشابةِ التي تكادُ ترفع شعار: "ومن هو التالي لننتصر عليه".

رسائل استراتيجيّة تأكيداً للقوة

وسّع حلفُ الناتو مجالَ عمله بانضمامِ بلدان الجوارِ، وأضحت على مشارف روسيا، فكان الردُّ الروسيّ بعودةِ تحليقِ القاذفاتِ الاستراتيجيّةِ إلى أوروبا وقال الرئيس بوتين في ٢٠١٤/١١/١٨ لقناة ARD الألمانيّة: "قررنا بعد عام ١٩٩٢ وقفَ تحليقِ طائراتنا الاستراتيجيّةِ، فأصبحت جاثمةً في المطاراتِ، وفي الوقتِ نفسه استمرَّ

> **روسيا في نظر دوغين وسوركوف، مثلها كمثل الاتحاد السوفييتيّ، يجب أن تكونَ «إيديوقراطيّة» (نظامَ حكم يقومُ على الأيديولوجيا) تحكمُها أقليّةٌ مقدّسةٌ تقود البلادَ نحو تحقيقِ هدف ما غير معروف إلا لهم، وفي الواقعِ فإنّ معظمَ أصحابِ المناصبِ الرفيعةِ الذين يعتمدُ عليهم بوتين في قيادةِ البلاد هم أعضاءٌ بالحزبِ الشيوعيّ ومن المؤسسةِ الأمنيّةِ والعسكريّة ويُشار إليهم باسم «طبقة النومنكلاتورا الجديدة».**

الطيرانُ الأمريكيُّ بالقيامِ بالدورياتِ المنتظمةِ على المساراتِ السابقة وخاصةً على مقربةٍ من حدودنا لهذا استأنف طيراننا التحليقَ في مناطقَ بعيدة".

وعلى نحوٍ غير مسبوقٍ اقتربت طائرةٌ روسيّةٌ حربيّةٌ في ٢٠١٤/١٢/١٢ من طائرةِ الخطوطِ الإسكندنافيّةِ في الأجواءِ الدوليّةِ جنوب السويد، ولم تستجبِ الطائرةُ الروسيّة لنداءاتِ السلطاتِ السويديّةِ، وما بين آذار وتشرين الثاني ٢٠١٤ رصدت شبكةُ القيادةِ الأوروبيّةِ ٤٠ حادثة تورط بها سلاحُ الجو الروسيّ، والسفنُ الروسيّةُ، وفي سلوكٍ استفزازيّ ينطوي على عرضِ القوةِ عاود طيران قاذفاتِ تو-٩٥ الاستراتيجيّةِ الروسيّةِ للتحليق عام ٢٠٠٧، باتجاه السواحلِ الأمريكيّة بغايةِ اعتراضِ مهامِ القواتِ الأمريكيّةِ في البحارِ.

لا تدّخرُ موسكو مناسبةً لتؤكدَ حيازتها لقوةِ الردعِ على المستوى الدوليّ، وتتطلع إلى

> **صراعَ روسيا مع الغرب تاريخيّ يعودُ إلى القرونِ الأولى لاعتناقِ روسيا للمسيحيّة. لكن غالبية الروس تؤمن عميقاً برسالةِ روسيا الروحيّة بإنقاذ العالم من الماديّة التي أوصلها إليه الغرب. ولهذا تنفرد روسيا بين دول العالم التي لا تنادي قيادتها الحالية بالحداثةِ والإصلاحِ، بل تدعو إلى الحفاظِ على «قيمِ المجتمعِ الروسيّ الروحيّة» بوجهِ «الانحطاطِ والتفككِ» في المجتمعاتِ الغربيّة**

أن تشكّل رافعةَ قوةٍ لسياستها الخارجيّة. فقد دشّن فلاديمير بوتين حملته الانتخابيّة في ٢٠١٨/٣/١ أمام المجمعِ الفيدراليّ مرحلةً جديدةً من المواجهة مع واشنطن، إذ كشفَ خلالها النقابَ عن حيازةِ روسيا أسلحة استراتيجيّة نوويّة جديدة لا يمكن اعتراضها أو مجاراتها، وتطويرِ صاروخ كروز جديد وصفه بأنّه "لا يُقهر" وهو صاروخ "كينجال" أو الخنجر القناص عالي الدقة، ذي السرعة الخياليّ (١٠ماك/سا) والذي يمكن تحميله للطائرة ميغ-٣١ وهو مخصّص لتدمير كل أنواع القطع البحريّة، ويمكنه الوصول إلى أيّ مكانٍ بالعالم. وأكد أنّ الفترةَ المقبلةَ ستَحملُ ما وصفه بشعارِ "الانتصاراتِ المشرفة"، فقد أراد بوتين أن يكسب المعركة من غير قتالٍ وعبر التهديدِ، وهو ردٌّ مباشر على الاحتفاليةِ بالانتصار الذي جرى في واشنطن وإعلان مشروع "أمريكا للقرن الجديد"، وهو "نصرٌ بلا حرب" الذي تحدّث عنه الرئيس الأمريكيّ ريتشارد نيكسون في كتابه، وقال "التفوقُ الاقتصاديّ لا يغني بأيّ حال عن العسكريّ لأنّ موازين القوى العسكريّة تحكمُ العلاقاتِ الدوليّة، ومثال ذلك: اليابان القوية اقتصادياً، لكن لا يمكنها مجاراة الولايات المتحدة في نفوذها العسكريّ". رسالة بوتين قرأها أعضاءٌ بمجلس الشيوخ من الحزب الديمقراطيّ، فكتبوا رسالة لوزير الخارجيّة ريكس تيليرسون قالوا فيها: إنَّ الوقت قد حان لمفاوضاتٍ استراتيجية مع روسيا.

استأنفت روسيا إنتاج القاذفة الخطرة تو-١٦٠، والمسماة **"ناقلة الصواريخ"** تحليقها، وتجاوز مدى رحلاتِ طيرانها أجواءَ بحرِ البلطيق وأوروبا غرباً، لتحلقَ في كانون الثاني ٢٠١٩ شرقاً فوق المحيط المتجمّد الشماليّ قريباً من الحدودِ الأمريكيّةِ. وفي إطارِ التعاونِ العسكريّ مع فنزويلا وصلت قاذفتان استراتيجيتان تو-١٦٠ وطائرة نقل إيل-٦٢ إلى البحرِ الكاريبيّ، وأُعيدت التجربةُ لاحقاً في ٢٠١٨/١٢/١٣.

في الاجتماع السنويّ لقيادات القواتِ المسلّحة في ٢٠١٨/١٢/٢٧ أعلن سيرغي شويغو بأن القوات البريّة استلمت ٢٢٠٠ نموذجاً من الأسلحة والمعدات الحديثة المطورة، وذكر نسبة التزويد بالأسلحة الحديثة لكلّ صنوف القوات، بما فيها الصواريخ الاستراتيجية ومنظومات الدفاع الجويّ ودعم القوى الجويّة والفضائيّة الروسيّة. حديث بوتين هو ردٌّ مباشرٌ على الاستراتيجيّة الدفاعيّة والنوويّة الجديدةِ للبنتاغون، ويمكن وصفه بسباقِ تسلّحٍ جديدٍ بين موسكو وواشنطن، إذ يستعيرُ مفرداتِ الحربِ الباردةِ ويذكر بها، ويبدو أنّ الرئيسَ بوتين ينتهجُ أيديولوجيةً سياسيّةً جديدة يرجّح مبدأ المصلحة السياسيّة بغطاءٍ براغماتيّ، لاستعادةِ الأمجادِ السوفيتيّةِ السابقةِ.

ففي ٢٠١٩/١٢/٢٤ قال الرئيس بوتين في اجتماعٍ موسّع في وزارة الدفاع: "إنّ الأسلحةَ والمعدّاتِ العسكريّةَ الروسيّةَ يجب أن تتفوّقَ على مثيلاتها الغربيّةَ من حيث

النوعيّةِ، فالتعادلُ لا يمكن أن يرضيَ روسيا". وأكّد مواصلة تطوير الجيش والأسطول البحريّ وتحديثَ معداته بنسبة ٧٠٪ العام المقبل.

في ٢٠١٩/١٢/٢٧ بدأت روسيا والصين وإيران مناورات عسكريّة بحريّة مشتركة في بحر عُمان، في رسالة ذات دلالة بعيدة تبدأ من أهميّة الخليج بالنسبة للولايات المتحدة والتأكيد على رسم حدود المواجهة بين محورين، في عالمٍ يتغيّر.

رسائلُ الميدان السوريّ واختبارُ الأسلحة

منذ وصوله إلى السلطة في خريف ١٩٩٩، أثناء حرب الشيشان الثانية، لم يخفِ فلاديمير بوتين نواياه. بل إنّه تفاخر صراحةً بطرحِ مفهومه للسياسة الخارجيّة وفكرته عن روسيا ورؤيته للعلاقاتِ الدوليّة. وقد طبعت فلسفته السياسيّة بتكوينه زمنَ الاتحادِ السوفييتيّ وعمله في الاستخباراتِ الروسيّة في ألمانيا الشرقيّة. ولا ينفكُّ يشيرُ في أحاديثه إلى مرجعيّةِ الاتحاد السوفييتيّ وأن تأخذ روسيا دوره، وهذه المرجعية لا تتعلقُ فقط بالحنين إلى نظامٍ يعي بوتين ضروراتِ تطوّره الحديثِ، بل بتحليلِ موازين القوى الراهنةِ وإجراء مقارنةٍ مع الولايات المتحدة كمبنىً أساسيّ للسياسة الخارجيّة، فالاتّحادُ السوفييتي كان قوةً عظمى مقتدرةً لعبت دوراً منسجماً مع مكانتها التاريخيّةِ. وأدّى انهياره، ليس كنموذج لتنظيمِ للمجتمعِ، وإنّما كعاملِ تنظيمٍ واستقرارٍ للنظام الدوليّ، إلى إعادةِ توزيعِ الأوراقِ لمصلحةِ الغربِ عامة والولايات المتحدة الأمريكيّة خاصة.

في خطابه السنويّ في البرلمانِ، في ٢٠٠٥/٤/٢٥ وصف الرئيسُ؛ فلاديمير بوتين انهيارِ الاتحادِ السوفييتيّ بأنّه «الكارثةُ الجغرافيّةُ العظمى في هذا القرنِ، بالنسبةِ للأمّةِ الروسيّةِ، كان ذلك مأساةً فعليّة». ولا يخفى في كلامِ بوتين الحنينُ إلى الحقبةِ الشيوعيّةِ، وليكون أحد أهم عناوين سياسةِ المستقبلِ، وتطويرِ سياسةٍ خارجيّةٍ تقومُ على التعاونِ مع الصينِ والهندِ والعالمِ الإسلاميّ.

لا شكَّ أنّ الرئيس الروسيّ بوتين يعتبر أنَّ بلادَه المستهدفةُ الأولى من قبل الإرهابِ الدوليّ المرتكز على الجماعاتِ الإسلاميّةِ المتشددة، ولديه مخاوف من دورٍ قادمٍ للإسلاميين، على خلفيةِ الحساسيّةِ الخاصةِ من التياراتِ الإسلاميّةِ التي ارتبطت بشكلٍ مباشر أو غير مباشر بالوضع الروسيّ الداخليّ، خلال الحربِ على التطرّفِ والنزعات الانفصاليّةِ شمال القوقاز. فالتياراتُ التي بدأت معتدلة في هذه المنطقة مالت إلى لتطرفِ الدينيّ لاحقاً، ولكن الساسةُ الروس يربطُونَ نشوءَ الجماعاتِ الجهاديّةِ بواشنطن اعتباراً من دعمِ الجهاديين الأفغان خلال حقبةِ الاحتلالِ السوفييتيّ لأفغانستان، ويعتقدون أنّ وجودَ «داعش» جزءٌ من خطةٍ أمريكيّةٍ، ويستشهدون باعترافِ بريجنسكي مستشار الأمن القوميّ أنّ الرئيسَ الأمريكيّ كارتر فوّضه بتمويلِ المجاهدين في أفغانستان ضدَّ الاتحادِ السوفيتيّ. والحلُّ لمواجهةِ التهديدِ الأمريكيّ، إظهارُ قوةِ روسيا، دون التعويلِ على الجهدِ الدبلوماسيّ.

في تدخّلها العسكريّ في سوريا أرادت موسكو اختبارَ أسلحتها الحديثةِ والترويج لها لاختراقِ سوقِ السلاح، واستعراضِ قوتها ونشرت منظومة الصواريخ إس-٤٠٠، لتبعثَ رسائلَ للداخلِ والعالمِ عن قوتها العسكريّة وأساطيلها، فاختبرت أحدث ما في ترسانتها العسكريّة وتكنولوجيتها الجديدة.

وكشفت تصريحاتُ المسؤولين الروس جوانبَ مهمةً من أهدافِ تدخلِ موسكو في سوريا. ففي ٢٠١٥/١٢/٧ أعلن يوري بوريسوف نائب وزير الدفاع الروسيّ أنّ "الدولَ الأجنبيةَ اصطفّت في طابورٍ لشراءِ الطائراتِ الروسيّة، التي أظهرت قدراتها في سوريا، مثل القاذفة سو-٣٤.

> **خرج المعسكر الاشتراكيّ مثخنَ الجِراحِ وبخسائرَ كبيرةٍ، وإن لم يُهزم بالنتيجةِ، وفي كلتا الحربين لم يكنِ الصراعُ العالميُ أيديولوجيّاً صرفاً بين الرأسماليّةِ والاشتراكيّة، بين قوى البر والبحر، بل كان الدافعُ هو الجغرافيّا والمصالحُ التي تترتبُ فوق أرضيّةِ الجغرافيّا. كما كان غزو أفغانستان محاولةً لترميمِ هذا الخللِ، وبعد عشرِ سنوات من الاحتلال مُنِيَ الجيش السوفييتيّ بالهزيمة أدّت إلى تفككه**

المفارقةُ أنَّ المعركةَ التي تخوضُها موسكو لا تحتاجُ كلّ تلك الأنواعِ الحديثة من الأسلحة. ولكنها أرادت استعراضَ ترسانتها الصاروخيّة، واختبار أحدثِ أنواعِ الأسلحة التي أنتجتها في ظروف المعركةِ الفعليّة، ونقلت وسائلُ إعلامها إطلاقَ صواريخ «كاليبر» من بحر قزوين، كما استخدمت غواصاتِها لإطلاقِ صواريخ مجنّحة. وأشار الرئيس الروسي بوتين، في مؤتمره الصحفيّ السنويّ في ٢٠١٥/١٢/١٧، إلى أنّ العملياتِ في سوريا «تعدُّ تدريباتٍ عسكريّةً منخفضةَ الكلفةِ في ظروفِ حربٍ حقيقيّةٍ». إذ لم تتحمل موسكو كلفة إضافيّة فقد أعلن الرئيسُ بوتين أمام العسكريين العائدين من سوريا، أنّ تمويلَ الحربِ في سوريا تمّ بتحويلِ ميزانيّة وزارة الدفاع المخصصة للتدريب والمناورات. ومنذ التدخلِ الروسيّ وحتى ٢٠١٩/١١/٣٠ اختبرت موسكو حوالي ٦٠٠ قطعةَ سلاحٍ مختلفةَ الأنواعِ وأجرت تعديلاتٍ على الحوّاماتِ. وعلّق نيقولاي بيتروف على الحربِ السوريّة في مقال بعنوان "سقوط بوتين: الأزمة القادمة للنظام الروسيّ" فقال: "بالنسبة لروسيا التدخلُ في سوريا يشبهُ لعبةَ كمبيوتر، فهي حربٌ بلا كلفةٍ، ولا تتطلّبُ ضحايا من الشعب الروسيّ».

باستعراضِ أنواع الأسلحةِ التي حضرت بها موسكو إلى سوريا، نجد ثقلاً نوعيّاً يتجاوزُ أهدافَ المعركةِ المرادِ خوضُها، لتحملَ دلالاتِ مواجهةٍ ذاتِ مدى يتجاوزُ الميدان السوريّ، فقد استقدمت طائرات سو-٢٥ وحوامات مِي-٢٤ لتأمين الدعمِ الجويّ للقوات البريّة في عملياتها ضد قواتِ المعارضةِ المسلحةِ، فيما المقاتلاتُ سو-٣٤ لحمايةِ المنطقةِ الساحليةِ، وبعد إسقاطِ القاذفةِ سو-٢٤ في ٢٠١٥/١١/٢٤ أضافت منظومةَ صواريخ إس-٤٠٠. كما حرّكت موسكو قطعاً من أسطولِ البحر الأسودِ إلى شرق المتوسط بما فيها حاملة الطائرات كوزنيتسوف، وأحضرت منظوماتِ أسلحةٍ لا علاقةَ لها بطبيعةِ المعركةِ، بل الهدفُ إغلاقُ مناطقِ سيطرةِ الجيشِ السوريّ بإنشاءِ منطقةِ حظرٍ جويّ فوقها. وبتجميع الصورةِ يتضحُ أنّ موسكو تسعى إلى دفعِ الأطرافِ الميدانيّةِ والسياسيّةِ والدول الإقليميّة الداعمة للقبولِ بنموذجِ الحلِّ الذي تقدّمه وفقَ منطقِ القوةِ، ما يعيدُ للأذهانِ العبرةَ المستفادةَ من حربِ البوسنة، عندما دفعتِ الولاياتُ المتحدةُ أطرافَ النزاعِ لتوقيعِ اتفاقِ "دايتون" للسلام في ١٩٩٥/١٢/١٤، بعدما شنّ الناتو بقيادةِ أمريكيّةً غاراتٍ جويّةً مكثّفةً على صربِ البوسنة اعتباراً من ١٩٩٥/٨/٣٠.

ماذا ومن بعد بوتين؟

وجود بوتين على رأس هرم السلطة في بلدٍ تمسك الدولة بقوة على ملكيّة الموارد الطبيعية الهائلة، وتتحكم بكلِّ وسائلِ الإعلام، وفي ظلِّ قبضةٍ أمنيّة شديدة، يستبعد

إمكانية أن تطيح به أيّة انتخابات، إضافة إلى التوق الحاد لإظهارِ القوّة والنفوذ في مرحلة ما بعد الاتحاد السوفييتيّ. فيما تعزّز ظروف التنافس والسياسة الأمريكيّة لاستهداف التوازنات الدوليّة من ثبات النزعة «البوتينيّة» في روسيا.

خلال الحملة الانتخابيّة الثالثة وصف «كيريل» بطريرك عموم موسكو الرئيس الروسيّ بأنّه «معجزة الرب»، مضيفاً: «إصلاحيّ أرسلته العناية الإلهيّة لينقذ البلاد». وبذلك فالبطريرك يصعّب مهمة إيجادِ البديلِ، ويضفي على الرئيس هالات القداسة، ليتجاوز الاختبار الانتخابيّ. لكن ماذا بعد أن استوفى الرئيس فرص الترشح؟ هل من الممكن أن يُلوى عنقُ الدستورِ فيُعدّل مجدداً ليبقى الرئيس، فالرئاسة الروسيّة كانت محدّدة بأربع سنوات، وتمّ تعديلها لتصبح ست سنوات مع ولاية بوتين الثالثة.

لكن بمرور الوقت فإنّ ثمة قلقاً سيزداد لجهة مستقبل السياسة الروسيّة، مع استنفاد بوتين فرص الترشح للرئاسة، إلا بعد تغيير الدستور، إلا إذا اقتدى بالرئيس الصيني شي جين بينج وجعل الرئاسة أبديّة، في عام ٢٠٢٤.

أسس فلاديمير بوتين نظامَ حكمٍ مطلقٍ قوامه الفرد القائد للدولة والأمة، وتمكّنَ من الإمساكِ بكلِّ مراكز القوة وتطويعِها لتتحوّلَ إلى أدواتٍ في إمبراطوريته، ليعودَ بروسيا إلى مرحلةِ ما قبل الشيوعيّة حيث نظامُ الاستبدادِ الفرديّ، والذي استندت إلى ثنائيّة الهويةِ الأرثوذكسيّة والحق الإلهيّ للقيصر بالحكمِ، وكان آخر رموزها القيصر نيكولاي الثاني الذي رفضَ احتواءَ المتغيراتِ الاجتماعيّة والثقافيّة التي وصلت إلى روسيا وكانت نتيجة التحولاتِ الكبرى التي عصفت بالعالم بعد الثورةِ الصناعيّة، ومن المؤكد أنّ الصورةَ على سبيلِ المقاربةِ وليس المطابقةِ، ذلك لأنّ ثمّة إصرارٍ من الكرملين على القراءة التقليديّة للمجتمعِ الروسيّ، ورفضٍ لقراءةِ الواقع المتغيّر والمعولم، واعتبارها منقطعةَ الصلةِ عن المجتمعِ والميراثِ الثقافيّ الروسيّ، وسعي مستمرٍ لعزلِ هذه التوجهات وإدانتها بالانسلاخِ عن الهويةِ والعمالةِ للغربِ، بالتوازي مع التأكيد على الولاء لقائدٍ يتبنّى أيديولوجية تحقّق وحدة الأمة والجغرافيا. وبذلك تترسّخُ سلطةُ الفردِ عبر التماهي المجتمعيّ في شخصه.

وإذا كان بالإمكانِ في الحقبةِ السوفييتيّة التكهن بشخص الزعيم القادم فهو أحد شخصياتِ الإطار الضيقِ المحصور بالمكتب السياسيّ للحزب الشيوعيّ، إلا أنّه يصعب التكهن بخليفةِ بوتين، كما لم يستطع حزب روسيا الموحّدة أن يكون إطاراً سياسيّاً جامعاً كالحزب الشيوعيّ سابقاً، وهذا ما خلق مشاعر القلقِ حول المستقبل والخوفِ من فقدان التوازنِ بغيابِ القائد وضبابيّة الرؤية في مرحلة ما بعد البوتينيّة، ولكنه بنفس الوقتِ مؤشر عقمٍ سياسيّ. ذلك لأنّ دولة الإيديوقراطيّة التي يقودها بوتين قوامها منهجه السياسيّ، وليست نظريةً ثابتةً، ونزول بوتين عن مسرح الأحداثِ يفتحُ المجالَ أمام المعارضةِ التي صمتت مرغمةً نحو ربعِ قرنٍ ولديها الكثيرُ لتقوله «إن» أُتيحت لها الفرصةُ.

حزب القبيلة أو قبيلة الحزب؟



بولات جان

التمهيد

يتناول الكاتب في هذا البحث القبيلة من حيث هي الشكل الأقدم للتنظيم البشري في الشرق وأثرها على شكل العلاقات الفردية والجماعية والتفكير لدى كافة المجتمعات في الشرق حتى يومنا هذا تأثيرات العقلية القبلية مؤثرة جدا على معظم شعوب الشرق وتظهر جليا في اشكال التنظيم والعلاقات الاسرية والسياسية والحكومية والإدارية ليبين بذلك العلاقة بين الحياة الحزبية والعقلية القبلية في مناطق الشرق الأوسط واثر ذلك على الحياة السياسية عامة ودور المجتمع في ممارسة السياسة والرقابة والعمل العام وتبيان ما ينجم عن منع تأسيس الأحزاب في بعض

بلدان الشرق بوصفها جريمة واهانة واستغفالا بالعقول ما يتسبب في ضمور الحركات الحيوية في المجتمع ليقوم بعدها بمقارنة بين أحزاب السلطة وأحزاب المعارضة على ضوء هذه العقلية القبلية حيث يرى بأن الأحزاب في الشرق تسعى بالدرجة الأولى الى الحكم فهي متشابهة في الكثير من النواحي وخاصة في مقارباتها للديمقراطية الحقيقية ودعاياتها التي تسعى من خلالها الى كسب الجماهير .ليكشف العقد والمشاكل البنيوية والأزمات المزمنة وازدواجية القول والفعل التي تعاني منها الأحزاب في الشرق الناجمة عن عقلية حزب القبيلة وقبيلة الحزب وما تمخض منها من حكومات استبدادية ودكتاتورية في الشرق واثرها على دور وعمل الأحزاب السياسية وحالة التخبط واللامسؤولية في تشكل الأحزاب دون وجود برامج واضحة واستراتيجية وأفكار خاصة بها لتدخلها في حال العطالة السياسيّة وفوضى تراكم الأحزاب وازدحامها وتشظّيها دون أيّ دواعٍ اجتماعيّة وسياسيّة وإستراتيجيّة .

ليخلص الى نتيجة أنّ الفوضى السياسيّة وتشتّت الأحزاب وحالة اللا استقرار، تشكّل الحاضنة التي تفرّخ الدّيكتاتوريّة والاستبداد والعقليّة المركزيّة في الشرق. والحال هذه؛ فإنّ الشرق ينتقل من فوضى الدّيكتاتوريّة إلى ديكتاتوريّة الفوضى.

ـالحياة الحزبية والعقلية القبلية

تُعَدُّ القبيلة والقبليّة كأقدم شكل تنظيميّ وأوسعه انتشاراً وأكثره تأثيراً في الشرق على وجه العموم. ويمكن القول بأنّ القبليّة هي النواة التنظيميّة الأولى التي عرفتها البشريّة في الشرق الأوسط منذ أقدم العصور. والقبليّة مؤثّرة جدّاً على شكل العلاقات الفرديّة والجماعيّة والتفكير والولاء والحرب والالتزام لدى كافّة المجتمعات في الشرق، حتّى يومنا الرّاهن، رغم تراجعها التنظيميّ في بعض مناطق الشرق لصالح المدنيّة والدّين والأحزاب.

وللقبيلة إطارها التنظيميّ المحدَّد، والذي تتشابه فيه كلّ القبائل في الشرق، لا بل في كلّ العالم. وكأنّ كلّ القبائل تسير وفق برنامج عمل موحّدٍ وأنّ لها مانيفيستو خاص بها وتلتزم به، مع وجود اختلافات طفيفة هنا وهناك. كما أنّ للقبيلة قيمها وأخلاقها وعاداتها وأسسها الماديّة والمعنويّة والثقافيّة. وللقبيلة أيضاً مقارباتها الماليّة والاقتصاديّة، وكذلك سياساتها الخاصّة بها، كما لها قواعدها الصارمة جدّاً والتي لا يمكن لأحد الإخلال بها أو محاولة تحييدها أو المساس بجوهرها وحتّى شكلها وشكليّاتها. كما أنّ للقبيلة واجباتها الواضحة والصريحة تجاه كلّ الأفراد والأسر المنضوية تحت رايتها، وهي كثيراً ما تكون مؤلّفة من بطونٍ وأفخاذٍ عديدة ومترابطة فيما بينها بصلة القُربى ورابطة الدّم. أي أنّها من جدٍّ أو أبٍ مشترك. لذا فإنّ النظام القبليّ هو نظام بطريركيٌّ واضحُ المعالم.

لأفراد القبيلة واجباتهم المحدَّدة والصريحة تجاه القبيلة، وتجاه مصالح وشرف وعادات وأعراف القبيلة، وأهمّ من كلّ ذلك هو التزامهم وولاؤهم المطلق لرئاسة القبيلة و زعيمها.

الزّعيم أو رئيس القبيلة أو شيخها أو أميرها أو أيّة تسمية أخرى «الباشا، الآغا، السيّد، الخان، المير، البيك، الرّئيس، الشيخ...إلخ» يمثّل رأس الهرم، أو بالأحرى الهرم الطبقيّ الأعلى والأوحد ضمن القبيلة. فَلِكُلِّ قبيلَةٍ زعيمها الكبير، ولكلّ زعيم حاشية ومستشارون من وجهاء وسادة وأغنياء وشجعان القبيلة. زعماء القبيلة ووجهاؤها كثيراً ما يكونون من ذوي التجربة والخبرة والكاريزما والعُمُر الكبير. لذا، فإنّ الحكم أو القيادة في القبيلة تكون سلطة جينوقراطيَّة «سلطة العجائز»، بينما يكون دور القادة العسكريّين أو الفرسان منوطاً بالأقلّ عمراً من شباب القبيلة.

للشيخ أو رئيس القبيلة السلطة المطلقة بين أفراد القبيلة وبطونها، وعلى الجميع الالتزام التام بقرارات وتوجيهات وأوامر الزّعيم. كما عليهم كيل المديح للزّعيم والتغني بشجاعته ومهاراته وفضائله. وكثيراً ما يرتبط اسم القبيلة باسم رئيسها وزعيمها، أو على الأقلّ باسم مؤسّسها وزعيمها الأول.

كثيراً ما تندلع حروب بين القبائل المختلفة. وتكون أسباب الصراع، إمّا النزاع على المرعى أو مصادر المياه أو الأراضي الزراعيّة أو المصالح التّجاريّة. وكثيراً ما تكون حروباً عبثيّة حول أسباب تافهة او مضحكة لا معنى أو مبرّر لها، كحرب البسوس التي استمرّت أربعين عاماً بسبب ناقة، وأحياناً بسبب امرأة أو تطاول أحد من أبناء قبيلة ما على زعيم أو ابن زعيم أو إحدى فتيات القبيلة الأخرى. حينها تندلع أوّار الحرب الطاحنة بين القبائل وأحياناً تتحالف عدّة قبائل مختلفة في أحلافٍ دائمة أو مؤقّتة ضدّ بعضهم البعض.

في الصراعات القبليّة، العسكريّة منها والاجتماعيّة، تتحوّل القبائل المتخاصمة إلى أشبه بِفرقاء كرة القدم اليوم أو مشجّيعهم. فكلّ قبيلة تسخَرُ من القبيلة الأخرى، تسخَرُ من لباسهم وأسمائهم وفرسانهم وبناتهم ورئيسهم، وتُعيّرهم ببعض الهفوات والأخطاء و تلصق بهم الألقاب و النعوت السلبية.

كافّة الأفراد مُلزَمونَ باتّباع السياسة العامّة للقبيلة والسير وفق أوامر وقرارات الوجهاء والزّعيم، وأيّ خرقٍ أو إخلالٍ بذلك، قد يؤدّي إلى الغضب القبليّ وقد ينتهي بالطرد أو حتّى القتل.

وفي حال اندلاع الخلافات الداخلية بين الوجهاء أو أبناء العمومة أو الأخوة في الزعامة وعلى الرّئاسة، فإنّ النتيجة دائماً تكون بالانشقاق وانقسام القبيلة إلى قبيلتين مختلفتين، وربّما

"التحوّل القوميّ والوطنيّ بحاجة إلى تجاوز لمفهوم القبليّة والولاء القبليّ إلى ما وراء أو بعد القبليّ. فالشعوب التي تكون القبليّة فيها قويّة ومتجذّرة، فإنّ الولاء الوطنيّ أو القوميّ يكون ضعيفاً. ففي أفغانستان وكردستان والبلدان العربيّة، وخاصّة الخليجيّة منها، تكون القبليّة أكثر تأثيراً من الولاء الوطنيّ والقوميّ. التأثيرات القبليّة القويّة عند بعض شعوب الشرق كانت السبب الرّئيسيّ في تأخّر تحوّلها الوطنيّ والقوميّ."

معاديتين ومتحاربتين لعقود من الزمن. لذا نرى حتّى يومنا هذا أنّ أكثر القبائل المتخاصمة والمتعادية هي القبائل التي انقسمت من قبيلة واحدة.

يكون الولاء الأعلى للأفراد في القبيلة هو للقبيلة، لذلك فإنّ القبيلة تعيق الكثير من الشعوب عن التحوّل إلى الحالة الوطنيّة أو القوميّة. فالتحوّل القوميّ والوطنيّ بحاجة إلى تجاوز لمفهوم القبليّة والولاء القبليّ إلى ما وراء أو بعد القبليّ. فالشعوب التي تكون القبليّة فيها قويّة ومتجذّرة، فإنّ الولاء الوطنيّ أو القوميّ يكون ضعيفاً. ففي أفغانستان وكردستان والبلدان العربيّة، وخاصّة الخليجيّة منها، تكون القبليّة أكثر تأثيراً من الولاء الوطنيّ والقوميّ. التأثيرات القبليّة القويّة عند بعض شعوب الشرق كانت السبب الرّئيسيّ في تأخّر تحوّلها الوطنيّ والقوميّ.

مازالت حتّى يومنا الرّاهن تأثيرات العقليّة

القبليّة مؤثّرة جدّاً على معظم شعوب الشرق، وهذه التأثيرات تظهر جليّاً في أشكال التنظيم والعلاقات الأسريَّة والسياسة والحكوميّة والإداريّة. لذا؛ فإنّ هناك علاقة وثيقة بين الحياة الحزبيّة والعقليّة القبليّة في الكثير من المناطق في الشرق، وخاصّة في الأردنّ ومصر وسوريّا والعراق وإيران وتركيّا، وطبعاً في دول الخليج «رغم انعدام الحياة الحزبيّة في الكثير من هذه البلدان»، ولا ننسى كردستان واليمن وليبيا ...إلخ.

يُعدُّ الحزب تنظيماً سياسيّاً عمليّاً، وأداة للوصول إلى الأهداف المرجوّة من قبل أصحابه. وهو يمثّل مصالح فئة أو شريحة أو طبقة أو مذهب أو منطقة أو لإثنيّة أو قوميّة ما. والحزب يمثّل الجزء من الكلّ، وقد يكون الجزء كبيراً أو صغيراً، ولكنّه يمثّل جزءاً وليس كلّاً. أي ليس هنالك أحزاب تستطيع أن تمثّل لوحدها إقليماً بكامله على أرض الواقع حتّى ولو كان يدَّعي ذَلِكَ نظريًّا. وليس بمقدور حزب ما تمثيل أمّة أو قوميّة أو شريحة ما بأكملها لوحده. لذا، فمن الطبيعيّ وجود العديد من الأحزاب في البلد أو الإقليم أو ضمن الطبقة الواحدة. فكما لا يمكن التفكير بمجتمع ذي لون واحد فقط، دون تناقضات وأنّه متجانس تماماً، كذلك لا يمكن بمقدور حزب أو تنظيم سياسيّ ما تمثيل ذلك المجتمع بأكمله، دون منازع ودون معارضة أو استقطاب واستبعاد.

كما لا يمكن التفكير بمجتمع أو شريحة أو فئة ما لا تجد في نفسها الحاجة إلى تنظيم نفسها ضمن منظّمة، جمعيّة، حزب، مؤسّسة، مؤتمر، اتّحاد أو أيّة منظّمة اجتماعيّة، سياسيّة وثقافيّة. فمن واجب المجتمع أن يكون صاحب الكلمة الفصل في الحياة بكلّ تفاصيلها وتنويعاتها ومناحيها. فالمجتمع ملزمٌ بممارسة السياسة والرّقابة والعمل العام. لذا، فإنّ منع تأسيس الأحزاب أو عدم وجود الأحزاب في بعض بلدان الشرق، تُعدُّ جريمة وإهانة واستِغفالاً بِالعُقولِ ما يَتَسَبَّبُ في ضمور الحركات الحيويّة في المجتمع. كما أنّ أنظمة الحزب الواحد «كما كانت عليه الحال في تركيّا الكماليّة حتّى خمسينات القرن الماضي، وفي عراق صدّام حسين وفي سوريّا والعديد من البلدان الأخرى، تُعدُّ جريمة كبرى، وهي في الوقت نفسه تمثّل ذروة الديكتاتوريّة والنمطيّة وفرض اللون والنمط والشكل الواحد في الاعتقاد والتفكير والممارسة على الناس جميعاً.

الحزب هو أداة تنفيذيّة لأجل تحقيق مصالح فئة أو شريحة أو طبقة أو منطقة أو قوميّة ما من القوميّات في ضمان حقّها في الممارسة العمليّة العامّة، وحماية مكاسبها وتطبيق إستراتيجيّتها والدّعاية لإيديولوجيّتها وعقيدتها بين الجماهير.

فالحزب ليس هدفاً ولا مقدّساً ولا ألوهياً لا يمكن تغييره أو المساس به أو انتقاده أو مراجعته، بل هو مجرد وسيلة وأداة لتحقيق المصالح والأهداف فقط.

والحزب ليس الأداة والوسيلة الوحيدة لممارسة المجتمع لحقّه السياسيّ والمشاركة في خلق الضغط أو توجيه الرّأي العام، أو المشاركة في الحكم والإدارة، أو حماية حقوقه وخصوصيّاته، فهنالك النقابات والاتّحادات والتعاونيّات والجمعيّات والمبادرات والتّحالفات والمجالس واللّجان والهيئات، وهي جميعاً شكل من أشكال التنظيم الاجتماعيّ الذي من خلالها تستطيع المجتمعات والأفرادُ العَمَلَ والتنظيم وفق ميولهم وعقائدهم واحتياجاتهم وأهدافهم وظروفهم ومساعيهم. ولكن هذا النوع من التَّنظيماتِ قليلٌ جدّاً في الشرق، أو بالأحرى خامل غير ذات فاعليّة، وكثيراً ما تكون صوَريّة شكليّة لا دور لها. فالشرق يعتقد بأنّ الطريقة الوحيدة لممارسة السياسة والنشاط العام يمرّ فقط عبر الأحزاب والبرلمانات والوزارات.

تسعى الأحزاب في الشرق بالدّرجة الأولى إلى

الحكم، ماعدا بعض الأحزاب القوميّة التي تناضل لأجل نيل الحقوق القوميّة كمرحلة أولى من عملها الحزبيّ «مثل الأحزاب الكرديّة والأمازيغيّة والفلسطينيّة والبلوشيّة». أحزاب السلطة والمعارضة في الشرق كثيراً ما تكون متشابهة في الكثير من النواحي، وخاصّة في مقارباتها للدّيمقراطيّة الحقيقيّة ودعاياتها التي تسعى من خلالها إلى كسب الجماهير؛ بهدف الاستفادة منها في الانتخابات. فالأحزاب في الشرق لا ترى في الجماهير سوى مستودعات للأعضاء الجُدُد والأصوات الانتخابيّة وقوّة ضغط تنافس بها خصومها.

الأحزاب في الشرق تحمل الكثير من العُقَد والمشاكل البنيويّة والأزمات المزمنة، وكذلك تعاني من الازدواجيّة بين القول والفعل، بين الظاهر والمستورَ، بين أقوالها قبل الانتخابات وبعدها، بين مقارباتها أثناء وجودها في المعارضة وتقلّبها بعد الوصول إلى سدّة الحكم. كما أنّ الأحزاب، ورغم مزاعمها بتمثيل مصالح أكبر عدد ممكن من الشرائح الاجتماعيّة، إلا أنّها في الحقيقة لا تخدم سوى النخبة المسيطرة على الحزب، وما الخلافات الدّائمة بين قادة ومؤسّسي الأحزاب الأوائل وانشقاقاتهم وصراعاتهم وتصفية بعضهم البعض؛ إلا البرهان الساطع على هذه الحقيقة الجوهريّة.

الأحزاب في الشرق وخاصّة فروعها و ممثلياتها في الأرياف والمناطق الدّاخليّة، متأثّرة بشكل كبير بالحالة والمزاج والعقليّة القبليّة. ففي حال وضعتَ الحزب تحت المجهر من الناحية التنظيميّة والفكريّة والإداريّة، فإنّك تجد قبيلة كاملة تحت مسمّى «الحزب»، ويكاد المرء يخطئ إن كانت القبائل قد تحوّلت إلى أحزاب أم أنّ الأحزاب قد غدت قبائل.

هنالك بعض القبائل تؤسّس لنفسها حزباً سياسيّاً، ويبقى الحزب حِكراً على القبيلة أو جزءاً منها، فيكون رئيس القبيلة رئيساً للحزب أو أمينها العام، ويكون الوجهاء وأبناء الأغنياء هم أعضاء المجلس المركزيّ للحزب، حينها لا يبقى هنالك أيّ اختلاف أو انفصام بين الحالة الحزبيّة والحالة القبليّة. فالحزب يكون التجسيد السياسيّ للقبيلة، والقبيلة تكون التجسيد التنظيميّ والجماهيري للحزب.

هنالك أحزابٌ عامّة متحالفة مع عدّة قبائل وتأخذ الثقل القبليّ بالحُسبان. فكثيراً ما نجد بأنّ القبيلة أو قسماً كبيراً منها يتبعون الزّعيم «القبليّ» للانضمام إلى الحزب الفلانيّ، وفي حال انشقّ الزّعيم عن ذلك الحزب وانتقل إلى حزب آخر؛ فإنّ كلّ القبيلة أو معظمها تحذو حذوه. وكثيراً ما تنتظم القبائل المتخاصمة ضمن الأحزاب المتخاصمة، فينعكس الخصام القبليّ والحزبيّ بشكل تلقائيّ على أرض الواقع، في ممارسات و خِطاب تلك الأحزاب.

لم تتخلّص الأحزاب الشرقيّة بشكل عام من التأثير القبليّ القويّ على العقليّة الشرقيّة، حتّى أنّ الكثير من الأحزاب اليساريّة والشيوعيّة في الشرق لم تخرج من هذه الدّائرة. فما معنى أن يتمّ توريث قادة ورؤساء الأحزاب الشيوعيّة الرّئاسة من الأب إلى الابن أو إلى للأخ أو الزوجة؟! في مجال التوريث، ليس هناك اختلاف كثير بين الأحزاب والإمارات والممالك المختلفة في الشرق.

فكما أنّ رئيس القبيلة يكون سيّداً مطلقاً وموضع مدحٍ وافتخارِ القبيلة؛ فإنّ رئيس الحزب أيضاً يتحوّل إلى كائن معصوم عن الخطأ و شبه مقدس، فَهُوَ صاحب كرامات وقُدُرات عظيمة ومعجزات كبيرة. كما لا يمكن لأحد الاعتراض على الرّئيس ولا انتقاده أو منافسته. كما أنّ أهل وآل بيت الرّئيس وعائلة الرّئيس القبليّ والحزبيّ كيانانِ مُتَشابِهَين. فرئيس الحزب هو شرف وكرامة وعنوان فخرٍ واعتزاز الحزب / القبيلة. الولاء المطلق له، ويتمّ التغنّي به، وله تُقرض الأشعار، وله تُكال المدائح، وهذه تعبّر عن علامات الالتزام الحزبيّ وطريقاً أمام الأعضاء للترفيع وعلوّ مرتبتهم. فالتقرّب من زعيم القبيلة أو الحزب هو أفضل وأسرع

> **"الأحزاب في الشرق تحمل الكثير من العُقَد والمشاكل البنيويّة والأزمات المزمنة، وكذلك تعاني من الازدواجيّة بين القول والفعل، بين الظاهر والمستورَ، بين أقوالها قبل الانتخابات وبعدها، بين مقارباتها أثناء وجودها في المعارضة وتقلّبها بعد الوصول إلى سدّة الحكم. كما أنّ الأحزاب، ورغم مزاعمها بتمثيل مصالح أكبر عدد ممكن من الشرائح الاجتماعيّة، إلا أنّها في الحقيقة لا تخدم سوى النخبة المسيطرة على الحزب ."**

طريق للوصول إلى الدّرجات العليا ضمن الحزب، وبالتالي ضمن أجهزة الحكم.

كما في القبيلة تكون الأولويّة لأقارب الزّعيم في الوجاهة والسلطة والنّفوذ، كذلك في الحزب، فتكون الأفضليّة والأولويّة في السلطة ومناصبها للأقارب. فنجد أخوة وأبناء وبنات وأعمام عمومة وأخوال الرّئيس يتمتّعون بالحصانة والنّفوذ والغنى والفرص الكبيرة في الحزب والسلطة والدّولة. كما أنّ الرّئيس يعتمد على أخوته وأبنائه وأصهاره وأقاربه في المناصب والرّتب المهمّة والحسّاسة وخاصّة في الوظائف الماليّة والاستخباراتيّة والعسكريّة. عائلة القذّافي والأسد ومخلوف والتكريتي والبارزانيّ وبكداش وغيرهم أمثلة بارزة على هذا المنحى من العصبيّة القبليّة الحزبيّة في الشرق.

فرئيس وزعيم الحزب يكون الأغنى والأكثر مالاً وامتلاكاً للعقارات والسيّارات والشركات والمصالح، لأنّه يرى نفسه الأحقّ بذلك من الجميع، وغالباً ما يكون الزّعيم هو من الطبقات العليا ومن أصحاب الرّأسمال والإقطاعات. وكما لا يمكن لأحد إقالة رئيس القبيلة، كذلك لا يمكن إقالة رئيس الحزب إلا بشقّ الأنفس. فرئيس الحزب غالباً ما يكون مؤسّس الحزب أو أحد المؤسّسين، وهو يعتبر الحزب تابعاً ومُلكَهُ، وهو الرّأس الذي لا يمكن التفكير بالجسد بدونه. نادراً ما نرى استقالة أحد رؤساء الأحزاب في الشرق. فهنالك رؤساء أحزاب بقوا لعقود من الزمن في رئاسة الحزب حتّى الممات. فما معنى أن يبقى شخص في رئاسة حزب طيلة ستّة عقود؟ ففي الشرق لا يتخلّى رئيس الحزب عن الكرسيّ إلا بالموت أو الاغتيال، حتّى وإن كان الحزب لا يمثّل سوى دكّانة أو مكتب لا دور فعليّ له. فكيف سنفكّر بأن يتخلّى الرّؤساء والمستبدّون عن كرسيّ الحكم في الدّول والممالك؟ وهنا ندرك مرض السلطة المزمن في الأحزاب الشرقيّة. فرئيس الحزب مستعدٌّ كأيّ مستبدٍّ شرقيّ آخر التضحية بكلّ رفاقه ومقرّبيه في سبيل الحفاظ على كرسيّ الرّئاسة لنفسه، وكافّة الشخصيّات التي تسعى أو تحلُم بالوصول إلى كرسيّ رئاسة الحزب، ليس أمامها سوى تشكيل كُتَلَةٍ خاصّة والانشقاق عن الحزب الأمّ وتأسيس حِزبٍ خاصّ؛ حتّى يغدو هو الرّئيس بلا منازعٍ ويبقى الحزب القديم لرئيسه القديم. وغالباً ما تكون هذه الانشقاقات مغلّفة بخلافات فكريّة أو عقائديّة، أو بسبب بيانٍ أو موقفٍ. و لكن الحقيقة هو خلافات سلطويّة و صراعات أنانية صرفة.

فما معنى أن ينشطر حزب يساريٌّ في تركيّا إلى أكثر من خمسين حزب مجهريّ؟ وما معنى وجود حوالي خمسين حزب و حُزيب كرديّ في سوريّا؟ وما معنى انشطار الأحزاب الشيوعيّة في سوريّا والعراق إلى عشرات الأحزاب؟

لا تَمتَلِكُ الأَحزابُ في الشرق آليّات ديمقراطيّة داخليّة. فعلى الرّغم من وجود البرامج السياسيّة والأنظمة الدّاخليّة والمؤتمرات

الدّوريّة والمكاتب السياسيّة، إلا أنّها شكليّة ويتوقّف تطبيقها على مزاج الرّئيس أو القادة عموماً. وغالباً ما تكون الانتخابات الدّاخليّة شكليّة، وقوائم المرشّحين تكون جاهزة قبل الانتخابات، وحتّى أسماء الفائزين تكون محسومَةً من قبل الرّئيس وحاشيته وأصحاب الثقل في الحزب.

كما أنّ الأحزاب الشرقيّة عموماً تُصادِرُ حرّيّة الرّأي وحقّ التعبير من أعضائها. غالبيّة الأعضاء الحزبيّين في الشرق يكونون فاقدي الإرادة وضعيفي الشخصيّة، ومعرّضون للتقريع والنقد اللاذع والمساءلة وحتّى السّوق إلى لجان الانضباط والمحاكمات الحزبيّة. فلكلّ حزب آلة ردع وترهيب تُمارسُها على أعضائه، وتخضعهم للقولبة والنمطيّة والتحوّل إلى نماذج متشابهة شكلاً وجوهراً، بحسب طلب ورغبة واحتياجات الحزب.

العلاقات بين الأحزاب المختلفة في الشرق، هي حالة مشوّهةٌ ومضِرّةٌ بالصحّة الاجتماعيّة والأخلاقيّة. فجميع هذه الصراعات والمخاصمات بين الأحزاب المختلفة تؤذي الإرادة الحرّة للمجتمع وتُلحقُ أشدّ الضرر بالحياة السياسيّة وتجفّف التنوّع وحقّ الاختلاف في المجتمع.

عموماً الأحزاب في الشرق مشَوَّهة وشكليّة وبعيدة كلّ البعد عن الشكل والأطر السليمة للأحزاب العصريّة. تشوّهات الأحزاب تؤدّي إلى التشوّه السياسيّ باضطّراد دائم في المنطقة.

الفَوضى السياسيّة والأحزابُ العاطلةُ

يكاد الشرق يتأرجح بين نقيضين؛ بين الاستبداد والدّيكتاتوريّة، الفوضى واللا استقرار. فإمّا أن تكون يدٌ فولاذيّة قابضة على تلافيف الشرق وتمنع عنه أيّة بادرة للتحرّك بحرّيّة واستقلاليّة، وَالتَّمَتُّع بالتعدّديّة والتعبير عن التنوّع والاختلاف والدّيمقراطيّة، أو أن تتخبّط في مستنقع من الفوضى والاضطرابات والأزمات الضارية هنا وهناك، وانعدام الأمن والاستقرار وتعدّد المراكز وتنافر الأصوات والاتّجاهات المتصارعة التي تأخذ بالمجتمع هنا وهناك، بين مدٍّ وجزرٍ، وبالتالي انغلاق آفاق الحلّ والوفاق في البلاد.

في الشرق، شرق التنوّع والاختلاف، لا يمكن إدارته سياسيّاً إلا بمنطق «الوحدة ضمن التعدّديّة أو «الوحدة والاختلاف» أو «وحدة التنوّع». ولكن طالما كانت القبضة الحديديّة هي المسيطرة والسائدة على كلّ تنوّع وتعدّديّة في الشرق، فإنّ ذلك يغدو ضرباً من المستحيل.

يتذرّع دُعاةُ المركزيّة والاستبداد بضرورة إنهاء الفوضى وحالة انعدام الأمن والاستقرار، وذلك بفرض الدّيكتاتوريّة. فها هو الحَجَّاجُ وصدّام ومبارك والأسد والقذّافي وأتاتورك وغيرهم، يتذّرعون بحالة اللا استقرار والفوضى السياسيّة الموجودة، فيفرضون أنظمة قمعيّة واستبداديّة أحاديّة التفكير والتعامل والتنميط على البلدان التي يحكمونها.

الشعوب التي تعيش لسنوات طويلة تحت حكم الأنظمة الدّيكتاتوريّة؛ تخسر الكثير من الجوانب الإيجابيّة وتُضمَر طاقاتها الخلّاقة في الإبداع والتعامل الدّيمقراطيّ والمساواة والاحترام المتبادل مع المختلف معهم. لذا فما إنْ تتمّ الإطاحة بالأنظمة الدّيكتاتوريّة؛ حتّى تغرق تلك الشعوب في بحرٍ من الفوضى والمشاكل وانسداد الآفاق. نفس الأمر حصل في عراق ما بعد صدّام، وكذلك سوريّا في السنوات الأخيرة، ولبنان منذ عقود من الزمن، وليبيا بعد سقوط القذّافيّ واليمن.. أي أنّ الفوضى ضاربة شرقاً وغرباً في هذه البلدان.

الأحزاب والحركات السياسيّة التي كانت مغيّبة تماماً في الأنظمة والدّول الدّيكتاتوريّة تكون خاملة عملياً و ثرثارة نظريّاً وضعيفة في الأداء وغير متمكّنة من العمل الفعّال والسريع. كما أنّ نتيجة العقليّة الدّيكتاتوريّة والفساد الإداريّ؛ فإنّ الأحزاب المختلفة في هذه البلدان

> **"أنّ الأحزاب الشرقيّة عموماً تُصادِرُ حرّيّة الرّأي وحقّ التعبير من أعضائها. غالبيّة الأعضاء الحزبيّين في الشرق يكونون فاقدي الإرادة وضعيفي الشخصيّة، ومعرّضون للتقريع والنقد اللاذع والمساءلة وحتّى السّوق إلى لجان الانضباط والمحاكمات الحزبيّة. فلكلّ حزب آلة ردع وترهيب تُمارسُها على أعضائه، وتخضعهم للقولبة والنمطيّة والتحوّل إلى نماذج متشابهة شكلاً وجوهراً، بحسب طلب ورغبة واحتياجات الحزب."**

لا تمتلك ثقافة العمل المشترك واحترام الآخر واتّخاذ المصلحة العامّة فوق مصالحها الحزبيّة الضيّقة.

العطالة السياسيّة وبقاء الأحزاب في إطار النظريّات والدّعاية والمعارضة، تدفعها إلى الأنانيّة والآفاق الضيّقة. وفي حال الإطاحة بالأنظمة المستبِدّة أو إرخاء سيطرتها؛ فإنّ هذه الأحزاب تدخل في صراعات عقيمة و تحدث انشقاقات عديدة وتظهر أحزاب وتشكيلات أخرى، مثل الفطر في الليالي العاصفة، وفي كلّ يوم نسمع بحزب أو تشكيلة جديدة أو انشقاق حزب ما إلى عدّة أحزاب.. إلخ.

المشكلة تكمن في حصر السياسة في آليّة الأحزاب فقط، مع العلم بأنّه ليست الأحزاب وحدها مكلّفة أو محتكِرة للعمل السياسيّ. فالأحزاب هي آليّة أو شكل من أشكال ممارسة السياسة وليست الشكل والآليّة الوحيدة. ثانياً، العمل الحزبيّ لا يعني بالضرورة العمل السياسيّ، فهنالك أناس يمارسون نشاطاتهم الحزبيّة، دون أن يخوضوا في أيّ مجال سياسيّ. ولكن الاعتقاد الخاطئ في الشرق يدفع المرء إلى الاعتقاد بأنّ كلّ نشاط حزبيّ هو بالضرورة نشاط سياسيّ، كما أنّه ليس كلّ نشاط سياسيّ هو بالضرورة نشاط حزبيّ. كان الأجدر بمفكّري وساسة الشرق قبل كلّ شيء أن يصحّحوا ويصوّبوا هذا الاعتقاد الخاطئ لأنفسهم أوّلاً، وللمجتمع ككلّ.

صرعة (تشكيل الأحزاب) أمرٌ آخر مستفحل في الشرق. لذا نجد حالة من التخبّط واللا مسؤوليّة في موضوع تشكيل والإعلان عن الأحزاب، دون أن يكون لها برامج واضحة ومشاريع إستراتيجيّة وأفكارٌ خاصّةٌ بِها، أو جمهورٌ مُعَيَّنٌ تمثّله. فعلى سبيل المثال هنالك أحزاب في بلد ما، عدّة أحزاب تشترك في نفس العقيدة والتوجّه الفكريّ والطبقيّ والوطنيّ، وبالكاد يستطيع المرء أن يبحث بالمجهر عن الفروقات بينها، إلا أنّها «زيادة عدد»، كما يقول المثل الشائع. وهذه الفوضى تخلق بطبيعة الحال حالة من التشويش و الضبابية على الناس، و تعميق الفوضى العمياء، كما أنّها في الوقت نفسه تخلق حالة الأحزاب الزائدة، مثلها مثل الزائدة الدّوديّة في جسم الإنسان، فإنّ وجودها وعدمها لا يغيّر شيئاً ولا يؤثّر. وهي بالتالي تخلق صورة لأحزاب عاطلة لا تقوم بدورها الحيويّ في المجالات التي تشغلها. على سبيل المثال: هل هنالك حاجة حقيقيّة لوجود أكثر من 05 حزباً كرديّاً في شمال سوريّا فقط؟ ومن الطريف أيضاً بأنّ معظم هذه الأحزاب تحمل أسماءً متشابهة، وبالكاد وعن طريق فاصلة أو نقطة أو شخطة، يتمّ التمييز بينها، وغالباً لا توجد فروقات سوى باسم الرّئيس أو السكرتير، ذات الحالة موجودة بين الأحزاب التركيّة، وخاصّة اليساريّة منها.

ففي المجتمعات يمكن أن يمارس الناس فرادى النشاط السياسيّ أو متابعة الشأن العام، كأفراد، وبالتأكيد سيكون لهم تأثيرهم

وقيمتهم. ولكن هذا التأثير سيكون أكبر وأكثر في حال الاشتراك مع الآخرين. والأحزاب أو التنظيمات هي التي تجمع في صفوفها هؤلاء الأفراد النشطاء المشتركين في النشاط وطرح الآراء والعمل على الأهداف المشتركة. كما أنّ وجودها – أي هذه التنظيمات – تسهّل الأمور أمام الجماهير، ليختاروا الاتّجاه الأنسب لهم، إمّا للاشتراك أو للتصويت لهم أو معارضتهم. كما أنّ هذه التنظيمات تلعب دور البوتقة التي تتوحّد فيها جهود ومساعي الأفراد وتوجّهها ضمن قنوات سليمة، حتّى تصل إلى التأثير القويّ وتعطي النتيجة المرجوّة. لذا، فإنّ وجود هذه الأحزاب والتنظيمات مَهمَّةٌ ومَطلبٌ حيويّ. ولكن في حال العطالة السياسيّة وفوضى تراكم الأحزاب وازدحامها وتشظّيها دون أيّ دواعٍ اجتماعيّة وسياسيّة وإستراتيجيّة، فإنّها تتحوّل إلى ثقب أسود تمتصّ جهود الأفراد وتخسرها أو تصرفها بلا أيّة فائدة. كما أنّها تتحوّل إلى عناصر تسدّ الآفاق أمام حدوث أيّ تطوّر، بدلاً من أن تكون سبباً في فتحها. كما أنّها تؤدّي إلى نفور وعزوف الناس عن ممارسة النشاط السياسيّ وتشكيل الرأي العام، والانكفاء إلى الشكوى والتباكي، بدلاً من العمل في سبيل التغيير والبناء.

وجود الأحزاب والتنظيمات السياسيّة المختلفة في البلاد هي حالة صحيّة وجيّدة، كما أنّ التنوّع والتعدّديّة هي شرط لاستمرار الحياة السياسيّة، لأنّها تضفي الجماليّة والحيويّة والقوّة على الحياة والسياسة. لكن الأحزاب الفطريّة وحالة التخبّط والزيادة المضطّردة لها، تكون سبباً في تشتيت الجهود والتشويش على الجمهور، وفقدان الالتزام السياسيّ وضياع الخيارات الصحيحة أمام الناس. كلّ هذه الأسباب تؤدّي – في أغلب الحالات – إلى ظهور حزب كاسح يكسح السّاحة السياسيّة ويتنمّر على باقي الأحزاب الفطريّة، ويحقّق انتصاراً سياسيّاً، وبالتالي يتوعّد بتخليص الناس من حالة الفوضى واللااستقرار الموجود، وفرض الأمن السياسيّ والاقتصاديّ والمعيشيّ، وبالتالي فرض نوع جديد من الدّيكتاتوريّة التي يضطر الناس إلى تقبلها و تفضيلها على الفوضى و الأزمة و الصراعات.

حالة الفوضى والتشتّت السياسيّ والحزبيّ في تركيّا أدّت إلى ظهور حزب أردوغان الذي تحوّل إلى الاستبداد والدّيكتاتوريّة والتفرّد بكلّ السلطات تقريباً. ونفس الأمر سبق ظهور وتسلّط البعث على الحكم والسلطة في كلّ من العراق وسوريّا. وكذلك الأمر بالنسبة إلى تشتّت الأحزاب الدّيمقراطيّة الوطنيّة واليساريّة والبرجوازيّة في إيران، التي أدّت جميعها إلى سيطرة الملالي على الحكم وفرض الدّيكتاتوريّة على البلاد. ذات الأمر حدث في الفترة التي تلت انتصار الثّورة المصريّة على مبارك، حتّى وصلت الأمور إلى رجوع العسكر من جديد والانقلاب على الحياة السياسيّة. كما أنّ تشتّت الأحزاب السياسيّة في لبنان أدّى إلى تعطيل الحياة لشهور طويلة، وبالتالي سيطرة حزب الله على القرار الإستراتيجيّ في البلاد.

نفهم من كلّ ذلك، أنّ الفوضى السياسيّة وتشتّت الأحزاب وحالة اللا استقرار، تشكّل الحاضنة التي تفرّخ الدّيكتاتوريّة والاستبداد والعقليّة المركزيّة في الشرق. والحال هذه؛ فإنّ الشرق ينتقل من فوضى الدّيكتاتوريّة إلى ديكتاتوريّة الفوضى. و كلٍ منهما يوّلد الآخر و يقضي عليه ليولده مجدداً، و هكذا دواليك.

(البارتي) الحزب الديمقراطي الكردستاني – سوريا أوّل حزب كرديّ في سوريا



تمّوز شمالي

التمهيد

المبحث الأول: تأسيس الحزب .

- يبحث فيه الكاتب الآراء المختلفة حول تأسيس الحزب وتاريخه. (عبد الحميد حج درويش ، ملا داوود زيني ، رشيد حمو ، محمد متا أحمد) .
- الأسباب والغايات التي دفعت باتجاه تأسيس الحزب.

المبحث الثاني: مراحل تأسيس الحزب.

-المرحلة الأولى: جمعية احياء الثقافة الكردية وأثرها في تأسيس الحزب.
-المرحلة الثانية: التواصل مع المثقفين الكرد السياسيين في عفرين الذين تخلوا عن الحزب الشيوعي السوري

المبحث الثالث: التنظيمات الكردية التي انضمت للحزب.

يتناول الباحث الجمعيات والكتل والشخصيات المثقفة التي انضمت الى صفوف الحزب واتساع القاعدة الجماهيرية للحزب في عفرين ،حلب ،دمشق ،الجزيرة .

تأسيس البارتي

توجه مجموعة من المثقفين نحو تأسيس حزب سياسي كردي، فكانت النتيجة هو ميلاد الحزب، لكن هناك أكثر من رأي حول تأسيس الحزب وتاريخه

وحتى اسمه، لذلك سنستشهد ببعض ما جاء في الكتب والمقابلات الشخصية، سنبدأ بما كتبه السيد عبدالحميد درويش :

"وقد حفّزنا نجاح الجمعية إلى تشكيل تنظيم سياسي، نظراً للحاجة الملحّة إلى مثل هذا التنظيم، من أجل النضال لتحقيق الحقوق القومية للشّعب الكردي في سوريا، وبالفعل توجّهنا في أواسط عام ١٩٥٦م إلى تشكيل حزب سياسي، وهنا تخلى عنّا كلّ من محمد صالح درويش وعبدالمجيد درويش وخضر فرحان. وبقينا نحن الثلاثة عثمان صبري وعبدالحميد درويش وحمزة نويران، وفي هذه الفترة كان الدكتور نورالدين ظاظا، قد أنهى دراسته في سويسرا في "لوزان" وعاد إلى سوريا، والذي أيّدنا بدوره على تأسيس مثل هذا التنظيم، بدأنا نحن الثلاثة بوضع الأسس للحزب الذي اتفقنا على تسميته بـ:حزب الكرد الديمقراطيين السّوريين، وتمّ كتابة برنامج الحزب باللّغة الكردية، وساعدنا في ذلك بشكل مستمر الدكتور نور الدّين ظاظا، ومن بين الذين شجّعونا على تأسيس حزب سياسي في سوريا الأستاذ جلال الطالباني عضو اللجنة المركزية للحزب الديمقراطي الكردستاني في العراق، الذي تواجد في سوريا في تلك المرحلة بسبب ملاحقته من قبل الحكم الملكي في العراق، وكذلك الأستاذ عبدالله اسحاقي المعروف بأحمد توفيق سكرتير الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني آنذاك."

وفي مقالة للسّيد عبدالحميد درويش في مجلة الحوار يقول:" كنّا في البداية ثلاثة رفاق (أوصمان صبري، حمزة نويران، وأنا) ثمّ انضمّ إلينا فيما بعد رفاق آخرون ..فبعد طبع البرنامج السياسي وتوزيعه في عام ١٩٥٦م .. وفي هذه الفترة اتصل عثمان صبري مع عدد من العناصر المعروفة في جبل الكرد، بعد أنْ تمّ تكليفه بذلك، وفي ربيع عام ١٩٥٧م قدم السّيد رشيد حمو إلى دمشق مندوباً لرفاقه هم:(محمد علي خوجة، شوكت حنّان، خليل محمد) والجميع كانوا أعضاء في الحزب الشيوعي السّوري، بالإضافة إلى رشيد حمو، وكانوا ذوي ميول قومية، ولديهم الرغبة للعمل في حزب كردي تقدمي.

وبعد نقاش ومداولات مع رشيد حمو تمّ التوصل إلى تفاهم معهم، على أنْ ينضموا إلى الحزب ويصار إلى كتابة برنامج للحزب باللغة العربية، بعد أنْ كان قد كتب باللغة الكردية وبالفعل تمّ ذلك، وتمّ الاجتماع الأوّل بيننا يوم ١٤ حزيران ١٩٥٧م، في منزل السّيد محمد علي خوجة الكائن في سوق الخميس في حلب، ومنذ ذلك التّاريخ أصبحت اللجنة المركزية تتألف من سبعة أعضاء هم: عثمان صبري، عبدالحميد درويش، حمزة نويران، رشيد حمو، محمد علي خوجة، خليل محمد، شوكت حنان، وتمّ الاتفاق على أنْ يكون الرّابع عشر من حزيران يوم تأسيس الحزب، بعد أنْ وافق عثمان صبري على اقتراح الأخوة في جبل الكرد، على أنْ يكون اسم الحزب (الحزب

" ومن بين الذين شجّعوا على تأسيس حزب سياسي في سوريا هو السياسي جلال الطالباني عضو اللجنة المركزية للحزب الديمقراطي الكردستاني في العراق، الذي تواجد في سوريا في تلك المرحلة بسبب ملاحقته من قبل الحكم الملكي في العراق، وكذلك الأستاذ عبدالله اسحاقي المعروف بأحمد توفيق سكرتير الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني آنذاك. "

الديمقراطي الكردي في سوريا) بدلاً من(حزب الكرد الديمقراطيين السوريين).“

أما ملّا داوود زيني: وهو من الرعيل الأوّل، يقول في مقدمة كتاب مذكّرات الأستاذ أوسمان صبري: ”في عام ١٩٥٦م فكّر عثمان صبري في تشكيل الحزب الدّيمقراطي الكُردي في سوريا، وطرح فكرته هذه أوّل ما طرح على الشيخ محمد عيسى، لأنّه كان على اتصال دائم معه ومع المقرّبين إليه، وكانا يتباحثان في القضايا القومية والفكرية والنضالية منذ الأربعينات أيّام جمعية خويبون، فأيّد الفكرة، بدأ عثمان صبري بكتابة البرنامج لهذا الحزب المزمع تشكيله، وساعده فيها كلٌّ من السّيد جلال الطالباني اللاجئ السّياسي والدكتور نور الدين ظاظا، بإبداء آرائهما أثناء مناقشة بنود البرنامج وصياغتها الأخيرة.

شيئاً فشيئاً اتسعت دائرة الانتساب والالتفاف حول هذه الفكرة القومية الرائدة حتى شملت كلًّا من: عثمان صبري المؤسّس والرّاعي الأوّل لهذه الفكرة، الشيخ محمد عيسى، حميد درويش، رشيد حمو، حمزة نويران، محمد علي خوجة، خليل محمد، شوكت حنان، ويعتبر هؤلاء هم المؤسسون- وإنْ جاء بعضهم متأخراً بعض الشيء- وهم في نفس الوقت أعضاء مركزيون، وعقدوا أوّل اجتماع لهم في ١٤\٦\١٩٥٧م، منهم من اعتبر الفكرة وكتابة البرنامج هي بداية تأسيس الحزب، فيكون عام ١٩٥٦م تاريخاً له، ومنهم من اعتبر الخطوة العملية الأولى هي بداية تأسيس الحزب، وبذلك يكون عام ١٩٥٧م تاريخاً له، وأيّاً يكنْ فلكل منهم وجهة نظره ”. أمّا رشيد حمو كتب في كتابه : ”وبعد تبادل الآراء بين مختلف الأوساط الكُرديّة تم الاتفاق على تشكيل هذا الحزب السياسي الكُردي باسم ”الحزب الديمقراطي الكردستاني في سوريا“ ثم تحوّل فيما بعد إلى ”الحزب الديمقراطي الكُردي في سوريا“، حيث قام بتأسيسه كلٌّ من الأشخاص التالية أسماؤهم: (عثمان صبري، رشيد حمو، محمد علي خوجه، محمد خليل، شوكت حنان، حميد درويش وحمزة نويران)، الذين عقدوا اجتماعهم الأوّل بتاريخ ١٤ حزيران عام ١٩٥٧م، الذي اعتبر تاريخاً مجيداً لميلاد أوّل حزب سياسي كُردي في سوريا.

ويُكمل السّيد رشيد حمو فيقول ما يلي:

”كان عثمان صبري أول منْ يفكّر بتأسيس حزب سياسي كردي في سوريا، وقد فاتحني بهذا الأمر عام ١٩٥٣م، ولكنْ، بسبب كوني عضواً في الحزب الشيوعي، فقد رفضت الفكرة ولم أقبل بها، ويبدو أنّه كان قد عرض الفكرة على العديد من الأشخاص في الجزيرة، إلّا أنّ هؤلاء رغم تأييدهم للفكرة لم يجدوا في أنفسهم الكفاءة والقدرة، لإخراجها إلى حيّز الوجود، وفي عام ١٩٥٦م، وبعد تركِنا لصفوف الحزب الشيوعي عاد أوصمان صبري إلى الاتصال بي مرّة ثانية، وعرض علي الفكرة من جديد، فالتقيت به في دمشق ودرسنا الموضوع من جميع جوانبه على ضوء الظروف القائمة في البلاد، قبلت الفكرة هذه المرة، ولكنّي استمهلته بعض الوقت كي أدرس المسألة مع الرّفاق في حلب، الذين كانوا قد خرجوا معي من صفوف الحزب الشيوعي. وفي حلب درست المسألة مع كلٍّ من شوكت حنّان ومحمد علي خوجه و خليل محمد، فأبدوا استعدادهم للتعاون معنا والعمل على تأسيس الحزب المنشود، فبلغت عثمان بالأمر وباشرنا بالعمل معاً في حلب ودمشق والجزيرة. عقدنا نحن الرفاق السبعة (عثمان صبري ورشيد حمو ومحمد علي خوجه وشوكت حنان وحميد درويش وحمزة نويران) أوّل اجتماع في حلب بتاريخ ١٤ حزيران ١٩٥٧م، الذي اعتبر تاريخاً لميلاد الحزب، واعتبر الاجتماع اجتماعا للجنة المركزية للحزب مجازاً؛ وهو لم يكن في الحقيقة سوى اجتماع لهيئة المؤسسين للحزب، إذ لم يكن أي مؤتمر للحزب

”بدأت هذه المرحلة مع بدء اتصال أوصمان صبري المكلّف من قبل رفاقه مع المثقفين الكُرد السّياسيين في عفرين، الذين تركوا صفوف الحزب الشيوعي السّوري وهم: رشيد حمو، محمد علي خوجة، خليل محمد، وشوكت حنّان، فتمّ اللقاء بين رشيد حمو، الذي قدِم إلى دمشق نيابة عن رفاقه في عفرين، وأوصمان صبري، وذلك في ربيع عام ١٩٥٧م“

قد عقد لكي ينتخب فيه أعضاء اللجنة المركزية، حيث لم يكن للحزب وجود قبل تاريخ هذا الاجتماع.

وفي هذا الاجتماع انتخب عثمان صبري سكرتيراً للحزب، وعهد إلى الرّفاق الأربعة في حلب (رشيد حمو و محمد علي خوجه و شوكت حنان و خليل محمد) القيام بمهام المكتب السياسي للحزب، لكونهم أقدر الرفاق الموجودين وأكثرهم كفاءة في إدارة أمور الحزب، كونهم اكتسبوا تجربة نضالية غنية في هذا الميدان أثناء نشاطهم في صفوف الحزب الشيوعي.“

أما محمد ملا أحمد في كتابه: ”صفحات من تاريخ حركة التحرر الوطني الكردي في سوريا“ يذكر أحداث تأسيس البارتي نقلاً عن عبدالحميد درويش ورشيد حمو، فحسب ما يذكر بأنّه يوافق الرأي مع عبدالحميد درويش ورشيد حمو، وهذا ما كتبه:

”بعد فترة من الزمن، اقترح عليه أوصمان ، تأسيس حزب سياسي فقبل، وبدأ أوصمان يكتب البرنامج السياسي للحزب الجديد باللغة الكردية، وشاركته قليلاً، لعدم خبرتي ومعرفتي حينها بهذه الأمور، وسمينا البرنامج (ريزان) وقد ساهم كل من جلال الطالباني اللاجئ السياسي إلى سوريا، والدكتور نورالدين ظاظا بآرائهم أثناء وضع مواد البرنامج، وهكذا وضع الاثنان في صيف ١٩٥٦ ،اللبنة الأولى لتأسيس البارتي، ثمّ عرض حميد حاج درويش البرنامج على حمزه نويران، الذي كان يعرفه بحكم الجوار في القرية، فوافق حمزه على البرنامج، ولكنّهما اشترطا عليه الانسحاب من الحزب الشيوعي فوافق، وهكذا أصبحوا ثلاثة.

وقد نشط بعدها عثمان صبري، الذي سعي لتوسيع مجال نشاط البارتي وإدخال عناصر جديدة فيه، فاتصل مع رشيد حمو في حلب، الذي كان بينهما علاقات سابقة واتصالات كما يقول رشيد، وعرض عليه المشاركة في الحزب الجديد؛ وبعد اتصالات جاء رشيد إلى دمشق، فعرض عليه عثمان البرنامج الجديد (ريزان)، لكنه لم يوافق على بعض النقاط، كما يقول رشيد، ومن ثمّ اتفقوا على وضع برنامج جديد، وترجمةٍ عربية للبرنامج المذكور (ريزان)، كما يذكر عثمان وحميد، متضمناً شعار الحزب (تحرير و توحيد كردستان)، وبعودة رشيد حمو إلى حلب أعلم رفاقه (محمد على خوجه وخليل محمد وشوكت حنان) بما جرى لعثمان صبري، والاتفاق على تأسيس حزب كردي، فوافقوا على ذلك، إلا شوكت حنّان كان له اعتراضات، لذا تأخّر عنهم فترة من الوقت، كما يقول شوكت نفسه مستمراً في عضويته للحزب الشيوعي“.

وبهذا أصبح الجميع مؤسسين للبارتي الديموقراطي الكردستاني- سوريا، واعتبروا جميعاً أعضاء في اللّجنة المركزية، وكان اجتماعهم الأوّل المنعقد بتاريخ / ١٤ / حزيران / ١٩٥٧م /هو تاريخ تأسيس البارتي في سوريا،

كما يقول رشيد حمو.

يضيف حميد حاج درويش، أنّه وأوصمان صبري لم يعترضا على التاريخ الجديد/ ١٤ / حزيران/ ١٩٥٧م / كتاريخ لتأسيس البارتي، ولم يطلبا اعتبار التاريخ القديم (تاريخ تأسيس البارتي) أنْ يكون هو التاريخ المعترف به رسمياً لتأسيس البارتي، لأنّ رغبتهما (رغبة أوصمان وحميد) كانت في إنشاء حزب سياسي، يضم جماهير الشّعب، ويناضل من أجل حقوقه القومية، وباجتماعهم معاً تحققت رغبتهم، إذن لا اختلاف على تاريخ التأسيس، وهكذا اعتبر يوم / ١٤ /حزيران/ ١٩٥٧. هو التاريخ المعترف به رسمياً، كتاريخ لتأسيس البارتي الديموقراطي الكردستاني سوريا، بعد أنْ اتفقوا على اسم تنظيمهم واتفقوا على برنامجه السياسي، الذي من ضمن بنوده، البند الذي يعتبر " تحرير وتوحيد كردستان " جزءاً من أهدافه الرئيسية."

مرحلتا تأسيس الحزب الديمقراطي الكردستاني ـ سوريا

المرحلة الاولى

بدأت هذه المرحلة بتأسيس جمعية إحياء الثقافة الكرديّة عام ١٩٥٥م، والتي تتألف من أوصمان صبري "مسؤول الجمعية"، وحمزة نويران و عبدالحميد درويش ومحمد صالح درويش وخضر فرحان العيسى وسعدالله إبراهيم، التي كانت روشن بدرخان تدعمها، بعد أنْ عملت هذه الجمعية بعض النشاطات الثقافية وطبعت بعض الكتب، فقد توجّه أعضاؤها نحو تأسيس تنظيم سياسي، وبالفعل توجّه البعض منهم إلى تشكيل حزب قومي يناضل من أجل تحقيق الحقوق القوميّة للشّعب الكردي في غربي كردستان، وذلك بعد انسحاب أكثرية الأعضاء وتركهم صفوف الجمعية، قد بقي الأعضاء الثلاثة وهم: أوصمان صبري وعبدالحميد درويش وحمزة نويران، وكان أوصمان صبري قد طرح على عبدالحميد درويش تشكيل حزب سياسي، وبعد مناقشةٍ طويلةٍ بينهما اتفقا

وكان مجمل ما جاء في القسم السياسي عشر فقرات تتمثّل بما يلي: حماية الكرد من الظلم والضياع والعمل على تحقيق نظام ديمقراطي شعبي في سوريا وتوسيع الحريّات الديمقراطية، والتعاون مع كافة الشخصيات والأحزاب التقدمية في البلاد وصيانة حريّة الأراضي السورية وإيجاد وضع خاص للأكراد لتحقيق حقوقهم السياسية والاجتماعية والثقافية وتأييد نضال الشعب الكردي في تركيا وإيران والعراق وغيرها من البنود.

على ذلك، بعد ذلك اتصل عبدالحميد درويش مع حمزة نويران، على اعتبار أنّ كليهما من نفس المنطقة (أولاد الجزيرة)، وحين وافق حمزة نويران، أجمع ثلاثتهم على تأسيس الحزب السياسي، وهم: (أوصمان صبري وعبدالحميد درويش وحمزة نويران)، كما أيّدهم في ذلك الدكتور نورالدين ظاظا، الذي عاد قبل فترة وجيزة من سويسرا، بعد أنْ أكمل دراسة الدكتوراه.

بدأ الرفاق الثلاثة بكتابة برنامج الحزب باللّغة الكردية (كتبه أوصمان صبري) وكان يتألف من ثلاثة أقسام(سياسي، وثقافيّ، واجتماعيّ)، كما تمّ تسمية الحزب باسم: حزب الكرد الديمقراطيين السوريين Partiya Kurdên demiqratên Surî وكان مجمل ما جاء في القسم السياسي عشر فقرات تتمثّل بما يلي: حماية الكرد من الظلم والضياع والعمل على تحقيق نظام ديمقراطي شعبي في سوريا وتوسيع الحريّات

الديمقراطية، والتعاون مع كافة الشخصيات والأحزاب التقدمية في البلاد وصيانة حريّة الأراضي السورية وإيجاد وضع خاص للأكراد لتحقيق حقوقهم السياسية والاجتماعية والثقافية وتأييد نضال الشعب الكردي في تركيا وإيران والعراق وغيرها من البنود.

قام الحزب بنشاط سياسي في أرجاء البلاد، خاصّةً في أوساط الطلبة الدّارسين في دمشق والجزيرة، وسرت أخبار الحزب بين فئات المجتمع الكُردي، كما أصبح له أنصار في دمشق والجزيرة، وقد شجّعهم على ذلك كلّ من نورالدين ظاظا والأستاذ جلال الطالباني عضو اللجنة المركزية للحزب الديمقراطي الكردستاني في العراق، الذي كان لاجئاً في سوريا، كما شجّعهم الشخصية الوطنية الفذّة الأستاذ عبدالله اسحاقي سكرتير الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني في تلك الفترة، على الرّغم من أنّ حزب الكرد الديمقراطيين السّوريين لمْ يدم طويلاً، ولم يقمْ بنشاطٍ واسع بين الجماهير الشعبية، إلّا أنّه وضع اللّبنة الأساسية الأولى في تاريخ الحركة التنظيمية السّياسية في غربي كردستان، والخطوة الجريئة في الأوساط السّياسية السورية، بدءاً من الأحزاب السّورية القومجية، وحتى التي تدعي الأممية وانتهاءً بالسّلطات القومجية التي لا تعترف سوى بعروبيتها.

المرحلة الثانية

بدأت هذه المرحلة مع بدء اتصال أوصمان صبري المكلّف من قبل رفاقه مع المثقفين الكُرد السّياسيين في عفرين، الذين تركوا صفوف الحزب الشيوعي السّوري وهم: رشيد حمو، محمد علي خوجة، خليل محمد، وشوكت حنّان، فتمّ اللقاء بين رشيد حمو، الذي قدِم إلى دمشق نيابة عن رفاقه في عفرين، وأوصمان صبري، وذلك في ربيع عام ١٩٥٧م، فبعد مناقشات طويلة تمّ التوصّل إلى صيغةٍ نهائية بين الطّرفين وانضمام رشيد حمو ورفاقه إلى الحزب بعد موافقة أوصمان صبري ورفاقه بالحزب على تغيير اسم الحزب وتعديل البرنامج واعتبار يوم تأسيس الحزب هو يوم عقد الاجتماع بين المجموعتين "مجموعة عفرين ومجموعة الحزب"، في ذلك يكتب رشيد حمو في كتابه

"بعد تركنا لصفوف الحزب الشيوعي، عاد عثمان إلى الاتصال بي مرّة ثانية وعرض عليّ الفكرة من جديد، فالتقيت به في دمشق ودرسنا الموضوع من جميع جوانبه على ضوء الظروف القائمة في البلاد، فقبلت الفكرة هذه المرة، ولكني استمهلته بعض الوقت كي أدرس المسألة مع بعض الرّفاق، الذي كانوا قد خرجوا معي من صفوف الحزب الشيوعي في حلب.

وفي حلب درست المسألة مع كلّ من شوكت حنّان ومحمد علي خوجه وخليل محمد، فأبدوا استعدادهم للتعاون معنا والعمل على تأسيس الحزب المنشود، فأبلغت عثمان بالأمر وباشرنا بالعمل معاً في حلب ودمشق والجزيرة.

عقدنا نحن الرفاق السّبعة (عثمان صبري ورشيد حمو ومحمد علي خوجه وشوكت حنان وحميد درويش وحمزة نويران) عقد الاجتماع في حلب بتاريخ ١٤ حزيران ١٩٥٧م، الذي اعتبر تاريخ ميلاد الحزب."

في السّياق نفسه، كتب عبد الحميد درويش في كتابه (أضواء على الحركة الكرديّة في سوريا، الصفحة١٨) مايلي:

"في هذه الفترة اتصل عثمان صبري مع عدد من العناصر المعروفة في جبل الكرد، وفي ربيع عام ١٩٥٧م، قدّم السّيد رشيد حمو إلى دمشق مندوباً عن رفاقه (محمد علي خوجة، شوكت حنّان، خليل محمد، والجميع كانوا أعضاء في الحزب الشيوعي السّوري، بالإضافة إلى رشيد حمو، وكانوا ذوي ميول قوميّة، ولديهم الرّغبة للعمل في حزب كردي تقدمي.

وبعد نقاشات ومداولات مع رشيد حمو تمّ التوصّل إلى تفاهم معهم، على أنْ ينضمّوا

إلى الحزب ويصار إلى كتابة برنامج للحزب باللّغة العربية، بعد أنْ كان قد كتب باللّغة الكرديّة وبالفعل تمّ ذلك، والتأم الاجتماع الأوّل بيننا يوم ١٤ حزيران ١٩٥٧ في منزل السّيد محمد علي خوجة الكائن في سوق الخميس في حلب، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت اللّجنة المركزية تتألف من سبعة أعضاء هم :عثمان صبري وعبدالحميد درويش، حمزة نويران، رشيد حمو، محمد علي خوجة، خليل محمد، شوكت حنّان، وتمّ الاتفاق على أنْ يكون الرّابع عشر من حزيران يوم تأسيس الحزب، بعد أنْ وافق عثمان صبري على اقتراح الأخوة في جبل الكرد، على أنْ يكون اسم الحزب (الحزب الديمقراطي الكردي في سوريا)، بدلاً من(حزب الكرد الديمقراطيين السّوريين).

اجتمع الأعضاء السبعة من مختلف المناطق في حلب، والأعضاء هم: أوصمان صبري، عبدالحميد درويش، حمزة نويران، رشيد حمو، خليل محمد، شوكت حنان، محمد علي خوجة، وكان السّيد كمال عبدي، الذي كان أصغر سنّاً منهم حاضراً معهم، حيث كان يخدمهم بما يلزمهم من خدمات، وفي ذلك يقول السيد كمال عبدي ما يلي:

"اجتمع الرّفاق في بيت محمد علي خوجة بحلب، الواقع بسوق الخميس في ١٤ حزيران عام ١٩٥٧م، وهم: أوصمان صبري المقيم في دمشق، عبد الحميد درويش وحمزة نويران من الجزيرة، رشيد حمو وخليل محمد وشوكت حنّان ومحمد علي خوجة من عفرين، وأسّسوا الحزب باسم الحزب الديمقراطي الكردستاني".

وذكر السّيد رشيد حمو: وفي هذا الاجتماع انتخب عثمان صبري سكرتيراً للحزب وعهد إلى الرّفاق الأربعة في حلب (رشيد حمو ومحمد علي خوجه وشوكت حنّان وخليل محمد) القيام بمهام المكتب السّياسي للحزب، كونهم أقدر الرفاق الموجودين وأكثرهم كفاءةً في إدارة أمور الحزب، قد اكتسبوا تجربة نضاليّة غنية في هذا الميدان أثناء نشاطهم

" وقد لعب جلال الطالباني (الذي كان لاجئاً في سوريا) والدكتور أحمد نافذ دوراً هاما في إقناع قياديي الجمعية بالانضمام إلى الحزب لما في ذلك مصلحة للشعب الكردي، لتوحيد القدرات وتوظيفها لخدمة القضيّة الكرديّة في غربي كردستان، فبعد حوارات بين الطرفين، وافقت قيادة الجمعية الانضمام كاملاً إلى الحزب دون قيد أو شرط، وأخذ كلٌ منهم (أي أعضاء الجمعية) مكانه بما يناسبه ضمن هيئات الحزب. "

في صفوف الحزب الشّيوعي."

انبثق عن هذا الاجتماع تأسيس الحزب، وتمّ الاتفاق على أنْ يكون ١٤ حزيران يوم تأسيس الحزب، وكذلك تمّ وضع برنامج ومنهاج للحزب، وقد كُتب باللّغتين الكرديّة والعربيّة، واتخذ شعار له هو تحرير وتوحيد كردستان، بقي أمام مؤسّسي الحزب أنْ يعملوا على انضمام الشخصيات والجمعيات الثقافية المتواجدة على الساحة في غربي كردستان، فبعد شهور، أي نهاية عام ١٩٥٧م انضم الشيخ محمد عيسى إلى الحزب وفي بداية عام ١٩٥٨م انضم الدكتور نورالدين ظاظا، وبذلك أصبح عدد أعضاء اللجنة المركزية تسعة أعضاء (تم تسمية المؤسسين بأعضاء اللجنة المركزية مجازاً، لأنّ الحزب لم يعقد مؤتمراً ولم يكن اختيارهم من قبل أعضاء المؤتمر) وبموافقة الأعضاء التسعة تمّ تعيين الدكتور نورالدين ظاظا رئيساً للحزب" وهذا متفق عليه في

جميع المصادر". أمّا عن تعيين رشيد حمو سكرتيراً للحزب يذكر عبد الحميد في كتابه "المصدر السابق الصفحة ٥٠ " ولا نجد هذا الخبر مذكور عند سواه من المصادر. فما كتبه السّيد محمد ملّا أحمد في كتابه "صفحات من تاريخ حركة التحرر الوطني الكردي في سوريا. القسم الاول"

نقلاً عن عبد الحميد فيقول: وفي هذه الفترة عرض قادة البارتي على الدكتور نورالدين ظاظا الانضمام إليهم، لكنّه تمهّل، واشترط لذلك الوحدة مع البكوات، كما يقول حميد حاج درويش "١٤" لكنّه في النهاية وبعد قرابة سنة ، قبل عرض القيادة، وانضمّ إليهم (في صيف عام ١٩٥٨)، وأصبح رئيساً للبارتي وعثمان صبري سكرتيراً" من خلال ما ذُكر، يظهر مصدران، الأول: أنّه تمّ تعيين رشيد حمو سكرتيراً، والمصدر الثاني يقول: أنّه تمّ تعيين أوصمان صبري سكرتيراً، لكنّ بقيّة المصادر تؤكّد بأنّه تمّ تعيين أوصمان صبري سكرتيراً، وعهد إلى الرّفاق الأربعة في عفرين\حلب وهم:(رشيد حمو، محمد علي خوجة، خليل محمد، شوكت حنّان) القيام بمهام المكتب السياسي للحزب.

التنظيمات الكرديّة التي انضمت للحزب من التنظيمات النّشطة التي كانت لاتزال تعمل بجد حسب إمكاناتها في ساحة الجزيرة جمعية وحدة الشّباب الديمقراطيين الكُرد، التي أسّستها مجموعة من المثقفين وأصبح لها أعضاء في مختلف مناطق الجزيرة، فقد تمّ التواصل معهم بهدف ضمّهم إلى صفوف الحزب، وقام بهذه المهمة حمزة نويران و سعد الله إيبو، يساعدهم الشيخ محمد عيسى، فكانت تجري النقاشات في بيت الشيخ محمد عيسى الكائن في حي قدور بيك في قامشلو، وقد لعب جلال الطالباني (الذي كان لاجئاً في سوريا) والدكتور أحمد نافذ دوراً هاما في إقناع قياديي الجمعية بالانضمام إلى الحزب لما في ذلك مصلحة للشعب الكردي، لتوحيد القدرات وتوظيفها لخدمة القضيّة الكرديّة في غربي كردستان، فبعد حوارات بين الطرفين، وافقت قيادة الجمعية الانضمام كاملاً إلى الحزب دون قيد أو شرط، وأخذ كلٌّ منهم (أي أعضاء الجمعية) مكانه بما يناسبه ضمن هيئات الحزب.

أمّا عن كتلة آزادي (وهذا ماذُكر في بعض المراجع بحزب آزادي)، الذين تركوا صفوف الحزب الشيوعي السّوري في أواخر عام ١٩٥٧م وهم:(الشاعر جكرخوين، محمد فخري، زبير حسن، مجيد حاجو، عثمان عثمان، بشير ملّا صبري وملّا شيخ موس قرقاوي، ملّا شيخي) نتيجة خلافات ذكرناها سابقاً، نتيجة الاتصالات والمناقشات والحوار التي دامت أشهر، قرّرت القيادة والأعضاء حلّ الكتلة وانضمام أكثريّة الأعضاء إلى الحزب الديمقراطي دون شروط، فقررت اللّجنة المركزية للحزب ضم الشاعر جكرخوين إلى عضويتها وتنظيم بقيّة الرّفاق في مواقع تناسبهم وإمكانياتهم، وعن أعضاء جمعية المعرفة والتعاون الكرديّة، التي أسّسها نوري ديرسمي في حلب، فقد تمّ التواصل معهم ومحاولة إقناعهم بالانضمام إلى صفوف الحزب، لكنّهم أبوا أنْ ينضّموا إلى الحزب وبقيت الجمعية في نشاطها لفترة، وبذلك دخلت الحركة الوطنية مرحلة التنظيم السياسي، وأصبح للحزب قاعدة جماهيرية واسعة تبدأ من عفرين وحلب ودمشق وتنتهي بمناطق الجزيرة يقودها شخصيات مثقفة وطنية أكفاء.

الإخوان المسلمين في السودان، وعلاقته بمصر



الدكتور -شهاب الدين عباس

نشأت حركة الإخوان المسلمين بطلب من الماسونية العالمية عام 1928 بقيادة حسن البنا، وكان الهدف القريب هو ضرب حركات التحرر في حينها داخل الأقطار المسلمة عن طريق تقسيمها وتفتيتها من الداخل، وأيضاً التغلغل داخل المجتمع عن طريق الجمعيات الخيرية. وكان حينها المجتمع المصري فلاحياً وبسيطاً، وبالتالي استغل الإخوان العوز المادي وأدخلوا شرائح كبيرة منهم في الجماعة.

نشأت حركة الإخوان المسلمين بطلب من الماسونية العالمية عام ١٩٢٨ بقيادة حسن البنا، وكان الهدف القريب هو ضرب حركات التحرر في حينها داخل الأقطار المسلمة عن طريق تقسيمها وتفتيتها من الداخل، وأيضاً التغلغل داخل المجتمع عن طريق الجمعيات الخيرية. وكان حينها المجتمع المصري فلاحياً وبسيطاً، وبالتالي استغل الإخوان العوز المادي وأدخلوا شرائح كبيرة منهم في الجماعة.

كانت تصرف قناة السويس على حركة الإخوان المسلمين حينما كان تحت الانتداب البريطاني الفرنسي اللذين يديران أموال القناة عبر بنوكهما المركزيين واللتين تتبعان للصهيونية العالمية.

وفي عام ١٩٤٩ حضر وفد من الإخوان إلى السودان بقيادة جمال الدين السنهوري ومعه عدد من الطلاب السودانيين الدارسين بالجامعات المصرية، وعقدوا اجتماعات كثيرة وندوات للطلاب الدارسين بالسودان وبدأت تتشكل النواة الأولى للإخوان بالسودان في الأربعينات من القرن الماضي.

وبما أن الشعب السوداني بعضهم من ينتهج الصوفية كنتاج الثورة المهدية، والآخر معتدل في دينه، وبعضهم لا يعرف عن دينه إلا القليل، فوجد الإخوان بيئة خصبه لينشروا دعوتهم وسط هذا الشعب. وبالرغم من ذلك لم يفز أحد من أعضاء الإخوان المسلمين في الانتخابات في أول انتخابات للديمقراطية الأولى، لأن الشعب يعتقد أنهم دعوويون وليسوا سياسيين.

ولا علم للمواطن السوداني بأن للإخوان المسلمين أجندات سرية غير معلنة، وهي ارتباط الحركة بالماسونية العالمية، ولا وطن يحده حدود ينتمون إليه كما هو الحال للماسونية، بل كان همهم الوصول للسلطة وتقسيم المجتمع وتدمير بنيته الاقتصادية وإضعاف الدولة ليكون كل الشعب تابعاً لهم، وحينها يسهل عملهم في تنفيذ المهمة التي من أجلها تم تأسيس هذا الكيان الإخواني.

وفي عام ١٩٥٤ عقد أول مؤتمر للإخوان في السودان والذي انفصلوا فيه عن مصر باسم الحركة الإسلامية السودانية، وكانت إصلاحية تربوية. ولكن استطاع الترابي أن يخلق تجديداً في جسم الإخوان حتى يأخذ طابعاً سياسياً. وكان يهدف الترابي الوصول للسلطة بكل السبل باستخدام الديمقراطية أو استعمال الجيش، وهذا أول تمرد لنهج الإخوان المسلمين ذي الصبغة الدينية البحتة للصبغة السياسية الليبرالية حيناً أو الشمولية حيناً آخر.

وهذا التخبط لعدم بلورة فكرة أو إيديولوجية متكاملة لهم لكيفية إدارة الدولة ومن أي منظور فكري، فانفصل منهم الترابي الذي

”وفي عام ١٩٥٤ عقد أول مؤتمر للإخوان في السودان والذي انفصلوا فيه عن مصر باسم الحركة الإسلامية السودانية، وكانت إصلاحية تربوية. ولكن استطاع الترابي أن يخلق تجديداً في جسم الإخوان حتى يأخذ طابعاً سياسيّاً. وكان يهدف الترابي الوصول للسلطة بكل السبل باستخدام الديمقراطية أو استعمال الجيش، وهذا أول تمرد لنهج الإخوان المسلمين ذي الصبغة الدينية البحتة للصبغة السياسية الليبرالية حيناً أو الشمولية حيناً آخر.“

يحمل رؤية متفتحة نتاج دراسته في السوربون.

وأيضا لها أبعاد ماسونية في الحصول لهذا المقعد الدراسي وهو ابن أسرة فقيره في الجزيرة بالسودان، ليشكل جبهة الميثاق ويخوض بها الانتخابات الديمقراطية الثانية في السودان عام ١٩٦٨ أما الصادقون في دينهم والذين يعتبرون بأن حركة الإخوان المسلمين حركة دينيه توحيدية تربوية ودعوية تمسكوا بحركتهم كالصادق عبد الماجد والحبر نور الدائم وعلي جاويش، والذي أصبح أمين عام الإخوان المسلمين، وكان هذا الانقسام حاداً جدا لدرجة كفر البعض الترابي وامتنعوا عن الصلاة خلفه.

وفي عام ١٩٧٩ دخل الإخوان في تحالف مع العسكري جعفر نميري الذي قام بانقلاب عسكري عام ١٩٦٩ واستطاع الإخوان بقيادة الترابي التغلغل وسط الجيش والأمن والخدمة المدنية، وتمكّنوا من الاقتصاد وفرضوا الشريعة تكتيكاً وليس إيمانا، فقاموا بقطع الرؤوس والأرجل وخلقوا خوفاً وسط الشعب لأن بعض القضايا تكون كيدية والأخرى لتصفية الخصوم وغيرها من السلوكيات التي لا تشبه هذا الشعب ذا الطابع الخاص في نسيجه الاجتماعي.

هذا التذمر المجتمعي من فوضى التطبيق الخاطئ للشريعة والتفكك الاجتماعي والتدهور الاقتصادي كان سببا كفيلاً في إسقاط الرئيس نميري الذي تآمر عليه الإخوان المسلمين بقيادة الترابي من الداخل ليمهدوا لانقلاب عسكري إخواني، إلّا أنّ الشعب السوداني كان سباقاً في حراكه عام ١٩٨٥ ليسقط الرئيس نميري ويأتي بديمقراطية ثالثه ١٩٨٦

وفي عام ١٩٨٦ وفي عهد الديمقراطية الثالثة كان اسم حزبه الجبهة الإسلامية القومية حتى يمحو آثار ما فعله في عهد العسكر من أدمغة الشعب، ولكنه أخفق،

وفي عام ١٩٨٩ تم تغيير اسم الحزب للإنقاذ، ومن ثم المؤتمر الوطني الذي يضم الإخوان المسلمين جناح الترابي وبعض العسكر والانتهازيين من الحزب الاشتراكي الماوي الذي أسّسه الدكتاتور جعفر نميري، ونجح الانقلاب بعد خداع الشعب الذي أوهم بأنهم مجموعة ضباط أحرار، فقام بتأييده ولكن فوجئ الشعب بأنهم إخوان مسلمون في زي عسكري.

فذاكرة الشعوب قوية، ولم يحرز حينها إلا أصوات قليلة، وكان في المرتبة الثالثة وهذا لم يرضِ طموح الترابي وأهدافه للوصول للسلطة، فاستخدموا الاقتصاد لنخر عظام الديمقراطية وضيقوا الخناق على الشعب بتجفيف الأسواق لأنهم يملكون الاقتصاد جراء تحالفهم مع العسكر عام ١٩٧٩ وكان كل ذلك تمهيداً لتنفيذ مخطط الانقلاب على السلطة الذي خطط له منذ ١٩٨٥

وفعلاً أحدثوا الانقلاب العسكري عام ١٩٨٩ لتكون بداية الحكم الشمولي للإخوان.

وفي عام ١٩٨٩ تم تغيير اسم الحزب للإنقاذ، ومن ثم المؤتمر الوطني الذي يضم الإخوان المسلمين جناح الترابي وبعض العسكر والانتهازيين من الحزب الاشتراكي الماوي الذي أسّسه الدكتاتور جعفر نميري، ونجح الانقلاب بعد خداع الشعب الذي أوهم بأنهم مجموعة ضباط أحرار، فقام بتأييده ولكن فوجئ الشعب بأنهم إخوان

مسلمون في زي عسكري.

قام المؤتمر الوطني بإبعاد ذوي -الخبرات في الخدمة المدنية وتشريد الموظفين والأسر بحجة التمكين والولاء فقط للإخوان، فقاموا بتهميش الشباب وقتل المعارضين من الضباط في رمضان وخلق حروب أهليه في دارفور وجبال النوبة والأنقسنا وشرق السودان نتاج ضربهم للنسيج الاجتماعي من خلال تعميق القبلية بنظريه فرق تسد وأيضا قاموا بإبادة جماعية في دارفور وجبال النوبة، وأصبحت هوية المؤتمر الوطني محل الهوية الوطنية، وخولت حقوق المواطن الدستورية بالانتماء للإخوان

أثار فشل دولة الإخوان المسلمين الأولى والأخيرة في السودان:

1- انهيار العملة السودانية حتّى أصبحت بلا قيمة أمام العملات الأجنبية.

2- انهيار كامل لمؤسسات الدولة بسبب تشريد الخبرات، وسياسة التمكين بالولاء للإخوان.

3- فقدان السودان لهويته الوطنية وسيادته بسبب الفكرة الأممية للإخوان.

4- تفكيك النسيج الاجتماعي عن طريق تعميق القبلية والانقسامات المذهبية.

5- استشراء الفساد المالي والاجتماعي وسط رجال الدولة، وسوء الإدارة أدى إلى انهيار الدولة.

6- الحروب الأهلية وضعف الدولة والشعارات التي يرفعها الإخوان للمتاجرة بها، أدّى إلى الانفصال جنوب السودان، وكادت أن تؤدي إلى انفصال أجزاء أخرى في السودان.

7- حل الجيش السوداني واستبداله بالمليشيات وقوات نظامية تتبع لها.

8- العلاقات الخارجية معدومة، حيث أصبح السودان معزولاً دولياً، وفي حالة خصومة مع الجميع.

9- باعتبار الإخوان حركة أممية، كانت ترتبط بالشخصيات الإرهابية كابن لادن والظواهري ومع الحركات الجهادية الأخرى، مما أوقع السودان داخل قائمة الدول الراعية للإرهاب. وغيرها الكثير لا مجال لذكرها هنا.

والجدير بالذكر أن الترابي غير اسم حركته للمؤتمر الشعبي بعد الانفصال العضوي وليس الفكري.

من الملاحظ في تاريخ الإخوان في السودان، كثرة الانقسامات نتاج الخلافات الداخلية التي لا تقبل الحوار أو النقد، وأيضاً تغيير الاسم في مرحلة من مراحل ممارسة الحزب لنشاطه السياسي لعدم تقبّل الشارع السوداني لهم في كل تلك المراحل، ممّا يدفعون باسم جديد آملين أن ينسى الشعب الاسم القديم ويتقبل وضعهم الجديد. ولكن ذاكرة الشعوب قوية والتي أحدثت ثورة ديسمبر بعد ثلاثين عاماً من حكم الإخوان مصحوب بالدمار والقتل والتمكين والتهميش والفقر والقهر والاستعلاء.

وفي ١٩ ديسمبر استطاع الشعب السوداني انتزاع الإخوان نهائياً من ممارسة العمل السياسي وأصبح مكروهاً في أوساط الشعب السوداني الذي قام بثورته التي لم يشهد لها مثيل في تاريخ البشرية من سلميتها وشعارها وأهدافها الوطنية، فأسقطوا ذلك المشروع الفاسد والفاقد للهوية والبرنامج فهاجروا لمصر ليلتحقوا بإخوانهم المصريين ليعيدوا ترتيبهم من جديد وأيضا تركياً الأردوغانية الإخوانية.



الشرق الأوسط الديمقراطي

نَجَحَ التيارُ السُّنِّيُّ العربيُّ كإسلامٍ مضادٍّ في إخراجِ العربِ من حالةِ مجموعاتٍ قَبَلِيَّةٍ متناثرة، والانتقالِ بهم إلى حالةِ القوم (القوم النجيب). كما حَمَلَ معه دوماً نزعةً قَبَلِيَّةً شوفينيةً ومهيمنة. أي أنه كان ضرباً من شكلِ الفاشيةِ البدئيةِ للإسلاموية. والقوى الراديكاليةُ للإسلامويةِ اليمينيةِ الراهنة (الإسلامُ السَّلَفِيُّ المعاصر) تؤيّدُ هذه الحقيقة. هذا وطالَما شوهِدت حوداث مماثلةٌ في المسيحيةِ والموسويةِ أيضاً. لقد كان الإسلامُ العربيُّ أمام خياراتٍ تاريخيةٍ لدى استيلائِه على احتكاراتِ السلطةِ السياسيةِ للمدنية. فكانت الفتوحاتُ العسكريةُ الخَيارَ الأول. وهي تَرتكزُ إلى إحكامِ القبضةِ على التراكماتِ الاجتماعيةِ لرُؤيَتِها إياها غنيمة. وقد كان موضوعُ الغنيمةِ رائجاً بما فيه الكفاية في تلك الفترةِ ضمن مجتمعِ الشرقِ الأوسط. إذ كانت تُجبى الضرائبُ وتُؤخَذُ الجِزياتُ المتثاقلةُ على التوالي من المسيحيين والموسويين والشرائحِ الأخرى المسماةِ بالكُفّار، وكان يُلجَأ إلى "الغنائم" بالسَّطوِ على التراكماتِ الاجتماعية أثناءَ الحرب

فصلية فكرية تحليلية حرة تعنى بشؤون الشرق الأوسط

رقم الاعتماد

لدى نقابة الصحفين العراقيين 148

رقم الإيداع

دار الكتب و الوثائق في بغداد 868 لسنة 2005

لدى وزارة الثقافة المصرية

دار الكتب و الوثائق في القاهرة

رقم 24217